

[illegible]

Princeton University Library



32101 080195512

علي محمود الشيوخ علي

آراء
في القضية العربية
وذكرات عنها

الجزء الاول

المقدمة

٥٦٥٢

على محمود الشيخ علي

al-Shaykh 'Alī, 'Alī Mahmūd

آراء

في القضيّة العربيّة

وذكريات عنها

Ārā' fī al-qadīyah al-'Arabīyah

الجزء الأول

المقدمة

(RECAP)

2274
.876564
589
.312

v.1

اهداء

الى اللذين في سبيل الحق والمجد
هروا بأهداهم الى الارض
وصهروا بارواحهم الى السماء
فطافوا فيها كالنجوم تستأنس
بنورها المروءة والعزة القومية

1845

1. The first part of the
book is devoted to a
general history of the
country from the
first settlement to the
present time.

مقدمة المقدمة !

دونت هذه الآراء والذكريات في سجن أبي غريب بعد ان صدر الحكم علي بالسجن سبع سنوات لاشتراكي في وزارة نخامة الكيلاني الأخيرة. ولم اكن اتوقع انها سوف يتألف منها كتاب ضخم ذو اربعة اجزاء ، تكون مقدمته جزءاً قائماً بذاته لقد كنت اظن ان السجن يكون ضيق الصدر برماً بالحياة نفوراً من الاجهاد الفكري إذ لم اكن اجرب بعد الحياة في السجن المنفرد . صحيح ان حياتي كانت سلسلة من الملاحقات والمطاردات ، وصحيح اني اوقفت غير مرة ، ونفيت . ولكني كنت اوقف مع زملاء وانفى مع اصدقاء وكانت المخالطة والمباشرة تلهياني كثيراً عن التفكير والتأمل ولكني حين القيت في غيابة هذا السجن الرهيب كنت في اول الامر مع زميل عزيز ، ثم لم يلبث ان ادركه المرض فنقل الى مستشفى السجن المركزي ولم يعد الي إلا بعد ان تعصر عامان ونصف العام وإلا بعد ان هبطت علينا القافلة الثانية من الرقاق ليلاقوا عين المعير الذي لقيناه قبلهم . واقد كانت بناية السجن ، واسعة عايينا ، فضفاضة الرداء . نشعر منها الوحشة ، وتسقزل علينا الرهبة . وكان ضرورياً لنا ان نصرف اذهاننا الى مجالات روحية نفسينا وحشقتنا ، وتندراً عن نفوسنا الرهبة . فخرينا حظنا في القراءة ، والاستغراق في القراءة ولكننا وجدنا ان القراءة وحدها لا تكفي . فهتف لنا الخاطر ، بأن نكتب ، لأن الكتابة تشغل الفكر ، وتصرف الهم . ولكن في اي موضوع اكتب ؟ . هذا ما شغلني طوال يومين اثنين . ثم أستقر رأيي على ان اكتب مذكرياتي منذ غادرنا بغداد في ٣٠ مايس سنة ١٩٤١ الى طهران عاصمة الجارة ايران الى اليوم الذي تقرر فيه ان نكون ضيوفاً ثقلاء على هذا السجن لمدة طويلة . وما كدت أنتهي منها

-وقد تكون منها جزء يضارع هذه المقدمة في ضخامته -حتى جاء النذير بأن
يتقل صاحبي الى مستشفى السجن المركزي وبقيت وحيداً أصول واحول
في القاعة المستطيلة لا شريك لي فيها غير الحمام والعصافير . قرأت ما دونته
فراقني ما دونت فطلبت من قاسي المزيد ، ومن فكري المدد . وكنت آنذاك قد
لفت الوحدة وعشرة الحمام والعصافير ، الاولى تشدو فيشجيني شدوها والاخرى
تفرد فيطربني منها التفريد . وعلى الحان هذه الطيور الجميلة البريئة وتغريدها
كنت اسكب روحي . واصب وجداني على صفحات القرطاس لاقدمها هدية
الى الجيل العربي الجديد علامة حب ، وشارة ولاء . فجرى بي القلم في ميادين
الثورة العربية ، وظل يحري بي غير راحم بشيبي ، ولا مشفق على فؤادي الذي
عصرته نوايب الدهر عصراً . وما ان طلع العام الجديد ، عام ١٩٤٣م ألا وترك لي في
غرفتي المظلمة اجزاء اربعة . احدها هذا الجزء الذي يحده القاري . بين يديه .
وان هذا الجزء . وان كان يتناول اغراضاً شتى وينطوي على بحوث عامة مختلفة ،
فان اغراضه وبحوثه لذات صلة كبرى بالاجزاء الثلاثة الاخرى وبتعبير اصح
انها لذات صلة كبرى بالوطن العربي العتيق وقضيته المقدسة . واما الجزء الثاني
فانه يبحث عوامل الثورة العربية الكبرى ونتائجها والثالث والرابع فانها
يتناولان القضية العراقية ، كنتيجة من نتائج الثورة العربية الكبرى

وبعد ان اكتمل هذا القدر ، من الاجزاء نفست عن نفسي ، وارخيت
لها في حبل الراحة . وبدأت أقضي الوقت تارة بالتأملات وأخرى بقراءة
بعض الكتب التي كانت تعملني بعد ان تقلب صفحاتها وتفقدش متونها .
وقضيت على هذا النمط العام باكماله . وفي مطلع عام ١٩٤٤م قدمت القافلة الثانية
من الاخوان ، التي جاء ذكرها آنفاً فبدأت الاختلاط والمعاشرة مع الاناسي ،
ولسكني لم انس ابدأ فضل تلك الطيور البريئة . وفي هذه الاونة شعرت برد
فعل عنيف لتلك البطالة التي استغرقت عاماً كاملاً فنازعني نفسي الى الكتابة من جديد
وبدأت ادون مذكرياتي عما يقع في العالم من احداث سيما ما يتصل منها بالعالم

العربي بسبب، ولم اغادر بناية السجن في ١٧ حزيران سنة ١٩٤٧ إلا وتسكون منها جزءان آخران .

ولما عدت الى بيتي ، ركنت الى الراحة التامة ، ورغبت نفسي في الاستجمام الخالص . واسكن الاحداث كانت تتعاقب سراعا والعمواقق على البلاد العربية كانت تنهاوي فحزنتي احزانها وآلامها الى ان اكتب سफراً « عن العالم العربي بعد الحرب الكونية الثانية » وهذا السفر لم يفته العمل منه بعد .

غير خاف على اللبيب ان هذه الآراء والذكريات دونتها في السجن ومعنى ذلك اني كنت بعيداً عن مكتبي حين كنت اورد الامثلة والشواهد التي ضمها الكتاب . لذلك كنت مضطراً الى ان اعتمد فيها على الذاكرة ولم يكن في وسعي ان اعين كثيراً من المراجع والمصادر وان كنت اشترت في الحواشي ، على بعضها من دون ذكر لفصول الكتب وصفحاتها . ولما كنت وحيداً كثير التأمل والتفكير ، مطلقاً لنفسي العنان ، ولما كان المكان الذي اكتب فيه يغشاها الهدوء والسكون فقد كانت الآراء تتلاحق والذكريات تتسابق . ولما كان قلبي يقتنصها بسرعة خاطفة وقوة ساحقة فقد كان طبيعياً ان يطراً على تساوق هذه الآراء والذكريات شي . من الاضطراب . ولما عزمت على نشر هذه الآراء والذكريات في الناس ابقيت على هذين النقصين متعمداً ، ابقيت عليهما متعمداً لاني وددت ان اعرضها كما جاءت واطهرها كما دونت من دون ان تمسها يد التجميل والتزييق ، لانها خيال روحي ، وطيف وجداني ، وصورة نفسي الطليقة ، حين كان يعقل جسدها سجين رهيب وابقيت عليهما متعمداً لاني لا اخص الجمال ، في الصور المتناظرة والاشكال المتساوقة فحسب بل قد يوجد الجمال في غير التناظر والتساوق . بل ان النفوس النائرة ، والارادات العارمة تخص الجمال في الصور غير المتناظرة ، والاشكال غير المتساوقة وتندوق الالم وتستمرى العذاب .

وتعمدت كذلك ان تكون طبعة الكتاب رخيصة ليسكون في متناول

أيدي الجميع ولا في لا ابتغى من وراء نشره ربها ولا ذكراً ، وإنما خدمة خالصة ، لوجه الله والوطن . لقد جربت حظي في الحياة ، في لذائذها ومتعتها ، في آلامها ومتاعها فلم أجد في الأولى ما يغري ولم أجد في الثانية ما يبعث على الأمل ، أو يدفع إلى اليأس والقنوط . هذه هي الحياة . إنها مزيج من اللذة والألم ، والمتعة والنصب . وكلا النوعين ضروري للبشرية ، إذ بدونها لا يكون معنى للحياة . ومن كانت هذه فلسفته في الحياة ، لا يستهويه ربح ، ولا يستفويه ذكر .

ولنعد الآن إلى الآراء والذكريات التي بسطتها في هذا الجزء من الكتاب . إنها آراء عامة ، وذكريات عامة . ولكنها برغم عموميتها ، فإنها أكثر صلة ، بالوطن العربي ، والشعب العربي من غيرهما من المواطنين الشعوب . ذلك لأن أكثرية الأمم الغربية ، كانت يد الإصلاح قد عملت فيها منذ عهد بعيد . ولكن الشعب العربي لم يزل يحب في ميادين العلم والمعرفة ، ولم يزل طفلاً في مجالات التنظيم والتكوين . ولعل أموراً أربعة تسترعي انتباه القارئ في هذا الجزء . أولها نقدي العنيف للسياسة البريطانية الاستعمارية . أما عن هذا الأمر فليس الذنب ذنب . إنني لم أصنع تاريخ بريطانيا الاستعماري ، وإنما هي التي صنعته بأعمالها ، وبسياستها . وإنما أكون ملوماً إذا تجاوزت في وصف الاستعمار البريطاني ، القصد ، وغاليت في قلب حقيقته وتجنبت في تفسير مبادئه وأغراضه . وإذا كنت الأم فقد يجوز أن الأم لصراحتي في القول ، وأفاضتي في البيان . وإن لوماً كهذا ، لأنقبله بنفس مطمئنة وقلب شجاع . على أنه يلزم لي أن أصرح للجميع - كما سبق لي أن صرحت مراراً - أن ما أراه في السياسة البريطانية الاستعمارية ، ليس ناشئاً عن هوى وعاطفة ، ولا منبعثاً عن حقد وضمينة . إنني أت

التاريخ الانكليزي ، في الجزيرة الانكليزية ، فعمجت به أيما إعجاب ، سيما

تقدّيس الشعب البريطاني للحرية الفكرية التي هي اسمى الحريات ، وحبه للعدل ونفوره من الظلم . واني قرأت التاريخ الانكليزي في المستعمرات والممتلكات الانكليزية فتملكني الذعر ، واخذني الدوار . وشهدت مصرع قومي في مختلف اقطار الهلال الخصيب ، وعلى ضفتي النيل على يد الانكليز فانخلع قلبي وتقرحت كبدي . وبعد كل ما قرأت ، وبعد كل ما شهدت فلا يفتقر الناس مني ان اكون منافقا لشعب له نفوذ في الوطن العربي ، ومنافقا لسياسة ارهقت الشعب العربي ارهاقا . لذلك فان رأئي في السياسة البريطانية الاستعمارية ليس وليد هوى وعاطفة وانما هو رأي يستند الى الواقع وحقائق التاريخ . وان رأئي لم يكن منبعثا عن حقد وضمينة لاني صريح . والصراحة والحقد ضدان لا يجتمعان .

واما الأمر الثاني فانه يخص يبحث التكوين السياسي . ان هذا البحث ، وما ورد فيه من آراء فهو يتعلق بالشعوب الحرة المالكّة لسيادتها الوطنية . اما الشعوب المحتلة مما لكها بالقوات الاجنبية ، أو الشعوب التي يسيطر عليها نفوذ اجنبي قاهر ، فلا يصح ان تطبق فيها الآراء التي ورد ذكرها في هذا البحث والحق ، ان شعوبا كهذه يكون اول واجب من واجباتها ، العمل في تحرير نفسها وانقاذ سيادتها . فالآراء المبسوطة تكون مثبّطة لدعائم السيادة ، ومنمية للروح التقدمية بعد الخلاص من نير العبودية . وأما الأمر الثالث فهو عيس التكوين الدولي . صحيح ان الانسانية لم تبلغ بعد درجة الكمال حتي تقيم عليها سلطة قانونية واحدة تشرف على الصلات بين الامم والدول ولكن يجوز ان يتحقق شيء كثير من هذه الآراء لو خلصت النيات ، وصفت السرائر على ان هذه الآراء كانت تلوح في آفاق الفكر ، حين كان المعسكران المتحاربان ، يسرقان في الوعود الخلابه ، وفيهضات في اظهار الآمال والاماني التي كانا يزعمان انها سوف بقيان على اسمها دائما افضل .

واما الامر الرابع فهو يدور حول ، الخلق العربي ، صحيح اني نقدت
 هذا الخلق نقدا عنيفا ولكن مع عنفي في النقد لم ابلغ الغاية ، ولم اصل
 الهدف . انه جدير بأكثر من هذا النقد ، وحرى بأشد منه . ولقد آن لفكري
 العرب ، وساستهم ، وقادتهم ان يتصارعوا في القول ، ويتكاشفوا في الرأي
 لايجاد دواء عاجل ، لشفاء الشعب العربي من هذه العلة . ان هذه العلة الخطيرة
 التي اسقمت الشعب واضنته طوال عهوده ، الى يومنا هذا ، يجب ان تزول
 ولو بمسحر ساحر . اننا اليوم على مفترق الطريق فأما اتحاد يعيد الينا الحياة ،
 واما تفرق يلقي بنا الى الهاوية . والجراح الماهر ، هو الذي يستأصل الداء من
 مكانه من دون ان تأخذه الرجفة ، وينفذ الى قلبه الخوف بل من دون ان
 تتقلب عليه الرأفة والشفقة . على اني في الاجزاء الثلاثة الاخرى كنت اكثر
 صراحة ووضح بيانا . فقد بحثت الثورة العربية ، ولسكني بحثها بروح
 غير الروح التي بحمها بها مؤرخوها وب عقلية غير عقابية من اشترك فيها وخاض
 غمارها ثم استسلم الى نتائجها اما رغبة في مال وجاه واما رهبة من اذى وعقاب .
 ان بحثي للثورة العربية ونتائجها لم يكن قصة . لاني لا اجيد فن القصة
 ولا املك اسبابها وموادها واني لم ابحت تاريخ الثورة لان تاريخها قد
 كتب . كتبه المغرضون ، وكتبه المخلصون . وان الحصيف الكيس هو
 الذي في وسعه ان يلتقط الحقائق المتناثرة فيما كتبه المغرضون وفيما كتبه
 المخلصون المتطرفون ، ويمزجها بالحقائق التي اهتمدى اليها هو ، بعد البحث
 الهادى ، والدراسة الرصينة ثم يعمل فيها رأيه ، ويبدى مقترحه . اني خلصت
 بنتيجتين اثنتين ان الثورة العربية كانت مشروعة لان العوامل التي ادت اليها
 كانت تبرر قدح زنها ، واضرام نارها ، وان اكتنفت تطوراتها اخطاء ،
 وسقطات كما سوف يراها القارىء في الجزء الثاني عند نشره ان شاء الله . وان
 الثورة برغم مشروعية فانها لم تكن موفقة بالنظر الى نتائجها واما اسباب عدم
 التوفيق فلا محل لذكرها هنا ، لانها بسطت بتفصيل في الاجزاء الثلاثة التالية

وإذا كان العرب لم ينجنوا من ثورتهم غير السكوارث والمحن فهل لهم ان يستسلموا ليستروا فشلهم بتكليفهم الكذب على التاريخ وعلى انفسهم ؟
انه لمن الخيانة للقضية العربية ، وانه لمن القدر بالفكرة الوطنية ، ان نماري في الحق ، وان نتكلف الكذب ، اشباعا لغرورنا ، وسترا لفسلنا فنقول ان العرب نالوا شيئا من ثورتهم . او انه وان لم يكن كل ما كانوا يطمحون اليه فقد اصابوا نصيبا منه ، بل نصيبا كبيرا . ان مثل هذا القول ، يضر بالقضية . ان مثل هذا الادعاء ، يورث الفكرة علة وسقما . وكيف نزع من مثل هذا الزعم والامثلة المادية ماثلة امامنا ؟ لقد كنا في العهد العثماني ، امة متماسكة متواصلة فيما بينها كانت تجمعنا راية واحدة ، وتحكمنا امة هي منا ، بل تحترمنا احتراما خاصا لاسباب دينية . وكانت القوانين والانظمة واحدة ، ووسائل الثقافة واحدة . كنا لا نعرف حدودا بين افكارنا ، ولا سياسات اقليمية تفرق فيما بيننا كانت خيرات بلادنا في بلادنا ولا بناؤها والخيرات التي كانت تحتفظ بها بطن بلادنا من مواد خام او آثار عتيقة او ما الى ذلك من الخيرات كانت ملكنا لا ينازعنا فيها منازع ولا ينافسنا عليها منافس . كنا اذا اردنا ان نقاوم دولة رأينا في تصرفاتها حيفا علينا ، وهدرا لحقوقنا ، فانما نقاوم دولة واحدة متداعية الاركان ، موشكة على الانهيار فيمعاونة يسيرة يكون الظفر بها والتفوق عليها ميسورا . واسكن هذه الحالات والاضاع انقلبت الى عكسها بعد الثورة فقد اصبح لزاما علينا اذا اردنا الانعتاق من نير العبودية ان نقاوم امبراطوريتين ضخمتين هما الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية وان نقاوم فوق ذلك امبراطورية عالمية ، وهي اليهودية العالمية . هذه اليهودية التي هي اشد دهاءا وكفرا مالا واقوى مكررا وخداعا من فينك الامبراطوريتين الضخمتين . وهذه القوى الثلاث تعجز عن معاولتها ومقارعتها الامة العظيمة المتحدة المتماسكة فكيف بالامة العربية في هذه الايام ، وقد توزعت الى اقطار

وممالك تفصل بين مصالحها المادية الحدود الاصطناعية والسياسات الاقليمية المختلفة وتفصل بين روحياتها ، العقائد المتباينة والقوانين المختلفة والانظمة المتنافذة المتنافرة ؟

ولكن ما معنى هذا الاعتراف الصريح ؟ ما معنى قولنا ان الثورة العربية تمخضت عن نتائج أودت بالامة العربية الى الهلكة ، وقادت الى مصير فاجع اصبحت ترى فيه حالتها الاولى التي شكت منها ، واثارت عليها ، اذا لم تكن اكثر رخاء فهي على كل حال اقل شقاء وايسر المأ نما هي فيه اليوم ؟ ما معنى كل ذلك ؟

معنى ذلك ان الاخلاص لقضيتنا وتفكرتنا ، يدعونا الى ان ننثر الحقائق بين ايدي ابنائنا وان كانت مرة . وان نصف لهم الاوضاع على سجيبتها من دون ان نتعمل فيها . وان هذا الاخلاص يدعونا كذلك الى ان نقول الحق وان كان اليأس . وان نتعرف الى اخطائنا وسقطاتنا لتتق امثالها في المستقبل . وبعد كل ذلك لتكون معرفتنا بالامنا وامراضنا والاحطار المحدقة بنا مثيرة لنخوتنا ، مورية لعزائمتنا ، مضاعفة لقوانا ، حافزة لنفوسنا ، ولتكون هادية لنا في كفاحنا ، مشرفة بنا الى الغاية ، ونحن نفعل قوة ، ونصطبغ اقتدارا .

ومعنى ذلك ان حرصنا على سلامتنا يقتضي ان نعلم مواطن الضعف فينا والجهات التي نفذ اليها المرض ، وغزتها جراثيمه . فان اخفاء مواطن الضعف ، والجهات التي غزتها جراثيم المرض ، وعلان الصحة الزائفة واظهار السلامة الكاذبة انما هي تصرفات مبعثها الغرور ومصدرها الجهل ، لا تؤدي الا الى تمكين المرض من صاحبه ، والترخيص له بأن يعيث ما يشاء العيث بالجسد

ومعنى ذلك ان مصالحنا تلزمنا بأن نشعر بالالم ، والمصدر الذي ينبعث منه الالم ، والخطر والمسكان الذي يندفع منه الخطر . لنشد من قوانا لمراجعة الآلام في مواطنها ، والاحطار في اماكنها بل معنى كل ذلك ان نستعمل

قوانا . من هذه الامراض وهذه الآلام وهذه الاخطار فنقيم على انقاضها
صرح كياننا ، ورمز حريتنا .

اجل ! مع واجبنا القومي ان نعلن لآخواننا ، ولأبنائنا ، لأبنائنا
وامهاتنا ، واخواننا واصدقائنا ، ولكل من تظله سماءنا ، ونقله تربة وطننا
اننا مرضاء ، في روحياتنا ، واخلاقنا ، وثقافتنا . واننا متألون . وان مصادر
الآلام متنوعة منها وليدة امراضنا التي ذكرت ومنها وليدة المظالم التي يصيبها
عليها الاجنبي المتحكم في مقدراتنا . واننا في خطر ، وانه محقق بنا وينذرنا
بالويل والثور . من واجبنا القوي ان نعلن لآبناء وطننا وان نشعرهم بالامراض
والآلام والاطار لنستنفذ جميعهم ، ولنستنفذ حيوييتهم ، ونوقظ فيهم
العزائم والمهم للكفاح والاستمساك - ال في الكفاح . فما مثل الامراض
والآلام والاطار حافظا للبوت في سبيل الحياة ، وما مثلها قوة تدفع
بالانسان الى ميادين العظمة والخلود .

ان الامراض والآلام والاطار مصائب تنقض على البشرية وتحتاج
الانسانية وقد يرى فيها ذوو الارادة الضعيفة ، والعزائم الواهنة ، والقلوب
الواجفة الشر متجسدا ، والبلاء جاثما فتتخور عزائمهم ، وتجف قلوبهم وتتخاذل
اراداتهم فيستسلمون . ويرى فيها ذوو الارادات القوية ، والارواح المتمردة
والعزائم الماضية ، خيرا منه يستمدون القوة ، وشعلة منها يقبسون نورهم
الذي يسرون عليه الى ميدان الجلال والجهاد . وفي الحق ان الله عز وجل
- ولا اقول الطبيعة - ارحم بعباده من ان يجعل من الامراض والآلام
والاطار شراً محضاً وبلاء صرفاً

والامراض قد افادت البشرية اكثر مما اضرته واغدت الخير على
الانسانية اكثر مما امسكت عنها سواء تمكنت بالافراد كل منهم على انفراد
او انها تمكنت بالشعوب . فهي لم تبخل بخير ولم تضر بفائدة . ولولا الامراض
لما نضجت عقول جبارة ، وقامت حضارات وزخرت الحياة ببدايعها . ولقد

قال (نقشة) ان المرض هو اول شي هداي سواء السبيل وقال (نوطالس) ان الامراض اهم مادة واقوى دافع لنا على التفكير والعمل فمنها يستطيع الانسان حقاً ان يجنى ثماراً لا حصر لها خصوصاً في الميدان العقلي وفي ميدان الاخلاق والدين ويرى (جوته) ان المرض والضعف الجسماني لازمان عند العباقرة لكي يستطيعوا الاحساس بالوجدانات النادرة ويقدروا على سماع الاصوات السماوية . واذا رأيت كائناً من الكائنات قد امتاز امتيازاً خاصاً فابحث سريعاً عن الناحية التي منها يتألم بحث الفاحص المدقق فستجدها مفتاح كل تكوين وارتقاء وحيث يكون السمو العقلي كبيراً يكون الألم كبيراً ايضاً ..

وفضل المرض على الامم والشعوب لا يقل عن فضله على الافراد الممتارين حيث اثار فيها قوة واندفاعاً وتهيجاً وخلق اعواناً اشداء للنهوض بالحضارة واعلاؤها . والصحة لا قيمة لها ان لم ينضجها المرض ، ويصهرها الألم فلولا الامراض لما كانت تلك العقول الجبارة التي زينت احياء الدنيا بلائها ، عقول جوته وشوبنهاور ونقشه وبيرون وبوت ، وهومبروس والمعري ولما كانت حضارة يونان ، ولا حضارة اوربة ، ولا انقلاب فرنسة الكبير . ذلك لان الامراض تدفع بالانسان الى استجلاء خفايا النفس الانسانية وانفعالاتها ورغباتها وما يسيرها من دوافع وغرائز ويسوقها الى ان تنظر الى الاشياء في برودها ثل . والامراض هي التي تشهر الانسان بالصحة وتحمله على دراسة الحياة وفهم طبيعتها والحياة بحر ذو شاطئين احدهما شاطئ الألم المظلم والاخر شاطئ الشفاء الباهر النور ولا تشعر بلذة الشفاء ، ولا تفتتح نفسك الى النور الباهر ما لم تمر من شاطئ الألم المظلم .

فالامراض مصدر قوة ونشاط لذوي الارادات والعقول الممتازة ، ومصدر حياة وانبعاث للامم التي حبتها الطبيعة باسباب الحياة والانبعاث . ويكفيها خيراً انها العين الثرة والمنبع الذي لا يجف ، للألم . والألم هو قوام الحياة .

وقوة الوجود . وكل ما كان الالم عميقا كان السرور عميقا ، واللذة قوية . تصور انك اخترقت نهاره لانبت فيها ولا ماء ، وليس معك متاع ولا يسايرك صديق اورفيق ، وشعرت بالظما يحرق كبذك ، والجوع يعتصر معدتك وتغلبت بارادتك القوية ، وروحك المندفعة الفتيمة على صعباب الطريق ومها لكه وانتصرت على الظما والجوع والنصب ووصلت الى المكان الذي تريد تتدفق في جنباته الامواه ، وتحف به الجنائن والبساتين فبأ كل هنيئا وتشرب مريئا ، طاي لذة قوية تحس ، وأي سرور عميق تشعر ؟ فلو لم يكن الالم عميقا في نفسك قويا في روحك لما شعرت بعمق السرور ، ولا احسست بقوة اللذة . فالالم اذن يفقد النفس الانسانية . فكما ان الصحة الكاملة هي الصحة التي تأتي بعد المرض كذلك اللذة القوية والسرور العميق ، هما اللذان يعقبان الالم القوي العميق . والامراض والالام اذن هي مصدر قوة ونشاط ، ومنبع فيض وخير لذوي العقلليات المتقازة من بني الانسان ، وللشعوب والامم التي توفرت فيها الخصال والسجايا الكريمة . وقد يتضاعف خير الامراض وفيض الالام ، اذا لازمتها الاخطار . فالاخطار تستدعي المقاومة وتقتضي الخصومة . وكلما كثرت المقاومات واشتدت الخصومات زادت قيمة الحياة واصبحت اكثر خصبا واوفر ثروة . واندفعت الارادة الى ميدان الكفاح قوية متينة ذلك لان كل خطر كبير يستثير حينا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة وبنسبة ما في ارادتنا من مضاء ومتانة . لذلك قال نيتشه بحق . كي تبجن من الوجود اعظم الثمار وتنعم منه باسمى ما فيه عش في خطر ! . . .

لكل ذلك كان واجبنا القومي يفرض علينا ان نكشف لاءنا ووطننا عن الامنا ، وامراضنا ، والاخطار المحدقة بنا ولا نستتر عنهم شيئا منها لنخلق فيهم ارادة القوة ، او قوة الارادة التي يحتاج اليها ميدان الكفاح والقتال ، ونفتقر اليها المقاومات القوية والخصامات الشديدة التي تفتظرنا .

لا خيبة في هذا الوجود ، ولا يأس . ما دامت هناك ارادة . ان الحياة ارادة . وان جوهر الوجود كله هو الارادة . وان هذه الارادة تدفع الانسان الى الامام وتخلق له في كل آن رغبات جديدة . وانها لا تعرف شبعاً لنهمها ولا نهاية لمطامعها ولا هوادة لسررتها . فهي في اندفاع دائم ، وفي طلب دائم للمزيد وفي نزوع مستمر الى تجديد قوتها . ولئن كان هو بنهور مصيباً في وصف الارادة واسكنه لم يكن مصيباً حين تملكه اليأس من اندفاعها الدائم ، واعتصر قلبه الم القنوط من نزوعها المستمر في تجديد القوة وطلب المزيد فضواء نوع من القشائم حين راح يطلب للحياة غاية ، هي الفناء ، وللوجود نهاية هو العدم !.. فالارادة في قوة وفي حياة ابدية . والارادة ما دامت في قوة وفي حياة ، يجب ان تعمل بقوة وحيوية .

علينا ان نشعر بامراضنا ، وان نشعر بالمها العميق ، واخطارها المهلكة . علينا ان نشعر بان هذه الامراض منها ما هو منا مصدره ، ومن وسطنا منبعه ، من الانظمة والقوانين التي تضعف ارواحنا ، وتوهن من عزائمنا وتضعف من شأننا ، من الرجال الذين مالوا الاجنبي على الوطن ، وعاونوه على تفجير ابنائهم ، وتشتيت احراره ، وتقتيل ابطاله وحماه ، من السياسة الاقليمية ، والاراء الشعبوية التي تبت في الاوساط ، وتنفذ الى البيوت والى دور الثقافة والتعليم ، ومنها ما هو خارج عن وسطنا ، ومحيط بمرکزنا ، من القوى الاجنبية الجاثمة على صدورنا ، المتعاونة فيما بينها على ابادتنا وافنائنا . علينا ان نشعر بكل هذه الامراض والالام والاطار لتأهب لمقاواتها ، ونهي انفسنا لمصاوتها ، ولنم في ارادتنا القوة الخارقة التي تخترق بنا هذه الظلمة الحالكه ، ولنعبر بنا كل هذه الشباك والحفر والاخاديد لنصل الى السهل ، والى عالم الحياة الذي يطفح بالنور ويمور بالمسرات . اننا الان كمن تحطمت بهم سفينتهم في وسط بحر متراكب الاذي ومن بعيد يترآ اي خيط من النور هو الساحل . فان هدأنا هبطنا الى قاعه ، واحموتنا قراره . وان تحررنا كان

في حر كتنا الخلاص ان تخاذلت ارادتنا ، واستسلمنا لقوى الطبيعة اكلفنا الطبيعة وهصرتنا قواها ، وان غالبنا الطبيعة وسحت ارادتنا على قوتها نجونا . فالحياة تشير اليها بينما انها الاحمر المنضب بالدم ، وتومي اليها بمنديلها الابيض الناصع البياض . فعلينا ان نسمو بارادتنا على نفوسنا ، وان نتغلب بقوتنا على ضعفنا انقذف بانفسنا الى احضان الحياة . فالى الساحل ، الى نور الحياة يجب ان تنصرف ارادتنا وقوتنا ، وان تتوجه عواطفنا وقلوبنا .

ان جلونا الحقائق رائعة مكشوفة لابناء وطننا فانما تؤدي واجبا فرضته علينا الوطنية الحققة ، والزمننا اياه الاخلاص العميق للوطن . وان حجب الحقائق عن انظار ابناء الشعب انما هو عمل يقوم به الاجانب المتحكمون املا في استمرار تحكمهم ، واطالة عهدهم فهم يصورون لابناء الشعوب المحكومة المرض صيحة ، والالم لذة ، والخطر امنا وسلاما والموت حياة . فلماذا نقبل لانفسنا ان نسايرهم في تضليلهم وفي مكرهم وفي خداعهم ليجرد ان هذه المسائرة تلاقى هوى في افئدتنا ، وتطمئن جانبنا من غرورنا وكبريائنا ، وتسدل ستاراً على فشلنا وخيبتنا ؟ ان الخيبة والفشل ليسا عاراً ، ولا هما نقيصة وانما العار في تضليل الانسان نفسه وهو عالم بهذا التضليل ، وانما النقيصة في مكر الانسان على نفسه وهو شاعر بأنه بنفسه يمكر ولها يخادع . والحياة جدال وصراع ، وكفاح ونزاع ، وفي هذا الميدان قد يفوز بالظفر ، او قد يمتنى بالهزيمة ، وانما المهم فيما ركز في طبعه ، من عناد ، وما ركب في ارادته من قوة . فان كان الطبع متخاذلاً ، والارادة واهية صاحبه الخيبة ورافقه الهزيمة وان كان الطبع حاداً عنيداً ، والارادة قوية غنيمة والنفس ماهرة بالايمان فاز بالظفر وظفر بالامل وان اعتورت طريقه عقبات ، ومسالكة عثرات ، وان اصابته الخيبة والهزيمة مرة او مرات .

١٨ مارس ١٩٥٠

على محمود الشبخ على

لمحات فكر وخطرات نفس !

بعد ان حسم هتلر مسألة السوديت وتغلغل بثقوذه السياسي في جييكوسلوفاكيا وجزأها وفق خططه المرسومة ، وضج النمسة ببلاد الرينخ ، وسائره التوفيق في كل هذه "ضربات القوية ، الحاسمة ، كان مفهومها لذي كل من له مسكة من العقل ، وذرة من التفكير السليم ، ان هذا العبقرى ، الذي يوآنيه السعد ، في كل موقف يقفه ، وفي كل حركة يقوم بها سوف لا يهدأ روعه ولا تسكن نائرتة ما لم يحقق احلام الشعب العظيم الذي يقوده ويرضى مطامحه ومطامعه ، وفي طليعة هذه الاحلام ، والطامح والمطامع ، انهاء قضية الدانزيغ والممر ، لانها بلاد المانية ، والمستعمرات التي استولى عليها .
اللقاء في الحرب الكونية الماضية بعد ان قهرت المانية ، ومتفقوها والقوا السلاح مستسلمين . وليس يعنينا ان نبحث مشروعية مطالب هتلر التي حققها والتي كان مزعما تحقيقها او عدم مشروعيةها ، ولا ان نتعسط في تحديد مدى احلامه ومطامعه ومطامحه لان الاقضية في مثل هذه الامور خارجة عن موضوعنا هذا ، وانما الشيء الذي نريد ان نقرره هو ان هتلر بعد ان تحصل من مشكلتي السوديت وضم النمسة وتقسيم الدولة الجييكوسلوفاكية تقسيما يرضى سياسته رأى الفرصة ملائمة ، ليلتفت الى ما تبقى من اجزاء الوطن الالماني وهو بعيد عن متناول يده . والدانزيغ والممر هما الجزءان اللذان ما انفك هتلر وزملاؤه يعظفون عليهما ، ويحنون اليهما .

ليس من شك في ان هتلر كان يرغب في ان يجمع شتات الوطن الالمانى
عن طريق السياسة والمسالمة ، لا عن طريق القوة والاكراه . وكان يبدى
من وقت الى آخر حلولاً مختلفة وطرقاً متباينة ، تختلف شدة وليناً ، ضمناً
وسخاءً ، ليحصل على مبتغاه . وتدو جدها غير مرة يفوز بتحقيق مطالبه وبالسلم
معا . فلقد استطاع ان ينهي قضية السوديت ، من دون ان يضطر الى
اطلاق رصاصة واحدة ، كما انه فاز بضم النمسة من دون ان يسفك قطرة من
الدم . وكان هذا الفوز الوطنى السلمى ، قد شجعه الى ان يذهب في رغبته
السلمية الى اقصى حدودها في مسألتى الممر وداننغ ، فعرض حلولاً فيها شيء
كثير من السخاء والسكرم . ولو ان بولونيا رضيت باحداها لصلحت على
كيانها واستقلالها ولا نقذت العالم من شرور الحرب الطاحنة التي عانتها
الانسانية وما زالت تعانيها الى هذه الساعة . ولكن أنى لبولونيا ان تفكر
في نفسها وفي الانسانية وشياطين الحرب ، ودعاتها في بريطانية وفرنسة لم
يألوا جهداً في اثارة نخوتها ، واستفزاز وطنيتها وتحريضها على ملازمة التصلب
والعناد ؟ وقد كان العالم ينتظر في اواسط عام ١٩٣٩ اندلاع لهيب الحرب في
كل صباح او مساء وانما كان مما يسرى الهم هو ان موقف روسية لم يكن
معلوماً . ولموقف روسية اثره الفعال في تعجيل الحرب ، او تأخيرها سيما ان
الوفد البريطانى كان يتفاوض مع رجال موسكو والمسؤولين وبتدأ كره .
والسكن الذي جعل الحرب حقيقة واقعة لا مفر منها هو الانساق الروسى
الالمانى الذي فوجئ به العالم ، ودهش له . وهكذا كان . فلم تمر ايام إلا
والجيوش الالمانية تخترق حدود بولونية من عدة نقاط ، وتلا هذا الاختراق
اعلان كل من بريطانيا وفرنسة الحرب على الالمان . وبذلك سجل التاريخ
في صفحاته الدامية ، ان شهر ايلول سنة ١٩٣٩ كان الخمس شهر طلع على العالم منذ
تكوينه الى هذا اليوم

والحرب اذا كانت كارثة يفرق منها الفريقان المتحاربان في المصهور

الحوالي ، فهي في هذا العصر تعتبر كارثة عامة ، تجفل منها الانسانية
وتضطرب لها الامم جمعاء . لان العقل الانساني بقدر ما اعد للانسانية من
خير ، ويسر الامم من متع تشبع الاذواق ، والوجدانات ، والنفوس وبقدر
ما اسبغ على العالم من جمال ساحر ، وبدائع فائنه وجاد عليه بمخترعات مفيدة
وصناعات نفيسة وعلوم وفنون هذبت كثيراً من طباع البشر ، وامزجتهم
وسخرت لهم ما في الطبيعة من عناصر عادت على الحضارة بالخير العميم ، فان
هذا العقل ، قد اعد كذلك من الشر اكثر مما اعد من الخير ، ويسر من
وسائل التخريب والتدمير ، اكثر مما يسر من اسباب الانشاء والتعمير ،
ورفد العالم من ضروب العذاب ، والوان الالم ما تصغر بجانبها ضروب النعيم
ومختلف اسباب الحياة الهائلة

كانت الحروب فيما مضى ، كوارث محلية ، تحتوي سعيها ، اما كن
معينة ، وتبطل بارزائها امم معدودة وتنحصر ويلاتها بمناطق محدودة . وكان
العقل الانساني ، بمجهود يسير او كثير ، يستطيع ان يتغلب على عناصر
التدمير ودعاة الشر . وحتى اذا استمرت الحروب اعواما طويلة ، فأنها لم تكن
تعدى رزاياها الفرقة الذين خاضوا غمارها واكتووا بنارها . اما الاقطار
الاخرى ، والشعوب التي لم يصبها شررها فتبقى سالمة ، مطمئنة الى كيانها
غارقة في نعمائها ، متقلبة في لذائذها . فالحرب الميدية التي دامت اعواما كثيرة
لم ترهق الا الفرس واليونانيين ، وحروب هاينبال عظيم قرطاجنة ، لم
تؤثر الا فيها ، وفي الرومانيين خصماءه وان عمرت اكثر من خمسة عشر عاما ،
وحرب الثلاثين عاما الديقية لم تتجاوز مناطق معينة من اوربة فقط . وحتى
الحروب النابليونية فانها لم تتمد بلاد اوربة وشطرا يسيرا من الشرق فالتجارة لم
تتوقف وطرقها لم تسد والاتصالات الاخرى بين الدول غير المتحاربة لم تنقطع
والمجازر لم تسكن في نطاق واسع ، وضحاياها اذا عدوا فلا يتجاوزون
الآلاف او عشرات الآلاف من الانفس البشرية . ان حروب الاسكندر ،

وحروب الاسلام التي كانت أوسع آفاقا من حروب القرون الماضية لم تشهد من المذابح البشرية ، والتدمير والتخريب غير جزء يسير مما شهدته الحرب الكونية الماضية ، ذلك لأن العقل الانساني قد أعد للمتحاربين الاخيرين اسبابا اشد فتكا ، مما كان قد يسره لهم من قبل . لذلك كانت مفاجأة الحرب الكونية الثانية ، مفاجأة اليمه ، اسكل من في قلبه عطف على الانسانية ، وفي فكره نزوع الى تحقيق الأئاء الانساني .

فأي خير نعمت به الانسانية من هذا العقل ؟

العقل يجتهد ليوفر اسباب الوقاية للجنس البشري من الآفات فيكتشف الجراثيم التي تؤدي بنوعه ، ويخترع اساليب المعالجة ، وانواع الادوية ليدفع عن كيانه ، ولكنه من جهة اخرى يقدم للانسان وسائل القضاء على الانسان . فهو ينزع الى ان يصون الافراد من عادات الاوبئة الفتاكة ، والجراثيم المهلكة ولكنه لا يتردد في ان يزجى الجيوش اللجبة والفيالق المتلاطمة الى مهاوي الموت . وانه يبذل في وسائل البناء والعمران ومن ناحية اخرى يبني المدافع وينشئ الرشاشات والقذائف والدبابات ليذكر بلحظة ما عملت به يد الانسان دهرآ ، ويحطم بساعة ما اقامه الانسان في سنين . وانه يشيد البواخر والطائرات والسيارات لتتفزع الانسان في غدواته وروحاته وفي تجارتها وفي اتصالاته السائرة ولكنه يركب فيها ما يقذف بها وبمن فيها اما الى قاع البحر واما لتتشم على اديم الارض وفي اجواز القضاء . وانه يوجد الكهرباء ليمنح الانسان النور ، والبرق والتلفون لينشط العلاقات البشرية ويكثرها ، والاجهزة اللاسلكية وابدعها الاذاعات اللاسلكية ، ليلهو بافانيتها من يهوى اللهو ، ويرتاح الى اخبارها واحاديثها ، من يتذوق الاخبار والاحاديث ويصغى الى مانهته من نصائح ، وما تقبسط فيه من علوم وفنون من اشربت نفسه حب العلم ، ومالت به الى المعرفة ومع ذلك فقد هدق العقل ، الانسان ايضا الى استعمال الكهرباء في تحريك الآلات الجهنمية ، والبرق والتلفون

والاذاعات اللاسلكية لاثارة الحفائظ ، وتمهيج العواطف ، وبذرايدور الشقاق بين الامم وخلق الفتن والثورات والاضطرابات . وهكذا نجد العقل ، ما اسدى خيراً للانسانية من ناحية إلا وضاعف لها اسباب الشر من نواح متعددة وما تقدم بالفرد خطوة ، إلا واوحى للمجموعات البشرية ان ترجع الى الوراء ميلاً . فبئله مثل من يمنحك دانقاً ليسلك ما تملك جميعه او اذكركه او يعطيك كأساً من الماء لتدفع به ظمأك ، فأسال فيه من السم الزعاف ما يجعل بك الى الهلاك . وبوردك موارد التلف . فأى نعمى هذه التي يجود بها علينا العقل ؟

صحيح ان العقل الانساني قد تكامل ، ووصل الى درجة عالية من النضوج لم يكن ميسوراً له في القرون الماضية ان يسمو اليها بل ان يحلم بها ، ولكن تقدمه الرائع لم يقد الحياة الاجتماعية كثيراً . فالانسان ليس العقل وحده وانما هو عقل وروح فاذا لم تسم الروح ، سمو العقل بقي الانسان على عنجهيته وبربريته . واذا كان العقل لا يعمل لانقاذ الروح من هذه الظلمات التي تسكننفها فكأنه لم يعمل شيئاً . فالتقدم العقلي يجب ان يصحبه تقدم روحي ، ليكون الانسان انساناً . ان النفس الانسانية احق بالرعاية واولى بالعناية ، من المجالات الاخرى التي احاطها العقل برعايته ، واولاها عنايته . فالعقول الكبيرة في الغرب ، قد اوجدت هذه الحضارة الحديثة ولو انها بذات ما يضارع نشاطها ، في المجال الروحي ، او لو انها ترسمت خطى العقل الشرقي وازدافت الى العبقريات التي طوتها ايام الشرق المحجلة عبقريتها ، او جانباً من هذه العبقرية لجاز ان نرى عالماً غير العالم الذي نعيش في اكنافه وايماناً اقل شقاء والمآل ما نقاسيه في ايماننا الحالية . ان الانتاج المادى الذي فاض به العقل الغربي ، او بتعبير آخر ان الحضارة المادية التي ورثت الحضارة الشرقية الروحية قد اودت بكثير مما تعبت في خلقه العقول . وليس بعيداً ان استمر الحال على هذا المنوال ، ان تلقى البشرية

مصرعها وتوسد رمسها في مستقبل قصيرة آجاله ، معدودة اجيالها .
لا ينكر ان رهطاً كبيراً من فلاسفة الغرب وحكّامهم والمتخصصين
منهم في الاخلاقيات وفي علم النفس خاصة قد نهوا الازدهان الى الفراغ الذي
تشكو منه الحضارة الحديثة واشفقوا على الانسانية من ان تلفظ انفاسها في
وسط تسوده هذه النزعة المادية المترعة بالانانية والطمع ، والزهو والغرور ،
والمعبادة كثيرآ عن المباديء الشريفة والسجايا الخاقية الرضوية ، واهابوا
بالرجال المسؤولين في الامم الى ان يشمروا عن ساعد الجد للعمل في سبيل
تهذيب النفوس وترقيق الطباع ، وتشذيب الغرائز وتطهير الضمائر والاذواق
مما هي منغمسة فيه وتقويم الاخلاق تقويماً يقرب الانسان من الانسان
الكامل المنشود . لانهم آمنوا ايماناً مطلقاً بان الشرور التي تبتاع البشرية من
آن لا آخر ، والاثام الاجتماعية التي ترتكب ما هي إلا اثر
الاهمال للارواح والنفوس ، سيما هذه الفتق والثورات ، وهذه
الحروب الدامية التي تذهب فيها الارواح جزافاً ، وتنفق عليها الاموال
بلا حساب ، وما تتركه وراءها من اثار التدمير والخراب والضمك والفساد . فلو
رقت الطباع ، وتهذبت النفوس ، وصفت المرائر مما يجب ان تصفو منه
من انانية وطمع ومكر وخداع ، وحب الاستيلاء على الغير ، واستعباده ،
لنجت الانسانية من كثير من الكوارث التي اصابتها ، وانت تحت كلكها
الطاحن . ولئن كان تهذيب النفوس من هذه الادران لازماً لكل فرد من
افراد الهيئة الاجتماعية فهو لرجال السياسة وقادة الامم الزم . فما هذه الميول التي
تدفع ببني الانسان الى ان يفتك بزمجه ويستعبد الواحد الاخر ، ويستبد به ،
ويسلبه ماله ، ويوطأ ارضه ، ويفقده حريته ، ويفقره ويذله ؟ اليس عارآ على
الانسانية ان يكون الانسان اقل رفقا ببني جنسه من العجائز التي لا يزينها
قل ولا يرققها طبع ولا يجمع شتاها شعور بالتضامن ؟ نرى السباع في
الاجام والذئاب في البراري والقفار والافاعي تذاب في الاحراش وادعة
مع بعضها ولا يؤذي جنس جنسه ولا يقضي نوع على نوعه ، مع ان الانسان

لا يتردد في القضا على اخيه الانسان اذا شام فيه ضعفا ٢٢ او ابصر عنده مالا
او وجده على غير عقيدته او من غير عنصره ٢٣ ولونه . ولماذا يصل العنصر
بالانسان الى درجة انه يرفع عقيرته ويقول .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى

وصوت انسان فكادت اطير ؟ ...

وإذا كنا اغمضنا العين على قذى ، عما انتاب الانسانية من كوارث
وفواجع في الماضي السحيق ، وما اصابها من مذابح ومجازر اما لاسباب
نافمة ، او لنصرة دينية ، او عصبية عنصرية وقلنا انها كانت وليدة الحمية
الجاهلية ، وانرا من نزوات النفوس الجاحمة ، حيث كان العقل طفلا والادراك
غرا ، فما هو العذر في العصور المتأخرة بل في هذه الايام والعقل قد اكتمل
هلاله ، والادراك قد بلغ الحلم ؟ الحق ، ان العقل لا يكفي ان يخلق الانسان
وان وصل الى الذروة من النمو ، ان لم تكن الروح مسيطرة في النمو
ومستوية معه في السمو ، والضعف ، الروحي هو الذي يضرب على
البصائر غشاوة وعلى الابصار غشاوة فتضيع الحقيقة على الناس . ولم يكن
ديوجونيس مسرقا في الشاؤم حين كان يحمل مصباحه في ضوء النهار يفقش
عن الرجل ، الرجل الذي تنير وجدانه الحقيقة وهو بدوره ينير وسطه
بنورها ، ذلك لان مثل هذا الرجل لم يكن قد خلق في وطنه بعد ، حيث
النفوس كندرة ، والضمائر معتمة ، والسرائر قد ران عليها الكلف . وكذلك لم يصيب
رجال الامم وقادتها في العصور المتأخرة شرف الظفر بالحقيقة لانهم لم يسموا
بنفوسهم وبعلموا في ارواحهم برغم نفوسهم العقلية ، وجودة تفكيرهم . فهذا
مؤتمر فينة عام ١٨١٥ الذي ضم جبابرة العقول في القرن التاسع عشر ، ألم
تسمه شخصية مترنيخ وتذب فيها شخصيات المؤتمرين ؟ ألم تطغ نفسه
عليهم وتتركهم يقررون قرارات ، القت اورية خلال ذلك القرن في انون
من الجحيم يرمي باللب المالح والشواظ المبيد ؟ فكم نكرة اثارها تلك القرارات
وكم فتنة خلقتها ودقائق اهاجتها ، وكم امة اغتصبت حريتها ، وتنوسيت كرامتها

وقضى على استقلالها؟ ١. فكان ذلك المؤتمر لم يعقد إلا عطاء نهاية لحروب نابليون وإنما
ليكون مصدر الحروب متسلسلة عديدة استغرقت أكثر من ذلك العصر. والحرب
السبعينية أما كان في مقدور رجال أوربة الحيلولة دونها؟ إن الوثائق الرسمية،
والمستندات التاريخية، وحقائق الوضع في ذلك الوقت، كلها تصرخ في وجوه
شياطين السياسة بأنه كان في مقدورهم أن يدفعوا الكارثة وينقذوا أوربة من
ويلاتها. ولكن كيف يطيب لرجال السياسة في ذلك العهد أن تنام أوربة
عمل جفونها وهي وادعة مطمئنة؟. والفرنسيون يلبسون روح القنوط
والنهم، في جيرانهم الألمان. والانسكيز يبصرون بعيونهم ويدركون
بعقولهم ما يؤول إليه هذا النشاط الخارق من شعب عظيم، تضخمت قواته
المسلحة، وتقدمت صناعته، ودبت في أبنائه روح التضامن والاتحاد.
والألمان يريدون أن يشقوا طريقهم إلى المجد، وينزعوا إلى شعنتهم المشقة
وجمع كلمتهم المتفرقة. فلماذا لا تحترق أوربة نتيحة لهذا التنافس وتطيح
هامات، وتسفك دماء وتفري غلاصم؟ وهكذا وجد القادة والزعماء من
سبب بسيط، عذراً لا يقاد نيران الحرب. تطلب إسبانيا أحد أمراء البيت
المالك الروسي ليتزوج ملكاً عليها فيغضب الإمبراطور نابليون الثالث عاهل
فرنسة فيكفهر الجو ويتظاهر غلاصتون زعيم الانكليز بعدم التدخل رغم
الحاح ملكته فيكتوريا بضرورة التدخل سيما أن موقف نابليون كان
غير مشروع بعد أن اعتذر الأمير الروسي عن قبول العرش الإسباني ثم تقع
الواقعة وتدور الدائرة على نابليون الذي كان يمعن في اهانة الملك الروسي
ويتشدد عليه (١). فكانت الحرب السبعينية الجرح النفار يتهدد السلام، وكانت
السبب الاصيل في قيام الحرب السكونية الأولى. وكان في الامكان الحيلولة

(١) إن هذه المعلومات مستمدة من مذكرات الملكة فيكتورية التي طبعت بأشراف
الحكومة البريطانية والتي سنحت لي فرصة قراءتها في مستشفى سجن «دوربان» ميناء اتحاد
جنوبي افريقية المعروف. ولكن هناك جملة من سياسي الانكليز ومؤرخيهم يرمون تبعة الحرب
السبعينية على عاتق بروسيه. ويشيرون إلى الجهود التي بذلها اللورد كلارندن وزير خارجية =

دون وقوعها أو عدم حدوث تلك النتائج الخطيرة لو كانت بريطانيا تدخلت في النزاع قبل استفحالها ، بل حتى بعد استفحالها وقبل وقوعه . ولسكنها لم تشأ ذلك لأنها كانت تريد ان تقع الحرب وتتخلص من المزاحم الجديد ، ثقة منها بأن فرنسا هي التي ستفوز غير انها لما وجدت الامر معكوسا ، ارتأت التدخل فعملت للصالح ، فكان صلحا مسلحا ، انطوت فيه القلوب على الحقد والبغضاء على ان بقاء الالتزام والورين في ايدي الالمان وحده كان يكفي سببا لتجدد المعارك ، وعودة الملاحم لآقل عتمة تترآى في الافق . فما بالك اذا اجتمعت اسباب وتوفرت عوامل لا يحصيها حاسب ولا يلح بأطرافها كاتب ؟ فالفرنسيون اقساموا على ان يثأروا لسكرامتهم الجريحة وشرفهم المثلوم وان يعيدوا الى الى حظيرة الوطن الامم الجزء المغصوب وان يردوا الى الجسد العضو المقطوع والالمانيون يحكمون اسباب الحكم في هذه الارض التي ظفروا بها ، طاضين عليها بالنواجذ ناظرين اليها كجزء لا ينفك عن جسم الوطن الالمانى . فكان كل فريق يعد العدة انزال جديد ، ويهيئ اسباب الخصام القادم وعدا ذلك فقد دفع حب الاستعمار ، والاستئثار باطـايب الشعوب الضعيفة ، الامم الالمانية جمعاء ، الى ان تتنافس في ضخامة السلاح ، وتتزاحم في مضمار التفوق الصناعى . فالالمان نزعوا الى تقوية اسطولهم البحرى ، الامر الذي خلع قلوب الانكليز واصاب منهم المقاتل فكان جدل وكان نقاش ، وكان وعد

= حكومة المستر غلادستون في عام ١٨٦٩ ومطلع عام ١٨٧٠ حين كان قد تردد على باريس وبرلين عاصمتي الدولتين ، وخاطب فيها كلا من الامبراطور نابليون الثالث والكونت بسمارك على المكشوف منددا بسياسة التسليح التي كانت الدولتان تنتهجانها . ويعزى الى بسمارك قول له خطورته وان جاء عن طريق النكتة والمزاح مع اللادى أميلى ابنة اللورد كلارندن وعقيلة اودو رسل سفير بريطانيا في برلين عام ١٨٧١ . يقال انه قال لها « . . . لم ابتهج في حياتي بخبر ممته كخبر وفاة والدك . . . » ولما رأى آية الغضب في وجهها لثم يدها وقال لها « . . . يا عزيزتي ارجو ان لا تحملى قولي على غير محمله . ان الذي رميت اليه بقولي هذا ان والدك لو بقى حيا لحال دون وقوع الحرب . . . » (راجع خمسون عاما في البرلمات تأليف المستر سكويث رئيس وزراء الانكليز في الحرب السكونية الاولى .)

ووعيد ، ثم اخذت الصناعة الالمانية ، وما تنتج من نتاج متين في صناعته ، رخيص في سعره ، تغمر الاسواق التي كانت وفقا على ما تنتجه الصناعة الانكليزية ، وتغزوا المستعمرات والممالك التي تسوسها انكلترة مباشرة او بالواسطة بل تغزوا بلادها الصميمة نفسها. والخبراء المليون والاقتصاديون ، والوكلاء التجاريون الالمان يندسون في كل وسط ، ويتغلغلون في كل جمع ، له بالانكليز صلة ، فيشجبون فيه وسائلهم ، وينقصون عليهم سميتهم ، ويخطفون منه ما كانوا هم يخطفون. فالأمر اذن لم يقف عند الالمانين والفرنسيين وانما تعدى آفاقا أخرى ، وتجاوز الى رحاب فيها للتصاول والتتقارع مجال كبير. وما اسرع ما انقسمت اوربا الى معسكرين كبيرين ، وفريقين خطيرين متناحرين ، ولم يكن قد جف مداد صلح فرساي (١) بعد ، وفي كل معسكر دولة متمزعة ودول تضدع بما تؤمر ، وتنفذ ما يطلب منها ؟ وما انطلقت رصاصة سراجيفو فصرعت رأسا عظيما وقرما عنيدا إلا وبدأ الارعاد والابراق من كل جانب حتى انتهيا الى الحرب الماضية . وما كان في مقدور رصاصة واحدة ان تغير خريطة العالم ، وما كان في سبيل قتييل واحد ، مها عظم وكبر ، ان تقوض عروش وتمحق ممالك وتفقد الانسانية الملايين من ابنائها بين قتييل وجريح ومشوه وكسيع لو لم تسكن القلوب طائفة بالاحقاد والآخرين ، والنفوس متبرمة ، والعقول مستعدة الى استماع مثل هذا الحمران الممين . نعم قام في اثناء الحرب ، وبعد الحرب ، الدعاة لكل فريق ، والمؤرخون لكل معسكر يصدرون الكتب ويفرقون المكنتات والاورساط بال نشرات ، والمؤلفات يرمى فيها مؤلفوها وناشروها تبعه الحرب على خصماتهم ويدفعون عنهم مسؤولية هذه المجزرة البشرية ، والله شهيد على ان كل فريق منها له في هذه الجناية نصيب وماذا حل بالانسانية بعد هذا التطاحن المبيد ، والتقتاتل الخفيف ؟ فهل انها افادت شيئا بعد ان منيت بتلك الضربات القاصمات ،

(١) اي صلح ألمانيا وفرنسة بعد الحرب الصميمة

والخطوب الفواح ؟ اللهم لا ! . وما نراه اليوم (١) من حرب طاحنة مبيدة
لخير دليل على ما نقول ! . وهذا امر طبيعي وليس في الامكان ان يكون خلافه ،
لان المقدمات اذا كانت شرأ كانت نقيضتها شرأ كذلك . فصحة النتائج متوقفة
على صحة المقدمات . مضت ثلاث سنوات على الحرب السابقة وكان الالمان
سادة الموقف في كل ميدان من ميادين الحرب . كانوا يقاومون العالم اجمع
ويصاولون الدنيا برمتها ولم تنكس لهم راية ، ولم يقل لهم جمع طيلة هذه
السنين الثلاث . وان كان حظوظ الحرب ، وطوال الامم لا تنظر على وتيرة
واحدة ، ولا تستقر على حال . والالمان وان كانوا موفقين في الحرب فلم
يكونوا موفقين في انتقاء الحلفاء والاعوان . فهم فوق ما كانوا يعانون من
الويلات ويقاومون من المصاعب في الصمود في الميادين الكبيرة فقد كانوا
يعملون هؤلاء الحلفاء ، ويمدون اولئك الاعوان ، ومع ذلك فقد كانت كفتهم
هي الراجحة ، وكفة خصومهم الكثير الضخم ، هي المرجوحة الى ان
دخلت اميركة الحرب بخيلها ورجلها ، بجانب المحصور ، فأثقلت الكفة
وبدأت الوضع من حال الى حال . ولم تخض اميركة غمار هذه الحرب الزبون
لجهد ان ينعم الحلفاء بالظفر وليفتشوا برحيق الانتصار ، وانما دخلها الرئيس
وبلسن وفي قلبه عواطف تفيض مرؤة وكرما ، وفي رأسه آراء تشع حقا
وصواباً . دخلها وهو يلوح لآبناء وطنه وللعالم اجمع بنقاطه الاربع عشرة
تلك النقاط التي لو نفذت او نفذ جانب منها لظلت الانسانية ترفل بحمل السعادة
اجيالاً وتتقلب في احضان النعيم امداداً . دخلها بروحية فيلسوف عطوف ،
وعقلية عالم مجمع ، واستاذ جامعة ، ولم يدرك انه بعد ان تنطفئ جذوة الحرب ،
ويزامل شيوخ السياسة ، ويقتعد كرسيه بين زعماء الامم والمادة ، ان
روحية الفيلسوف العطوفة تتخاذل ، وعقلية العالم النقادة يضحك منها

(١) المقصود الحرب الكونية الثانية حيث ان هذا الكتاب كتب والحرب في
اوج عنفوانها

ويسخر بها ؟ له الله من رجل ما اروع فشله وما الفجع هزيمته ؟ . ليت افلاطون
ينفض التراب من على رأسه ويستوى قائماً من بين صخور رمسه ليرى بهيمية
كيف تذوب نظريته في ضرورة اسناد حكم الشعوب الي الفلاسفة فيها ، في
فشل زميله الرائع ، وكيف يتمثل له خطأوه في جمهوريته الخالدة في هزيمة
صنوه الكريم . . . وخيبة افلاطون في رفيقه بعد ان مرت على البشرية عصور تقارب
الثلاثة والعشرين عدأ ليست هيئة لينة ، وانما هي خيبة مفعجة بكى لها الحق وتوجعت
عليها المرأة وذملت منها الانسانية ، خيبة تبعث على اليأس من اصلاح
النفس الانسانية وتدفع الى القنوط من تقويم مآلها . . . واذا كانت هذه
العصور العديدة المزدحمة بالاحداث قد عجزت عن تغيير هذه النفس ، ليت شعري
متى وبأي عصر آخر يتحقق حلم هذا الفيلسوف اللامع الذي بعث الى الوجود
قبل هذه العصور ، وهو لم يزل في عقله وفي روحه ، في اشراق تفكيره وفي
فيض وجدانه كأن عصره الخلق ان يعيش فيه مازال بعيداً ؟ . .

اجل ! لقد فشل ولسن الحكيم وانهمز . وكان مقدرا له هذا الفشل
وهذه الهزيمة ، لانه قدم اورية واخذ مكانه في مجلس الاربعة وليس في يديه
سوى قلبه الكبير ، وليس له مصدر يستمد الهامة منه غير روحه السمامية
بينما زملاؤه الآخرون اعتمدوا على عقولهم المشبعة بالمادة ، ونفوسهم المترعة
بالفرور ، ولم تكن لهم عواطف تعقل من عقولهم ، ولا لهم ارواح
ترهف من حسهم وتخضع من شوكة غرورهم ، فاعتصموا بالباطل وهم كمنار
ولاذ هو بالحق ، وهو فرد فعلت الكثرة القلة وازهق الباطل الحق
وصرع الظلم العدل وانعكست الآية ، والله اذا اراد شيئاً هياً اسبابه .
ولو ان اميركة بقيت منكشمة في رقعتها ولم تعبر المحيط برجالها وعتادها ،
ولم يغتن الشعب الالماني الجوع ، وتفسد في وجهه طرق الحياة لما طار لفوش ذكر
ولما ذكره ذاكر ، وانه لمن سخريات القدر ان يندحر لودندروف وهندنبرج
جوعاً امام فوش الشعبان ولو ان مونتيسيكيو كان من الاحياء في يوم الهدنة

اسجل سخرية القدر هذه بجانب تلك التي دحرت هانيبال العظيم امام سيون
 الروماني . على انه لو كان زملاؤه ويلسن يشصفون انفسهم والتاريخ لا عترفوا
 بجميله عليهم ، وبأنهم لولاه لرفعوا الراية البيضاء علامة التسليم الكامل .
 واسكن اني لهم الانصاف وقد حميت انوفهم ، وانتفخت اوداجهم عجباً
 وزهوا ؟ وكيف يقولون بقوله ويرثأون رأيه ويمطون الامم المستضعفة
 حقوقها وانهم لم يسعروا الحرب إلا طمعاً في هذه الحقوق وإلا رغبة في استنزاف
 خيرات هذه الشعوب وثرواتها . فعبثاً حاول الرئيس امالتهم لجانب الحق
 والزامهم طريق الصواب ، فانخذلت ارادته امام اراداتهم ، وانغلبت روحه
 لعقولهم فكان مثله مثل السكريات البيضاء امام السكريات الحمراء في الانسان
 فانها انما تستطيع ان تهتلع من الحمراء قدر ما معيناً فإذا كثرت هذه وازدحمت
 في الجسد واندفعت في هجومها العنيف فلا تلبث هذه البيضاء النافعة ان تفقد
 قوتها وتتلاش امامها وتتلاشيها تكون نهاية الانسان قد آذنت وبومه قد
 انتهى وكما ان فشله وهزيمته كانتا مقدرتين في اوروبا ، فان مصيره الاليم
 في وطنه كان يترقبه ايضاً . لان الشعب الاميركي وان هو كافح في جانب
 الحلفاء ، وارق من دماء بنييه كثيراً ، وانفق في سبيل التسليح والتكوين مالا
 يحصى من المال فهو شعب يقدر الحرية قبل كل شيء ، وانه ما غامر هذه
 المغامرة الا في سبيلها ، ولما كان حصاد هذا السكرم الانساني ظهر هشياً ولما
 تحقق الخيبة وواجه الحقائق المرة ، نبذ ويلسن ونبذ معه موثيقه ومعاهداته
 ومات ويلسن وفي عينه دمعه وفي قلبه لوعة . وما عتمت الانسانية الا ووجدت
 نفسها تستعمر في جحيم حرب هائلة ثانية ولما تلقنهم جروح الحرب
 الماضية بعد .

عوامل الخيبة !

ترى ما هذه العوامل التي ادت بالرئيس الى الفشل والهزيمة وبالتالي ان
تنتهي الانسانية الى هذا المصير المحزن ؟
انها عوامل كثيرة ، واسباب عديدة. ولسنا الان في سبيل وضع تاريخ
لهذه الحقيقة من الزمن ، لتتوغل في بحث الوقائع التاريخية ولننعم في تحليلها
وانما غايقتنا الاستشهاد بقليل من هذه الوقائع ما يكفي لتصوير التردى
الروحي الذي رافق هذه الحضارة المادية ، والضعف النفسي الذي ما زالت
الانسانية تدفع ثمنه غاليا ، والانحلال الوجداني الذي دفع بزعماء الدول
الى ان يكثروا في اخطائهم ، ويعملوا مجدين في خالق المشاكل وتهيئة
اسباب الحروب والدمار لدنيا عصر العشرين ، عصر الحرية والنور كما يزعمون .
اولا : ان واضعي وثيقة الصلح ، كانوا قد امعنوا في القسوة ضد الامم
المغلوبة ، واتخذوا اجراءات. فأنتهم قطعوا اجسام الامم اطرورية النمساوية قطعاً ، ونشروا
اشلاءها هنا وهناك ، غير معتمدين قاعدة معقولة ، ولا مستندين الى اسباب
يدعمها المنطق ، وتبرروها طبيعة الوضع ، وتركوا تلك الامم اطرورية الضخمة
ممثلة بـ (فينة) وما يصاحبها من مقاطعات ، قليل خيبرها ، نزر سكانها ،
ضاحل موردها ، موصدة ابواب تجارتها ، فحكموا عليها بالفقر والجوع .
وان اقصى سياسة تقبص ازاء الامم ، تتضاءل بجانبها قسوة الامم الغابرة ،
والفاتحين السفاحين ، حين كانوا يستسيغون المجازر البشرية ، ويشرعون الرق
والعبودية ، هي سياسة التفقير والتجويع ، ذلك لان الفاتح الشديد البطش كان
اما انه يفتزع ارواح المغلوبين فيهم واما ان يسترقهم فيطعمهم ويكسبهم ويتكفل
بساير احتياجاتهم . اما سياسة التفقير والتجويع التي اتبعت في بقعة النمسة فقد كانت

تؤدي بهذا العشب النحيل العريق الى الموت والسكن بعد ان يذوق من العذاب
الوانا ومن الالام اشكالا . فكم عالم وجد في بيته منتحرا بالجوع ، وكم جثة
عثر عليها وكان سبب حتفها المسغبة ، وكم ام قضت على نفسها وعلى اولادها
لضيق ذات اليد ؟ لم يكن في وسع الحلفاء ان يحولوا دون مصير هذا الشعب
الاييم ، لان الوضع الذي كان قد زج فيه كان يحتم هذا المصير . فتغيير
الحكومات ، وتتابع القروض ، وتوالي النجذات ، كل ذلك كان عبئا في
عبث . وكان شأنه شأن من يستنبت الارض السباخ ويستولد العقيم .

واما المانيا فقد امعن الحلفاء في جرح كبريائها ، وتفننوا في اهانتها
من جهة ، ومن جهة اخرى فقد وزعوا من اراضيها ، ما يكفي لاثارة بغيها
واهاجتهم . لقد عطلوا مرافق الحياة فيها ، واحاطوا صناعتها وتجارها
بسياج سميك . حددوا جيشها ، وفرضوا عليها مراقبة صارمة ، استنزفوا
ثروتها ، وقضوا على اقتصادياتها ، استصفوا مستعمراتها واشغلوا اراضيها
وبقاعها الغنية كآمين ، وكتعويض ، سلبوا عن جسمها دنانيرغ واخضعوها
لعصبة الامم ، وخرقوا بروسية الشرقية ، الالمانية الصميمة وشطروها
شطرين وملكوا ما بينهما الى الدولة البولونية ، التي بعثت من جديد ، لتساهم
في حاكمية البلطيق . وبعد ان نكلوا بالشعب الالمانى القدير بصناعاته ، القوي
بروحه ، العظيم بقابليته العسكرية ، الكثير بسكانه ، تركوه موحد الاجزاء
متماسك الاطراف . فما هذا النفاق ؟ لقد كان معقولا بعد ان اهين هذا الشعب
العظيم هذه الاهانة ، وبعد ان عبث بممتلكاته وثروته وصناعاته هذا العبث
المريع ، ان يجهزوا عليه اجهزا كما اجهزوا على الامبراطورية النموية من
قبل ، وتركوها في وضع لا تستطيع فيه حرا كا ولا تقدر معه على النهوض ،
ليسلموا من خطره وليأمنوا انبعاث الحياة فيه من جديد ويكونوا بذلك قد
نفذوا السياسة الماكيا فيلية على وجهها الصحيح . وخصمك ان اردت
مناجزته اما ان تضربه الضربة القاصمة واما ان تخفض له جناحك وتعامله

بالحسنى ذلك ادعى للسلامة ، واقرب الى الصواب . اما انك توجهه في الابداء
وتترك له مجال الاستفافة ليسدد اليك الضربة بعد الاثافة فانه الخطل
بعينه ، والخرق بأقبح اشكاله . است ممن يؤيدون السياسة الماكنيا فيلية ،
ولا ممن ينزعون منزعها وانما اثر السياسة العكسية ما كان اليها من سبيل
واسكنى في هذه الملاحظات اريد ان اصور الخطأ الفاضح الذي وقع فيه
مؤتمروا فرسايل ، وواضعوا ميثاق صلحه ، واقول اما انهم كانوا مجهزون
على المانيا المقهورة اجهازا لا تقوم لها من بعده قائمة ، واما كان عليهم ان يعاملوها
بالحسنى . اما وانهم قد اختاروا الشق الاول فقد كان ابقاؤهم على وحدتها خطأ
فاضحا يكمن فيه شرر الحرب ، وتغتم فيه نذر الشر ، لأنه كان من المنتظر ان
يستفيق مثل هذا الشعب الذي تجمعت فيه كل مزايا العظمة والتفوق العقلي
وعناصر الحياة من تأثير الضربة التي اصابته ويطلب حقه في الحياة من جديد .
وخطاؤهم في الابقاء على الوحدة الالمانية كخطائهم في توزيع اشلاء الامبراطورية
النسوية وتركهم النسبة منكسة في رقعة صغيرة يفتك فيها الجوع والعري
ويتقاسمها الفقر ويتوزعها الذل والهوان ، وهي متصلة الحدود ببلاد الريخ ،
وتربط الطرفين وشائج القربى ، وتصلها صلة الرحم ويوحدها الشعور بما
نزل بها من المصائب والنوائب .

ثانيا : وانهم اخطأوا في تكوينهم الدول الجديدة التي بعثوا فيها الحياة
وفي تضخيم الدول الصغرى على حساب الدول المغلوبة . حيث لم يعينوا خطة
مثلى يسرون بموجبها ، ولم ينهجوا في ذلك طريقا مهيما . لتأخذ يوغوسلافية
مثلا وهي دولة كانت صغيرة وضخمها المؤتمرون على حساب الامبراطورية
النسوية المقهورة . فما هي علاقة السكروانيين بالصربيين ، وماعلاقة الاسلام
وعدهم كثير بالاثنيين ، وكيف يكون السكروانيون والاسلام وهم السكثرة
خاضعين للصربيين وهم القلة . وكيف تستسيغ هذه السكثرة تعنت هذه القلة
وتجبرها وتغطرسها ؟ ولنضرب مثلا بالدولة الجيكوسلوفاكية ، وهي دولة

بعثت فيها الحياة حديثاً . فما هي الأسس التي استند اليها المؤتمرون في جمع هذا الخليط من الناس وحشرهم في صعيد واحد تحت عنوان « الدولة الجيكونوسلوفاكية » ؟ فالسوديت وهم يترأضون بين الثلاثة والاربعة ملايين هم المانيون والسلوفاكيون وهم اكثر من الالمان ، هم انفسهم يقولون بأنهم لا يتصلون بسبب بالجيكيين وآخرون لا هم المانيون ولا هم سلوفاكيون ولا هم جيكيون زجوا بين هذا الخليط العجيب وان هؤلاء من غير الجيكيين هم الذين يؤلفون الاكثريّة الساحقة ، والجيكيون هم الذين يكونون الاقلية ، ومع ذلك اخضعت الاكثريّة الساحقة الى الاقلية وسن لهم نظام للحكم عجيب . والدولة البولونية ، المولود الجديد ، الذي اولده المؤتمرون لتكون حازماً يقي اورية من شرور البلشفية انما جمعت اشتاتها من عناصر روسية والمانيّة ويهودية وبولونية ومع ذلك فقد شقوا الوطن الالماني ، لتتمتع هذه الدولة الناشئة بعمياء على البلطيق وتسلك الى ذلك ممراً كان منذ ان انشئ نذيراً بالحرب ، وبشيراً بالدمار والعذاب الاليم . وعلى هذا القياس تستطيع ان تقس الدول الاخرى . فلم يراعوا في هذا التكوين او هذا التضخيم سميلاً يسمح ان يسلكه السالكون فلا هم اتبعوا الحدود الجغرافية ، ولا هم استقنوا سنة العنصرية ، ولا هم ركنوا الى التاريخ وما تركت احداً في الشعوب من آثار ، ولا هم اهتموا بالمصالح المشتركة والمنافع المتقابلة انما ساروا على اشواك الحقد والبغضاء وادغال الانتقام يدفعهم في هذا الطريق ، غرور فاضح ، وانانية عمياء ، وطمع اهوج .

ثالثاً . انهم خبطوا في تقريرهم النظام الذي اطلقوا عليه نظام عصبة الامم . زعموا انهم بهذا النظام سوف يثبتون دعائم السلم في جميع انحاء العالم ويركزون في عرصاته رايات السعادة الشاملة ، خفاقة . جميل حقاً ان يتفتق العقل الاساني عن هذا المشروع الضخم ، واجمل منه ان تشهد الانسانية تنفيذ مثل هذا المشروع . ورجال السياسة وجهابذة حقوق الدول ، من قديم الازمان الى يومنا هذا ، يتجادلون ويتناقشون ، يتفقون تارة ويختلفون

اخرى في الحقوق الدولية ، او القانون الدولي بتعبير اصح ، هل انه موجود
 او انه حديث خرافة . والمنكرون يحتجون بعدم وجود سلطة عليا تنفيذية
 لقواعد هذا القانون ولما يؤيدون ببرهنون على ان الرأي العام الدولي هو السلطة
 العليا ذات الحول والاطول . وبيننا هذا القانون بين النفي والاثبات ، وبين
 الصورة والحقيقة تتفتق الاذهان عن خلق هيئة حقيقية يودع اليها امر الفصل
 في قواعد القانون والحكم بأحكامه ، وايجاد مركز قانوني تشرأب اليه الاعناق
 وترنو اليه الابصار وتهفوا اليه الاسماع . انه لحدث خطير النفع على
 الانسانية شديد الاثر في تسييرها في الطريق اللاحب والسبيل القويم . ولكن
 هل كانت عصبة الامم حقا من هذا النوع الذي كانت تصبو اليه النفوس
 الحساسة والعقول السليمة ، والوجدان الذي يفيض بالعواطف الشريفة ؟
 ان العصبة التي املت على الجانب المقهور شروط الصلح ، والتي سطرت ميثاق
 فرسايل وحبرت قرارات سن ريمو وخلقت الدول وقضت على امبراطوريات ،
 اقول ان هذه العصبة ليست في مقدوره ان تكون هيئة قانونية ومنزع
 الحضارة الانسانية واداة سلم وطمأنينة لهذا العالم المضطرب ، المتأرجح ، ذلك
 لان عناصر الشر وبذور الفساد كانت منبثة في كل مادة ، من مواد ميثاق
 الصلح ، وكامنة في كل عبارة من عبارات مقررات الانتدابات . والسلام العالمي
 لا تركز دعائمه وتقوم اركانه على الماء الرجراج ، او الرياح السافية انما
 تركز فوق ارض صلبة الظاهر وتقوم على اساس رضح حجارته رضحاً متقناً .
 وكيف نرجو سلاما عاما ، واستقراراً شاملا وقليل من الشعوب
 يستأثر بالسلطان ويحتكر الثروة واكثر الشعوب مستفيم لهذا السلطان ،
 ومستخذله ، يتخلى عن ثروته مكرها ، ويتجرد عن حرياته مقهوراً ؟ قبل
 التفكير في انشاء مثل هذه المؤسسة القانونية كان يجب التفكير في الاسباب
 والوسائل المؤدية الى ازالة الخلل المشاهد في التوازن العالمي . فليس صحيحا
 ان يسيطر مثلا شعب لا تتجاوز نفوسه الاربعين مليوناً على بلاد لا تغيب

عن اطرافها الشمس ، ويتحكم في نفوس تقارب الخمسمائة مليون ، او ان
يشدد الخناق على شعب يزيد سكانه ضعف الشعب الاول ، وهو اذا لم يكن
متفوقا عليه في المزايا فانه لا يقل فيها عنه ، ويحرم من مستعمراته ، ومن
موارده ، ومن انتاجه وصناعته ؟ . واذا كانت الرغبة التي دفعت بالمؤتمرين
الى ايجاد هذه المؤسسة احقاق الحق ، واقامة منار العدل ، فما هذا الحق الذي
يدعونه في الشعوب المستضعفة وابتزاز اموالها وهدر حرياتنا ، وحرمانها
التمتع بالحقوق التي منحتها الطبيعة اياها واقرتها لها الشرائع ؟ فالصعاب التي كانت
تقوم في سبيل هذه المؤسسة منذ يوم نشأتها كانت كهيئة بان توردها موارد
التلف ، وان تؤدي بها الى المصير الذي آلت اليه بعد تجربة قاسية . فالاقوال
لا تنشيء الصروح المردة والابرار الشاهقة ، وانما الاعمال ، التي هي نتاج
النية الحسنة ، هي القديرة على هذا الانشاء . ولقد كان مقدراً ان تبوء الانسانية
بخيبة الامل وبمرارة اليأس والقنوط من هذه المؤسسة . ومع ان النية التي
تمخض عنها هذا المشروع لم تكن خالصة ، وان الاسس التي قام عليها نظام
العصبة الاممية كان واهيا لا يقوى على الوقوف امام الرياح حتى اذا كانت
رخاء ، فان النواقص في تشكيلاتها كانت واضحة ، والنقائص في تصرفاتها
كانت لا تحتمل النقاش ، والجدل وذلك - أ - بينما كان الغرض من انشائها
القضاء على المنازعات الدولية بأمر طريق ^١ واسهل الوسائل ، واحقاق الحق
واخذ القوي بحق الضعيف ، واعانة الضعيف على حقه وارشاد الامم الفتية
والاخذ بيدها للوصول الى المكانة التي تستحقها ، فقد وجدناها وسيلة من وسائل
القهر والاعتداء ، وسببا من الاسباب التي تتعلق بها الاقوياء للاجهاز على حياة
الضعفاء ان الامثلة على ذلك كثيرة من الاسراف في الحق ان نورد مثلاً او
مثلين او عشرات منها لأن كل قراراتها فيما يتعلق بالشعوب الضعيفة تقررياً
تصلح لأن تكون امثلة لتأييد هذا الادعاء .

والانتداب من خلق فكرته ، ومن اوجد نظامه ؟ وما هي هذه الفكرة وما

هو هذا النظام ؟ يعزو المستر تشرشل في كتابه « الحرب الكبرى » فكرة الاندباب الى الجنرال سمطس رئيس حكومة اتحاد جنوبي افريقيا في هذه الايام (١) وسواء خلق هذه الفكرة الجنرال سمطس ام الحكومة البريطانية ، فان الانكليز كانوا قد حققوا هذه الفكرة من قبل ومارسوها بالفعل فقد وضعت معاهدة باريس عام ١٨١٥ الجزر اليونانية التي اعترفت بها الدول الموقعة عليها وهي بريطانيا وروسية واوستريا وبروسيا ، كدولة حرة مستقلة تحت حكم مندوب سام بريطاني . ومنذ عام ١٨٨٢ كانت بريطانيا تهيمن على مصر بصفتها منتدبة لصيانة منافع الاوربيين فيها ولم تعلن الحماية عليها بصورة رسمية إلا في غضون الحزب الكبرى الاولى . على ان الفكرة بمجمعلها لا تعدو الفكرة الاستعمارية المنفعة والنظام بمجموعه لا يتعدى نظام المستعمرات المزوق . قالوا ان هذا النظام لا يبيح للسلطة المنتدبة ان تفعل ما تشاء في البلد المنتدب عليه مع ان المستعمر له هذه السلطة على البلاد المستعمرة ، والمنتدب ليس ذا سيادة على البلاد المنتدب عليها والمستعمر له حق السيادة على مستعمرته ، والمنتدب لا يحق له ان يستغل البلاد المنتدب عليها لمنفعته مع ان المستعمر له ذلك في مستعمرته ولما كان المستعمر له حق التملك والسيادة في مستعمرته وله حق التصرف فيها لمنفعته فان سلطته فيها دائمة ولكن المنتدب بما انه ليس له كل ذلك فان سلطته على البلاد المنتدب عليها مؤقتة . هذه فروق فقهية اشاعها واضعوا ميثاق عصبة الامم ، المنتصرون لتبرير استيلائهم على اراض جديدة . انها نوع من تضليلات مدنية القرن العشرين وإلا فاية نعمة اصابت ابناء البلاد المنتدب عليها ؟ وكيف تصيبهم نعمة ومباديء هذه الفكرة والنظام تهدم السيادة الوطنية للبلاد المنتدب عليها من درجة (ت) و (ج) تلك البلاد التي تدار بصورة مباشرة من قبل المنتدب

(١) الان مارشال سمطس وقد سقطت حكومته بخسارته الاكثرية في البرلمان وتولى بعده ازمة الحكم الدكتور ميلون .

ولمدة غير معلومة؟ ولناخذ مثلاً البلاد المنتدب عليها من الدرجة الاولى اي درجة (أ) والتي صمادق ممثلو الدول المنتصرة باستقلالها مبدئياً فما هو حظها من السيادة القومية؟ أين نجد السيادة القومية؟ أفي حكومتها المحلية وهي خاضعة لارادة المنتدب أم في الدولة المنتدبة وهي لم يعترف لها بها بموجب احكام الميثاق الصريحة أم في مجلس العصبة أم في المجلس الاعلى أم في لجنة الانتخابات وهذه المؤسسات جميعها لا يجوز ان تملك مثل هذا الحق لان حق السيادة انما ينبثق من ارادة شعب البلد المنتدب عليه ، ومعلوم ان السيادة هي واحدة غير قابلة للتجزئة كما انها غير قابلة للتنازل عنها ، او نقلها وهذا مبدأ دستوري لا يقبل المناقشة فكيف يجوز لنا ان نعتبر مثل هذا النظام مشروعاً؟ وكذلك اشترطت المادة ٢٢ من الميثاق الرجوع الى ارادة شعب البلد المنتدب عليه في اختيار السلطة المنتدبة فأني بلد انتدب عليه واستؤنس برأيه و ارادته في هذه النقطة الحساسة والجوهرية؟ وأين هم ممثلو العصبة في البلاد المنتدب عليها ايشرفوا على معاملة السلطة المنتدبة لابقاء البلد المنتدب عليه ، ولتدووها بالمعلومات التي من شأنها الكشف عن مدى تحقيق السلطة المنتدبة للاهداف والمباديء التي وردت في المادة المذكورة من الميثاق؟ واين هي لجان التحقيق ، وهيأت التدقيق في الاحداث الجسام التي حدثت في البلاد المنتدب عليها ، والتي هزت انبائها العالم هزاً (١) واية قرارات توصلت اليها لجنة الانتخابات او المجلس الأعلى او مجلس العصبة من شأنها ان تدرك الظلم والعدوان (٢) وهذه الاقطار العربية التي وضعت رغم ارادة اهلها ، تحت مطرقة الانتداب هذه الاقطار التي سبق لها ان حاربت في صفوف الحلفاء المنتصرين ، ضد دولة

(١) راجع الباب السادس من كتاب (روح السياسات العالمية) لمؤلفه العلامة وليم ارنت هوكينغ استاذ الفلسفة في جامعة هارفارد . طبعة ١٩٣٢ .

(٢) لة - د اطلت البحث في موضوع الانتخابات عند بحثي نتائج الثورة العربية - الكبرى .

كانت تتصل بها باسباب الدين ، والثقافة والتاريخ الطويل المشترك ، هذه الاقطار التي خرجت على دوائها المتبوعة ثقة منها بأنها سوف تنال حريتها واستقلالها على ايدي الحلفاء ، واعتماداً على العهود الخطية المقطوعة والوعود الرسمية المطبوعة بله ماجاء على السنة سياسة الحلفاء المسؤولين وقادتها المنتقين من بيانات وخطب واحاديث ، ماذا افادت من عدل عصبة الامم حينما اغرقتها الدول المنتدبة عليها والتي كانت حليفة معها في الحرب بالدماء وانخنتها بالجراح ، هل رجعت شكواها في اقية العصبة ، وتردد صداها في ابائها ؟ . ان هذه الاقطار الدامية الجريحة ، لم تترك وسيلة إلا واتخذتها لاسماع اصواتها الى من في العصبة ، ولا طريقة الا سلكتها لتظهر حقها المضاع وحريتها المعصوبة . ولكن انى للعصبة ان تسمع زفرة المظلوم وانه الجريح الشهيد ، وهي لم تفسأ الالتشية مصالح الدول الكبرى التي انشأتها ، ولم تخلق الا لتمهد طريق الموت والاستعباد المقيم للضعفاء ؟ وانه لما يدعو للهز والسخريه مقرر هذا النظام الغريب من الشروط التي يجب استيفاءها من قبل من يقدم شكواه للعصبة من الشعوب المنتدب عليها . فلاجل ان تنظر لجنة الانتداب في الشكوى ، على المشتكي ان يقدم شكواه اليها عن طريق المشكوه عنه اي الدولة المنتدبة فالمسروق منه يجب ان يقدم شكواه ضد السارق ، بواسطة السارق ، والمتهمكة حرمة ملكه ان يقدم شكواه عن طريق المنتهك ، والمجروح عليه ان يلتمس جرحه ليوصل ادعاه الى اذن الحاكم فاذا لم يكن الامر كذلك فلاحق يحكم به ، ولا مرافعة تجرى ، ولا قرار يصدر . ما اضحك هذه القواعد الخادمة لاحقاق الحق وتقرير العدل ! فهذه الطريقة هي التي اختارتها العصبة في انصاف المظلومين واغاثة المستغنيين ! ..

ب - ومن علامات ضعفها الاولى ان نظامها لم يحتم على الدول المستقلة الانخراط في سلكها فقد جعل الانتماء اليها اختياريا وهذا ما ادى بالولايات المتحدة الى ان تنفض يديها من العصبة ، والدول المغلوبة التي اصابها الحيف

ولحقها الخسران بقيت كذلك خارج العصبة حقبة طويلة من الزمن فكان
العصبة انشأت للحلفاء الظافرين ، بل لفريق من هؤلاء الحلفاء ، لان امير كا
وهي الجزء المهم من هذا الكل فقد رفض شعبها الاشتراك في هـ ... هذه المهزلة
السياسية الكبرى وبقي في نجوة من شرورها وآثامها . والعالم المتمدين او
بالاصح المجموعة الدولية امست فريقين ، فريقا من العصبة ، وفريقا لا يجوز
عليه اوامر العصبة وانظمتها . فاية قيمة بقيت لهذه المؤسسة التي كان
الغرض منها ان تصبح قوة تمثل الرأي العام الدولي - ج - ولما كان الانتماء
اليها اختياريا فقد اتيح هذا المبدأ ان الانفصال عنها متوقف على ارادة الدولة
المنتمية اليها . فهي متى ما رأت ان مصلحتها تقضي عليها بالا انفصال انفصلت
واذا وجدت ان اطاعها لم تتحقق او وجدت ان العصبة تقف في سبيل هذه
المطامع تنحت عنها مولية الادبار من دون ان تحشى شيئا . وعلى هذا الاساس
انفصلت اليابان عنها لتحقيق مطامعها في منشورية والصين ، وايطاليا في الحبشة
والالمان لاعادة عظمة المانية ورد اجزائها المقتطعة منها اليها . - د - ان
العقوبات التي تفرضها عصبة الامم تبدأ بالعقوبات الاقتصادية . ولئن كانت
الاقتصاديات ذات تأثير فعال في حياة الامم في الوقت الحاضر ولكنها
لا تكون خفيفة وحاسمة ما لم تشفع فورا بالعقوبات العسكرية . وقد وجدنا
ايطاليا لا تحفل كثيرا بالعقوبات التي فرضتها العصبة عليها في حادث الحبشة
وانما زادت اصرارا على ارادتها وامعانا في سيرها ومضاء في عزميتها . ومما
زاد في ضعف هذه الالة السياسية التي اعدت لتأمين السلام العام ، ان الدول
الخارجية على مقرراتها ، تبقى صلاتها الدبلوماسية وتعاونها السياسي مع الدول
التي بقيت منخرطة في سلك العصبة والادى من ذلك ان هذه الدول بعد ما تكسب ما
كانت تسعى اليه ، وتحصل على ما كانت تطمح فيه تعود هذه الدول الباقية
على ولائها للعصبة فتعترف بالوضع الراهن ، والامر الواقع كما حدث مع ايطاليا
بعد ان استولت على الحبشة واليابان بعد ان اكتسحت منشوريا والالمان

بعد ان اعادت الى حظيرتها الرين والساو حتى ان مؤتمر مونيخ اقر الوضع
المعلوم في جيوكوسلوفاكيا . ولقد كان ميسورا للانسانية ان تفتفع بهذه
المؤسسة لو ان - أ - الظافرين عاملوا الدول المقهورة معاملة تنطوي على السخاء والنية
الحسنة واعادوا النظر في اصول الاستعمار وتركوا جانبا فكرة التوسع على حساب
الشعوب المستضعفة - ب - ولو فرض الانتماء الى العصبة فرضا على الدول
المستقلة كافة ، الظافرة والمغلوبة والمحايدة - ج - ولو منع الانفصال عن العصبة واعتبر
ذلك تمردا يهدد السلام العالمي ، الامر الذي يستوجب الاجراءات العسكرية
الفورية ان عظمة ابراهيم لنكولان لم تتجلب بروحه المفطورة على حب الخير
للانسانية وبدفاعه عن الرق البشري بقدر ما تجلبت في صرامة عزيمته على
حرب الجمهوريات التي قررت الانفصال عن الاتحاد . حيث اعتبر هذا الانفصال
خروجا يستلزم الاجراءات العسكرية الفورية ، وان من انضم للاتحاد
بمحض ارادته فليس في امكانه ان ينفصل عنه مختارا بعد ان امتزج
الجزء بالكل ، وبهذه الحركة الجبارة استطاع ان يحفظ للاتحاد قوته
وسلطانه وان يصونه من عوامل التفكك والانحلال . ولا يرد في هذا المجال
بان الشبه معدوم بين الاتحاد الاميركي ، والعصبة . ان الشبه موجود وكامل
اذا كان يراد ضبط السلم العالمي ضبطا دقيقا عن طريق وجود هيئة قانونية
كبيرة تتركز فيها السلطة العليا التي تمثل هذا الرأي العام - د - ولو ان
العقوبات العسكرية تنفذ فورا بعد اليأس من صلاح الحالة التي اقدمت عليها
الدولة الخارجة على نظام العصبة وتقطع العلاقات الدبلوماسية معها
ويحرم التعاون معها .

رابعا . يجوز ان يكون سبك مواد الصلح ، واصدار تلك القرارات
ضد الدول المغلوبة ، وقتل الحبال المتينة لخلق الشعوب التي كانت قد اطلقت
بأجسادها صوب العدل الديمقراطي فاذا بها تطوق بتلك الحبال المغتولة المعدة

لها في طي الخفاء ، اقول يجوز ان يتم كل ذلك في وقت يسير ، بقوة السيف والمدفع ، وتحت سلطان الطغيان والجبروت ولكن المحافظة على الاوضاع المقررة ، واحترام ارادة الغالب من المغلوبين ، وصيانة الغنائم المحرزة والاسلاب المنتهبة كل هذه امور تقتضي السهر الدائم ، واليقظة المستمرة ، والعمل المتواصل . فالامم المتوترة لن تغفل عن الفرص تستغلها ، والمناسبات تفتزها لتفوق سهامها وتسدد الرمية ، وتجهز على الخصم سيما اذا كان في جملة هذه الامم ، امة وآنها اسباب الحياة ، وتوافرت لديها السجايا والمزايا ، التي تسكفل لها الانبعاث من جديد . وان الظافر الذي كال لضحاياه انواع الاذى ، وصنوف العذاب ثم استرسل في لذائذه واستنم للزمن فتأدى في زهوه وكبرائه ، وظن انه انجز كل شيء ، وقضي على كل خطر ولم يبق له غير الراحة بعد العناء ، واللذة بعد الشقاء فانه كمن مكن لمرض الزهري في جسده واهمل معالجته ، فتظل جراثيم المرض تفتك فتكها الذريع وتعبت عبثها المريع ، حتى يتشقق جسده وتعمه القروح ، ولما يترآ اي له الصير المحزن ، يبادر الى المعالجة ، بعد ان ضاعت عليه الفرصة ، وتأخر به زمن الخلاص وكذلك كان فرسان فرسايل وابطال سن ريموفا جف مداد صكوك العبودية التي برعوا في تحجيرها واجادوا تسطيرها الا ووجدتهم يتصاولون فيما بينهم ، ويتنافسون في النفوذ على اوربة ومن ورائها الامم التي استعبدها اوربة ، يمدح الفرور بشيطانه ، وينجدهم البطر بأعوانه . فلم تعد الارض تحتمل فراسة الظافرة التي رأت من حقها ان تحتكر السيادة على اوربة فامعنت في النشاط واسرفت في الحركة ولم تفكر في انكسرة ، هذه الدولة التي قتلت نابليون بصيرها ، وغررت باميركة بمكرها ، وانزلت غليوم من سماء عليائه ببراعة تدبيرها ، وهدوء اعصابها ، ولم تقدر ما لهذه الامبراطورية الضخمة من مصالح شديدة الاثر في حياتها وكيانها في القارة التي تطمع ان تفرض سيادتها عليها وان تحتكرها احتكاراً وكيف تصير هذه الامبراطورية

ان ترى اصابع فرنسة تمتد بقوة الى مواطن حساسة وهي لم تكف بالعبث الخفيف بل تريد ان تحتكر العبث لنفسها بأوسع آفاقه وابعد آماده وما تعودت بريطانيا ان ترى منافسا لها فتعبر عليه ، ومزاحما لها فتهاذنه . وفي اللحظة التي انسأقت فيها فرنسة سوفا الى غايتها هذه بدأ صراع بريطانيا الخفي ، ونضالها المستتر لتحد من غرور حليفها ولتخضع من شوكة خيلائها . وكان طبيعيا لها ان تنهون في مراقبة عدوة فرنسة اللدودة وان تغض الطرف عن كثير من علائم نشاطها وبوادر حيويتها بل انها رعت الحركة الوطنية التي قادها هتلر واعوانه وشجعت على نموها وعمات في تهليل ازدهارها ، ولم يلبث النضال الخفي ، ان ارتدى رداء العلانية وكلمه زاد احتداما ضعفت قوة الحليفين ، وازداد الخصم قوة . وقد ظهر التخاذل جليا واضحا عندما اجتاحت ايطاليا الحبشة فوقفت فرنسة موقفها المعلوم ، ووقفت ، بريطانيا موقفها المعروف ، وقد سبق لـ إيطاليا ان اعلنت في مناسبات عدة غضبها على ما اصابها من حيف وخذلان حينما اقتسم الظافرون الغنائم وكانت هي من جملة الظافرين . وما زاد في ضعف الحلفاء المتناكرين ، والمتفقين المتناحرين ، التنافس البحري بين اليابان من جهة وبريطانية واميركة من جهة أخرى . وهذه الدول المتناكرة المتناحرة ، هي التي أملت شروط الصلح ، وهي التي ابرمت القرارات الخطيرة في سن ريمو ، وهي التي قضت على امبراطوريات ، وبعثت للوجود امم افنية ، ودولا ناشئة وبقول وجيز هي الدول الظافرة التي عبثت بالدول المغلوبة ذلك العبث المقيت . فكيف تطلب من المانية ان تقبض في رقعتها وتلزم حدود النطاق الحديدي الذي ضربه عليها الظافرون ؟ ولم تفق هذه الدول من سكرتها ، وتصحوا من سباتها إلا بعد ان اندرتهم المانية الجديدة برد الحق المغصوب والكرامة المسلوبة والحريه المنقوصة . والله در الشاعر العربي حيث قال :

ومن رعى غنما في ارض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الاسيد

خامسا : وارادت بريطانية زعيمة الدول المتحالفة ان تلهي العالم عن هذا النضال المستتر بينها وبين حليفاتها ، بفكرة نزع السلاح وهي في حد ذاتها فكرة جميلة ، وفاتنة في جمالها ولكن الفكرة تكون مجرد قول اذا لم تقترن بالعمل . والعمل اذا لم يكن وليد النية الحسنة والسريرة الصافية ، فانه لا خير فيه بل قد يكون ضرره كبيرا وشره مستطيرا . والذي يتفق ذهنه عن هذه الفكرة الجميلة الخلابه ، ويتدع خياله مثل هذا المشروع الانساني الرائع ، انما هو ذاك الذي طبع على العدل ، وفطر على حب الانصاف واختلجت في نفسه المرؤة ونبض فيه عرق الساحة والكرم . والذي ان قال صدق ، وان وعد وفي وان أغضب حلم ، وان قدر عف . اما الذي جبل على المكر والخداع ، وتملكه الهوى وازدهاه الغرور ، وان قال مان وان وعد اخاف ، وان اغضب قدحت عيناه بالشرر ، وان ظفر بطش وانتقم وسي وظلم فليس مجديا له نفعا ظهوره بمظهر الحمل الوديع ، أو الناسك المتبتل ، والناس لهم عقول تدرك وعيون تبصر وقلوب تشعر . ولئن تفاوضت الأمم والشعوب بشأن هذه الفكرة ، وتباحثت أمر هذه النزعة الانسانية في العلن والسيطانية في الباطن فان نهاية هذه المفاوضات والمباحثات كانت معلومة منذ ان بعثت الفكرة الى الوجود وبرزت النزعة الى العالم . لأن بريطانيا كانت تطمح في ان يكون لها من نسبة التسليح نصيب الأسد فاذا لم يكن هذا النصيب لها وحدها فلا أقل ان يكون لها ولحلفائها الظافرين وبدات في هذا السيفيل جهوداً جبارة ولكنها لما صدمها الممثل السوفياتي في عصبة الأمم بالحقيقة المرة ، وطلب ان يكون تنفيذ هذه الفكرة تنفيذاً حقيقيا لا صورة وخيالا بحيث يمنع الاعتداء ويؤمن الشعوب المستضعفة على حياتها وكيانها ، جفت بريطانية ومن ورائها حليفاتها ، واختفت هذه الفكرة من عالم الوجود بأسرع من لمح البصر ، ذلك لأن النية كانت غير خالصة والوجدان الذي كان قد اوحى بها لم يكن نقيما طاهرا .

والنواميس والتشريعات التي تشرع لا يكتب لها البقاء، ولا تنعم بالحياة إلا إذا كانت ملائمة لطبيعة الأشياء التي وضعت لها، وإن فكرة نزع السلاح تنفيذ الحيلولة دون الاعتداءات التي تقع من الأمم بعضها على بعض أو بتعبير أصح التي تقع من الأمم القوية ضد الأمم الضعيفة فإذا كان هذا الاعتداء واقعاً بالفعل، ولم تكن هناك ثم بواذر تشير إلى انصراف النية عن الحد من هذا الاعتداء أو الكف عنه فكيف يكتب لهذه الفكرة النجاح والفوز؟ إن الأمم التي جرحَتْ في كبريائها، ومنيت بأفدح النكبات في ثرواتها وأراضيها، وتجزأت أجزاء ونقسمت أقساماً كيف يتصور العقل السليم أنها سوف تلتزم الصمت إلى أبد الآبدين وإنها لم تتأثر لنفسها في أول سانحة تسنح، وفي أول مناسبة تقع؟ ثم كيف يمكن تنفيذ هذه الفكرة من قبل الحلفاء أنفسهم وهم يطمحون إلى أن يبقوا الوضع الذي قرروه في موافيقهم ومعاهداتهم، ومقرراتهم مصوناً من العبث، بعيداً عن عوامل الفساد؟ بل كيف يمكن الأخذ بهذه الفكرة وهم أنفسهم يسيطرون على رقائق كثيرة من الأرض، وأمم عديدة يستنزفون دماءها، ويخطفون خيراتها، ويستولونها ويستخذونها وهذه الشعوب والأمم، متدمرة متبرسة، تتحين الفرص، وتتلصص مواطن الضعف، وترقب الأحوال والظروف لتقضي على من حرمها الحياة، وسامها الذل، ولا أجل ضبط هذه الأمم المستعبدة وتلك التي استعبدت أو أهينت بعد الحرب الكبرى، تفتقر الأمم الظافرة والمسيطر، إلى قوة من السلاح والعتاد لا تحد بحد ولا تقدر بقدر وهذه حالة تخالف على خطط مستقيم ما ترمى إليه فكرة نزع السلاح؟ إنما هذه الفكرة يجوز تحقيقها إذا شمل الأمم العدل والانصاف وتحكمت في مصائر المرؤة والسباحة أو على الأقل إذا اتجهت النية إلى هذا الاتجاه. وفي خلاف ذلك يكون مثل الذي ينزع إلى تحقيق هذه الفكرة، كمثل الذي يليق نفسه بين السباع المفترسة والضواري السكاسرة وهو خال من وسائل الدفاع وأسباب النجاة، هذا إذا كان جاداً في

رأيه ، غير مخاتل في طبعه . وإلا فاما ان تحمل محاولته الى العبث والمجون ، او الى التلوية واضاعة الوقت - والحق : فان هذه الجهود التي بذلت في سبيل هذه الفكرة قد انتهت الى ما تستحق من الممود والركود . لان العالم المتحدين قد اعتقد اعتقاداً راسخاً بان الجهة التي نشأت عنها هذه الفكرة كانت ترمى الى التسلية واضاعة الوقت واشغال الاراء والافكار ، اكثر مما كانت ترمى الى خير الانسانية وتحقيق سعادة حقه يستظل العالم ظلها الوارف . ولكن الله العادل المنتقم قد انتصف المظلومين من الظالمين والمغلوبين من الغالبين . فبينما كان الامل ان تلهى هذه الفكرة الامم المغلوبة على امرها عن نفسها فاذا هي بالعكس من ذلك تلهى الامم الغالبة واما الامم المغلوبة فلم تعرها آذانا صاغية بل انها ظلت دائبة في تنمية اسباب قوتها ، وتهيئة وسائل كفاحها القادم فما حل الاجل الموعود إلا ووجد الحلفاء انفسهم امام براكين نائره ورياح عاتية . وكذلك كانت المحاولات التي بذلت في سبيل هذه الفكرة سبياً في اضعاف الحلفاء . يضاف الى اسباب الضعف الاخرى التي سبق بيانها .

سادساً : ان الاغراق في النعيم ، والامعان في الثراء والاخذ باسباب الترف باندفاع جنوني وحماسة ملتعبة كل هذه عوامل فعالة في انحلال اخلاق الامم ، واضعاف وجدانها وايها روحها ، سيما اذا صاحبها ظفر لامع اهاب بالظافرين الى ان يشمخوا بانوفهم ويشمسوا بغرورهم وزهوهم ، ولم تكن في الامم قوة روحية كامنة تحد من هذا الزهو وذلك الغرور . والاعراض الاجتماعية ، وآثارها والامراض النفسية او قل الخلقية ونتائجها هي واحدة في الامم ، تستوى فيها القديمة والحديثة ، وتساوى المدبرة منها والمقبلة . وارتقاء الحضارة ، ونضوج المدنية ليسا كافيين لدفع السكوارث عن الامم المريضة في اخلاقها ، وللوقوف في وجه الامراض الاجتماعية ، اذا تأصلت جذورها ، وثبتت اصولها ، ذلك لأن نشاط الامم وحيويتها مرتبطان بروحيتها واخلاقها اكثر من ارتباطها بحضارتها ومدنيتها ، او قل بعلمها وصناعاتها

ولست اقصد بقولي هذا الى الاستهانة بمكانة العلوم والصناعة ولا بأثر الحضارة والمدنية في حياة الامم . فالامة الفاضلة (واعني بها ذات الاخلاق الفاضلة) والعالمة خير من الامة الفاضلة فحسب ، هذا امر مفروغ منه ولكن الامة الفاضلة قد تستبقى حيويتها امام الامة العالمية المتفسخة الاخلاق ، وقد تصمد في وجهها صمودا يعجزها عن الظفر بها اما هذه الامة المتفسخة الاخلاق فقد تنطفئ شعلتها حياتها لا قبل عارض ، ولا أول صدمة وان كانت في الثقافة مبرزة .

ليس من شك في ان اليونانيين في عهد ارسطاطاليس ، وديموستيفس كانوا ارقى فكرا وانضج مدنية مما كان عليه أجدادهم ايام ليكورغوس وسولون ، ولكن شرائع ليكورغوس الرياضية ، وسولون المدنية العادلة كانت قد خلقت منهم قوما اقوياء الاجسام ، اقوياء الاخلاق اقوياء الروح فكانت بهذه حياتهم الحافلة بالانتصارات ، الملاهي بالمفاخر ولكن لما بدت اعراض المرض ، ثم تأصلت فيهم لم يستطع ارسطو ، ولا ديموستيفس ولا حضارتهما ان تحول دون المعير الاليم . وكذلك عظمة الرومانيين فقد كانت تسير الى نهايتها ايام كانت المدنية الرومانية تسمو الى اسمى درجات السكال ومن ينكر ان روما الشرقية كانت في عهد جوستينيان مثلا اغزر مادة ، وانضج عقلا واسمى ثقافة مما كانت عليه روما الام ايام رومولوس ، ونوما ، ومايكلوس بينما الاخيرة كانت قد سارت في طريق الحياة ايام هؤلاء ، والاولى كانت تسير في طريق الموت ، ايام هذا الامبراطور الذي وحد الشرائع ورتب الموسوعات الفقهية المعتبرة ؟ وما كانت مدنية العرب حينما اندفعوا ذلك الاندفاع المعجز ؟ ولكنهم اضاعوا حريانهم ، وتخلوا عن سيادتهم ايام كانوا من حضارتهم في الذروة ، ومن نضوجهم العقلي في الغاية !! .

وهذه فرنسا اليوم التي استسلمت ولم يمر على التحامها بالقوات الالمانية اكثر من اسبوعين كاملين فهل يستطيع ان يغمز مدنيته غاض ، ويظعن في

ثقافتها طاعن ؟. واماكن ما هي اسباب اندحارها ثم استسلامها ؟
انها الاخلاق ١١.

لقد كان رجال الحكم يسيرون امور الدولة ، وقلوبهم متوزعة بين
رشف نفور الخليلات والعشيقات وبين حفلات اللهو والرقص، وعقولهم
منصرفة الى اكتناز المال ، والحصول عليه من اي سبيل، كان، ففي كل لحظة
فضيحة وفي كل يوم مأساة، وارباب الصناعة ورجال العمل لا يفكرون الا في
انفسهم ومتعهم ورجال الجيش متهاونون والعمال يضيعون اوقاتهم في الاضراب
وفي التدمير ، ويخلقون الف سبب وسبب ليضعوا العراقيل في سبيل انتاج ما
تحتاجه قواتهم المسلحة ، وامنهم من المواد المطاوعة كل هذه وغيرها من
الحالات الموجهة كانت تعتور حياة الامة لان النفوس كان قد ابطرها الترف
والهاها النعيم وانساها واجبها الثراء، وحبب لها الحياة غارقة في لذائذها
واجفها من الموت في سبيل المجد ، التفسخ الاخلاقي المريع الذي منبت به ولم
يكن بيتان مسرفا حين نهى على فرنسة المندحرة انفاسها في اللذائذ ونسيانها
الواجب ، وتهاونها في المقومات الروحية وتلبسها السبل التي هدت الى الفوضى
في الاخلاق . وان بريطانيا وان ظلت محتفظة من اخلاقها وتقاليدها
بنصيب وافر ولاكنها ايضا اصيبت برجة عظيمة من الناحية الروحية. فقلما
تجد بين رجالها من يماثل مشاهيرها في القرن التاسع عشر فالستر اسكويث
ان يكن وليام بيت . واويد جورج لن يكن غلادستون ولا بلدوين
كاللورد سايبوري حتى ولا تشرشل وهو اصلب رجل عرفه هذا العصر في
بريطانية كدزرائيلي . ان انتصار الحرب الماضية قد اسكر الخلفاء جميعهم
وان تفاوتت القابليات بتحمل هذا السكر بالنسبة لبعضهم البعض ، فالروح
القوية التي كانت تعتمز بها بريطانيا قبل هذا القرن لم تحافظ عليها بعد ظفرها
اللامع في الحرب السكونية الماضية . والانتصارات بقدر ما تفيد المنتصرين
فانها تفرس في تربتهم بذور الضعف والانحلال وقد يتأخر نمو هذه البذور

والعدل والحق لا يختلف معناهما ، ولا يقباين تفسيرهما بالنسبة للفرد او بالنسبة
للفرد والجماعة (الدولة) او بالنظر للجماعات (الدول) بعضها البعض . فالحقوق
المعروفة يجب احترامها ، والواجبات المفروضة من اللازم تأديتها . ولو كانت
النفوس خالصة مما يشوبها من شوائب آثارها ملموسة ومعالمها محسوسة ، اسارت
الانسانية على ضوء هذه المعاني الواضحة والتعاريف البينة ، هادئة مطمئنة ،
واسكنها اهملت وتركت فخصدت الانسانية وما زالت تحصد مرارة الترك
وعلقم الاهال ولا اريد ان امعن في التشاؤم واسرف في انكار وجود العدل
والحق ، فتاريخ الانسانية يضم بين دفتيه مثلاحية وصورا رائعة للعدل والحق
بمعنيهما الاصيلين ولكن هذه المثل الحية والصور الرائعة والسفاهة ... ما تكاد
تستقر في الذهن حتى يترايل اثرها وتابدد محاسنها ، ويحتوي ضوءها اللامع
ظلام دامس ، كأنها اشعة الشمس عند الغروب ، افزعته جحافل الليل
الزاحفة عليها فودعت علمها ، الضاحك تاركة وراءها في الافق للحظات
معدودة ، لونا ورديا هور من شهقتها واثر انفاسها . او كأنها رؤى لطيفة
واحلام جميلة ما تكاد النفس تفتتح اليها وتأنس بها حتى تفاجأ بالمقظة
القائلة فتتهاوى ألما وتضطرب أسفا فتعود هائمة في آفاقها القائمة سابحة في
اجوائها المعتمة .

ابن نجد هذه المثل الحية والصور الرائعة ؟ في قرار الاتيين في ارسال
حكيم الانسانية سقراط الى القبر ولم يكن له من ذنب سوى حبه لهم ،
ومحاولته هدايتهم سواء السبيل ، ام في عقاب القرطاجيين اعظيمهم هانيبال
ونفيه من ارض الوطن وهو الذي كان قد ذب عن حياضهم ، وانهم لولاه
لما خلد التاريخ لهم ذكراً ولا اشادهم بمنقبة ؟ اين نلسمها . في امر الطاغية
(دهنيس) طاغية سيراكوزة ، حين دفع برأس سيد من سادة قومه الى الجلال
لانه رأى في الحلم انه قاتل له وقص رؤياه مازحا لاصدقائه ففسر الطاغية هذه

الرؤيا بتعمده لقلبه ، لأن الحلم انما ينكشف فيه ما كان يفتويه الحالم في اليقظة ؟ ام في اعداام احد قياصرة روما من اختصم مع فرد من افراد حاشيته فاعتبر ذلك تجاوزاً على حقوق العرش ؟ أم في عبث (نيرون) في قيثارته على اصدقاء روما وهي تحترق ؟ اين نتحسسها في تعذيب « غايلا » لانه قال بفكرة ، ام في حرق (جان دارك) لانها انقذت وطنها ام في مجزرة (بارتلموس) نعم ! اين نجدها ؟ أفي طغيان شارل الاول ام في اعمال « كرومويل » بعد ان اهوى برأس شارل التممس واستبد بشعب قدس الحرية تقديساً ، ام في المظالم التي جاءت على ايدي لويس الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ونبلائهم أم في الدماء التي اراقها مارا وروبسير ودانتون وسان جوست بعد ان اقاموا جمهورية حمراء ، على انقاض الملكية الغاشمة ام في صرعى قيصر ووسية ورجاله ام في ضحايا العهد البلشفي ؟ ان نفس الانسان لتذهب شعاعاً وقلبه ليتصدع الماء ، اذا اراد ان يستنطق التاريخ ويستحكي الماسي المروعة ، والجنائيات الفجيعة التي ارتكبت باسم العدل ، وباسم الحق ، تارة بحجة صيانة اخلاق الشعب واخرى لانقاذ المملكة وطورا للدفاع عن الكنيسة وآخر لحماية طبقات الشعب من تحكم النبلاء وذوي الامتياز وهكذا نجد العقول البشرية تسعى لتجعل من هاتين الكلمتين البسيطتين ، سلاحا ذا حدين ماضيين يستعمل للخير وللشر وان كان نصيب الشر منه اوفر ، وحظه فيه اكثر . وما زال هذا السلاح يستعمل من قبل الامم التي تزعم التدين والحضارة حتى اختلط الحق بالباطل وامتزج الرشيد بالغي والجد بالعبث فكل فريق يدعي ان الحق في جانبه ، وانه انما يقوم بما تفرضه عليه العدالة . ويلعبون بالالفاظ ويسبقون عليها من المعاني ما يحلو لهم ، ويروق فاذا جادلتهم بالحسنى ، وسعيت ان تصل واياهم ، الى الحق المحض ، والعدل المطلق لحظوك شزرا ، ونقضوا اوزارهم اليك فجعلوها عليك وزراً . فان كنت ضعيفاً سحقوك ، وان كنت

قويا ناهضوك حتى تنفي، الى غيهم وتخضع لارادتهم وإلا فما هذا العبث المربع
 في مصائر الأمم ، وحریات الشعوب ؟ ما هي فائدة الشعوب المستضعفة
 والاقطار المحكومة باساليب الاستعمار المقيمة اذا انتصرت الديمقراطية ،
 واندحرت الدكتاتوريات وبالعكس ، ما دامت تدار ادارة مستبدة عاتية ،
 وتحكم بطرق كيفية مطلقة ؟ هل اذا انتصرت بريطانيا ، تنعم الهند
 باستقلالها والبلاد العربية بحريتها وهل تظفر فلسطين بالنجاة من شرور
 اليهودية ، وسورية من العبودية الجاثمة فوق صدور بنيها
 ام هل تنال مصر والسودان والجزائر وتونس وصرا كش الحكم الذاتي
 وتحفظ بحيراتها وكنوزها ام ترى نور الانعقاد ، يتماوج في افاقها تلك
 الاقطار الواسعة في افريقيا والجزر العديدة المنبثقة في المحيطات ؟
 ماذا يصيب هذه العوالم المنكوبة بحرياتها ، وبحيراتها ، وكرامتها
 وعزتها من خير اذا انتصرت الديمقراطية او اذا اندحرت ، حتى يطلب
 اليها ان تؤيد فريقا على فريق ، وتفضل قوما على آخرين ؟ ان
 تجاريب الماضي القت في روعها اليأس ، وضربت على افئدتها بغشاوة القنوط .
 فما هي الضمانات التي تطمئن اليها النفوس ، وتزدهر بها الاعمال
 وتفتش الاماني ، في المستقبل وفي كل يوم يقوم الف دليل
 ودليل ، على تهالك الامم القوية واستئثارها في سبيل التوسع والاستعمار ،
 وايشار المادة ، على مبادئ الحق والعدل والانصاف ؟

هذه روسية قبل ٢٣ حزيران سنة ١٩٤١ كانت في عداد الدول الدكتاتورية
 الفاشية التي لا تحترم قانونا ولا تقدر مبدأ ولا تأبه بحرية ولا تعف عن
 سفك الدماء ، وارتكاب المحرمات ، هذه الدولة الباطشة ، العاتية اصبحت بين
 عشية وضحاها ، في جلاء الديمقراطية المقدسة للمبادئ والحريات ، المحترمة
 للقوانين ، الضامنة بالدماء ، الرافعة راية العدل والحق ، فماذا تبدل في روسية من

نظام او تغير من وضع حق تنقلب فجأة من دولة شريرة الى دولة خيرة قوامة
على مبادئ الحق والحرية ؟ أليست هذه معان ، تسببها الميول والنزعات على
الالفاظ وفق الظروف ، وبالنسبة للمصالح المادية ؟ وما يمنع ان تتقدم القوى
الظافرة ، بعد ان تضع الحرب اوزارها الى الشعوب المستضعفة بسكؤوس
مترعة بالسم الذئاف ، تجرعها اياها على انها كؤوس مترعة بماء الورد ، او
الشهد الحلو المذاق ، وان تضفي عليها اردية الذل والعار ، وأسمال العبودية
والصفار ، باعتبارها اردية المجد وحمل الحرية والاستقلال اذا كان العيب
بمعاني الالفاظ الواضحة في دلالتها ، يصل الى هذا الحد ؟

ديمقراطيتهم

وهذه الديمقراطيات او الدكتاتوريات ، فاذا يقصد بها ، وما يفهم من مدلول هذه الكلمات ؟ ليست هناك امة في هذا العالم ترضى ان تنعت بالدكتاتورية ، وتخطب بالمستعبدة فكما ان الديمقراطيات تتهم دول المحور بالدكتاتورية فهذه ايضا تجيبها بعين الاتهام وترد عليها بمثل اللهجة التي خوطبت فآين تستقر الحقيقة وفي اي جانب ترى الصدق ! وهل تركت الروح المادية العنيفة اثرا من الحقيقة والصدق ، في هذا العالم الهزيل المريض المتخاذل ...؟

نحن نفهم ان النظام الديمقراطي قائم على مبدأ سيادة الامم وانه نظام يقدس الحرية بالنسبة للفرد وبها النسبة للجميع فنظام هذا مبدؤه وهذه روحه لا يقر الظلم ، ولا يستسيغ العدوان على مصائر الامم ، ولا يؤمن بمنطق الاستعمار ، والا يكون مبدؤه وهما ، وروحه خيالا . فهل الامم التي تدعي انفسها الديمقراطية تحترم المبدأ والروح هذين في غيرها من الامم ؟ ثم أين نجد الديمقراطية ؟ في روسيا وستالين ارادته قانون وامره ليس له مرد ، تنصاع لآشارته روسية من ادناها الى اقصاها ويفرق من غمزة حاجبه الرؤساء والعظماء والقواد ويتملقه حتى رئيس الدولة ، والجمهوريات الروسية ويدعوه بزعيمي العظيم ! . فهل الديمقراطية تستسيغ ان ينفرد بالحكم فرد ، ويتحكم في مصائر امة ضخمه كالأمة الروسية رجل واحد ؟

ان ستالين لم يستمد هذا السلطان من الامة الروسية ولا من منصبه كرئيس وزارة ولكنه يستمد من الحزب السوفيتي ، ومن منصبه فيه

كسكرتير عام وهذا الحزب هو القابض على شؤون المملكة المترامية الاطراف وهو المهيمن على اسباب الحياة والموت فيها وهو بالنسبة الى مجموع الامة اقلية ، واقلية ضئيلة فإين نلمس الديمقراطية في هذا النظام ..؟

واميركة اين نجد المبدأ الديمقراطي واهدافه من نظامها ؟ أليس رئيسها هو السيد المطلق في البلاد ، والفرد الذي لا تقاوم ارادته ؟ اين وزرائه وهل لديه وزراء ام سكرتيريون ان شاء ابقاهم في خدمته وان شاء طردهم لا رأى لهم الا رأيه ، ولا مبدأ الا مبدأه ؟ هذا ابراهام لينكولن وهو انقف واعف وانزه رئيس جمهور انجبتة الدينا الجديدة . فهل ينس المتقبحون للتطورات السياسية فيها انه حين جمع سكرتيريه لديه مرة وشاورهم وكانوا على ما اتذكر سبعة فأبدوا رأيا خلاف رأيه - قال لهم ان سبعة في رأي ، واني في رأي فألاكثرية بجانب الرأي الواحد . فامضى رأيه واهمل آراء السبعة الذين هو نفسه كان قد استدعاهم واختار مشاورتهم بمحض ارادته ؟ وهذا روزفلت أو لم يدفع بالامة الاميريكية الى الحرب وهي مكروهة ؟ كلنا نذكر ما حدث في الانتخابات وكلنا نخطر وعده الذي اعطاه للامة الاميريكية في تجنبها ويلات الحرب اذا ما فاز في الرئاسة وتجدد انتخابه فهل بر بوعوده لأمته ! ولو كانت الامة الاميريكية تميل الى فكرة الحرب فلماذا كاد يصرع في الانتخابات لو لم يتدارك موقفه باعطائه هذا الوعد الصريح ، او ليس اضطراره هذا وحده كافيا للبرهنة على مقى هذه الامة لفكرة الحرب ؟ ولكنه أية وسيلة توصل الى تحقيق هذه الفكرة ولم يستعملها روزفلت ، واي طريق لم يسلكه اليها ؟ فإين هي المبادئ الديمقراطية من هذا النظام ؟ ولماذا تكون روسية ديمقراطية واميركة ديمقراطية والمانيّة ليس لها حق الدخول في ضمن هذه المجموعة وهتلر اقل منها صلاحية ، وحقوقا ؟ والنظام النازي نفسه لا يستسيغ ما استساغه النظام السوفيتي ، ولا النظام الرئيسي الذي تخضع له اميركة ؟ اني لم اتفرغ لدراسة النظام النازي ، ولم

اكن في سعة من الوقت لا محص اصوله ، وادقق في فروعه وانما اثبت هذا
الرأى عنه وتبعته واقعة على عاتق السير نيفل هندرسن السفير البريطاني لدى
حكومة برلين ، حيث صرح فى مذكراته التى نشرت بعد استعمار نار هذه
الحرب بسمع الحكومة البريطانية وبصرها ، بان النظام النازى هو من ارقى
النظم الديمقراطية ، وانما كان يسند بعض التصرفات التى يراها خاطئة الى
اشخاص معينة لا الى حقيقة النظام النازى ومبادئه ونيفل هندرسن انكليزى
ممتاز فى ثقافته ومكانته السياسية ويمتاز فوق ذلك باخلاقه الرضية وسلوكه
الحميد . فشخصية لها هذا المقام الرفيع لشهادتها قيمة ولاقوالها خطورة
ولرأياها مكان مرموق ! ..

اما بريطانيا فبرغم الجراح الدامية التى انحنت بها جسد العالم العربى ،
والسهام القاتلة التى ارستها الى حريته واستقلاله ، فلا يستطيع ان انكر عليها
ديمقراطيتها فى جزيرتها ، حتى فى ايام الحرب الملائى بالرزايا والمحن هذه الايام
التي تسوغ التصرفات الشاذة والاعمال النابية عن النظم الديمقراطية . لا
استطيع ان انكر ذلك لاني لست خصما للشعب البريطانى او مستهينا بمزاياه
وسجاياه النبيلة وان كنت خصما لسياسة حكومته فى بلادى ، وعدوا
لدودا لمبادئها التى تريد فرضها على شعبي فرضا . ولكن هل ان بريطانيا
ديمقراطية حقا فى ممتلكاتها ومستعمراتها والاصقاع التى وضعها سوء حظها
ونكد طامعها على طريق الهند ؟ .. ان بريطانيا فى جزيرتها لا تعد شيئا
مذكورا اذا ما قورنت بهذه المستعمرات والممتلكات والاصقاع . ان نفوس
الاخيرة تفيض على الاربعمئة مليون من البشر تسخرهم الجزيرة التى لا تزيد
نفوسها على الاربعين كما كان الفاتحون القدماء ، يستخرون العبيد الارقاء ،
وتعاملهم معاملة اقل رفقا مما يعامل السيد الانكليزى بهيمته ، اذا يقبوا الذوق
ان قلت كلبه . فاني هي الديمقراطية . هل نجدها فى الهند ، وتأريخ الهند
حافل بالمأسى الدامية ، عاصر بالمذابح والمجازر البشرية ، ومن يقرأ هذا التاريخ ،

ولا يدمع قلبه قبل عينيه ، وتنتفض روحه قبل ان ترتعد فرائضه وترتجف اطرافه ؟ . من الذي اطلق النار على المعصومين ، في الشوارع ، وشحنها بالجمث ، ومن الذي امر الناس ان يزحفوا على الركب امعانا في الازلال ، ولم يكن الغارقون في دمائهم ، ولا هؤلاء الزاحفون على ركبهم قد عصوا قانونا وانهم ارتكبوا امرا اذنا ، وانما شاءت رغبة الوازع عليهم ان يكونوا عبرة لغيرهم ، ودرسا لسواهم ، من قام بهذه المحرمات غير رجال الحكومة البريطانية في الهند ؟ وما هذه الارواح البريئة التي ازهقت عندما قرر المؤتمر مؤخرا تأييد قرار الزعيم غاندي ، وما هذه المثات من الرؤوس الهندية المفكرة وعلى رأسهم زعيمهم ، تعصرهم المعتقلات عصرا ، وتضغط عليهم اقبيبة السجون ضغطا لا رحمة فيه ؟

وما هي جرائم هذه الضحايا ، وما هي ذنوب هؤلاء الصرعى . فهل كانوا غير اصحاب حق طالبا بوابه ، وذوي فكرة ارادوا تحقيقها ، وذوي نفوس اضناها الجور وعيون اعمشها الظلام ، فطمعت في ان تلمس هواء حراً تنفسه ونورا تقين فيه الطريق ؟ اين نجد الديمقراطية ؟ انجدها بين امواج الدماء العربية واثابجها في فلسطين ام بين الهامات والرؤوس العزيزة التي اطاحها الظلم ؟ اين نجد الديمقراطية ؟ انجدها في موقعة الاسكندرية في حادثة الاعرابي ام في السجون التي اكتظت ، والمنافي التي زخرت باعاطم مصر ، وخيار حزب الوفد ام انجدها في حوادث البوير وما سالت بسببها من دماء تخضب بها جبين العصر العشرين ، عصر الحرية والثور ؟ . اربعمئة مليون رقيق او يزيدون تتصرف في مقدراتهم بريطانيا الديمقراطية ولم يحن الوقت لعتقهم بعد ؟ ان روما عندما يكثر فيها الرقيق ، وبقيضون عن حاجة ابنائها كانت تجود عليهم بالعتق ، فتمنحهم الحرية ليندجوا في مجموعة الاحرار ولم يكونوا يعدون بالملايين وانما بالآلاف او عشرات الآلاف فتضيق بهم ذرعا ، فما لهذه الامة الديمقراطية لا تضيق ذرعا بهذه

المئات من الملايين فتمنحهم الحرية ، وتفدق عليهم نعيم الانعتاق ؟ انها حرمت
النخاسة على السود لتسترق البيض والسود والصفير وكل لون . انها قضت على
قيود الرق وانعامته لتكون مطابقة الحرية في الاسترقاق . انها حظرت على
السادة ان يؤرأ في بيوتهم ومخلاتهم وممتلكاتهم ارقاء يسقونهم ويطعمونهم ،
ويكسونهم وينفقون عليهم ما يسعهم الانفاق ، لتمتلك هي الارقاء يسقونها
رحيقا ويطعمونها لذيذا ، ويكنزون لها الأموال ، ويدخرون لها الخيرات
خالصة الاجرة صافية من النفقات ! ان الذين شرعوا الرق ، واحكموا نظامه
هؤلاء ايضا كانوا قد شجعوا على تحرير الرقاب ، وحببوا الى الناس او لئلك القساة
تفكر بريطانية الديمقراطية ، مما شجع اليه وحببه الى الناس او لئلك القساة
الظالمون ؟

ان فلاسفة العهود الخالية وفقهاءهم اللذين قالوا بمشروعية الرق ،
وقانونيته كانوا قد اعتبروا الرق مشروعاً بحق اسرى الحرب ونظروا
اليه كنفدية عن دمائهم التي اهدرها العرف الدولي آنذاك وجعله ثمنا لحمايتهم
التي كانت تعتبر ملكا للغالب المنتصر . ولكن العرب يا عزيزتي بريطانية
الديمقراطية ، كانوا معك حربا على اعدائك ، وعونا لك على اخوانهم في الدين
ثقة منهم بالحرية ، واملا في الاستقلال ، فكيف يجوز استرقاقهم وبأى شريعة تحمل
لك مصادرة حريتهم واغتصاب حقهم في الاستقلال ؟ يقول رجال بريطانية
وساستها اننا منحنا حق الحياة للعرب . فهاهم يهيشون . والعرب ايها السادة
لا يريدون حياة هي اشد ألاما من نزعات الموت ، واكثر ظلاما من ظلام
القبر . انهم يطلبون الحرية ! الحرية ! نعم الحرية فقط ! ان الطير في
الهواء والنجم في السماء ، والحيوان على الارض الفقراء ، والسماك في قعر
الماء ، يتمتعون الحرية ، وبهاواها . فلستنا ايها السادة بأضعف من الطير وجدانا
ولا أبلد من الحيوان شعورا ولا اضعال من السمك احساسا بل اسنا في تاريخنا
وماضيها بأقل من النجم لمعانا ! فأين حريتنا ؟ اين ؟

أين هي ديمقراطية بريطانية ؟ وماذا يجدي النظام الديمقراطي نفعا ، وماذا يفيد البشرية إذا كان يقتل جزءا يسيرا من سكان المعمورة ويترك الأجزاء الكبيرة الباقية هدفا لطغمان الاستبداد وغرضا لسهامه القاتكة ؟ . على اننا نطلق اصطلاح الديمقراطية على نظام الجزيرة البريطانية على سبيل المجاز لا الحقيقة لأن الديمقراطية الحقيقية لا يمكن ان تستقر وتثبت أساسها إلا في البلاد الصغيرة ، أو بالأحرى في الجمهوريات الصغيرة . فالديمقراطية كانت ثابتة الأركان في المدن اليونانية القديمة لأنها كانت صغيرة وكان لكل منها حدودها ، وسيادتها الخاصة ، ولم تجتمع كلمتها ، وتوحد صفوفها الا اذا هاجمها مهاجم ، او هي ارادت الهجوم اسبب من الاسباب . فالديمقراطية هي حكم الشعب . واشترك الشعب في الحكم ، اشتراكا حقيقيا انما يكون في المدن الصغيرة فان اتسعت رقعة المملكة انتخب الشعب عنه ممثليه . وكلما زادت الرقعة اتسعت تضائل اثر التمثيل الشعبي ، وابتعد عن الغاية التي تنشدتها الديمقراطية . ولقد كان مونسيكو مصيبا حين بحث عن الديمقراطية في الجمهوريات لأن التمثيل الشعبي يكون فيها اقرب الى الحقيقة ولأن الديمقراطية تقوم على الفضيلة ، اعنى الفضيلة السياسية ، اي شعور الفرد بفناؤه في المجموع ، وتطبعه على تضحية مصلحته الشخصية في سبيل الصالح العام . وهذا الطبع وهذا الشعور لا يتوفران في فرد يعيش مملكة واسعة الارحاء ، مترامية الاطراف ، حيث تكثر فيها الفروق الاجتماعية ، من حيث توزيع الثروة ، والثقافة ، والتربية الاجتماعية ، والتنافس بين الطبقات وقد اثبت التجارب فساد النظام الديمقراطي الحاضر وانحلاله وعمت الشكوى منه في مثل هذه البلاد الواسعة ولم يكن فيلسوف من فلاسفة القرن التاسع عشر اكثر تبرا بما وصلت اليه حالة الديمقراطية من هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزي ، وما زالت عبارته القارية ترن في الاوساط الديمقراطية ، تلك التي يقول فيها ان واجب الاحرار في الماضي كان ايجاد حد لسلطان الملوك ، واما واجبه اليوم فهو ايجاد حد لطغمان المجالس التمثيلية

واي مجالس تمثيلية هذ ؟ ليت انها تمثل حقاً الشعب الذي تتكلم باسمه ،
وتصدر القوانين برسمه . ولسكنها في الحقيقة لا تمثل الا اشخاصا ، قليلين
تمكنوا اما بذلاقة اسانهم ، واما بنفوذهم المالي ، او الاجتماعي من تزعم
الاحزاب التي تكون الا كثرية في المجالس التمثيلية . وهذا السبب نرى زعماء
الاحزاب اللذين يتولون الحكم يكونون اكثر بغيا ، واشد خطرا على
الحرية العامة مما كانت عليه الملوك المستبدون في الزمن الماضي . ومن الطبيعي ان
يكون استبداد هؤلاء اشد خطورة ، واثقل عبثا على الشعب ، لانهم ينفذون
ارادتهم فيه وهم يوسمونه بانها هي ارادته ، ويحققون مصالحهم ، وهم
يخدعون به بانها مصلحته . فهم في الواقع ملوك مستبدون متعددون في شعب
واحد ولسكنهم غير مسؤولين لان من مزايا مثل هذه الديمقراطية هو ضياع
المسؤولية ، وانعدام الحق ، وتبديد ثروة الامة وانحلال اخلاقها ان علماء
الحقوق الدستورية ما زالوا يكون هذه الحالة ، ويرسلون الحسرة تلو الحسرة
مما جرت هذه النظم على الشعوب من مصائب وبلايا ، ومما تركت في اوساط
المجتمع من آثار سيفة في الاخلاق ولقد قارنوا بين هذه الديمقراطية المفتعلة
وآثارها ، وبين غيرها من النظم التي قيل انها مستبدة : او في الحقيقة انها
مستبدة - لان الدكتاتورية مثلا لا يجوز ان توصف الا بهذا الوصف -
ولسكنهم خرجوا من هذه المقارنة ، بالاعتراف بانهمزام الديمقراطية ، وبخيبة
الامل في هذا النظام . ولم يجدوا فارقا يفرق بين الدكتاتوريات والديمقراطيات
الحديثة ألا ان قرارات السلطة او ما تريد تنفيذه منها يكون عرضة للمناقشة
في الاوساط الديمقراطية ، واما في الاوساط الديكتاتورية فهو يتخذ قبل ان
يعرف . واما الفوارق الاخرى فليست بذات اثر يستحق الذكر ولسكن
هذا الفارق الاساسي الذي تتبجح به الديمقراطية او يفخر به دعايتها انما هو
وهم من الاوهام ايضا لان الحزب المسيطر هو الذي يملئ القرارات ، ويفرض
القوانين واما حزب الاقلية فلا وزن لرأيه ولا قيمة لاقتراحاته اذن فما

هي فائدة المناقشة العلنية اذا كان الاساس في فرض القوانين واملاء القرارات هو القوة لا المصلحة العامة واكثرية الآراء لا اصح الآراء ولما كانت القوة واحدة فالنتيجة واحدة اي كما ان الدكتاتوريات تفرض آراءها بقوة السيف كذلك الديمقراطية تفرض ارادتها بقوة كثرة الآراء فماذا يستفيد الشعب من المناقشة والمجادلة والمهاترة؟ واما ما يتركه مثل هذا النظام الديمقراطي في الشعب من آثار فذوا اثر عميق وخطورة يعجز القلم عن وصفها ان ثروة الامم تبدد لاشباع شهوات الناحبين ومطامعهم فالممثلون يستهينون بأموال الشعب بغية الظفر بثقة الناحبين ، والناخبون يسرفون في مطالبهم ، مستغلين نعمتهم التي كانوا قد اغدقوها على ممثليهم ومهددين اياهم بنزع الثقة في المستقبل ان لم يحققوا تلك المطالبات . والاخلاق يسودها التفكك ، ويعمها الانحلال لان كسب الآراء على الاكبر يكون بطرق من شأنها ان تفقد الافراد عزة النفس ، وتضعف فيهم سجة الاعتداد بالشخصية بل تमित فيهم الضمائر والوجدانات فالسيد في ملكه يختطف اصوات فلاحيه ومأجوريه وصاحب المصنع ، يسلب ارادة عماله ، والتاجر في محله ، ورؤساء الشركات في شركاتهم كل هؤلاء يستعملون أنواع الطرق للظفر بأصوات عمالهم والتابعين لهم واذا ما اعوزتهم الحيلة لربح المعركة ، اشتروا الأصوات بالمال وسخروا النفوس ، بالمنح وسائر المغريات وما اكثرها . فاذاتحدث هذه الطرق في الاخلاق ، وفي نفوس الافراد غير كل شيء سيء؟! ومع ذلك تنتهي هذه المهازل الخلقية والاجتماعية الى نتيجة واحدة ، هي سيطرة افراد معينين واستبداد اشخاص معدودين وبالتالي تحكم القوة بالضعف والكثرة التي يلعب بها ويسيرها افراد معلومون بالقلة ، فأي ديمقراطية هذه وما فضلها على الحكم الفردي او رجحانها على الادارة المستبدة؟

قد يقال ان الديمقراطية الحديثة برغم هياتها ، واخطائها ، ومساوئها فهي اكثر نفعاً للانسانية من غيرها من النظم فهل تريد ان يسود

الحكم الفردي في الشعوب ؟ أم لديك نظام آخر أكثر صلاحاً من هذا النظام ؟
 اني لا اقول ان الحكم الفردي صالح ويجب ان تأخذه الشعوب ذلك لاني
 ولدت حراً ، ونشأت حراً وعشت حراً واريد ان اموت حراً ومن كانت
 الحرية ، أمه ومبتغاه وسكته ومأواه ، فلن تميل به النفس الى اي نظام
 لا بقدر الحرية ، ولا يحترمها . والحكم الفردي قاتل للحرية مستحل لحرمانها في
 الاغلب ، وانما الدافع الذي دفعني الى ان اعترض على هذه الديمقراطية ، هو اعتقادي
 بان ما يطلق عليه اصطلاح « الديمقراطية » هو بعيد عن مفهوم الديمقراطية
 الصحيحة ، ولا يتصل بها بسبب من الاسباب . لأن الديمقراطية الصحيحة
 محلها الجمهوريات ، والجمهوريات الصغيرة فقط تلك الجمهوريات التي يمكن للشعب
 اما ان يشترك فيها بجمعه في حكم نفسه واما ان يثدب عنه ممثلين ، هو عارف
 بحقائقهم ، مطلع على ميولهم ونزعاتهم ، مطمئن الى قابليتهم واقتدارهم . وهذه
 الصفات لا تتوفر فيما يسمونه اليوم « ديمقراطية » . واني زعيم بأن هؤلاء
 الذين ما زالوا يرددون على الاسماع نعمة « الديمقراطية » لا يكون
 انفسهم من الاسترسال في الضحك على عقول الناس في خلواتهم ،
 والسخر منهم ، في نجواهم حيث يرون خدعتهم قد جازت عليهم وضلالتهم قد
 استبد بهم .

اما أي نظام آخر اريد فلست صاحب الكلمة في المجموعة الدولية
 حتى تكون لي ارادة في الموضوع ، ولست بالامر المطاع في عشيرته وقبيله
 حتى يكون لي رأي نافذ ، وانما انا فرد من سائر الافراد وواحد من هذه
 الاحاد آله الطغيان الفردي في الازمنة الحالية ، وفي الامم المستضعفة في
 هذه الايام فقته ، وافزعه مارأى من آثار سيئة فيما يسمونه النظام الديمقراطي
 فجاء ينقده ويفضحه . ولئن كنت لاحول لي ولا طول في تغيير مجرى
 الحوادث ، وتبديل انواع الحكم فليس هناك ما يمنعني عن ان ابدى رأياً
 واهتف بخاطر شأن من يرسل بصره وهو على الغبراء ليصف جمال القمر

وهو في كبد السماء ، او من يرسم برشته قمة الجبل وهو يتطلع اليها من صميم السهل !

ان الديمقراطية سواء كانت صحيحة ام مزيفة ، فليست بالنظام الوحيد الذي بدونه لا ينهنا شعب ولا تسعد اممة افلاطون لم ير الديمقراطية خير الانظمة ، وانما بالعكس فإنه قال عنها انها تؤدي الى حكم الفوغاه (الرعاع) وهذا النوع من الحكم يؤدي الى الحكم الفردي اي للادارة المستبدة وانه يرى ان « الارستقراطية » خير انواع الحكم ، وان كان استقراطية افلاطون ليست كالارستقراطية التي منيت بها القرون الوسطى ، تلك الارستقراطية التي كانت وقفا على طبقة السادة اي الاء كابر والاعيان ذوي الامتياز ، وانما ارستقراطية افلاطون فانها تتمثل في طبقة الفلاسفة والحكام تلك الطبقة التي خصها بمزايا خاصة وافترض فيها شروطا معينة لان الحكم صنعة وادارة امور الشعب واجب ثقيل تنوء به العقول الضعيفة ، وتشفق منه النفوس الواهنة غير المهيبة . والنظام الاسلامي فرض الشورى ولكن هذه الشورى يقوم بها ذوو الحل والعقد في المملكة الاسلامية وهم معروفون فليست هي اذن شورى يشترك فيها الرعاع ، ويعتبر بها الا فاقون . والعقل الانساني يستطيع ان يوجد نظاما للحكم يلقي مقاييده في ايدي الاخبار من الشعب ويكفل في عين الوقت حريات ابنائه وتقدمهم الفكري والاجتماعي ، ويفشي نوعا من التربية الاجتماعية توقظ في النفس الاحساسات الكريمة ، وتبعدها عن نوازع الشر وللتربية العامة في أي شعب له صلة وثقى بنظام حكمه (١) . ليس الانسان شرا محضا كما رآه ماكيافيلي فصاغ له تلك الاصفاة المحكمة لضبطه ، وبين للامراء تلك الطرق الفادرة المخيفة لامتلاك ناصيته . وانما هو يكون اقرب الى الشر وادنى الى الخير او بين

(١) لذلك اعتبر افلاطون في « شرائعه » وزير المعارف « التربية والتعليم » والمشرع عليها اول رجل في الدولة التي يتخيلها .

ذلك وفقا للتربية التي نشأ عليها ، والوسط الذي عاش فيه . والبيئة التي احتملته والارض التي اقلته ، انما نشأ الفراعنة والقيصرية العتاة ، والا كاسرة الجفافة والملوك المستبدون ، والحكام الظالمون ، في اوساط كانت تغتبط با ظلم والعدوان وفي بيوت كانت تربيتها تنفث في نفوسهم ميول البطش وتنمي فيها نزعة اذلال الضعيف ، واسترقاق الفقير . وكذلك قل عن السفاكين والقاتلين والسارقين وسائر المجرمين الذين يخلون بهدوء الهيمسة الاجتماعية وطما نيبتها . وقد اثبت العلم ، وايدت التجارب ، ان للبيئة اثرها في تكييف الانسان ، وللوسط فعله ، وللتربية قسطها . فكثيرون ممن يكونون ضحايا العدالة ، نتيجة لتصرفاتهم ، كان يجوز ان يكونوا في نجوة مما اصابهم لو تهيأ لهم وسط غير الوسط الذي عاشوا فيه ، وبيئة غير التي نشأوا فيها واحضان غير الاحضان التي شبوا فيها . فهاذا تنتظر مثلاً من طفل ينشأ في احضان البؤس والفاقة ، ويموت عنه ابواه ، وهو لم يبلغ الحلم بعد وتركته المقادير يحوس خلال الأماكن الموبوءة ، ويعاشر الاشرار والفساق ، او طفلة تولد في دور البغاء وتعيش في دنيا الموبقات وتنغمس في حمأة الدعارة والفجور فهل تنتظر من الاول صلاحا ، ومن الثانية عفة وحياء ؟ وبالعكس من ذلك فقد يجوز ان يكفل ابنة المومس ، ووليد الشرير ، وسليل الفاسق بيت فيه تربته وفيه ثقافته وينشأ مؤلّا على آدابه ويتخلقون بخلق اهله فتجنى الانسانية منهم خيرا . والدين يؤثر في النفوس تأثيرا قويا يضارع الثقافة وانواع التربية الاخرى . واذا قلت الدين فلا اريد ان اخص ديننا بعينه ، وشريعة بذاتها . انما الاديان والشرائع على اختلافها وتباينها فانها تهمم النفوس بالخلل الحميدة وتهذبها وتصقلها حتى الوثنية منها فسقراط ، وسولون واربستقديس وافلاطون وملتياديس كانوا قد نشأوا في الوثنية اليونانية ولكنهم كانوا خيرا محضاً او اقرب الى الخير المحض ، وان من اسباب عظمة روما كان تمسكها باهداب دينها الوثني . يقول مونتكسكيو في روح قوانينه

ان الدين والاخلاق للرومانيين كانا بمثابة مرسمين اسفنية في وسط بحر
 متدافع الاذي وان الرومانيين بعد هزيمتهم في واقعة « كان » امام هانيبال
 القرطاجني كانوا قد تدمروا من الحالة التي صاروا اليها فارادوا الامتناع
 عن الاستمرار في الحرب ولكنهم تذكروا عيبتهم التي حاووها للقونسول
 الذي كان يقودهم فقتلوا فيما بينهم عن الطريقة التي تنجيهم من حوائثها
 حتى آل الامر باحدهم الى ان يقترح قتل القونسول حتى يكونوا في حل من اليمين التي
 سبق لهم ان أدوها امامه . ولكن لما اجاب احد عقلائهم بأن خطيئة القتل لا نقل عن
 خطيئة الخنث باليمين عادوا الى طاعة قونسلمهم واستمروا في الحرب وبرى وندسكيو
 ان هذا المثل من اروع الامثلة التي تضرب في مدى استمسك الرومانيين
 بدينهم على اني مع اقرارى بقوة هذا المثل وروعته فتاريخ روما ، يثبت في
 دفتيه امثلة اخرى اكثر روعة ، وابلغ تعبيراً عن روحهم الدينية وان
 انس فلا انس موقف ريحليموس الروماني ، حين كان اسيراً لدى القرطاجنيين
 فأرادوا هؤلاء الصالح والسالمة مع روما فانتدبوه ليكون وسيطاً في هذا
 الصلح ، وسفيراً لهم لدى روما على شرط ان يعود الى قرطاجنة اذا لم ينجح
 في وساطته واستحلفوه على ذلك . فهذا القائد الباسل كان قد ألم بوضع
 القرطاجنيين الحرج ، وبمدى التفسخ الروحي الذي كانوا قد صاروا اليه
 فاتخذ هذه السفارة وسيلة لا يفهم روما حقيقة الوضع في قرطاجنة لئلا تقبل
 بأي نوع من الصلح . فذهب الى روما وشرح الوضع امام مجلس الاعيان
 (السناتو) وطالبه بالمضى في الكفاح الى ان يتم النصر الحاسم الذي اصبح
 وشيك الحصول . وبعد ان قام بمهمته خير قيام ابلاغهم بضرورة عودته الى
 قرطاجنة لانه أقسم ، وعلى الروماني ان يبر بقسمه منها كانت النهاية التي
 تنتظره الية . مانع المجلس في عودته وتعلق به اقرباؤه ، وتلطفت به زوجته
 واصدر قاضي القضاة قراره بأن هذه اليمين لا تلزمه ولكنه تغلب على كل
 هذه المبطات ، فرجع الى قرطاجنة حيث لاقى مصيره المحزن . ترى اية قوة

لا تقاوم نفخها في روحه ذلك الدين الوثني ؟ ، وكسرى انوشروان نشأ ايضا في احضان الوثنية الفارسية وكان خيراً محضاً للانسانية وان من يقرأ ترجمة برزويه مستفسخ كتاب كليله ودمنة الشهير يعجب من تلك الروح الدينية التي شعت في جوانب نفسه واثرت في تكوينه وهي كما قلت ديانة وثنية وقس على ذلك كنفوشيوس في الصين ، وبوذا في الهند . فاذا كانت هذه الديانات الوثنية تغذي النفوس بهذا الغذاء الشهى فكيف بالاديان السماوية وشرائعها السمحة ، التي جاءت على ايدي موسى وعيسى ومحمد ، وهي تفيض خيراً ، وتتدفق برأ ، وتزخر بركة وتنشع سلاماً ؟ ١ . فالانسان اذن ليس شراً محضاً كما ظنه ما كيا فيلالي ، اذا كفلت تربيته نفس عالية ، ورعاه عقل سليم ! نعم يجوز ان يولد الانسان وفيه مرض ارثي يدفعه الى ارتكاب الشواذ فهذا نزر يسير في هذا الوجود يمكن ان يعالج معالجة المرضى المزمنين . ويجوز ان يكون للاقليم والطقس ، والجو اثره في الانسان واسكن التربية الصالحة تخفف كثيراً من هذه العوامل الطبيعية ، كما ان العلم قادر على الحد من مضائها [والخضد من شوكها . الا ترى الانسان في حال وحشيته لم يكن يتأثر عن العجاوات من حيث الخشونة والقسوة وقلة التدبير واسكن العقل الذي تكامل فيه ونما ، قد نقله من طور الى طور الى ان وصل به الى الحالة التي هو عليها الان ؟ فهذا التطور وحده دليل على ان الانسان يجوز ان تكييفه التربية الصحيحة الى الخير ، كما تميل به التربية الناقصة الى الشر . ان الوحوش الكاسرة ، والضواري الجارحة تروض ، وتلين عريكتها ، وترق شرتها اذا تعهدتها يد صناع ، وسرب ماهر ، فكيف بالانسان والله عز وجل قد انشأه على احسن تقويم ؟ ! ولئن عجزت الانسانية الى هذا اليوم ، عن ان ترى الانسان السكامل ، فان هذا العجز سببه ، ان العقل الانساني كان قد انهمك قواه في مجالات الطبيعة ، ولم يخص المجال الروحي الا بشيء قليل من عنايته . ذلك لان المادة من شأنها ان تغري العقول ، حيث فوائدها ظاهرة ملموسة ، ومنافعها سريعة عاجلة ، بخلاف المنافع والفوائد الروحية فانها تكون غير مرئية ولا لها لا قدر بخيرها ولا تثمر

ثمرها الا بعد زمن طويل وان كان خيرها اعم وثمرها اشهى والد كالسحاب
 المطر ، كلما تباطأ في سيره وتماقل في حر كته كان اغزر ماء واسح صوبا
 ولست اعني في قولي هذا ، ان العلوم الطبيعية غير جديرة بالعناية بالعكس ،
 فاني اقر بفيض هذه العلوم على الانسانية وبخيرها على البشرية واعترف بالقوائد
 والمنافع التي غنمتها الحضارة منها ولكن شغف العقل بها قد وصل الى درجة
 الاشباع من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد اهمت النفس ، وتركت العناية
 بهذيب الروح ، الى حد ان صارت الحياة في هذا العالم ، ضربا من الخجيم ،
 والانسان لا يقوي على تأدية رسالته في هذه الحياة الدنيا ، ونصفه سليم ،
 ونصفه الاخر سقيم . وهل تنتظر خيرا من انسان نصفه سقيم اشل ؟ ان
 الصحة يجب ان يتمتع بها الجسد بكامله ، فالرأس لازمة لزوم الاطراف
 والروح لازمة كذلك لزوم العقل . ومثل الصحة كذلك فانها لازمة للعقل ،
 وللروح ، وللرأس والأطراف بل ولكل وريد وشریان ونسيجة في الجسد
 فاهمال بعضها ، يستلزم مرض هذا البعض ومرضه يقلل من نشاط الانسان
 وفعاليته . وبما يسرى الهم ويخفف الألم ، ان المحن التي تجتاح الانسانية من
 حين الى آخر توقظ في بعض النفوس الكبيرة جوانبها الحساسة فتندفع عاملة
 في المجال الروحي ، مجدة في تضييق هذه الانسانية البائسة من جراحاتها
 الدامية كما نرى اليوم الكثيرين من علماء الاجتماع ، والفلاسفة ينشطون من
 جديد الى العمل ولعل نشاطهم يؤدي الى تهذيب هذه الحضارة المادية تهديبا
 روحيا ينتزع منها شرتها ، ويطهرها مما شابها من شوائب كثيرة .

على انه من التعت في الحق القول ان الانسان يبرأ من عيوبه النفسية
 كافة ، مهما أوتى من تربية قويمة ، ومعرفة صحيحة ذلك لأنه كون من
 قوتين ، القوة العاقلة المدركة وهي التي تسيره الى الخير والقوة العاطفية ، او قوة
 الميول والاهواء التي تقوده الى الشر ، وعلى ذلك فإنه يقال للانسان الخير انه
 خير متى كانت القوة العاقلة المدركة فيه غالبية وانه يوصف بالشرير اذا

سيطرت الثانية على الاولى واعلنا في الابحاث الاتية نعود فنبتسط في
الموضوع ونزيد فيه القول . فالانسان الخبير اذن ليس معناه انه معصوم
من الزلل برئ من اللئول والا هواء . لأن هذه مركبة فيه طبعاً وغريزة ، وانما
يكون خيراً او شراً بالنظر الى قوة احدى القوتين هاتين او ضعفها . ولما
كان نظام الحكم عملاً من اعمال الانسان ومراة ترسم فيه صورته الكاملة
بما فيها من قبح او جمال ، خير او شر وانه يشرع بعقله وينفذ على يديه
فليس في وسعنا ان نتخيل نوعاً من الانظمة ، بريئاً من العيب ، كافلاً لسعادة
المجتمع الانساني مثله في المئة . ان المثل الاعلى الذي يتخيله الفلاسفة
والمفكرون لنظام الحكم لا يمكن ان يتحقق على هذه الارض لأنه يخالف
للطبيعة البشرية المكونة من مزيج من الخير والشر . وكان افلاطون قد
شعر بهذه الحقيقة فأفاض على اسان غلوكون الذي كان يحاور سقراط بهذه
الكلمات « . . فهمت انك تعني انه يفعل هكذا في المدينة التي اكملنا نظامها ،
المحصورة في عالم الخيال لأنني لا اعتقد انها توجد على وجه الارض » (١)
فالنظام الحسن اذن : هو ذلك النظام الذي تكثر فيه الاهداف الفاضلة وتغلب
عليه مبادئ الحق والعدالة وتزيد فيه عناصر الخير . وبمعنى اوضح هو ذلك
النظام الذي يشتمل على هاتين المزييتين الخطيرتين : تشريع صالح ، وتطبيق عادل
تشريع صالح تضطلع به زمرة واعية مثقفة ، وتطبيق عادل ، تقوم به طبقة
نيرة العقل ، نزيهة الضمير والوجدان على قدر الاستطاع . وليس شرطاً ان
تكون هذه الزمرة او الطبقة من الفلاسفة والحكام كما تخيل ذلك افلاطون

(١) جمهورية افلاطون . الكتاب التاسع . وكان جواب سقراط بما يأتي : قد يكون
في السماء منها نموذج لمن يروم ان يراه ويبنى نفسه على مثاله . واما مسألة وجوده على
الأرض ، في الحاضر أو المستقبل فليست بالامر المهم ولأنه على كل حال يختار نظام مدينة
كذلك ويجري عليها معرضاً عن كل ماسواها .

في جمهوريته (١) وإنما يكفي أن تكون من الخبراء الواعين والمثقفين المدرسين بحاجاب الشعب والعارفين بالوسائل المؤدية الى تقدمه ورفاهيته ، ومتى كفل نظام الحكم هذين الاساسين ، فلم يعد يعنينا نوع الحكم واسلوبه أكان جمهوريا ام ملكيا ، ديمقراطيا أم استقراطيا أم فرديا . ولقد كتب في فلسفة الحكم ونظمه الكثير من الفلاسفة والفقهاء والحكام من متقدمين ومن متأخرين ولكنهم في الحقيقة ، لم يزدوا شيئا على ما بحثه افلاطون وأرسطاطاليس . وقد لاحظ هذان المفكران العظيمان ، بشي قليل من الاختلاف ، أن الحكم الصالح قد يكون في الحكم الفردي ، او بمعنى اصح الملكي وقد يكون كذلك في الحكم الارستقراطي او الحكم الديمقراطي ، اذا كان التشريع سليما ، والتطبيق عادلا ، واذا فسد الحكم الفردي انقلب الى الاستبداد واذا فسد الحكم الاستقراطي صار حكما اوليغارشيا اي حكم الطبقات ويكون الحكم حكم سوقة أو فوضى اذا فسد الحكم الديمقراطي . وان كل نوع من الانواع الصالحة المذكورة اعلاه اذا فسد تكون نهايته الاستبداد . وفي الحق ان الوقائع المادية والحوادث التاريخية تعطينا امثلة كثيرة تؤيد هذا الدور والتسلسل .

وان هذين المفكرين العبقريين وان كانا يفضلان النظام الارستقراطي فها لم ينكرا ، النظام الفردي الصالح ، والنظام الديمقراطي الواعي . وفي الحق ان كلا من هذه الانظمة الثلاثة حسن اذا احترم في ظله المبدأن اللذان سبق ذكرهما ، وهما التشريع الصالح ، والتطبيق العادل ، واذا كانت البيئات المنفذة فيها تلائمه وتستسيغه . خذ مثلا الحكم الفردي فقد يجوز ان يتمخض عن سعادة شاملة للشعب اذا كان التشريع في ظله سليما واذا كان الحكام واعوانه يحرصون على تنفيذ القانون تنفيذا عادلا ولا يتجاوزون حدوده او لا يفسروا تفسيراً لا ينسجم وروحه واهدافه ، فروما كانت اسعد حظا في عهدا

(١) ان افلاطون قد عدل رأيه هذا ، في كتاب « الشرائع » الذي جمعه اكثر قرباً للواقع وايسر للتنفيذ .

المملوكي من اواخر جمهوريتها ، واليونان كانت مملكتها تفيض عليها خيرا
 قبل النظام الديمقراطي ، حتى ان مستعمراتها التي كانت منبثة على حواشي
 وسواحل البحر الابيض كانت تزدهر في افياء العدالة ان جالويكوس حاكم
 ومشروع مستعمرة لوقرووا اليونانية قد بلغ حبه لتحقيق العدالة في قومه الى
 حد انه حكم على ابنه بسمل عينييه لأنه ارتكب جريمة الاعتداء على العرض
 وذلك وفقا للتشريع الذي كان قائما يومئذ ولم تأخذه الرأفة الابوية عليه ،
 وانما بتأثير شفاعة الشعب وتوسطه قبل ان تسمل عين واحدة لأبنه وان تسمل
 عين واحدة من عينييه هو حتى يكون نصاب العقاب حاصلا ، واحكام القانون
 منفذة . وكذلك كان خارونداس حاكم ومشروع مستعمرة « كاتانة » الذي كان
 قانونه يحرم على الفرد الحضور في الاجتماعات العامة وهو مسلح خشية الاصطدامات
 ووقوع ما يخل بالامن ويفرض عقوبة الموت على المخالف فانه لا يقل حرصا
 على سلامة تنفيذ القانون عن سابقه . وقد حدث انه استدعي على عجل لحضور
 اجتماع عام بينما كان قادما من البرففيل عن نزع سلاحه ولما حضر الاجتماع وادرك
 انه خالف القانون بحضوره مسلحا ، انتضى سيفه واعمد في صدره ونفذ العقوبة
 على نفسه بنفسه . وقد قام اباطرة عظام في الامبراطورية الرومانية بالعدل واحترموا
 ارادة الشعب والقوانين الامبراطورية كداريانوس ، وماك اوريل ، وتراجان
 وغيرهم ، وكان الناس في عهدهم في أمن وطمأنينة على ارواحهم ، واموالهم
 وحررياتهم وانت اذا امعنت النظر في تاريخ صدر الاسلام سيما في عهود
 الخلفاء الاربعة ، وبالاخص عهود خلافة الصديق ، والقاروق ، وحيدرة
 لرأيت عجبيا ، ولذهلت من فرط هؤلاء الامراء العاديين والخلفاء المصلحين ،
 بتعلقهم بأهداب العدالة ، وفي حرصهم على سلامة تطبيق احكام الشريعة
 السمحاء ، ومعلوم ان الخليفة ، هو مجمع السلطات ، وموئل الناس جميعا . فالحكم
 الفردي سواء كان مملوكيا وراثيا او مملوكيا منتخبا ، او خلافة لا يكون
 شرا محضا الا اذا فسد وحاد عن الطريق المستقيم . وكما ان الحكم الفردي

ليس شراً محضاً ، فإن النظام الديمقراطي ليس خيراً محضاً . فالنظام الديمقراطي في أثينة مثلاً هو الذي رخص بنفي أريستدس عدل أهل اليونان واحكمهم عشر سنوات عن وطنه ، وحكم على ملتياديس بطل واقعة ماراطون ، ودفع بسقراط حكيم الانسانية الى الموت ، واخفت نفس فوكيوس الذي اربت الجروح التي في جسده على الاربعين جرحاً في سبيل اثينة . والنظام الديمقراطي هو الذي قضى على الاخوين تيربوس وكايوس غروشوس وعلى كاسيوس ومانيليوس (١) وغيرهم في رومهم . بل هي ليست مسألة مجرد دساتير وقوانين ومؤسسات رسمية ، ولا هي مسألة نظام . بل هي مسألة عمل وتطبيق وسجاياء نفسية ومزاياء عقلية وفهمية . فإذا كان العمل صالحاً والتطبيق عادلاً والنفس خيرة عادلة والعقل سليماً ومثقفاً فاض الخير على البلاد والعباد والا كان الشقاء حاصلًا لا محالة .

ومن سوء حظ الانسانية ان فهمت هذه الانظمة ، التي خلق فلسفتها عباقرة اليونان وفي طليعتهم سقراط وافلاطون وارسطاطليس ، وجلو انوارها على غير حقيقتها سيما في القرون الوسطى و كان هذا الفهم المنفلوط سبباً لتفوق الاسماع عن ذكرى الحكم الفردي او الحكم الارستقراطي وبعبكس ذلك فقد راجت دعاية قوية للحكم الديمقراطي ، الذي لا يتفق وحقيقته التي كان عليها ايام موجودي هذا النظام والمخالفين لفلسفته . فقد ظن ان الحكم الاستبدادي هو الحكم الفردي مع ان كلمة « اوتوكرامي » اليونانية

(١) تيربوس غروشوس قتله اعضاء السناتو ١٣١ قبل الميلاد حيث رمى بتهمة جعل نفسه طاغية واخوه كايوس غروشوس ذبحه انصار القانون والنظام ١٢١ ق م .
سيوربوس كاسيوس اصدر قانوناً ضمن فيه للعامة الحق في الارض العمومية اعدم في ٢٨٥ ق م وماركوس مانيليوس القي من اعلى صخرة « التاربية » وهي حافة الهاوية في نهر السابينول الذي نافح عنه سابقاً وذلك في ٣٩٠ ق م ، انه كان مشرباً وانفق جميع ثروته في تخليص المدبنين من ديونهم فرماه النبلاء بتهمة جعل نفسه طاغية

لا تفيد معنى الاستبداد ، وكذلك فان مبادئه التي اقرها فلاسفة اليونان ومشروعهم لاتدعم الفكرة الاستبدادية ، ولاجل ان يوضحوا الاشكال قالوا اذا فسد الحكم الفردي انقلب الى حكم استبدادي . وقد ظن خطأ ان الحكم الارستقراطي هو حكم طبقة الاشراف والاعيان ذوي الامتياز من ناحية الدم والثروة والحال ان كلمة « اريستو كراسي » لا تفيد هذا المعنى ابدا وكذلك فان مبادئه التي اقرها مشروع اليونان وفلاسفتهم لاتؤيد هذا المفهوم ، ولاجل ان بقسطوا في الموضوع قالوا ان الحكم بما انه صنعة فيجب ان يودع تشريع القوانين وتنفيذها الى ايدي الفلاسفة كما جاء في جمهورية افلاطون او الى ايدي الخبراء العارفين واهل الرأي من اهل البلاد كما قال ارستطاليس في كتاب السياسة . فالطبقة الحاكمة ، او المشروعة انما كان يقصد بها اهل العلم والمعرفة ، لا الاشراف والاعيان وذووا اليسار الذين لم تتوفر فيهم هذه المزايا . واذا كانت هذه المزايا قد توفرت فيهم فلماذا يحرمون من تولي المسؤولية لمجرد انهم اشراف واعيان وذوو يسار ؟ وقد ظن ان الحكم الديمقراطي هو استواء الناس كافة في الحق في الوصول الى المجالس التشريعية والى تولي المسؤولية في مناصب الدولة . مع ان كلمة « ديمو كراسي » وان كانت تفيد حكم الشعب ، فليس هذا معناه ان كل فرد له هذا الحق . ان المقصود من هذه الكلمة ان الناس متساوون في الانتخاب لا في ان يكونوا منتخبين ذلك لان الحكم الديمقراطي السليم ، الذي تقوم اركانه على اساس الفضيلة هو ذلك الحكم الذي يكون فيه تشريع صالح وتطبيق للقوانين عادل وهذا ان الاساس لا يمكن ان تقوم بهما وتضطلع بهما حكومة او سلطة مكونة من الدهماء والغوغاء وانما تقوم بهما وتضطلع بهما حكومة مؤلفة من المثقفين المدركين والعارفين المصلحين ، وهؤلاء هم قلة في كل مكان وفي كل زمان ، وهؤلاء يجب ان تتوفر فيهم شروط معينة ، ومزايا خاصة ، على ان النظام الديمقراطي بمفهومه الحقيقي ، لا يمكن ان ينفذ في بلاد واسعة الارجاء

مزدحمة السكان ذلك لأن معرفة الناخب بالمنخب واهليته وقابليته شرط ضروري لصحة الانتخاب وهذه المعرفة ، متعذر حصولها في مثل هذه البلاد وعلى هذا فقد كان خالفوا نظام الديمقراطية على حق حين حصروها في دول المدن او دولة المدينة كما كانت عليه اليونان في السابق . (ارجو مراجعة كتب الجمهورية ، (١) الشرائع ، السياسي ، لافلاطون طبعة اوكسفورد . والسياسة (٢) لارسطاطاليس طبعة اوكسفورد وافلاطون الرجل وانتاجه للبروفسور . تايلور طبعة ١٩٣٧) وما نراه اليوم من النظم الديمقراطية سواء كانت نظام الحكومة البرلمانية كالنظام القائم في بريطانيا و اكثر البلاد الاوربية وآسيا والجمهوريات الامريكية الجنوبية او النظام الرئيسي القائم في اميركة الشمالية او النظام الجمعي القائم في سويسرا اقول ، ما نراه اليوم من جميع هذه النظم ، لا ينطبق ، على مفهوم « الديمقراطية » المعروفة في العهد اليوناني وانما هي مزيج من الانظمة الثلاثة الفردى والارستقراطية والديمقراطية . ولم يخف مثل هذا النظام المختلط على ارسطو . فانه قال به وبجده وقرره للدول الواسعة الارحاء الكثيرة السكان . وفي الحق ان نظاما يأخذ من هذه الانظمة الثلاثة اطيبيها ومحاسنها هو خير نظام يصلح للدول الكبيرة . ولا يخفى ان ارسطو انما ألف كتاب السياسة وهو يعيش في كنف البلاط المقدوني الذي كانت تتوسع املاكه ، وتتظافر فتوحاته . واما النظم التي يطلق عليها اليوم ، النازية ، الفاشية ، او السوفيتية فأنما هي في الحقيقة مذاهب اقتصادية وليست نظما سياسية وانما زعماءها استعملوها وسيلة الى الحكم لتحقيق مبادئهم . هذه المذاهب . واني حين ابحث في التكوين السياسي انما ابحثه على ضوء المبادئ والقواعد المسرودة انفا .

* * *

قلنا ان النظام الديمقراطي الصحيح لا يستقر إلا في الجمهوريات لانه قائم

(١) كتاب الجمهورية ترجمته ادارة المقتطف

(٢) ترجمه اخيرا الى العربية للعلامة لطفى السيد

على اساس اشتراك الشعب في الحكم اما حقيقة كأن ينتظم ابنائوه في مجلس واحد يقررون فيه قوانينهم ، ويدبرون شؤونهم وأما شكلا كأن ينبىء الشعب عنه افراداً معينين يثق بهم ، ويعتمد عليهم . ومعرفة الشعب لنوابه تكون قوية في المدن الصغيرة ، اقلية عدد سكانها وتكون ضعيفة اذا ازدادت رقعة المملكة اتساعاً وكثر السكان . وفي الممالك المترامية الاطراف المزدحمة السكان يكاد لا يبقى اثر لهذه المعرفة ، فننعدم الديمقراطية في هذه المملكة . والقوانين والانظمة الصالحة للجمهورية الصحيحة ، لا تكون صالحة في الدولة التي خرجت عن حدود الجمهورية وتباعدت عن أسسها ، ومعنى ذلك ان نظم الديمقراطية إذا كانت نافعة ومفيدة في الممالك التي تستطيع هضمها وهي الممالك التي تقوم فيها الجمهوريات فهي لا تكون مفيدة في الممالك التي لم تعد صالحة للنظام الجمهوري . والدول القائمة في عصرنا الحاضر ، وایامنا الحالية وان كانت تدعى الديمقراطية ، فهي ليست ديمقراطية ، وان بعضها وان كان قد قبل النظام الجمهوري فهو ليس جمهوريا صحيحا . فالحقيقة لا يمكن ان تحجب بستائر شفافه تنسجها الاوهام ، ويحوصها الخيال . فالديمقراطية لا تثبت إلا في الجمهوريات والجمهوريات لا تلائم إلا المدن الصغيرة . وهذا النوع من الاستقلال ، أي استقلال المدن الصغيرة ، اذا كان ميسوراً في الماضي فليس ميسوراً في الوقت الحاضر ، نظراً للتقدم العالمي ، والجماعي ، وارتباط ممالك العالم بروابط شتى واشتباك مصالحها اشتباكاً مكميناً . فاذا قدرت هذه الحقيقة قدرها ، وجب علينا ان ننصرف عن النظام الديمقراطي المزيف ، أو على الأقل ، ان نتجنب ترديد هذه النعمة التي وان كانت فيما مضى من الاثمنة تستهوي النفوس ، وتعري العقول ، فقد اصبحت اليوم ، سمجة ، تعافها الأرواح ، وتنفر منها الاسماع . علينا ان نفكر في أوضاع وانظمة للحكم ، تلائم المنظومات الاجتماعية الحديثة ، وان

نطلق عليها اسماء ، تطابق حقيقة لها . والقوانين واللائحة منظمة معرضة للتغير والتبدل وان منها ما كان صالحا للجمهورية فقد يكون ضاراً في غيرها .
لان الأولى انما سفت بقصد تنمية المملكة ، وتنضيمها . فبعد ان تكون هذه قد نمت وتنضجحت وجب ان توضع قوانين أخرى تكفل استدامة هذا النمو وتثبيت وترصين هذا التنضج . اذن ، فبتغير وضع المملكة ، تتغير اهداف القوانين واللائحة . فروما لما كانت محصورة في ايطاليا ، كانت جمهورية ولكنها لما بسطت سلطانها على اقاليم واسعة ، وتنضجحت ثروتها وتعاضمت قدرتها ، من نواح كثيرة ، قبلت النظام القيصري . ولم تلبث ان غيرت قوانينها الجمهورية ، واستبدلتها بغيرها ذلك لان مهمة القوانين الجمهورية كانت قد انتهت ولم تعد صالحة لضبط الامبراطورية الرومانية وتمشية مصالحها والاسلام في أول نشأته حين كان منحصر في شبه الجزيرة العربية وما جاورها كان قد قبل نظاما يماثل النظام الجمهوري ولكنه ما لبث ان انقلب نوع الحكم فيه ، الى النظام الملكي الوراثي وبذلك قد تغيرت كثير من الأوضاع ، وقد تبدلت فيه انواع اللائحة . واست اعني ان قيصرية روما ، أو ملكية الاسلام نظامان صالحان ، لمثل هذا الزمن . وانما اوردتها للتدليل على ان تغير حدود المملكة وتطور قابلياتها من طور الى طور يؤدي الى تغير نظام الحكم وهذا يستلزم تغير القوانين واللائحة ولما كانت الدول القائمة في هذا العصر ، لن تكن جمهورية ، فهي اذن لن تكن ديمقراطية ، فالقوانين واللائحة حينئذ يجب ان تتغير وتبدل ، ولكن تغيرها ، وتبدلها لا يحتمل ان نقبل نظام الحكم المطلق ، أو الارستقراطية الظالمة ، الجامدة التي تحكمت في ابناء القرون الوسطى وفجر القرون الأخيرة ! وان نستسيغ النظام الذي اثبتت التجربة عدم صلاحه ، وهو النظام الذي

اطلق عليه « النظام الديمقراطي » على سبيل المجاز . يجوز لنا بعد ان رأينا
استحالة تطبيق النظام الديمقراطي الصحيح ، في دولنا الحاضرة ، وبعد ان
لمسنا الاسرار السيئة التي تركها نظام الحكم المطلق ، والاستقرائية الظالمة ،
والنظام المزيف الذي نهت بالنظام الديمقراطي ، ان نقوم بتجربة أخرى
اعلمنا نصيب فيها بغيثنا ونصل بها الى غايقتنا واكثر الظن انها تكون
تجربة ناجحة ، اذا تعهدتها نيات خالصة ، وعزائم ماضية ونفوس جمعت
الحقيقة ضالتها والحق رائدها

الارستقراطية الفاضلة

والديمقراطية الواعية !

قبل ان نوضح مقترحنا في صدد نوع نظام الحكم نرى من الضروري ان نحدد معنى الحكم . ما هو الحكم ؟ هو السيادة . وما هي السيادة ؟ هي السلطة التي لها الكلمة العليا والاخيرة على سائر الجماعات والهيئات والافراد الموجودين داخل حدود المملكة . ولكن هذه السلطة هل هي مطلقة الحق حرة التصرف بهذه الجماعات والهيئات والافراد ؟ الحق انها مطلقة ، وحرّة ، تستمد اختصاصها من نفسها لأن استمدادها الاختصاص من غيرها ، ينافي جوهرها ويناقض مفهومها فالسلطة ذات الكلمة العليا الاخيرة هي كل شيء واذا فرضنا خلاف ذلك معناه ان هناك سلطة اعلامها وهذا محال . شاء علماء الحقوق الدستورية ان يضعوا تعاريف لهذه السيادة أملا في إيجاد حدود لها كأصحاب نظرية التوحيد الذاتي حيث قالوا ان الدولة نفسها تقبل محتملة بعض القيود تحد بها من سلطانها كلما وجدت الى ذلك سبيلا أو من قال بفكرة حقوق الافراد الطبيعية حيث رأى انه توجد حقوق طبيعية للافراد لم يكتسبها هؤلاء من الدولة بل هي ملازمة لاشخاصهم كادميين وعالمية فيمكنهم التمسك بهذه الحقوق على الدولة نفسها ويجب على الدولة احترام هذه الحقوق أو القائلون بنظرية القانون الطبيعي حيث توجد هناك مبادئ تملئها العدالة ويوحى بها العقل السليم تلزم التمارع نفسه . وفي الحق انه يصعب حماية

حقوق الأفراد اذا لم يكن الرأي العام متيقظا ، والأفراد ملينين بما لهم
 ومقدرين ما عليهم . فهذه نظرية توزيع السلطات ، أو تقسيمها ، لم يقل بها
 قائلوها الا ليخففوا من سلطان هذه السلطات ثقة منهم اذا توزعت السلطة
 العليا نفسها الى ثلاث سلطات وراقبت احداها الاخرى امتنع الا خلال
 بحقوق الأفراد ، واستحاجات اساءة استعمال السلطة سلطانها المطلق ، وحربتها
 غير المحدودة ومع ذلك نجد السلطة دائمة في طغيانها في البلاد التي يكون فيها
 الرأي العام ضعيفا ، أو جامداً سقيمياً الدولة اذن مطلقة لاتعرف حداً تذهب
 اليه ، الا اذا كان هناك رأي عام متيقظ يقف لها بالمرصاد . فهذه القوة الخارقة
 اذن : كلما استعملتها عقول راجحة سليمة ، واضططعت بأعبائها نفوس كريهة ،
 أمن الشعب من انتهاك حرمانه ، واطمأن الى حقوقه ، ووثق بسلامته .
 فالنظام الذي يكفل حسن التصرف بهذه القوة ، هو النظام الجدير بالقبول ،
 الحري بالتنفيذ مهما كان الاسم الذي يطلق عليه حتى اذا كانت الديمقراطية
 الصحيحة نفسها تؤدي الى ان يتولى استعمال هذه القوة قوم غير صالحين ،
 علينا ان ننبذها ، درءاً للضرر المؤكد الذي تنتظره الأمة من ايديهم لأن
 انظمة الحكم انما وجدت لسلامة المجموع ، ولم توحد للفخر والمباهاة . أو
 للمباهلة والملاحة . فبعد ان فهمنا ان الحكم صنعة ، لا يجوز ان يمارسها إلا الملمون
 بدقائقها ، المطلعون على اسرارها ، أو الذين لهم قابلية الاثمام بهذه الدقائق
 والاسرار ، اصبح لزاماً علينا ، ان ننحى عنها الغوغاء ، او الجموع التي لم تنهياً
 لهذه الصفة لسبب من الأسباب لأننا ان عملنا خلاف ذلك انتهى الأمر
 بحكم الغوغاء ، وهذا النوع من الحكم كما قال افلاطون بحق يؤدي الى
 الفوضى ، والفوضى من شأنها ان تؤدي الى اضطراب الشعب الى ان يلتمس في
 شخص رجل مازعياً يقوده للقضاء على هذه الفوضى ، واذا ما قضى عليها كان
 ذلك الزعيم المستبد المنتظر ، فية أسس حينئذ الحكم الفردي فالنتيجة واضحة

ومن السهل التنبؤ بها فكيف نتحاشى مخاطرها ، ونبتخلص من اضرارها ؟
لا سبيل الى ذلك إلا بايجاد نوع من الارستقراطية التي تقوم على الفضيلة
والثقافة لا على الوراثة ، والامتيازات الخاصة ، والظلم والعدوان ونوع من
ديمقراطية واعية مدركة وان نخرجها من جأ متقنا .

ان شكل الحكومة لا يهم كثيراً سواء كانت الحكومة جمهورية ام
ملكية ، ام حكومة الجمعية كسويسرا ، فقد يطيب للشعب الامير كي مثلاً
الشكل الجمهوري بالصورة التي قبلها ، وقد يري الشعب الانكليزي الشكل الملكي
مما يتناسب وروحيته ، ويتلائم مع طباعه وتقاليده . فالحكم هو النظام الذي
بموجبه تتسلم الايدي السلطة العليا ، وتمارس توجيه تلك القوة التي لا تحد ،
وهي تتمثل بالسلطة التي تسن القوانين ، والسلطة التي تنفذ القوانين وتصرف
بشؤون العباد . ليس في الامكان حقيقة ان يفرض نظام معين ، على الامم
جمعاء . لأن الامم تختلف من حيث القابليات ، وتباين من حيث الامزجة ،
والعادات والتقاليد والطباع . ففرض نظام معين ، بتفاصيله ودقائقه ، على
كل أمة مستقلة ضرب من الاعنات إذ يجوز لا يلائم بعضها غير النظام البرلماني ،
أي نظام مسؤولية الوزارة امام المجلس التمثيلي ، كما قبلته بريطانيا والمجموعة
الدولية الاوروبية ، واكثر دول آسية ، وافريقية المستقلة ، او شبه المستقلة
وبعضها الاخر غير النظام الرئاسي الذي يرمي الى فصل السلطين التشريعية ،
والتنفيذية عن بعضهما كما قبلته اميركة ، أو جمع السلطين في المجلس التمثيلي
كما ارتضته سويسرة ، أو تركية ، أو استونية ، والنمسة ومعظم الولايات
الالمانية الداخلة في تكوين الرايخ كبروسيا وبافارية . على ان معظم هذه
الدول قد عدت عن هذا النظام مؤخراً بعد ثبوت فشل هذا النظام ما عدا
سويسرة وتركية فقد بقيتا محافظتين على دستوريهما . ولكن كل هذه
الحالات لا تمنعنا عن ايمان بعض الاسس العامة المهمة التي تكفل الغرض
الذي نري اليه .

التكوين السياسي

اولا يبقى حق الانتخاب محفوظا للناخبين بالنسبة للشروط التي تعينها كل امة لا فرادها .

ثانيا : مع ان حق الانتخاب يكون بلا قيد او بقيود خفيفة للافراد فان المنتخبين اي « ممثلي الامة » يجب ان يكونوا من طبقة مختارة يشترط فيهم ما عدا الاسباب المانعة عن الانتخاب ، ان يكونوا ممن تخرجوا من المدارس العالية . وهذا شرط له اهمية كبرى في تسيير سياسته التشريعية سيما في البلاد التي مستواها الثقافي ضعيف لان المشرع يجب ان تكون له قابلية بحث القوانين بروح علمية . فالجاهل ، او قليل الثقافة لا يصلح لمهمة التشريع .
ثالثا : ان يكون ممثل الشعب ، ذا تجربة فضلا عن ثقافته لذلك لا يصح ان يكون عمره اقل من ٣٠ عاما على الاقل . وقد يقال ان العمر ليس امرا مهما وانما المهم قابلية الفرد للاستفادة من الحوادث التي تمر عليه ، والاحداث التي تقع في مجتمعه ، فكثيرا ما نجد شبابا قد ابدوا آراء كانت انضج من آراء الشيوخ . قد يكون هذا واقعا واسكن الاحكام تبني على الغالب الشائع لا على النادر الشاذ . وليس صحيحا ان يفسد على الشعب امره ، لاجل النادر الشاذ .

رابعا : ان يكون الوزراء الذين هم رؤوس السلطة التنفيذية قد ناهزوا الاربعين عاما ومن قد مارسوا القضاء ، او المحاماة ، او الاشتغال في مهام قانونية مدة لا تقل عن عشر سنوات فضلا عن الشروط المفروضة في الممثل عدا

الوزارات ذات الاختصاص . كالدفاع ، والبحرية ، والصحة . وقد يظهر هذا الشرط غريبا ، وقد ينظر اليه كشرط تافه لا اهمية له . ولكن الحوادث العالمية ، قد اثبتت انه ضروري ولازم لسلامة المجموع ، وحفظ حقوق الافراد ، واعتبار الدولة وكرامتها . ان الذين ينشأون في الاوساط الحقوقية ويمارسون مهنة قانونية ، مدة من الزمن ، تكون فيهم ملكة احترام القانون وتقدير حقوق الافراد ، وحقوق المجتمع ، اقوى من غيرهم ، وانهم يكونون اشد حرصا على الوفاء با التزامات الدولة القانونية ، والتقييد بالتعهدات الدولية وبالتالي يكونون اكثر رعاية للحق ، وحرمة للواجب . وانه لفرق بين من ينساق الى احترام الحق ، وتقدير الواجب بدافع من نشأته ، وتربيته ، وطبعه وبين من ينساق الى ذلك بتأثير مفاجيء ، او اقناع بعد بذل الجهد فيه . ولقد دلت التجارب على ان القانوني يسعى بقدر ما يستطيع الى ان يتجنب الاعمال التي تحمل بأحكام القوانين او تؤثر في احكام القوانين او تؤثر في حقوق الناس . وادارة الدولة ، اكثرها ، عبارة عن ايصال حق من آخر الى آخر او طلب تأدية واجب من فرد ، تجاه فرد آخر او تجاه المجموع . فالتضام ليسوا هم وحدهم المكلفين برد الحقوق الى اصحابها ، وكثير من الحقوق ينظر فيها من قبل مصالح غير قضائية . وعدا صلات الدولة . بالداخل فإن لها اتصالات في الخارج ، مع المجموعة الدولية ، والقانونيون افضل المثقفين للقيام بهذه الاتصالات وتنفيذ الالتزامات المتأتمية منها . نعم قد يكون من القانونيين من لم تكن لهم هذه المزايا وان هذه المزايا لا تكون ظاهرة ملموسة في تصرفاتهم ، وقد نجد مثلا في بعض العسكريين ، او المهندسين او الاطباء من هم اكثر رغبة في احترام القوانين ، وانزع نفسا لا حقائق الحق ، وازهاق الباطل ، قد يكون ذلك ولاكني كما بينت ان الاحكام لا تبني على الشواذ وانما تبني على الاغلب السائد . وان اكثر الالتزامات الخارجية الدولية ، والاضطرابات الداخلية ،

تأتى من التساهل في الحقوق ، والواجبات ، او عدم الاعتماد بها كما ينبغي .

خامسا : ان الجمهورية كما بينا هي الدولة الصالحة للنظام الديمقراطي ، وان النظام الديمقراطي القائم على اساس الفضيلة لا يضر فيه تعدد الاحزاب بل ان تعددها مفيد ، فهي - كما وصفها مونتسكيو بحق - كنهات الالات الموسيقية المتعددة وان اختلفت نغماتها ولكنها تخرج من مجموعها نغمات مفسجمة متناسقة ، فلا احزاب في الجمهورية لا تخل في اتحاد الشعب ، ولا تقل من قوته ، ذلك لانها جميعها تسيرها روحية واحدة ، هي الفناء في سبيل مصلحة المجموع ، ولكن الاحزاب في غير الجمهورية ، تخل في اتحاد الشعب وتقل من قوته . وان تعددها لا يكون ذلك الانسجام والتناسق ، الذين نلسمها في الجمهورية . لان المحرك اختلف ! فبينما كان في الجمهورية الفضيلة ، نرى هنا محركات بعيدة كثيرا عن الفضيلة ، محركات مبعثها الاختلاف في كل شيء ، في الثقافة ، في توزيع الثروة ، في التربية ، في التراحم والتنافس في سبيل الجاه او المناصب او ما الى ذلك . اذن فان تعدد الاحزاب لا يصلح للشعب الا ان . وقد ادرت شعوب كثيرة هذه الحقيقة فلم تسمح ان يتكون فيها غير حزب واحد . ولكن هذا الحزب الواحد ، الذي نراه في الدولة الارستقراطية الفاضلة هو في الحقيقة مجموع افراد الشعب او اكثريته يسلكها نظام حزبي واحد ، ومن لم يعمل بطبعه الى السياسة او التقييد بقيود الحزب فله ان يكون مستقلا والسكنه على كل حال عليه ان يكون عضوا في النقابة او الجمعية التي تمثل مهنته ، وعليه فان هذا الحزب لا يشبه حزب السوفيت في روسيا او حزب الشعب في تركيا . وانما هو حزب يمد قبايه على ابناء الامة جمعاء . لا يجوز لفرد ان يبقى غير مرتبط بهذا الحزب بوشيجة من الوشائج ، فالنقابات والجمعيات التي تنظم اختصاصات الافراد ومسالكهم تكون منضمة الى الحزب . وكل فرد واجب عليه ان ينضم الى نقابة من هذه النقابات ، او الى

جمعية من هذه الجمعيات كل حسب اختصاصه او مهنته فالزارع ينضم الى الجمعية الزراعية او فرعها الذي هو في منطقته ، والعامل الى نقابته ، والتاجر الى غرفته التجارية ، والمحامي الى نقابته الخاصة الخ . فهذه كلها تكون مرتبطة بالحزب . فالحزب اذن ليس مؤسسة سياسية فحسب وانما هو مجموعة مؤسسات تسعى في تنظيم صفوف الشعب وتدريبها ، وثقيفها لتجعل منه وحدة لا تتجزأ ، وجهة متمسكة لا يتطرق اليها الخلل . على ان الهياة العليا للحزب وكذلك مراكز الجمعيات والنقابات والغرف لا يجب ان تنتخب الا من الذين اكملوا تحصيلهم العالي . لانهم هم الرؤوس المفكرة ، والعقول المدبرة لجمعياتهم ، وغرفهم ونقاباتهم وحياتهم .

سادسا : ان الصحف والمجلات لا يجوز ان يصدرها فرد وانما ذلك من حق الحزب او النقابات والجمعيات والهيئات والغرف المرتبطة به او شركات تكون ادارتها في ايدي حملة الشهادات العالية ، ذلك لان الرأي العام لا يصح ان يتعرض لخطر الفساد والتشوش بينما الضرورة تستلزم صقله ، وتهذيبه ، وتوجيهه وجعله في وضع يتمكن فيه من تمييز الحق من الباطل ، والرأي الناضج من الرأي الفطير . وان اكثر الاندفاعات الخطرة التي ابتلت بها مجتمعات هذا العصر ، مبعثها الاهمال في امر الصحافة والمطبوعات المريعة حيث قد اصبح تأثيرها فعالا بالنظر الى اتقان فن الطباعة والتفنن في طرق النشر ، وسرعة المواصلات . فحصر الصحافة بالحزب ومرتبطاته والشركات المستقلة ليس معناه منع حرية النشر فلكل مواطن ان ينشر رأيه ، وان يناقش نظرية خصمه فيها ويجادل ويحاور . فحرية النشر موفورة لكل فرد ولكن وفق نظام معين ، وطراز معلوم . ولا فرق بين ان تكون الصحيفة او المجلة او الرسالة المؤقتة سياسية او غير سياسية ، لان كل ما هو مطبوع اصبح في الوقت الحاضر ، ذا اثر بالغ في النفوس ، وفي العقول .

سابعاً : لا يجوز لممثل الأمة ان يزاول صناعته او يشتغل في كل عمل ،
ينتج له ربحاً ذاتياً ، ولا يقبل هدية ايا كان نوعها ، ومن اية ناحية كانت ، ولا يمنح
الاعتراف وشارات الشرف وذلك طيلة الدورة التمثيلية .

ثامناً : لا يجوز الجمع بين التمثيل في مجلس الأمة والعضوية في هيئات
ادارة الحزب او ادارة المؤسسات المنضمة اليه طيلة الدورة التمثيلية وان يكن
انتسابه باقيا للمؤسسة التي انقسم اليها ، كما انه لا يكون مديراً او عضو
ادارة في اية شركة او مؤسسة مالية لها معاملتة مع احدى الدوائر الرسمية
للدولة .

فيفهم من هذه الاسس الخادمة للتكوين السياسي في كل مؤسسة مستقلة
ان حرية الافراد في جميع انواعها مضمونة . فهم ينتخبون ممثلهم ، وانهم
ينضمون في النقابة او الجمعية او الغرفة او الهيئة التي هم منها ، وانهم يستعملون
حريتهم الفكرية وعلان آرائهم سواء في المجتمعات والنوادي والميادين ، أم عن
طريق الخطابة أم الصحافة ، أم التأليف وانه في وسع كل فرد منهم ان يعمل
الى ارقى المناصب واعلى المراتب اذا توفرت فيه الأهلية والكفاءة اللارمتان .
قن هذه الوجوه لا نكون بعيدين عن النظم الديمقراطية المألوفة . ولكن
يقابل ذلك ان سيادة الدولة تودع الى ذوي الكفاءة من افراد الشعب .
والطريق الى هذه الكفاءة مفتوح لكل فرد من دون تمييز فهي ليست وقفا
على طبقة من الطبقات ، كما انها لا تقتصر بشيء قليل او كثير ، بالدم ، او
الثروة ، او الوراثة ، او فيها امتيازات خاصة تمنح اقوام ، وتمنع عن آخرين .
فالـكفاءة سبب يوصل الفرد الى المكان اللائق به من الاماكن التي منها يمتد
سلطان سيادة الدولة . ولما كانت الصحافة والمطبوعات ، والحزب ومرتبطاته
مما لها صلة وثقى بهذه السيادة فقد فرضت في رياستها وادارتها ، الكفاءة ايضا فمن
هذه النواحي لا نكون بعيدين عن الارستقراطية ، ولكن هذه
الارستقراطية لا تقوم على اسس الدم والثروة والوراثة والامتيازات الخاصة

وانما على العلم ، والثقافة فهي ليست ارسقراطية غاشمة جاهلة وليكنها ارسقراطية فاضلة عالمة .

ان تحديد حرية الانتخاب ، من مقتضيات المصلحة العامة لان ممثلي الشعب الذين في ايديهم السلطة التشريعية يجب ان يكونوا ممتازين في ثقافتهم وعلمهم ، وتجربتهم ليستطيعوا ادراك حاجات لشعب ، والنفاذ الى روحيته لتكون قوانينهم ملائمة لها ، ولا تتنافر معها . فالحرية لها حدود تفتني اليها ، وآفاق لا تتجاوزها . وحدودها وآفاقها هي المصلحة العامة ، وكيف يقدر المصلحة العامة من كان جاهلا او قليل التجارب ؟ وقد يقال ان المحذور الذي يخشى منه وهو انتخاب غير الكفاء لا يزول في مثل هذا النظام ما دام الناخبون هم الناخبون الذين تعرف مبلغ نضوجهم العقلي ، واختباراتهم وقابلياتهم اي انهم هم الناخبون الذين عرفنا كيف تؤخذ اصواتهم قبل هذا النظام الا يجوز انهم يفتخبون غير الكفاء ، ما دامت الشروط والقيود لم تتغير ؟ الجواب .. ان الاهمية هي في المنتخب لا الناخب . ولما كانت حرية الناخب قد حددت بانتخاب الاشخاص الذين يجب ان تتوفر فيهم صفات معلومة ، وهذه الصفات رؤيت كافية لتطمين المصلحة العامة فلا يكون هناك اي ضرر يخشى منه لان المنتخب يكفي ان يكون له من الكفاءة ان يلم بحاجة الشعب وان يناقش المشاريع القانونية بروح علمية . نعم قد يجوز ان الناخبين لم يفتخبوا الا فضل من بين المثقفين ، واسكنهم على كل حال ملزمون بأن يفتخبوا ممثلهم من المثقفين المفضولين ، على الاقل . فهذا النظام يمنع انتخاب غير الدارسين ، او الشباب الذين تعوزهم الحنكة في الامور هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان الحزب والمؤسسات المنضمة اليه هي التي تنظم الاعمال الانتخابية وتنسقها . وان هذه المؤسسات اودعت الى اشخاص لهم كفايات خاصة ، وقابليات منظورة .

وقد يلاحظ ان اعضاء هيأت الادارة لهذه المؤسسات التي هي صاحبة

القول النافذ في ترشيح الممثلين ، يستغلون فرصة وجودهم على رأس هذه المؤسسات فيرشحون انفسهم ويكون التمثيل الشعبي محتكراً لهم ، ومحصوراً فيهم . فأين هي الحرية في مثل هذا النظام ؟ ان هؤلاء ليسوا خطراً على الصالح العام اذا ما فازوا بالكراسي التمثيلية لأن الصفات والقابليات المفروضة فيهم تؤهلهم لتمثيل مصالح الشعب اولاً وثانياً . ان هذا النظام يحرم الجمع بين التمثيل في مجلس الامة والعضوية في الهيئات الادارية لهذه المؤسسات . فاذا ما انتخب عضو الادارة ، الى عضويته المجلس التمثيلي وجب عليه اما ان يتنحى عن عضوية الادارة ويحتفظ فقط بانتسابه للنقابة او الجمعية ، او العرفة واما ان يعتذر عن قبول عضوية المجلس . فالاستغلال اذا حصل ايضاً يكون لمرة واحدة فقط لا اكثر . ولماذا لا تكون هذه المؤسسات كدور تدريب لممثلي الامة في المستقبل ؟ . وثالثاً ان التمثيل هو كلفة لأن الممثل يكون ممنوعاً عن الاشتغال في مهنته او مزاولة صناعته طيلة مدة الدورة التمثيلية فلا يقدم على عضوية المجلس إلا من خلصت نفسه من شوائب المادة ، وآثر الخدمة العامة ، على النفع الذاتي ذلك لأن التشريع كلفة والتطبيق اي (الحكم) كلفة والتنظيم كلفة .

فالحزب بمؤسساته يكون كنظمة عامة للشعب ، ودور تثقيف وتدريب لآبائهم ، ومراكز استشارية ، ومصادر علمية ، وثقافية ، للسلطة التنفيذية . وقد فرض على من ينتخب عضواً في المجلس التمثيلي من اعضاء ادارة احدى المؤسسات المرتبطة بالحزب ، او من اعضاء هيأته العليا ان يختار العضوية في المجلس او البقاء في مركز الحزب او مؤسساته ليكون الحزب في نجوة من التأثيرات التي قد يقوم بها هؤلاء الاعضاء المنتخبون للمجلس . لقد دات التجارب على ان زعماء الاحزاب حينما يفوزون بالكراسي التمثيلية وتكون منهم الحكومة يسوقون الحزب ، ويسيرونه في اتجاهات لا تلتئم ومبادئ الحزب واهدافه . وبوامل كثيرة وطرق متعددة يستطيع هؤلاء القابضون على شؤون احزاب والحكومات ، ان يكسبوا اصوات الاكثرية

وان يقدموا على امور خطيرة وهم آمنون مطمئنون من المؤآخذة . فاذا كان
اعضاء الحكومة والمجلس التمثيلي لا يكونون في مراكز مؤثرة في الحزب
فقد يجوز ان يكون الحزب قوة ثالثة تنظم شؤون الدولة فالسلطة التنفيذية ،
عليها سلطة المجلس التمثيلي تراقبها ، وتعديل من اتجاهاتها ، اذا ما كانت في
اتجاهها خطأ وخطأ ، والحزب يكون سلطة ثالثة تراقب كلتا السلطتين
التشريعية ، والتنفيذية . فالحزب يكون هو المؤثر ، ومن انحراف من رجال السلطتين
عن الطريق السوي ، وان كان لا يستطيع خذله ، واسقاطه فوراً ، ولكنه
يستطيع القضاء على مسبقته . لأن الانتخابات تكون بيد الحزب ، لا بيد
هاتين السلطتين . وعندما يراد تجديد انتخاب اعضاء المجلس ، تكون كلمة
الحزب هي الحاسمة . واذا نشأت اختلافات بين السلطة التشريعية والحزب ،
وارادت السلطة اقناع الحزب بوجهة نظرها فلم اذلك ، ولا اعضاء السلطة التنفيذية
ايضا ان يحضروا ويتصلوا برؤسائه ، ويخطبوا في اعضائه ، فالصلة لم تنقطع
بينهم وبين الحزب وانما التأثيرات والنفوذ والسيطرة هي التي تنقطع .

التكوين الاقتصادي والمالي

ان الناحية المالية والاقتصادية من اهم النواحي المؤثرة في حياة المجموعات البشرية وتطورها ، فهي التي توجد الفروق الاجتماعية ، وتبعث نوازع الشر ، وتسبب الازمات ، والاختلافات والاضطرابات ، سواء في داخل كل مجموعة أم بين المجموعات البشرية بعضها البعض فعالجة هذه الناحية تكون اولى الواجبات والزم المستلزمات في كل شعب واساس هذه الناحية هو حق المساوية . فمن الضروري ايضا حه وتقدير حدوده وتحديد مفاهيمه . وقبل ان نقنأول بحث هذا الحق ، ارى من اللازم ان اتكلم عن المساواة ، والحرية ، اذ لهما اتصال وثيق بهذا الحق الذي نحن بصدده .

ان المساواة في كل شيء غير موجودة ، ولا يمكن ان توجد في اية مجموعة بشرية ، ذلك لان قابليات البشر تختلف ، طباعهم تختلف ، آمالهم وأمانيتهم تختلف ، وبتعبير اصبح ان الاختلاف بين ابناء البشر امر جوهري فيهم ، اصيل عندهم ، فاذا كان الاختلاف اساس الطباع البشرية ، فالمساواة بينهم تكون ضربا من الوهم والخيال . فليس صحيحا ان يعامل ، العبقري ، والمخترع ، ورجل العلم والفضل معاملة السوقي ، الكسول ، الخامل . ان التساوي بينهم ، سواء في الاحترام ، أم في الاتفاق عليهم ، أم طرز عيشهم انما هو الظلم بعينه . فالاختلاف في معاملتهم لازم وضروري . اذن فالمساواة لا يمكن ان تكون ألا امام القانون ، والاستفادة من القانون وتكافؤ الفرص . وهذا هو القصد الذي يرمي اليه احرار الناس حينما يطلبون المساواة ، ويرغبون في

تطبيقها في المجموعات البشرية ، فالأوامر والنواهي ، والفوائد والموانع ، التي تنص عليها القوانين والشرائع ، يجب ان تكون ملزمة للجميع ، وممنوعة عن الجميع ، فلا يجوز اختصاص طبقة من الطبقات ، بالمغارم ، واخرى بالمغانم ولا ان يغفل فريق من عقاب ، اذا ارتكب عملا ممنوعا في القوانين ، ويدان فريق ، فلا دابة تكون نصيب كل من يعيث بالمقوانين ويخل بنظام الحياة الاجتماعية التي سدت القوانين لحمايتها ، بهذه الصورة تتحقق المساواة . وكذلك الحرية فليس المقصد منها اطلاق العنان لكل انسان ، ان يفعل ما يريد وينفذ ما يحول بخاطره من افكار . فالحرية هي ان يعمل الانسان ما يريد عمله ، ضمن نطاق القوانين . اي انه يعمل كل عمل ، يشاء اذا اباحته القوانين او لم تمنعه عليه . فالتساهل في تنفيذ القوانين يهدم الحرية كما ان التشدد فيها اكثر مما يقتضي ، يعدمها كيانها ، فالحالان تنتهي الى الاستبداد الاول تنتهي الى الاستبداد عن طريق القوضى ، والثانية تنتهي اليه عن طريق التحكم الظالم ، والاضغاث . فأذا فهمنا ذلك . فلا نكون متجاوزين حدود المساواة اذا قلنا بتوزيع الثروة بين الافراد توزيعا عادلا . وان كان مختلفا ، كما لا نكون معتدين على الحرية اذا سمحنا لقوانين خاصة ان تنظم حق الملكية وتحدده تحديدا معقولا يتناسب وحالة كل مملكة ووضع كل امة .

وحق الملكية : هو حق بمقتضاه يوضع شيء تحت ارادة شخص يكون له دون غيره ان يفتنح به ويتصرف فيه في حدود القانون . وهو حق مطلق يتمسك به ضد كل الناس أي ان كل الناس مكلفون بالامتناع عن التعرض لصاحب الملك قانونا . وهذا الحق ضرورة اجتماعية ، وليس في مقدور النظم السياسية التي يفكر في تطبيقها في المجموعات البشرية ، ان تتجاهلها أو تنكرها معها أو تبت من سلطان ، وممكن لها في الأرض . ذلك لأن تجريد الفرد من هذا الحق يناقض وجوده وكيانه . والقوانين انما تستمد قوتها من ملائمتها لطبيعة الأشياء التي وضعت لها . فالحق بصورة عامة هو عبارة عن

فائدة مادية أو أدبية حتم القانون على الغير احترامها ، ومنح صاحبها قوة الانتفاع والتصرف فيها ضمن الحدود المرسومة . وان الحق ، نفسه ضرورة من ضروريات الحياة الاجتماعية . فلو ان الانسان يمكنه ان يعيش بمفرده لما وجدت ضرورة ليكون له حق أو يترتب عليه واجب وانما ينشأ الحق ، في اللحظة التي يتصل بها الانسان بأخيه الانسان ولما كان مدنيا بطبعه لا غنى له عن هذا الاتصال ، اصبح الحق امراً طبيعياً كذلك . وبنشأة الحق ينشأ الواجب . لانه لا يمكن ان يمتنع حق من دون واجب ، ولان يكون واجب من دون ان يكون هناك حق مفروض احترامه . إذن فالحق ضرورة اجتماعية . والحق وان قسمه العلماء اقساماً ونوعوه انواعاً فهو لا يعدو فائدة أمامادية وأما أدبية . فالحقوق العامة ، كحرية الرأي والمعتقد بانواعها ، أو سياسية كحق الانتخاب ، فهي وان كانت أدبية واسكنها فائدة يستعملها الفرد ، بقوة القانون ، وبقوة القانون يستطيع منع غيره من التعرض له فيها . والقانون يحترم كلا النوعين من الفائدة . وقبل القانون احترمتها التقاليد والعادات ، وهي من أقوى مصادر القانون . فتجريد الفرد من حق الملكية ، معناه تجريده من جميع انواع الفائدة المادية . أى كل ما يقوم به مال ، ويقدر بنقد . وهذه هي الثروة ، والثروة اذا لم تكن قابلة للتملك فما هي فائدتها ؟ .

ولماذا الماركسيون يرون للدولة حقاً في التملك ، ولا يقرون للفرد بهذا الحق وما الدولة الا مجموع الأفراد القاطنين في المملكة المعلومة الحدود وهل اذا جرد الافراد من هذا الحق ، واعتبروا اصفاراً لا قيمة لهم من هذه الناحية تكون للدولة قيمة وهي مجموعهم ، ومجموع الاصفار صفر ؟ ان الدولة تستمد قوتها من هؤلاء الافراد ، كأنهم تتكون امواهم من ذراته وقطراته ، او كالخط يتكون من النقاط المتصلة بعضها ببعض . فكما انك اذا حلت امواء النهر ، فاض ماءه ، او محوت النقاط اندرس الخط ،

كذلك الدولة اذا جردت افرادها من قواهم ، او من حقوقهم ، بتعبير اصح ،
تلاشى اثرها ، وانمحت معالمها وقد يقال اذن كيف تقوم هذه الدولة الضخمة ،
الدولة الروسية السوفيتية على هذا الاساس ، حيث جعلت الدولة اساس كل
شئ ، ونجتمتع كل الحقوق ؟ اني اجيب على ذلك بكلمات قليلة لاني لا اريد
في هذا المقام ، ان اتعمق في تحليل المبادئ السوفيتية وبحث حسناتها
ومساوئها ، وهذه الكلمات تلخص بما يأتي : ان الدولة الروسية اضطرت الى
ان تعترف بحقوق الملكية الجزئية للأفراد بعد ان ثبت لديها عقم محاولتها
في تجريدكم من هذا الحق . وهذا الاعتراف وحده كاف للقضاء على فكرة
نكران حق الملكية للأفراد وهو دليل مادي يثبت كون هذا الحق ،
ضرورة اجتماعية لا غنى للإنسان عنها . لأن عدم الاعتراف بهذا الحق للأفراد
يضعف فيهم قوة الانتاج الفكري ، ويوهن فيهم غريزة النشاط ، ويعدم فيهم
كل قابلية . والإنسان انما تدفعه في حياته الى مجالات الاعمال النافعة ،
والمشاريع الضخمة ، والى الابتكار والابداع ، الإعمال والاماني فاذا
انعدمت خبت جذوة ذكاءه ، وانطفأ ضياء روحه ، واختفت ومضات فكره
ومع ان روسية قبلت بمبدأ حق الملكية في نطاق ضيق ، فهمم الروسيين لم
تسم سموها المنتظر ، ولم ير العالم او الحضارة القائمة ، عقولا مبدعة وادمغة
مفكرة من الطراز الاول في الاوساط الروسية في هذه الايام . ذلك لان
قوة اندفاعهم ونشاطهم حددتها الاتفاقيات الضيقة لأمالهم وامانيهم وها
انهم ، يندحرون امام امة نفوسها ثقل عن نصف نفوسهم وسر هزيمتهم
واندحارهم ليس في قلة جيوشهم ، او ندرة وسائلهم الحربية وانما هو في
عدم قابلية القائمين بقيادة جيوشهم وفي نقص ثقافة المدبرين لشؤونهم ، ولوهن
نفوسهم ، وهذا امر طبيعي فلماذا يرهق اصحاب القابليات الفكرية نفوسهم
ويضني العبقريون اجسادهم ويعمن الباحثون دقة وتمحيصا في بحوثهم ، وهم يرون
الفرق بينهم وبين غيرهم يسير أو يجدون موردتهم ضحلا ، لا يكاد يسد عوزهم ، وبني

بحاجتهم والانسان انما يعيش للحاضر، والمستقبل . ويكدرح لينال النعمى، ويفوز برغد العيش في زمن الشيخوخة ويربى ابنائه تربية يرضاها، ويريه عنهم في حال حياته وبعد موته ، وهذه المغريات ليست متمسرة في ظل النظام القائم ؟ (١) ان القوانين ، وانظمة التربية وقواعدها ، لها تأثير في تكييف النفوس البشرية ليس هناك شك في ذلك ولكن توجد نواميس طبيعية ، وقواعد اجتماعية ازلية ، ليس في مقدور هذه القوانين ، او تلك الانظمة والنراعد التريوية هدها من آساسها واقتلاعها من جذورها . وحق الملاكية حق اوجدته ضرورة الحياة الاجتماعية ، وفرضته التواميس الطبيعية ان تؤثر في آساسه

(١) ان الروس قد انتصروا في هذه الحرب بلا ريب ولكن خصمهم وهم الألمان لم يحرم التفوق الروسي العلمي . وانما دحرتهم السكثرة أولا ونضوب موارد الوقود والواد الحام ثانياً والغارات الألفية التي كانت تقومها قوات الحلفاء الغربيين الجوية ثالثاً وجاسوسية الحلفاء الراقية ، العاجمة رابعاً : وتمدد الجبهات التي كانوا يحاربون فيها خامساً : فالألمان اذا كانوا في السياسة غير ماهرين ، مهارة الأنكليز وغيرهم من حلفاء الانكليز الغربيين فانهم مازالوا المبرزين في ميادين العلم والصناعة . أما الروس فلم ينشأ فيهم علماء طليعون كعلماء الألمان حتى ولا العلماء الانكليز والاميركيين . لقد كانت تدبير معاملهم الصناعية وبيوتهم العلمية قبل دخولها الحرب ، عضة خبراء من غير الروس لقد كانوا خليطاً من ألمان وانكليز واميركيين وغيرهم وكذلك في اثناء الحرب ، واما بعد انتصار روسية في الحرب فانهم قد اختطمت الجانب الاكبر من العلماء الالمان . وان القنبلة الذرية التي هي معجزة هذا القرن انما كانت نتيجة الجهود العلمية التي قام بها علماء الالمان وعلماء الانكليز والاميركيين . وقد ظهرت هذه المعجزة في الولايات المتحدة الامريكية ولم تظهر في الارض الروسية ، فالخطر الروسي الذي يخشاه العالم ، ليس ناشئاً عن قابليتها العلمية والثقافية وانما عن مبدأها الذي يجوز ان يشجعه ما اصاب العالم من دمار شامل نتيجة هذه الحرب العالمية ، والنشاط في تلقين مبدأ لا يفيد التفوق في ميادين العلوم والصناعة سيما اذا كانت ظروف موالية لا دخل لارادة الروس في احداثها . فبهذه الآراء التي دوتها حينما كانت روسية تراجيع ، اعتقد بصحتها في هذه الايام ايضاً ولو ان المعسكر الغربي ينشط الي رفع مستوى الامم المعاشي ورفه الخيف عن الامم المظلومة والمحكومة من قبل الدول الاستعمارية ويسمي لان تكون اعظم حكم صححة في الممالك التي فسدت انظمتها لأصاب الدعاية الروسية خذلان واي خذلان .

وجذوره ، القوانين الوضعيه ، والنظم الكيفية . نعم ! . يمكنها ان تنظمه
 وتنسقه ، تجلوه وتصلقه ، فهذا امر ميسور ، وكل من له نزعة انسانية ، ونفس
 كريمة ، يسعى في سبيل تحقيقه ، ويبدل قصاراه في تيسير ما عسر فيه .
 والحقوق على مختلف انواعها قد تناولتها يد التنسيق والتنظيم واصابها الصقل
 والجلال ، باقدار متفاوتة وصور مختلفة . وقد يقال ، ويقال بحق . ان حق
 الماسكية كان اقل هذه الحقوق عناية من ناحية التنسيق والتنظيم ، وابعدها
 عن الصقل والجلال . اذا قيل مثل هذا القول ، فانه قول حق ، يجب الانصات
 اليه ، والانقياد له . ذلك لآن المدنية القائمة مدنية مادية . نفذت ماديته ، الى
 كل وسط . وتغلغت في كل شيء . فنظم التربية العامة تأثرت بهذه المادية ،
 وسياسة التقنين والتشريع اتجهت اتجاها ماديا ، والصناعة ، والفائضون
 بالصناعة من اصحاب رؤوس اموال ، وعمل ، كانت تسود اتصالهم بالمادة ،
 فكل شيء اصبحت تحت تأثير المادة . لذلك توزعت الثروة توزيعا غير عادل
 فتقلبت فئة بالنعماء ، واضطربت فئات في البأساء والضراء . واشتدت الخلافات
 بين المنتجين الحقيقيين وهم العمال والصناع ، مع اصحاب رؤوس الاموال ،
 وامتلات صدور الجميع بالاشحناء والبغضاء . وامعن الاقوياء في ارهاق
 الضعفاء ، مستغلين القوانين التي سنتها المدنية المادية ، واستبدوا بهم اعتمادا
 اليما . فكانت ثورات وكانت اضطرابات تهيجها كلما سكنت احن واحقاد
 دفينه وتشيرها كلما هدأت ، عصبيات ونزعات كامنة وفي الحق . ان اكثر
 الثروات الضخمة انما تكونت بطرق محرمة ، ووسائل غير مشروعة . وانك
 لترى شخصا كان رأس ماله قليلا ، او ليس له رأس مال اصلا ، نمت ثروته
 وتكدست امواله الكثيرة في ايام خاطفة ، وزمن يسير . والربح المشروع لا
 يمكن ان يجمع مثل هذه المبالغ الطائلة في مثل هذا الزمن . وانما العوامل
 التي ادت الى التضخم والتكثير هي عوامل تنبوا عنها الطبائع السليمة ، والنفوس
 الكريمة والاخلاق الفاضلة . فهؤلاء الماثرون إما انهم يفتخرون نكبة عالمية

عالمية ، او حربا شاملة ، فيستنزفون ثروات واموال المستهلكين ، او انهم يرشون اصحاب النفوذ ورجال التشريع ليستصمدوا منهم قوانين او اوصاف في اختصاصهم بامتياز او نوع من الاحتكار او انهم يستصمدون سندات مالية وهمية ، او يقومون بمضاربات خطيرة الاثر أو يؤلفون شركات من دون رؤوس أموال ، يعتمدون في تأليفها على المكر والدهاء ، اكثر من اعتمادهم على الطرق المشروعة لاستحصاا الثروة ، أو انهم يستغلون السيطرة السياسية الموالية لهم ، فيعبثون في الاوساط المالية في داخل بلادهم وأخارجها ، سيما اذا كانت البلاد الخارجية تحت نفوذ دولتهم واستعمارها ، فأنهم يستصفون الاموال ، والخزائن والكنوز التي فوق تربتها ، وتحت اطباق تربتها . والحاصل فان اكثر الطرق التي استعملت وما زالت تستعمل لتكوين الثروات وتضخيمها جاءت خلاف القواعد القانونية ، أو ضد المبادئ الأخلاقية ومنافع المجموعات البشرية . وان ثروات تتكون بمثل هذه الطرق ، من الواجب اعادة النظر في أمرها وهذه حقيقة لا ريب فيها ، فقد بحثها كتاب عالميون ، وعلماء فطاحل لا تقناولهم الشبهات وليس في وسعنا ان نورد أمثلة لأن ذلك يكون بمثابة تكرار لما أثبتته هؤلاء من جهة ومن جهة أخرى فان الشواهد المادية ، من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة . وان اكتناز الاموال من قبل فريق من الناس ، وفقر الفرقاء الآخرين هما العاملان لكل هذه الاضطرابات المادية والروحية التي نشاهد آثارها السميكة في المجتمعات البشرية فاذا حاول المصلحون تثبيت حق الملكية على اساس منطقية ، وقواعد قانونية ، لا تضر بمصالح المجموعات البشرية ، ولا تحدد من آمال الافراد وامانيهم ، في هذه الحياة فلا تكون هذه المحاولة ، ظالمة ، او منافية للمبادئ ، الحقوقية .

لكل حق من الحقوق المتنوعة التي يتمتع بها الانسان حدود يفتني بها ، ونطاق لا يتعداه ، حرية الرأي والذمير مثلاً هي من أعز الحريات التي يحرس عليها الانسان ومع ذلك فليس صحيحاً ان تكون مطلقة ، فهي محدودة

بمصلحة المجموع فمضى اصبح الرأي مضرراً بهذه المصلحة ووجب الوقوف في سبيله . وكذلك حرية المعتقدات ، والايمان فانها موصولة بأمر النظام العام فاذا اخلت به اقتضى الحد منها بالقدر الذي يستسيغه هذا النظام . حتى ان حق البقاء في هذه الحياة ، لا يستطيع الانسان ان يتصرف فيه كما يريد ، فهو ليس له حق تعذيب نفسه ، ولا قتلها ، فمضى ما شعرت السلطة المكلفة بمحافظه النظام العام ، بعزم انسان ما على الانتحار تبادر الى منعه فوراً وعاقبت محرضه او مساعده ومعيته في هذا العمل ، بل من القوانين ما عاقب الشارع في الانتحار نفسه . وهذا حق للسلطة العامة لا غبار عليه ، اقتضته المصلحة العامة ، وفرضته الواجبات الاجتماعية . وكذلك فان الانسان ليس حراً في التصرف في امواله اذا كان مسرفاً مبذراً لا يعرف وجوه الانفاق فالسلطة العامة حجرة ومنعه عن التصرف في امواله . اذن فالسلطة العامة ، لها حق تثبيت الحقوق وتنسيقها وتنظيمها ، وتعيين الطرق الملائمة للاستفادة منها سواء كانت هذه الحقوق عامة ام خاصة ، مادية ام اديبية ، وعلى هذا الاساس ينبغي اعادة النظر في امر حق الملكية . واول ما يسترعي النظر في امر حق الملكية ، ماهو ذو صلة بتوزيع الارض وكيفية التصرف فيها . لأن ملكية الارض ليس فقط تؤدي الى تضخم الثروة اذا كان توزيعها متفاوتاً ، وتقسيمها لا يستند الى قواعد مطردة ، وانما تؤدي الى فروق اجتماعية خطيرة ، وتكوين طوائف وفرق متناكرة متناحرة ، وبالتالي فانها تؤدي الى تفسخ المجتمعات من الناحيتين الروحية والمادية . ان روما لما كانت ملكية ثم جمهورية وكانت ممتلئة بركة ايطاليا ، كانت ترتع في بحوذة من النعيم ، وتعيش في ظل الدعة والهناء والهدوء ذلك لان توزيع الارض كان متساوياً ، وتقسيمها بين الجند والافراد كان متساوياً فلا نزعات الغيرة والحسد كانت تحرك العداوة بين الافراد ، ولا التفاوت في الطبقات الاجتماعية كان يسبب التخاصم والتناحر كان الرومانيون كلهم يفكرون في روما ، وبعشقون روما . وكانت سلطة

السناتو تشمل الافراد المدنيين ، والجنود وقوادهم على السواء ، وكان الاحترام
 لها من هؤلاء متساويا في القوة . ولم يكن هم الجميع غير خدمة روما ، وبذل
 دمائهم وما يملكون في سبيل شرف روما وكرامتها . ولكن لما ضاقت
 ايطاليا بالرومانيين وطموحها في خارجها تغير الحال تماما . بينما كان السناتو هو
 المؤثر في الشعب وفي الجند وفي القواد ، اصبح القواد المنتصرون خارج
 البلاد الايطالية ، الفاتحون لبلاد فيها الشيء الكثير من اسباب الرخاء ، ومن
 الثروات والكنوز الثمينة ، اصبح هؤلاء يشعرون بفزع استقلالية عن سناتو
 روما واوامره ، وكلما بعدت بهم الديار ، وشطت المسافات بينهم ، وبين وطنهم
 الاصيل ، كانت روح الانصياع للمركز تضعف فيهم والطاعة للقائمين
 بشؤون الوطن الاعم تقل ، ولما كانوا يعودون بجيوشهم المتشعبة بروح
 الفتح ، العسكري من سلافة النصر ، ويدخلون روما وعلى رؤوسهم اكابيل
 الغار معقودة تتبعهم احمال الاموال واثقال الخزائن والكنوز التي ظفروا
 بها ، كانوا يستولون على الاراضي بطرائق شتى فاضطرب بذلك نظام التقسيم
 المتبع ، وتغير اسلوب تملك الاراضي واصبحت الارض بعد زمن يسير وقفا
 على طائفة معينة ، وحرمت منها طوائف كبرى اخرى ، وزاد في ذلك ما دخل
 روما من الخزائن والكنوز ، فكثر اسباب الزينة ، وتنوعت ، وضرب
 الترف بجرائه على ذلك الشعب العسكري ، الولوع بالبساطة ، ففرق الى
 طوائف متباغضة متحاسدة ، وانقسم على نفسه ثم مال الى البطر فضعفت
 روحه ، وتجرد عن كثير من المقومات الاخلاقية التي كانت السبب في قوته
 وعظمته . فكانت نهاية روما الغربية واندثارها . وهكذا كانت
 الانتصارات المتعاقبة السريعة مبدءا لانحلال ذلك الشعب العسكري القوي الغيور .
 لانه بعدما كان يرى الجنود وقوادهم ، روما هي الكل في الكل ، والسناتو هو
 صاحب السلطان المطاع اصبح القواد يشعرون باستقلالهم عن هذا
 السلطان والجنود مرتبطين بقوادهم فكانوا في نظرهم ، هم روما ، وهم سناتوها

وبينما كانوا يحاربون في سبيل روما ولاجل الشرف اصبحوا يحاربون في
 سبيل الاثراء ، واصابة الاموال وادخار الطرائف واقتناء اكبر مساحة
 من الارض ، واشادة اضمخ الابنية عليها . فلو كانت روما احتفظت بقواعد
 تقسيم الارض وحرصت على ان تكون البنايات الضخمة ، الباهضة الكلفة
 هي البنايات الحكومية كما كانت عليه في اول امرها وطيلة الحكم الجمهوري
 فيها ، لكان يجوز انها لم تلاق حتفها بتلك السرعة ، وتلفظ انفاسها بين سموم
 الترف ومخدرات النعيم . فتوزيع الارض امر حيوي ، في كل مجتمع انساني
 ولست ارمي تبعة انهيار روما الغربية على التفاوت في توزيع الارض فقط ،
 وانما اقول انه كان السبب الاول واما الاسباب الاخرى فقد تفرعت عنه
 حيث اخذ اصحاب النفوذ ، والقواد والرؤساء والذين حملوا الى روما خزائن
 البلاد المفتوحة واموالها ، اخذ هؤلاء يقتنافسون في الاستيلاء على الارض وفي
 انشاء البنايات الضخمة عليها ، والزويق والتنميق . واقتضى هذا التنافس
 في اسباب الزينة واقتناء الرياش الفاخرة ، والاثاث والاواني الثمينة ، الاندفاع
 الى حياة مترفة ، لم يكن قد ألفها الشعب ، والى عيش رغيد لم يكن قد تعودده
 فضعت روحه وانحطت كفاءته من ناحية ومن ناحية سرت في النفوس
 امراض التنافر والتنابد ، وعصفت في اوساطهم ريح الخلافات لما كان بين
 طبقات الشعب من فروق واضحة . ولا يعترض على هذا الرأي بأن
 الاختلاف في الثروات ، وما صارت اليه الحالة في روما نتائج طبيعية لسياسة
 الفتح والتوسع . قد يكون ذلك اذا لم تتخذ اسباب الوقاية ولما كانها اذا
 اتخذت ، فقد يجوز انها كانت تحول دون المصير الذي صارت اليه سياسة روما التوسعية
 وغيرها . على انه ماذا تفيد الامم التي طمعت في سياسة التوسع ، والفتح ، اذا كانت
 تعلم ان نتائجها تفتني بموتها واضمحلالها ؟ والعبرة ليست في الفتح والتوسع
 وتوالي الانتصار وانما العبرة في الاحتفاظ بحيوية الامم وكيانها ، ثم
 الاحتفاظ بما حصلت عليه عن طريق الفتح والتوسع والانتصارات .

ان الامبراطورية العربية ، التي ادهشت العالم في فتوحاتها السريعة ، وانتصاراتها الرائعة ، ما لبثت ان تحاذت رويدا رويدا ، وقد بدأت فيها اعراض التخاذل والانحطاط وهي في فجر حياتها . لان الانتصارات في الوقت الذي تجلب فيه الخيرات الى الامة المنتصرة ، وتدر عليها البركات فانها تحمل في طياتها جرائم الانحلال والاضمحلال اذا لم تتخذ الاسباب ، المانعة . فكما ان روما الغربية كانت انتصاراتها سريعة كذلك كانت نهايتها سريعة ، وكما ان الامبراطورية العربية كانت انتصاراتها ، سريعة فكذلك كانت خاتمها . اخلت روما بالمساواة في توزيع الارض فادى اخلالها بالـكوارث التي اجتاحتها ، وكذلك الامبراطورية العربية فانها لما اخلت بالمساواة في التوزيع ظهرت عين الاعراض التي ادت بروما الى الهلاك ، ولو اتبع امراء المسلمين ما اتبعه ابو بكر ، وعمر ، وعلي ، لكان يجوز ان تدوم حياتها اكثر ، ولكن سلطانها اقوى ثباتا . وفي كل مجتمع انساني اصيب بأسباب الاضطراب والانحلال تجد السبب الرئيسي لكل ذلك هو عدم العدل في توزيع الارض واذا كان قد اصبحت التساوى في تقسيم الارضين في الوقت الحاضر امرا متعسرا فيجوز ان توضع قواعد تبين الحدود العليا ، لمقادير الارض التي تكون قابلة للتملك او للتصرف فيها . صحيح ان الارض تختلف بعضها عن بعض من حيث قوة الانبات ، ومن حيث بعدها عن العمران او قربها منه او بعدها عن وسائل النقل او قربها منها ، ومن حيث وعورتها او سهولة الاستفادة منها او ريبها ، ولكن هذه الامور يمكن ان تؤخذ بنظر الاعتبار حين تقدير المقدار الاعلى الذي يجوز تملكه او تفويضه لكل فرد . او لكل بيت (عائلة) . فاذا اخذنا طرائق توزيع الارض الجارية في العراق مثلا نجد ان هذه الطرائق قد ادت الى ان يتفوض ويتملك فريق من العراقيين ، مقادير من المساحات تكفي لتأسيس دولة فيها ، او اقامة جمهوريات اكبر حجما ، واكثر نتاجا من جمهوريات يونان القديمة . مع ان الاكثريّة

الساحقة من العراقيين لا تملك كوخاً تأوى اليه او خربة تستظل في ظلها فما معنى ذلك؟ وكذلك نجد الحالة في الامم الاخرى وحتى في الامم الاوربية كبريطانيا وفرنسة او في اميركة على اختلاف جمهورياتها .

فخير طريقة تعالج فيها ملكية الارض ، هي تحديد الحد الأقصى للمساحات التي تكون قابلة للتمليك أو التفويض في العراق مثلاً يجوز ان يكون الحد الأقصى خمسة آلاف من الدونمات الجديدة للارض المحصنة أو القريبة من العمران وعشرة آلاف الوعرة أو البعيدة عن العمران . وقد تكون هذه المقادير كبيرة بالنسبة لبعض الممالك ، او قليلة بالنسبة لغيرها . ففي بريطانيا تعد كبيرة مثلاً ، بينما في استراليا تعد قليلة بالنسبة لآزدحام السكان او قلةهم ، ووسعة رقعة المملكة او ضيقها . وان هذه المقادير تكون بالنظر الى الارض التي تستغل للزراعة ، وأما الارض التي تستغل لغرض السكنى والاجارة يجب ان لا تتجاوز بالنسبة لوضع العراق ، اكثر من خمسة دونمات . وهذا التحديد لا يكفي وانما يجب ان يشفع بتحديد آخر هو ان بنايات الدور او الاماكن التي تعد للسكنى للأفراد يجب ان تكون متواضعة او بتعبير اصح ان تكون مستوفية اسباب الراحة لغرض السكنى ، ويترك أمر انشاء الأبنية الضخمة للدولة ، فهي التي تدش البنايات الضخمة لدوائر الدولة والمستشفيات والمحلات العامة والمعارض والحدائق وما الى ذلك . والسبب في هذا التنظيم ، هو ان يقل التنافس بين الافراد في انشاء البنايات الضخمة ، وبالتالي يقل التنافس في اقتناء اسباب الزينة وأدواتها ، فضلاً عن ان هذا الوضع يجعل أبنية المدينة أكثر تناسقاً وأشد التأمناً ، وأجمل منظراً ، فجمال المناظر لا يكون بالأبنية الضخمة وانما يكون بالأبنية المتناسقة المتلائمة البناء . ثم هذا الطرز من البناء لا يثير كوامن الحقد والبغضاء في الطبقات الفقيرة حيث ان يشير الى قلة الفروق بين الطبقات . كما ان تجزئة الارض الى أقسام صغيرة ، أو غير مفرطة في الاتساع لتسهل توزيعها على اكثر عدد ممكن من أفراد الشعب . فلا ينفرد

افراد قلائل ، باراض واسعة ، وتحرم الاكثرية اعدم قدرتها على مجاراة
 الأغنياء في هذا المضمار وكذلك تكون الرغبة في اعمارها ، والحرص على
 بقائها في حالة العمران اكثر مما لو ان الاراضي واسعة ، ومالكها قلائل فقد
 يدفع البطر ، بأصحابها الى ان يهملوا القسم الكبير منها ، اذا ما رأوا ان
 ما يأتهم من الوارد من القسم المعمور يفي بحاجتهم أو يفيض عليها
 والتحديد الثاني يكون في الوارد لكل فرد . سواء كان هذا الوارد
 من تجارة أم صناعة أم زراعة أم حرفة أم مسلك أم وظيفة أم ملك على
 شرط ان لا يكون هذا التحديد مؤثراً في نشاط الانسان وقابليته ، ودافعا
 به الى اليأس والقنوط في آماله وأمانيه . فالإنسان يجهد فكره ويجهد نفسه
 ويواصل سعيه ليظفر بثروة يتمتع هو ، وأفراد عائلته ، بخيراتها فاذا حبل
 بينه وبين هذه الثروة فقد يقعه اليأس عن العمل ، ويصيب نشاطه وقابليته
 فتور . فحق امتلاكه ثروة مناسبة ضرورة اجتماعية كما بينا آنفاً . ولكن هذه
 الثروة يجب ان تكون معقولة لا تتجاوز حدود المنطق ، وان لا تضر في
 الصالح العام . وان فكرة ان الثروة لا تعرف حدوداً كما قال سولون ، فانها
 ليست فكرة صحيحة . وكما ان لكل حق حدوداً وآفاقاً معينة فان لحق
 امتلاك الثروة حدوداً وآفاقاً ايضاً ، وهذه الحدود والآفاق يجب ان تعينها
 القوانين في كل مجتمع انساني . وان التضخم في الثروات ، وما ينتج من
 اسباب أودت بحياة الأمم الحالية وما زالت تدفع بالأمم الحاضرة الى عين
 المصير انما نشأ عن اهمال هذه الناحية فكما ان امتلاك الثروة اصبح ضرورة
 اجتماعية فتحدد بها كذلك امسى اشد ضرورة واكثر لزوماً درءاً لتجميع
 النقد ودفعاً لتضخم الثروات . وهذا التحديد هو عبارة عن بيان حد اقصى
 للأرباح والمنافع حتى اذا ما وصلت ارباح الانسان حدها الاقصى المعين في
 القانون وجب ان يكون الزائد عنه نصيب خزانة الدولة . فماله . مثل
 العراق ، قد يكون من المناسب ان يكون حد الاقصى لواردات الشخص

المختلفة الصافية فيها لا يتجاوز الألف دينار في الشهر أي أربعة وعشرين الفا من الدنانير في العام الواحد . ان الثروة انما تهتفى ويقصد اليها ، لا أجل ان يعيش الفرد عيشة هائلة وان تنقذه وذريته من العوز والفاقة ، فتجمدها واكتنازها ، أو تبذرها والاسراف فيها كل هذه الحالات فضلا عن انها لا تفيد صاحبها ، فهي تضر فيه وتضر في الصالح العام وتؤثر في قوة التداول في الاسواق . وقد تختلف الممالك بالنسبة لوسعتها ، وقلتها ، وازدهام السكان فيها أو قلتهم ، وطرق معيشتهم وكثرة النقد فيها أو قلتها ، وكذلك تختلف اساليب حياتهم بالنظر الى ان البلاد زراعية ، أو صناعية أو غير ذلك . فتحدد الحد الأقصى يكون بالنسبة للأوضاع المختلفة التي عليها البلاد المختلفة . فالبدء الذي يجب ان يكون ضالة الجميع ، هو تحديد الثروات عن طريق فرض حد أعلى لمختلف الواردات الصافية التي يحصل عليها الفرد

هذان مبدآن عامان اساسيان لا ندحى لنا من اتباعهما اذا أردنا في المجتمعات البشرية تكويننا ماليا اقتصاديا رضيا . ويتفرع عن هذين المبدئين ما يأتي : ١ ان تكون سياسة فرض الضرائب سياسة قويمية تكفل المصلحة العامة ، والعدالة المطلقة لاسيما ضريبة الدخل فيجب ان تكون متصاعدة حتى اذا ما بلغت الارباح الحد الأعلى المقرر كانت الضريبة مثمة بالمثل . ب ان التوارث مبدأ مقبول . فالإنسان من أعز امانيه ان يكفل الحياة الناعمة لنفسه ولذريته عدا ذلك فان التوارث قائم على اساس التعارن وتقابل المغارم بالمغانم فكما ان المورث في حال حياته اذا اصابه عجز ، ونايته نائبة وجب على ذريته القدرة على اعالته ، ان تعمله وان تقوم بأوده فعلى المورث ان يترك لذريته أموالا تستفيد منها . فمبدأ التوارث فضلا عن انه من لوازم الطبايع البشرية ومن مطمئنات الرغبات الانسانية فانه قائم على أساس التعاون وهو امتن أساس تقوم عليه المجتمعات البشرية ولكن اذا كان احتمال العوز والفاقة قد انعدم في الذرية ، حيث كان لها ما يكفيها ويزيد على

الكفاية فلم يبق اي سبب للتوارث . فالوارث اذا كان ما يصله في العام من مختلف أنواع مصادر الواردات ، قد بلغ الحد الأقصى المقرر في القانون فلا يرث ولذلك من كان يمتلك الحد الأقصى من الاراضي ولم يكن مدينا عليها فليس له ان يرث . واذا كان مدينا عليها يؤدي الدين من نصيبه في الارث والباقي تستوفيه خزينة الدولة . ومع ذلك تفرض على الاموال الموروثة الضريبة المتصاعدة بالنسبة الى نصيب كل ورث على ان يعين حد أدنى للاموال الموروثة لا تستوفي منه الضريبة ، فمثل هذا النظام ، يكفل مصالح الافراد ، ومصصلحة الهيئة الاجتماعية فهو لا ينكر حق التوارث كما ينكره الشيوعيون ولا يترك الحبل على الغارب ، ويسبب تضخم الثروات وتجميدها بدون أسباب تبرر ذلك . ويتبع في الوصية عين الترتيب . - ج - يمنع الوقف الذري ويسمح بالوقف الخيري فقط . - د - تمنع المضاربات في الاسهم والسندات المالية . - هـ - تمنع اليا نصيبات والاعمال التي يكون سناؤها الحظ لا المهارة ، كسباقات الخيل والالعب السركسية وما الى ذلك مما يفيد معنى المقامرة ، لانها تستنزف أموال الافراد وتورد لهم موارد التلف . - و - تكون بعض الاعمال التجارية من حق الدولة أما لمحافظة قوة تداول النقد ، أو للإشراف على حركة التجارة وتدوير الثروة العامة كأعمال البنوك (الصيرفة) وأما لتأمين سلامة المواصلات والتخفيف عن كاهل الفرد ، كأعمال البريد والبرق والسكك الحديدية ، والتنوير وأسالة المياه وما الى ذلك . وليس ضروريا ان تضع الدولة يدها على المعامل والصناعات والمشاريع حتى اذا كانت الصناعات صناعات ثقيلة والمشاريع ضخمة لئلا يضيق مجال العمل ، على الفرد وانما لها ان تتدخل اذا وجدت اسبابا مبررة تقتضيها مصلحة المجموع لا يهتزض على هذا التحديد ، بأنه يؤدي الى وقف الاعمال الكبيرة التي تفيد منها البلاد ، ذلك لأن مبدأ تأليف الشركات ، سيما

شركات « الانونيم » قد الفتحة المجتمعات البشرية وان رؤوس الاموال الضخمة تتكون من اشتراك الافراد والمساهمة فيها . وان المشاريع الكبرى من طبيعتها ان تدار من قبل شركات لا من قبل افراد قلائل . وان كان قد قام ببعضها افراد معدودون فهذا نادر .

ان هذه التدابير ليست كل ما يقتضي اتخاذه لتنظيم الثروات القومية وانما هناك تدابير ، فيما له صلة بتنظيم التجارة بين الممالك والشعوب ، من حيث التصدير والتوريد ، والمعاملات السكركية ، وتركيز النقد العالمي على اسس ثابتة ، ومن حيث حرية التجارة او تقييدها ، وتوفيق التعامل بين الممالك الزراعية ، والممالك الصناعية ، وتنظيم وسائل التبادل فيما بينها ، ومن حيث تثبيت الصلات على اسس متينة بين اصحاب رؤوس الاموال والعمال ، وبين هؤلاء والمستهلكين والى غير ذلك من الامور ذات الاثر الخطير في حياة الامم وتطور ثرواتها القومية وهذه التدابير اما ان تكون في الدرجة الثانية فليس من الضروري بحثها في هذا المكان ، واما ان تبحث في مكان آخر اكثر مناسبة واقرب موضوعا . والتنظيم المالي والاقتصادي هو المنبع الفياض الذي تستمد الشعوب منه الحياة ، كما ان فساد مصدر كل النوائب والنكبات . وناحية خطورته تنبعث عن صلته المباشرة باخلاق الشعب وبانسجامه واستقرار الامن فيه أولا . ولقد اصبح من الحقائق الثابتة ان الامم باخلاقها وانما ان فقدت اخلاقها فقدت كيانه وحيويتها وبالعكس . ولكن لماذا تفسد الاخلاق وما هي عوامل هذا الفساد ؟ فالتحليل العلمي ، اثبت ان جرائم الفساد تنبعث عن عدم توزيع الثروات توزيعا صحيحا ، ومن الاخلال الذي يطرأ على التنظيم المالي والاقتصادي . نعم قد ترافق هذه الجرائم جرائم اخرى وتعاون جميعها على القضاء على حياة امة من الامم ، ولكن سبب الضعف المباشر ، والاصيل ، هو ما يجي . من ناحية فساد التنظيم المالي والاقتصادي فمثله كمثل جرثومة السل فان تعلقت بجسد الانسان اخذت في

اضعاف قابليته المقاومة . وقد يطول عمر المريض بداء السل او يقصر بالنسبة الى تكوينه الجسدي والموانع الموجودة في داخله او عدم وجودها وبالنظر الى موانع خارجية ، تؤخر نهايته او تعجلها فاذا كانت بنيته ضعيفة . ولم يتدارك نفسه في المعالجة انتهت حياته بسرعة ، واذا كانت قابلية المقاومة في جسده قوية ، او قد تهيأت له اسباب خارجية ، من معالجة سريعة ، او مكان نقي الهواء ، وعيشة ناعمة فقد يتأخر يومه . ولكنه على كل انه مريض ، وحياته محفوفة بالخطر ، ويومه يقترب رويداً رويداً . وقد يصادف ان تغزو جسده جراثيم اخرى فتعجل نهايته نتيجة للاختلاطات التي حصلت حيث جسمه المتخاذل لم تعد فيه قابلية المقاومة . وبقوة هذه الحقائق نستطيع ان نفسر سرعة انهيار امة وتأخر غيرها من الانبياء مع ان داءها واحد ، فالامبراطورية الرومانية الغربية لاقت حتفها بسرعة بينما الامبراطورية الرومانية الشرقية عمرت بعدها عصوراً مع انها كانتا مصابتين بعين الداء ، وقد وصلتا الى احط دركة من دركات الانحلال الروحي والضعف الاخلاقي والفوضى الاجتماعية . وذلك لأن الامبراطورية الشرقية قد تهيأت لها موانع خارجية لم تقيس للآخرى . ان برابرة الشمال (الهون) لما اجتاحت اوروبا الغربية لم يعبروا البحر الى روما الشرقية اي القسطنطينية لانهم لم يكونوا ذوي خبرة ومهارة في صناعة السفن كما انهم لم يتعودوا حياة البحار ولا حروبها . فكان البحر الاسود وبحر ايجه وما بينهما من مضائق الدرونيل كل هذه كانت تؤلف موانع طبيعية وقفت حائلاً دون الغاتحين الجدد وفي الجنوب كانت ملوك العرب الصغار مشغولين بانفسهم يقتل بعضهم بعضاً ، ويدمرون بلادهم ، ويخربون ديارهم ، بأيديهم مدفوعين بارادة الامبراطوريتين الشرقيتين (١) اذ كانت الامبراطورية الشرقية في خطر من ناحيتهم ولم تكن في الشرق دولة يحسب لها حساب غير الدولة الايرانية وهذه لم تكن باحسن

(١) الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية

حالا من الامبراطورية الشرقية وكان من المتوقع ان تقضي الامبراطورية
 العربية الفتية عليها وبالفعل قد حصلت المحاولة وسيطرت على كثير من الاملاك
 الخاضعة للامبراطورية الشرقية ، ولكن هذه الامبراطورية العربية الجديدة
 التي كانت قد ادهشت العالم في سرعة ، نموها ، قد دب فيها الفساد وهي في
 فجر حياتها ، وانشغلت بالاختلافات الداخلية من اجل الخلافات عن اتمام
 محاوراتها هذه ، وبقيت الامبراطورية الشرقية تردد انفاسها ، وتشم الهواء ، وان
 كان الداء العضال ، قد انهكها ولم يبق منها إلا خيالا ورسما . واي دليل اصدق
 على مبلغ ترددها ، وانحطاطها من امعانها في الاختلافات الدينية واقتتال رجال
 حزبي الزرق والخضر بحماسة فيما بينهم والسااطان محمد الفاتح يخترق اسوار العاصمة
 ويتغلغل بجنوده في صميمها ؟ . فالاسباب التي كانت تؤجل مصير الامبراطورية
 الشرقية كانت اسبابا خارجية . فلو كانت هناك دولة ذات قوة حربية قريبة منها ،
 لما بقيت متأخرة عن اختها في الغرب . وكذلك الدولة العربية في اسبانيا
 وان عمرت ثمنائة عاما ، ولكن اعراض الداء فيها قد لاحت في آفاقها
 واستقرت في ربوعها ولم ينصرم عليها ، عصران اثنان ، حيث توزعت الى
 امارات ، وانما بقيت هذه الامارات تعيش عيش المسلول الذي لا رجاء فيه ستمائة
 عاما اخرى ، لاسباب خارجية . حيث ان الامم الاوربية كانت تتخبط في
 ظلام الجهل ، وكانت تتقاتل وتتناوب فيما بينها فكان لكل منها واسكل من
 الامارات العربية شغل في نفسها يحول بينها وبين التفكير في جاراتها المشرفة
 على الموت . واما بقاء الامبراطورية العثمانية مدة اكثر مما كان يجب ، فراجع
 الى التوازن الدولي ، وما تحمله من موقع جغرافي خطير . وان التفكير في
 القضاء على هذه الامبراطورية كان منذ عهد لويس الرابع عشر اي قبل
 القضاء على الدولة البولونية في النصف الاخير في القرن الثامن عشر ولقد
 اصبح الدردينيل على الامبراطورية العثمانية ، والجمهورية التركية في الوقت
 الحاضر ، نعمة لا تقدر ، ومنحة آلهية لا تمن بضمن . فكل دولة عظيمة تطمع

فيه ، وكل دولة من هذه الدول المتنافسة تمنع غيرها من الوصول اليه . وانما ارادت الامبراطورية البريطانية في عهد وزارة لويد جورج ان تضرب ضربتها القاصمة وتفسخ نواياها في هذا المضيق الخطير الشأن واسكن سرعان ما وجدت منافساتها امامها يحبطن مساعيها . فايطاليا الخائفة مما اصابها من الخيبة في توزيع الاسلاب على المنتصرين في الحرب الكونية السابقة وفرنسة التي أبت على حليفتهما ان تزدرد هذه اللقمة الدسمة قد خيبتا آمال لويد جورج وحكومته كما ان روسية بعد ان استردت عافيتها كانت قد قدمت بحماسة مشيرة للاعجاب مساعداتها لزعيم الحركة الوطنية انذاك في الاناضول حرصا على بقاء هذا المضيق في يد جارتها الضعيفة بالنسبة اليها ، وخوفا من ان تقع يدها عليه دولة قوية ، كالدولة البريطانية ، وهي تريدها ، ان لم يكن في المستقبل القريب ففي المستقبل البعيد . فمما ونة روسية لتركية في الابقاء على حيويتها وعلى كيانها لم تكن وليدة مبدأ ، او حب للخير المحض كما يتوهم الواهمون . وانما كانت وليدة النفع الذاتي ، والمصلحة الشخصية . فلو انها كانت تشفق حقيقة على حريات الامم ، لما سارعت في القضاء على دويلات البلطيق المسالمة واشتبكت مع احداها في حرب دامية وهي لم تأت امرأ يستوجب اللوم بله الحرب . فالقصد من كل هذه الملاحظات هو التدليل على ان اختلال النظم الاقتصادية والمالية في كل امة يؤدي الى موتها ، واما موتها فانه يتقدم او يتأخر بالنسبة الى ما في كل امة من موانع وقابلية مقاومة في الداخل واسباب مانعة ومرجئة في الخارج وهذه الامبراطوريات التي ما زالت في الوقت الحاضر تعالج سكرات الموت ، داؤها كان وما يزال في فساد النظام المالي والاقتصادي والفساد فيه أدى الى الفساد في النواحي الاخرى .. والبحث يطول ان اردنا ايراد الامثلة السكثيرة في هذا الموضوع .

وقد يرد سؤال وهو ان بريطانيا واميركا ما زالتا تنموان وتتضخنان برغم ان توزيع الثروة والممتلكات بين افرادها متفاوتا والفروق الاجتماعية

وبنية واضحة بين الطبقات . والاخذ بأسباب الترف والزينة وصل الى اقصاه
 إذن ، يجب ان نتحرى اسباب اضمحلال الأمم في غير هذه الاسباب . اذ لو
 كان التفاوت الكبير في توزيع الثروة وما تنتجه من فروق اجتماعية ،
 العوامل المباشرة لزوال الأمم ، لكانت كل من بريطانيا واميركا في
 طليعة الامم الزائلة ؟ وقد تؤيد الظواهر صواب هذا الرأي ، ويمكن
 حقائق الاوضاع في هاتين المملكتين الضخمتين الغنيتين المترفتين
 تزيد ما ذهبنا اليه تأييداً ، وتمكيناً . قلنا ان موانع الانحلال وقابليات المقاومة
 في كل امة اذا قويت تستطيع ان تدفع عنها عادية الزوال وتدعما تعيش
 الى عصور آجال ولكن هذا لا يعني انها ليست مريضة ، وانما يعني
 تأجيل الاجل الى وقت ما . فبريطانية واميركا ليستا سالمتين من هذا الداء
 الوبيل الذي وصفنا اعراضه وآثاره ولا ناجيتين من المصير الذي ينتظرهما ،
 ان لم تعيدا النظر في تكوينهما المالي والاقتصادي . فبريطانية فيها من موانع
 الانحلال الخارجية ، وقابليات المقاومة الداخلية الشيء الكثير ، وهذا هو
 سر بقائها حية . فمن اسباب الموانع الخارجية ، موقعها الجغرافي ، وصعوبة
 غزوها والوصول اليها ، لكونها محاطة بالبحار ومنفصلة عن اوروبا .
 فاحتفظت بكيانها ، وتقاليدها ، وععناتها او ان التطورات والتغيرات في
 هذه النواحي الروحية كانت بطيئة على قلتها . ولو كان وضعها الجغرافي
 غير هذا لوجدناها متوزعة اشلاء ، ومنقثرة هباء منذ زمن ووضعها
 الجغرافي هذا فضلا عن انه جعل غزوها صعبا ، فقد سبب احتفاظها بخلقها
 وسجايها النفسية التي بلا شك كانت في اول امرها قوية وما زالت القوة بادية
 فيها الى الآن برغم ما اعتراها من وهن . واسباب اخرى حفظت الخلق
 البريطاني ، ونشاطه وحيويته من التدهور السريع ، هي الطرق التي استعملها
 البريطانيون في توسعهم ، سواء من حيث الممالك ، ام من حيث الثروة . فالشعب
 البريطاني وان لم يكن في الذكاء ، وقابلية الابداع في الدرجة الاولى ،

ولكن الطبيعة عوضته عن هذا النقص بسجايها نفسية فلما تجدها في غيره
 من الشعوب الحية في الزمن الحاضر . فالصبر ، والجلد والتروي ، والتأمل في
 تقرير القرارات الحاسمة ، والمرونة في التطور من حال الى حال كل هذه
 جعلت من هذا الشعب ضخرة لا تزعزعها الزواجع ، ولا تزعزجها من مكانها
 الا عاصير . فالبريطاني يفكر قبل ان يقول ، ويحضر اسباب البناء ، ويضع
 التصميم ، قبل ان يبتدأ في البناء . واذا بدأ في العمل ، بدأ في هدوء وسكون
 واستمر في عمله بهذه الروية وبرودة الدم . واذا تخلت عمله مصاعب ،
 احتملها ، ومشقات صبر عليها حتى يقهرها . واصبحت له قابلية الاعتبار
 بالحوادث الماضية واخطائها فيتعينها بقدر الامكان . فبريطانية بدأت عظمته
 في الثلاثمئة سنة الاخيرة اما قبلها فقد كانت جزيرة قليلة السكان ، ضخيلة
 الموارد . وكانت الثروة فيها ليست بالدرجة المغربية وكان توزيعها لا بأس
 به . وانها لما بدأت تنظمها في خلال هذه السنين الثلاثمئة ، ونهدت الى
 توسيع ممتلكاتها جعلت الروية شعارها ، فلم تندفع في هذا التوسع بسرعة ،
 فكانت كلما ضمت اليها ملكا جديدا ، تربت زمنا ، تحكم اسباب بقائها في
 هذا الملك الجديد وتسن النظم والشرائع الكاملة لاحتفاظها به ، وبعد ان
 تنهى عملها ، تستأنف خطواتها الاخرى في سبيل توسع آخر . لذلك كانت
 هذه المدة الطويلة ، سلسلة انتصارات بطيئة ولكنها محكمة نوعا فروما
 تداعت امبراطوريتها بسرعة لان توسعها كان سريعا ، والعرب تلاشى امرهم
 في زمن قصير ، لان فتوحهم وانتصاراتهم كانت من حيث السرعة يكاد العقل
 ان لا يصدقها . فالفتوحات السريعة ليست خيرا ، كما تبينوا لاول نظرة وانما
 هي بالعكس تؤدي الى الزوال السريع . لان قلة الزمن لا تعطى مجالاً للفاتحين
 لكي يتخذوا التدابير الكاملة للاحتفاظ بهذه الفتوحات من جهة ، ومن جهة
 اخرى تغري النفوس الى الزرع الى البطر والترف والى استنزاف الثروة
 والتصرف فيها تصرفا غير حكيم كالبراس الذي يفاجا بثروة طائلة

او كنز دفين على حين غرة فهو لا يدري كيف ينفق ، ولا يعرف في اى سبيل
 يبذر هذه الثروة . فينغمس في لذائذه ، ويذشغل في امتاع نفسه وينسى
 كل شىء . فتوسع بريطانيا الهطىء المحكم ، قد علمها كيف تستحوذ على
 ثروات الامم لتضخم ثروتها ، وافهمها كيف تنفق هذه الثروة وتستفيد منها ،
 في بلادها . وانها منذ منتصف القرن التاسع عشر اخذت تعني عناية متصلة ،
 بحالة العمال ، والطبقات الدنيا وتوسع عليها . ومهما كانت الفروق الاجتماعية
 كثيرة ، وتوزيع الثروة متفاوتا في الجزيرة البريطانية فعلى كل حال ، ان
 الطبقات الدنيا ، فيها أسعد حالا من مثيلاتها في البلاد الاخرى اذن فالأسباب
 المقاومة لبريطانية ، هي موانع خارجية ، وقابلية مقاومة داخلية . ولكن
 مع ذلك فانها ليست غير مريضة ، فأعراض المرض ، قد تفتت في اوساط
 مجتمعتها ، والعوامل الاقتصادية والمالية اخذت تعمل عملها ، في اضعاف بقيتها
 وتطغى على موانعها وقابلية مقاومتها ، ولاجل ان تنهار وتتداعى ، تحتاج
 الى صدمة قوية ، وما اكثرت هذه الصدمات في مثل هذه الايام الحبالى بكل
 عجيب ، اللهم إلا اذا تداركت امرها واعادت النظر في وضعها المالي
 والاقتصادي بصورة جدية وسلمت من الصدمات . وما قيل في بريطانيا يصح
 ان يقال في اميركة . فان احاطتها بالمحيطات ، ومكانها النائي وتعقبها سياسة
 عدم التدخل في شؤون غيرها من القارات كل هذه اسباب خارجية كفلت
 بقائها ودوامها وخطة الرئيس مونرو ، ما كانت إلا خطة دفاعية افادت اميركة
 افادة كبرى حيث جعلتها في نجوة من العنازع والتنافس على خيراتها ،
 وممتلكاتها . وعدا ذلك فان اتساع رقعتها وخصوبتها واحتوائها على المواد
 الخام المتنوعة التي تؤمن اغراضها في التجارة والصناعة ، وعدم ازدحام
 السكان فيها ازدحاما يؤثر على المعيشة فيها ، كل هذه كانت اسباب مقاومة داخلية
 قاومت تسرب الانحلال والفساد اليها بصورة سريعة . وان الشعوب الاميركية
 لم تشعر بشيء من الضيق ، إلا في آخر هذا العصر لذلك تجدها قامت بتحديد

الهجرة اليها ، واخذت تعيد النظر في اوضاعها المعاشية ، وأميرها المالية والاقتصادية . وان التفاوت في توزيع الثروة والفروق بين الطبقات لا تؤدي الى انحلال السجاي ، والى اثاره الخفايا والاحقاد إلا اذا ضاقت خيرات المملكة ببنيتها وكانت هناك طبقة مترفة منعمة وطبقات أخرى يعترضها الجوع ، ويهيم اجنحتها العوز والفاقة . وهذه الحالة لم تكن موجودة في اميركة قبل القرن العشرين لفيض خيرات اراضيها على حاجة اهلها . ولكن مشاكل اميركة قد بدت كما بينت منذ فجر هذا القرن وزاد وضعها سوءاً نبذا خطة مونرو واخذها بسياسة التدخل في شؤون غيرها من القارات ، اي اشتباكها في الاقتتال العالمي ، والتنافس القاري فهي اليوم مريضة ، ومريضها يندرها بمستقبل قاتم ومصير فاجع .

ولا يقلل من شأن الاسباب المالية والاقتصادية التي بحثناها ، كون الأمم لها اعمار ، وآماد لابد وان تنتهي فيها حيويتها وتلفظ عندها انفسها فالأمم قد تعيش اكثر اذا اعتنى في امرها ، وعولجت مشاكلها على ضوء الحقائق الاجتماعية التي تيسر للانسان رؤيتها ، والقواعد العلمية التي استطاع العقل ابداعها بل قد نخلد وتؤبد في حياتها ، وبقائها .

التكوين الاجتماعي !

واعل الناحية الاجتماعية هي اهم النواحي كافة ، واعظمها خطورة لانها تتصل بالروح وتمتزج بالخلق العام للشعب . ولا يفض من خطورتها ، بحثها بعد الناحية السياسية ، وعقيب الناحية المالية والاقتصادية . انما تقدم البحث في هاتين الناحيتين ناشيء عن الشعور بفداحة اضرارها ، وعظيم فسادها اكثر من الشعور باثار الناحية الاجتماعية . وان كانت الاولي نتائج اضطراب الاخيرة ، وحصاد ما بذرت ، ذلك لان الاضرار المادية في كل وقت تكون اشد ظهورا ، واسرع نقاذا في النفوس وافعل في العقول من الاضرار الروحية او بتعبير اصح ان الانسان يحس بالاضرار المحسوسة المباشرة قبل الاضرار غير المرئية وغير المباشرة وان كانت الاخيرة ابقى اثرأ وامضى داء واشد ايلاما . واول خطوة في تنظيم التكوين الاجتماعي يجب ان يستهدف فيها تقويم الارواح وتهذيب الطباع . فواجب الامهات في بيوتهن والاكباء والمرشدين والمدرسين في مدارسهم ، ان يغرسوا في النشء السجايا الفاضلة ، والاخلاق السكريمة ، وبعد ان يتم الفشء دراسته وثقافته ويدخل معترك الحياة ، من الضروري ان يرى في رؤساء صنعتة او اصحاب معمله ، وفي الجمعيات التعاونية ، والمؤسسات السياسية التي ينخرط في سلكها ، وينظم في عقدها ، مثلا حية ناطقة ترسم فيها المزايا والسجايا ، والخلل الحميدة فعلا وقولا . وعلى السلطة العامة ان تسن اللوائح وتشرع القوانين لتنميتها في النفوس وتقويتها . فالحق والعدل ، والمساواة والحرية ،

والعفة والزاهدة ، والشجاعة والوفاء ، والسخاء والبذل ، وحب الخير ، والتفاني في سبيل المجموع وتجريد النفوس من الانانية والطمع كل هذه لها معانيها الواضحة ، وعلاماتها البينة وتعاريفها السهلة ، وانما عقدها الانسان وابهمها لمقاصد مادية وغايات ذاتية . فضعفت حقائقها ، وانطمست روائعها فاصبحت النفوس واجدبت الوجدانات وتاهت العقول . وليس لهذه الحالة النفسية الاليفة من علاج الاحملة قوية يقوم بها رجال التربية والتعليم ، واختصاصيو العلوم الاجتماعية لشرح الصدور ، وتنقية الضمائر مما علق بها من ادران ، وشا بها من شوائب . فالانسان مثلاً يحب عليه ان يحب وطنه ، ويفخر بقومه واسكن لا يعني هذا ان يدعي التفوق على الغير ، ويطمع في حرية الغير ، وما يملك من مال وارض . ويستعبده ويستبدله . فليس شرطاً لحب الوطن ، وللغفر بالقومية ، ان يستتبعهما العدوان على وطن الغير وقوميته ومقدساته هذه اسباب يتمسك بها المستبدون ، او يتعلق بها من يطمع في البغي والعدوان ليس هناك تفوق عنصري . ودماء نقية واخرى فاسدة . لا يؤيد هذا الادعاء علم ، ولا يقره منطق ، وبهذه المناسبة اود ان اتناول هذه الفكرة ، فمكرة التفوق العنصري بشئ من التفصيل .

ان التفوق العنصري ، او تفضيل دم على آخر ، وترجيح امة على امة هذه الفكرة ابست حديثاً في الوجود وانما هي قديمة وان اختلفت آفاق وابعاد ، هذا التفوق . فكثير من الامم ادعت التفوق لنفسها وتركت الامم الاخرى في مكانة اقل درجة او درجات منها .

وان افلاطون من قبل كان قد فرق بين الشعوب واعتبر الشعب اليوناني فوق كل شعب وذلك حين بحث النفس الانسانية وقسمها الى ثلاث قوى وهي القوة الشهوية اي القوة الشريرة المنحطة التي تصدر عن الاحساسات والتي يسودها عنصر اللذة والالم بالمعنى الحاسي الخالص والقوة العاقلة وهي القوة العالية النبيلة والقوة الثمالة التي تتوسطها بين القوتين وتسمى باسم القوة الغضبية

حيث قال ان الناس ليسوا متساوين في احرازهم لهذه القوى فعند البعض تسيطر القوة العاقلة وعند البعض الآخر تسيطر القوة الغضبية وعند فريق ثالث تسيطر القوة الشهوية وهي احط القوى الثلاث والاختلاف هذا كما انه يقع بين الافراد فانه واقع بين الاجناس والامم ولما كان اليونانيون في رأيه يمتازون بسيطرة القوة العاقلة على بقية القوى فهم افضل من غيرهم . واما الشاليون فانهم يمتازون بسيادة القوة الغضبية وان الفينيقيين والمصريين يمتازون بسيادة القوة الشهوية فترى من هذا التقسيم النفسي ، ان افلاطون يفضل الامة اليونانية على الامم الشمالية لان الامم الشمالية في نظره تسيطر عليها القوة الغضبية الحالة التي تجعلها اقل من اليونانيين درجة ، وأعلى من المصريين والفينيقيين درجة ، والمعروف ان الامم الشمالية اليوم هي التي ترفع لواء نظرية التفوق الجنسي ، ونقاوة الدم .

والمصريون القدماء كانوا يقولون بنظرية التفوق العنصري حتي انهم كانوا لا يسمحون لاجنبي ان يجلس معهم على مائدة واحدة وقد صرحت التوراة بهذه الحقيقة في معرض قصة النبي يوسف عليه السلام . وبنوا اسرائيل كانوا يرون شعبهم هو الشعب المختار الذي اصطفاه الله من بين الشعوب وفضله عليهم تفضيلا . وارسطوا فضل العرق الابيض على غيره من العروق . واختص الشعوب الاوربية بهذا العرق واعطاها حق التفوق . والفرس القدماء ادعوا عين الادعاء والعرب في جاهليتهم وفي اسلامهم كانوا يقولون بالتفوق العنصري حتي ان اعتصامهم بهذه الفكرة قد ادى الى حروب طاحنة بينهم وبين غيرهم من الشعوب . واعلمهم في جاهليتهم كانوا اشد تمسكا بهذه الفكرة . ولا ننس ان حربا عوانا كانت قد نشبت بين الفرس وعرب العراق حين رفض احد ملوك الحيرة العرب ان ينكح ابنته من كسرى الفرس على جلالة قدره ، وعلو جنابه . ولما جاء الاسلام وازال الفروق بين العناصر ونطق فرقانه بأن لا فضل لعربي على عجمي ألا بالتقوى وشهد في المساواة

لم يقو على القضاء عليها بالمرة فلما زوج صاحب الرسالة زينبا من زيد وكان مولى قامت قيامة قريش ونارت حميتها حتى انتهى الامر بطلاقها وتزوجها من صاحب الرسالة نفسه اصلاحا للحالة ، وتسكيننا لثورة النفوس وقامت الامبراطورية الاموية في الشرق ، والاموية في الغرب على سياسة التفوق العنصري هذه السياسة التي عاونت كثيراً على هدم صرحيها ففكرة التفوق العنصري ليست حديثة العهد ، كما اوضحت ، فليس غريباً ان نسمع اليوم عين النعمة ، وان تكرر امامنا المآسي الماضية ، ويلوح لي ان قوة السلطان ، والشعور بالمكنة والسيطرة ، هما الحافزان لهذه الدعوى الباطلة وناوريان لهذه النار المحرقة . فاليوم ان قامت المانية تدعى بالتفوق العنصري ، ارباطاليا الفاشستية تجمع شتات الامبراطورية الرومانية المنقرضة ، فانما سبب ذلك ماوصلنا اليه من القوة والسلطان . على ان البريطانيين والاميركانيين ليسوا بأقل تشبهاً بهذه الفكرة . والحقائق الثابتة تنطق فصيحة بأن الانكليز اكثر اعتزازاً بعنصرهم ، واغتراراً بدمهم ، من جميع الامم الاوربية وانهم فوق ذلك اثقل وطأة وامعن احتقاراً لغيرهم من الشعوب سيما الشعوب التي ساقها جدها العائر ، الى ان تكون في قبضتهم وتحت تصرفهم . فهذه الشعوب الافريقية وهذه الشعوب الاسيوية ، من هنود ، وعرب ، وصيفيين وغيرهم . هل ينظر اليهم البريطانيون اكثر مما ينظرون الى الحيوانات السائمة ؟ . لم يقف بهم الامر الى ان يستصفوا ثرواتها ويستحذوا على كل ذى قيمة في بلادها ، او ان يتحكموا في ابنائها ، ويتصرفوا في ارواحهم وعقولهم ابل انهم يمعنون في احتقارها ، لالانها شعوب في نظرهم اقل قدراً ، واوطأ مكانة ، من ان تقسامي اليهم ، او تقساوى في حالة من الحالات . وكذلك الاميركيون فكيف يعاملون الشعوب الحمراء ، والصفراء ، والسوداء في ممالكهم ، سيما السوداء منها ؟ ان تاريخهم حافل بالجرائم المنكرة ، عامر بالهجازر الدامية ضد هؤلاء الضعفاء المساكين . فما هو التفوق العنصري الذي يلومون عليه المانية

اليوم اذا لم يكن ما يقومون به بالفعل هو ابشع صورة لهذه الفكرة ، واطلم ناحية من نواحيها ؟ ان المانية ليست من الشعوب المستعمرة حتى يستطيع الباحث ان يحكم الى اي مدى تنفذ فكرتها في التفوق العنصري نعم كانت لها مستعمرات معينة محدودة قبل الحرب الكونية الاولى . ولكن التاريخ ينصف المانية كثيرا ويقرر انها كانت ارحم قلبا ، والين عريكة ، وارفق معاملة بأبناء مستعمراتها من الدول المستعمرة الاخرى سيما البريطانيين والفرنسيين . فانفرق بين الالمان ، والانكليز ان الاولين ، يقولون بفكرة ، ولكن الاخيرين يطبقونها بالفعل وان اولئك كانوا بشعوب مستعمراتهم رقيقين وعليهم هينين وهؤلاء اشداء متعسفين وبالتالي فان الالمان يقولون بهذه الفكرة اشباعا لميولهم القبطية حيث فطروا على التنسيق والتنظيم فارادوا ان يشملوا الاجناس البشرية بأسباب التنسيق والتنظيم ويطبعوها بطوابع خاصة ليسهل عليهم تفريقها وتصنيفها نظريا واما الآخرون فقد فرقوا وصنفوا ونسقوا بالفعل ولغرض التحكم والاستعباد . فأى فريق اخطر على حياة الامم ، في ادعائه التفوق العنصري ؟ ان ادعاء العنصر الانكلو سكسوني بالتفوق العنصري اكثر اغراقا من الالمان انفسهم ، بل انهم يضعون الالمان في درجة اوطأ بكثير من البريطانيين والاميركيين . وهذا المستر (ستودوارد) مؤلف كتاب الحقائق العنصرية في اوربة . وهو من افاضل الكتاب الاميركيين ومن المع رجال العلم فيهم يسوق الادلة ويورد البراهين . في كتابه الذي قال انه نهج في وضعه نهجا علميا محضاً ، ليصل الى نتيجة واحدة هي ان الشماليين « النوردكيون » هم انقى دما ، وارقى عنصرا من الاقوام الاوربية الاخرى وان الانكليز والاميريكانيين انما تجري في عروقهم دماء هؤلاء النقية واما الالمان فلم يبق فيهم من هذه الدماء شئ . اذن فهم ليسوا كالأنكليز والاميركيين في نقاء الدم ، ورقى العنصر لماذا ؟ لان حرب الثلاثين عاما كانت قد امتصت منهم الدماء

النوردية واستصفت منهم حيوية النوردية ونشاطهم ، فأى جاهل خامل ، او معتوه يصدق هذه النظرية ويقول ان الانكليز الذين سبق ان حكمتهم قبائل شعوب البحر الابيض المتوسط ، او ان الاميركيين الذين اختلطت دماؤهم بالدماء الحمراء ، والسوداء ، وامتزجت ببعضها امتزاجا لا يقبل التحليل ، ان دماء الاميركيين هذه تظل نوردية سليمة ، وشمالية نقية ودماء الالمانيين قد اصابتها اللوثة ، وتطرق اليها الفساد ، والشعوب الاميركية خليط ، مزيج ، من كل نوع من شعوب الارض ، الاوربية ، والاfrيقية والاسيوية بالاضافة الى ما كان في اميركة من سكان حمر ؟ اي انسان له مسكة من العقل وذرة من الذكاء يستسيغ مثل هذا الضلال ، ويقبل هذه الماحكات ؟ وهكذا تضيع الحقائق العلمية في خضم النزعات السياسية ، وهوس النفوس المندفعة بدوافع الطمع والاثانية وحب استعباد الغير . ان الكاتب اراد ان يوثق عرى الروابط بين الشعوب الانكلوسكونية ، ويوفق بين الشعبين البريطاني والاميركي ، فاختار مثل هذا الموضوع العلمي البحت وسخره لاغراضه السياسية . فيخلق من دماء البريطانيين والاميركيين دماء نقية راقية ومن دماء خصومهم الالمان دماء ملوثة اصابتها الانحلال . ولماذا اعتنى في هذا العصر بترويض هذه الفكرة هذا الاعتناء ، فاذا كان لخير العلم وللمجرد الظفر بحقائق تاريخية ، فلا العلم يؤيد هذه الفكرة ، ولا الحقائق التاريخية تقرها . واذا كان القصد منها ايجاد وسائل لاثبات حق الشعوب القوية في السيطرة على الشعوب الضعيفة فلا داعي للاستغلال بظلال العلم للفوز بهذه السيطرة ، ذلك لان العلم ليس اداة شر ، وانما هو اداة خير وانه لا يستهدف الكذب ولا هو من موضوعاته . ومتى احتاجت القرة ، الى سند تستند اليه ، اذا هي وجهت في طريق الظلم والاعتساف ؟ على انه يمكن مناقشة هذه الفكرة من وجوه ثلاثة ، الاول هل ان التفوق العنصري حقيقة ثابتة بقرها العلم ؟ اي هل الله ما هي التي تكون خلق الشعوب وتحدث فيها التفاوت

الثاني اذا كان هناك تفاوت فما هو اثره ، وما هي حدوده ؟ الثالث هل اذا صح التفاوت يصلح ان يكون سببا لتحكم شعب في شعب ، وسيطرة امة على اخرى ؟

قبل كل شيء علينا ان نوقن بأن ليس في الاُمكان ان نجد دماء بعينها ، نقية ، وانما دماء الاُمم كلها قد امتزجت بعضها ببعض ، وتغذت الواحدة بدماء الاخرى بأقدار متفاوتة وكميات متباينة بالنسبة لامتداد الفتوحات واستقرارها والمهاجرات واتساعها وبالنظر الى الصلات الاخرى بين الشعوب المختلفة وقوتها . وهذا الامتزاج حصل منذ القديم ، وأشدت كلما تقدمت وسائل النقل ، واسباب الاتصال واشتباك المصالح واستعمار الحروب . فلهند اصابتها الموجة الخطيرة التي زحفت عليها من اوربة ، قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عاما ، فأستقر فيها المهاجرون وتصاهروا وتواصلوا مع الاقوام الاصلية فكان ذلك الامتزاج الذي نرى سلالاته الاكن . والفرس اجتاحتها اليونان بجيوش قدرت بملايوني جندي في عهد سرخس وهذه الرجال الكثيرة العدد التي وصلت الى البوسفور ومنه تناولت البلاد اليونانية ، فماذا عملت وهي في طريقها اليها وكم من الاقوام تلتحقت منهم ؟ وفتوحات الاسكندر الواسعة في الشرق وفتوحات روما الغربية وروما الشرقية وقد اشتملت على اقوام متباينة ، وشعوب متباعدة فهل ابقت شعباً من الشعوب سالماً من اللوثة ؟ واذا كانت فتوحات الاسكندر سريعة العمر ، فقد كانت نتائجها خطيرة وفتوحات الامبراطوريتين الاخيرتين طويلة ، ثم ما أعقب ذلك من الفتوح العربية وطول استقرارها في اماكن كثيرة وفي بعض الاماكن مازالت فيها وان من عليها ما يقارب الالف والثلاثمائة عاما . وهذه الفتوح تناولت عدا فارس وما وراء النهر وسائر جهات الشرق اسبانيا برمتها وجنوبي ايطاليا ، وفرنسة والجزر المنتشرة في بحر الابيض المتوسط وشمال افريقيا برمته ثم الاجتياح المغولي الخطير الشأن والتوسع العثماني الواسع الاطراف فهل هذه

الفتوحات العظيمة ، المستمرة تترك الشعوب سليمة في دماها ، محافظة على
نقاوتها ؟ وبعد عصر الأصلاح ونهضة الشعوب الأوروبية فأية بقعة من
بقاع المعمورة لم تصل اليها الشعوب الأوروبية ، ؟ والفتوحات تحمل معها
كثيراً من أسباب الاختلاط والامتزاج تحمل ورائها الصلات التجارية
ونزعات التصاهر ، وميول الاستيطان في البلدان الجديدة وغير ذلك مما يجعل
اختلاط الدماء ضرورة اجتماعية وقد حاوت الشعوب الأوروبية التي تغفلت
في القارة الأفريقية والآسيوية ان تحول دون التصاهر والتزاوج بين
افرادها المستعمرين وبين اهالي البلاد المستعمرة ولكن برغم هذه التدابير
فالاختلاط موجود ، وموجود بكثرة . وكلما طال الزمن أمتدت وشائج
وتفرعت انسجته لأن الأزواج اذا منع بالقوانين ، فالاتصالات الجنسية
لا تقبل مثل هذا المنع ذلك لأن القوانين لا تسيطر على القلوب والعواطف .
فكيف تمنع ذات زوج رغبت في مواصلة فرد من أفراد الشعب الأصلي ،
وكيف تحول بين نساء البلد ، اذا مالت قلوبهن الى رجال ابناء الشعب الفاتح ؟
فالقول بأن هناك دماء نقية ، انما قول يخالف طبيعة الأشياء ويناقض
الأوضاع الحقيقية التي عليها الشعوب . وقد اصبح الامتزاج ايسر واهون في
العصور المتأخرة لسرعة وسائل النقل ولاشتباك المصالح ، بين الأمم كافة .
ولا يعني امتزاج الدماء ببعضها خسران الشعوب لمقوماتها ، وفقدانها
كيانها . لأن الدماء وحدها لا تكون الشعوب وانما تكونها روابط عدة
مجموعة كالدماء واللغة والدين والمصالح المشتركة والتاريخ المشترك والأرض
وما تتركه مؤثراتها الطبيعية في نفوس الافراد من مؤثرات ، والبيئات وما
تكون فيهم من سجايا ومزاجا وعادات هي التي تكون الشعوب وتشكل
فيها اخلاقها وطبائعها الخاصة . فالشعوب التي تستوطن اليوم شبه
جزيرة العرب وبلاد الهلال الخصيب (سورية والعراق وفلسطين) ومصر
وجميع بلاد افريقية الشمالية هي شعوب عربية وان امتزجت بها شعوب أخرى

كالبربر في أفريقية والنوبيين والاقباط والشراكسة والأتراك في مصر
والسودان والترك والاكراذ والفرس في الهلال الخصيب وتسمى كل هذه
البلاد بلاداً عربية وإن كانت في الأصل عدا شبه الجزيرة ليست عربية
ولكنها استوطنتها الشعب العربي منذ احيال - حقيقة في القدم ، وكون فيها
الغلبة الساحقة وحمل اليها تقاليد وعنناته . ولعلنا نجد في بعض هذه
الشعوب العربية تمايلاً في بعض العادات ، فهذه إنما أحدثتها طبائع البلاد المختلفة
التي هم فيها . اذن نستطيع ان نقول ان هذه الشعوب عربية ولكننا لانستطيع
ان نقول ان دماءها عربية خالصة لانها امتزجت بغيرها من الدماء ، وكان
امتزاجها لحد كبير . وكذلك نستطيع ان نسمى الشعب الاسباني ، باسمه
وان كانت كميات كبيرة من الدماء العربية ما زالت تجزي في عروق أبنائه .
ان حياة ثمنمئة سنة لا يمكن ان يكون اثرها ، بسيطاً ، سهل الاندثار . ولا
تنجو امة من الامم القديمة او حاضرة من اثر الامتزاج اذن فدعوى نقاء الدم
دعوى باطلة من اساسها واقامة نظرية التفوق العنصري على مثل هذه الدعوى
الباطلة ضرب من الشعوذة الكلامية ليس ألا !

والآن نعود ونقول ما معنى نقاوة الدم ، ورقية ؟ ان بنى الانسان
لم ينجدوا في الأصل من اباء وامهات متفرقة حتى يقال ان دماء هذا الأب
وهذه الأم خير من دماء ذلك الأب وتلك الأم . فلا تستفتاجات العلمية ،
والاستقصاءات الفيزيولوجية والجيولوجية والتدقيقات التاريخية كلها ذات
على ان البشر نسلوا من أب واحد وأم واحدة . لقدقات الكتب المقدسة المنزلة ان
الاب آدم والام حواء وقال علماء الجيولوجيا وعلماء الاحياء ان الانسان سليل تطور
القرود البشري الذي نسل من البونات وسواء أخذنا بالرأي الديني أم بنظرية العلم
فان جد الانسان واحد وان انسان اليوم هو محصول ذلك الجد وثمرته ، فالشخص اذن
نسلوا من جد واحد وسيط دمه من دم واحد ، وانهم حين انقشروا في هذه الاصقاع
قد تكونوا تحت تأثير طبيعة كل صقع ، واشربوا عادات متباينة ، وتكونت

فيهم سجايا ومزايا مختلفة ، هي اثر تلك الطبيعة . فالدماء اذن واحدة ، ليس فيها فاضل ، ومفضل ، وراق ومنحط . ان مقومات الشعوب النفسية والبدنية من قوة وضعف ، وصالح وردى ، وشريف وسافل ، ترجع الى العوامل الطبيعية التي استقبت بالارض التي عاش فيها كل شعب من هذه الشعوب والمحيط الذي اثر فيه فلو كان الشاليون (النوردك) استوطنوا المناطق الاستوائية في افريقية لكانوا هم اليوم ابناؤها . وبالعكس لو كان قد تهيأ لآبناء هذه في اول امرهم ان يصعدوا الى الشال لكانوا هم (النوردك) الذين تفخر بهم الشعوب الاوربية . واذا كان ذلك كذلك فلا شرافة يختص بها قوم من الاقوام ، ولا انضاع يعنى به شعب من الشعوب من ناحية الدماء . نعم ! قد تكون هناك مناطق تتوفر فيها نعيم الطبيعة اكثر من غيرها ، ويكون الانسان الناشئ على تربتها اقوى ملكة ، واوسع تفكيراً ، واقدر على احتمال مشاق الحياة واسكن ما هو مدى هذا التفاوت ؟ . اذا اعتنى الباحثون في تدقيقاتهم العلمية والتاريخية ، وكان بحوثهم بروح علمية مجرنة من نوازع الهوى ، فقد يجوز ان يخرجوا من بحوثهم وتدقيقاتهم بنتيجة لا تسر القائلين بفكرة التفوق العنصري . صحيح ان الشعوب صورة من طبيعة الارض التي تمكنت فيها وعاشت في اجوائها ، وان خلقها مرآة لما في تلك الطبيعة من رفق ولين ، او قسوة وشدة . ومن كرم وسخاء ، او ضن وبخل ، ومن قوة ونشاط او تخاذل وارتخاء ، وان طبيعة الارضين تختلف وهذا الاختلاف يسبب الاختلاف في قابليات الشعوب وكفاءاتها . ولكن الطبيعة ليست ظالمه غاشمة ، فضة كزة الى درجة تجعل التفاوت بليغاً بين الشعوب كافة . فما عدا الشعوب المستوطنة في المناطق الاستوائية وما يصاحبها او المناطق الشمالية القريبة للانجماد نجد الشعوب الاخرى ، تتقارب في قواها العقلية وكفاءاتها ومقوماتها الروحية . بدليل ان كلا منها قام بنصيبه في اقامة الحضارات القديمة والحديثة . وقد زدهر حضارة في ظل شعب من الشعوب

ثم تصوح ازهارها فتساقط وتنتثر ثم تقوم غيرها مقامها في ظل شعب آخر
 وقد تدوم دولة لشعب ثم تزول ويسم الزمن لشعب آخر ، فهذا التعاقب
 في الحضارات ، والتداول المتواصل بين الامم للحياة انطق شاهد على ما نقول
 نعم . قد تكون حضارة احفل بالفوائد من الاخرى ، ودولة شعب اضخم من
 دولة شعب آخر واسكن هذا التفاوت لا يؤثر في روعة الحقيقة التي امامنا
 لأن الحضارات المتأخرة تفيد من الحضارات السابقة لها وتضيف اليها اطابها
 وكذلك في اقامة الدول حيث يستفاد من اخطاء الدول السابقة ، ويؤخذ
 بالصواب مما جاء على يدها . وبعد فاي اممة لم تشترك في نصيب ما صغر او
 كبر ، في الحضارات القديمة والحديثة ؟ فهذه الصين وهذه الهند ، كل منهما
 كانت لها حضارة خاصة بها ، وهذه اليابان تقيم "يوم حضارة تدهش الابصار وهذه
 شعوب اما صغراء واما سوداء . وهذه الامم العربية في جاهليتها اقامت الحضارة اليمنية
 وصدرت عنها موجات الى مصر فكونت حضارة الرعاة (الهكسوس) والى فلسطين
 وسورية فاقامت فيها حضارات اهل اروعها الحضارة الفينيقية والى العراق
 فاقامت الحضارة الجورانية ثم الآشورية هذا في تاريخها القديم واما في تاريخها
 الاسلامي فقد اقامت حضارتين رائعتين في الشرق والغرب كانت اصول
 الحضارة الحاضرة ، وحضارة الامم المصرية غنية عن التعريف وهي اممة افريقية
 والفينيقيون ، والقرطاجينيون كانوا من موجات شبه جزيرة العرب والدولة
 السومرية في العراق كانت مغولية ، كما ابدت الحفريات الاثرية ، واليونانيون
 الذين بهروا العالم القديم ، وما زالوا يبهرون العالم الحديث في حضارتهم ،
 كانوا قد عبروا بمدنيتهم الى انيكما من شواطئ اسبوية . فهذه المدن التي
 صمرت بها صرا ، هي اما افريقية واما اسبوية ، ومنشؤوها اما من العرق
 الاصفر ، او الاسود ، او الابيض . وكل حضارة متأخرة استقت كثيراً
 او قليلاً من منابح سابقتها ووردت من منابحها . وهذه الحضارة التي تقيمها
 اوربة ، والولايات المتحدة ما هي الا فيض من تلك البحار ، وصوب من

ذلك الغيث نعم . انها اوسع آفاقا من سابقتها ، واعمق اثرأ منها . ولكن هذا الامر طبيعي لانها خلاصة الحضارات ، ولفاح تلك العقول التي ابدعتها تضاف اليها عبقرية الشعوب الجديدة ، سيما في مجالات العلوم الطبيعية . واضاعة شعب من الشعوب المتحضرة سابقا كيانه في الوقت الحاضر ، او تداعي حضارة امة وقيام حضارة امة اخرى وانزواء امة كان لها مجد تالد وتغلب امة اخرى عليها لا يستدعي كل ذلك ان نحكم بتفرد الامة المتمكنة اليوم بالنبوغ والعبقرية وقابلية الابداع لمجرد انها قوية اليوم ، ونحكم على الاخرى بالبربرية والوحشية وانطفاء شعلة الذكاء . والاقتدار فيها لمجرد انها ضعيفة ، لم تتوفر لديها أسباب الظهور والبروز فكل شعب من الشعوب المغلوبة على امرها ، وكل امة أصابها النكبات بسهامها ، يجوز ان تعيد حيويتها ونشاطها ، وان تساهم في التقدم العقلي في هذه الحضارة ، اذا مهد لها الطريق ، واهتمت الفرص وواتاها الحظ . فالتفاوت ليس كما يتوهم المتوهمون عميقا بين كفاءات الشعوب وقدرتها بدرجة يسوغ لبعضها الاستئثار بمنافع البعض الاخر أو يعطي لبعضها حق الحياة ، ويجعل الموت نصيب الاخرى . اذن فماذا يقصد من فكرة التفوق العنصري ؟ . ولماذا لا يحق للامة ذات الحضارات القديمة ، ان تسائل هذه الامة التي تدعى التفوق العنصري ، أين كان تفوقك طيلة القرون الاولى والقرون الوسطى ، وصدرأ من القرون الاخيرة ؟ ولماذا تفوقك لم يظهر طيلة هذه العصور ؟ على ان الحضارة الحديثة وان كانت اعمق اثرأ من الحضارات السابقة ، فلا يزال الفضل معقوداً لواءه على تلك العقول التي اقامت تلك الحضارات القديمة لان الفضل للمتقدمين دائما ، حيث البدأ يكون أصعب ، وأشق وبالتالي يكون العقل البادى أقوى ملكة ، ونتاجه اثقل وزنا وحقه في الفخر والمباهاة اظهر ، وبعد فلماذا تفوق الآرية على السامية . هذه السامية التي سبق لها ان اقامت الحضارات الزاهرة ، وهدت الانسانية دهوراً عديدة

بما انجبت من انبياء مصلحين ، وحكام بارعين وفلاسفة نابهن اما خصومة
العالم المتمدين ، أو بعضه لليهود الذين هم ساميون ، فليس لأن هؤلاء لاهيوية
فيهم ولا نشاط ولا قابلية للعمل والانتاج وانما بالعكس لأن فيهم حيوية
قوية ونشاطا جما ، وقابلية خارقة للعمل والانتاج وانهم اصبحوا عقبات
كثودا في سبيل ابناء البلاد الاصليين

وأما السبب الاصيل الذي اهاب بالشعوب الاوربية أو بعضها الى
ان تلاحقهم وتتعبهم فلكتفائهم وقابليتهم كما اوضحت من ناحية ومن أخرى
لما تكونت فيهم من طباع شاذة نتيجة تشردهم المتواصل ، وتشقتهم المستمر في
الممالك والبلدان هذه الطباع التي خلقت فيهم روحية لا تشعر إلا بمنفعتها ولا
ترتبط إلا بماديتها احتفاظا ببقاء نوعهم ، وحرصا على سلامتهم . حاربوا
الامم كافة ، بحقدهم الدفين ، وبغضائهم الكامنة ، فبدأت الامم تكيل لهم
الصاع صاعين ، وتتقوى آثارهم فهم لم يحاربوا لانهم ساميون ، وانهم لم
يطردوا وينكبوا لانهم ساميون ، ولكنهم لأنهم يهود لهم طباع خاصة خطيرة ،
ونزعات غريبة مخيفة . اذن : فنظرية التفوق العنصري نظرية خاطئة لا يدعمها
المنطق ولا يقرها العلم ، ولا تؤيدها التدقيقات التاريخية وان ابناء المناطق
الاستوائية الذين قست عليهم الطبيعة وان كانوا يؤلفون اقلية في المجموعة
البشرية فهم يجب ان يعاملوا بعناية ورحمة بدلا من الشدة والقسوة ، وان
توفر عليهم خيراتهم ، ويحتفظ لهم بثرواتهم وتضمن حرياتهم بدلا من انتهاب
تلك الخيرات واقتسام تلك الثروات وهدر تلك الحريات . لانهم ليسوا من نوع
يختلف عن النوع البشري وما تأخروا ، أو اصبحت قابلياتهم محدودة ،
وضعيفة نوعا ، إلا من أثر البيئة ، وفعل العوامل الطبيعية التي تعاورت تربتهم
ومثلهم كمثل الاسكيمو ابناء الشمال من حيث ضيق التفكير ، ومحدودية
قابلية الابتداع ولم يفترقوا في شيء سوى ان الاولين ، يعيشون بين الثلوج

وأجواء الزمهرير والآخريين يتقلبون في تربة حارة واجواء مرطبة تكتنفهم غابات وأحراش وأشجار فارعة . وقسوة الطبيعة اذا زادت عن المعتاد ، تركت آثارها السيئة في الأبدان والأرواح . فهو لا يحب ان ينظر اليهم كأفراد عائلة اصحابها ، المرضى ، وان بهاملوا بالرفق ، واللين ، والسخاء والكرم والعناية الفائقة ، لأنهم من أعفء الأسرة لا أكثر ولا أقل . وليس للأسرة ان تعتبر من بعض افرادها اذا مرضوا ، وان تتجاوز على حقوقهم وتصادر حرياتهم اذا هزلوا ومن حسن حظ الإنسانية ان خلق هذا النوع من الناس أقلية وان تركت الطبيعة الأكثرية قوية سائلة لا تفاوت بينها إلا بقدر يسير .

لكل هذه الأسباب لا يصح التمسك بنظرية التفوق العنصري . والتحكم بواسطتها ، بالشعوب ، وان أول واجب باقى على عواقب رجال التربية والتعليم والمرشدين والأباء والأمهات ان يلقنوا النشء حب الوطن ، بطرق غير الطرق المألوفة الاكن ، ويحرضوا على التمسك بالقومية ولكن بأساليب صحيحة ، سليمة من نزعات الشر ، ونوازع الغدر بالغير ، ان كثير من الأمم المعاصرة ، يعتمد رجال العلم فيها ، الكذب على التاريخ ، ويلفقون الحوادث الخيالية ويخلقون الأبطال الخرافية ليثيروا في أبنائهم ، نزوات القومية ، ونعرات العصبية ، لغرض العدوان على حريات الغير ، وعلى مقدساته ودقائمه وكنوزه ، واذا اعتزضت عليهم احابوك بأن الكذب يستساغ في سبيل ذلك ، والتلفيق يروق اذا كان القصد منه تقوية الروحانيات والمعنويات ، والاختلاق مشروع لا أجل التوسع ، فهل هذا صحيح ؟ وهل يؤمل تكوين الأخلاق الفاضلة في أفراد الشعوب ، اذا كانت تستباح حريات الإخلاق ، وهتك ستار تفضيلة من ذوي الفضل فيها ، ومن قبل علمائها ؟

على ان الفتوح والاُستبحار في الاُستعمار ، والاُكتثار من الاُستبيلاء كل هذه أسباب وان كانت تجلب الخيرات ، للممالك الفاتحة ، وتغني الشعوب المستعمرة ، فانها تجلب معها ايضا عوامل الموت السريع ، وتقفّر نفوس افرادها من السجاياء والمزايا الجميدة وتصحرو وجداناتهم من كل فضيلة وتكون الاُمم المغرمة بالفتوح كالساعية الى حتفها بظلفها والقاضية على نفسها بيدها . وما يدرينا لو ان روما بقيت منكمشة في ايطاليا محتفظة بجموريتها وسعت في تنمية ثقافتها في مهدها ، لا فادت نفسها والنوع الانساني اكثر من روما الامبراطورية وازلت تنعم بنعيم الحياة اطول امداً في اسعد حالة ؟ . ولو ان الاُمة العربية لم توزع قواها في تلك الممالك الواسعة الاطراف التي استحوذت عليها ، لما انحطت قوتها سرّيعا ، ودب في اوساطها داء الخلاف مبكراً ؟ . وهذه الدول المستعمرة ، والشعوب الضعيفة التي تتصاول وتتصارع ، وتقتتل فيما بينها ، في هذه الحرب ، ما يدرينا ماذا ينجي لها المستقبل في طيائره ، من شقاء قاتل ، وحياة قاتمة اذا ظلت على غرورها ، وبقيت على سياستها سواء في ذلك الغالبة منها والمغلوبة ؟ . ان العدوان على حريات الاُمم ، والتوسع في هذا العدوان ، فضلا عما يحملان معها ، من أسباب الاُتحال والاضمحلال للمعتدين فانها يثيران عوامل الغيرة والحسد ، في الاُمم الاُخرى المنافسة من جهة ومن جهة أُخرى يلهبان نفوس ابناء البلاد المعتدى عليها بالتأثر والاُنتقام فالحرب تكون موصولة الاطراف ، والمخاضات ، تصبح دائمة الاُستعمار فماذا يفيد المعتدى من عدوانه ؟ هب ان فريق الديمقراطيين هو الذي كسب الحرب ، فهل في قدرته ان يثبت دعائم السلم اعواما طويلة وهو ينزع الى قهر خصومه ، ويرمي الى الاُحتفاظ بما اصاب من ممالك وشعوب ؟ ان القوة تخيف في ظروف معينة ، والى اوقات محدودة والشعوب الموثورة ، والممالك التي تغلي في بيئاتها مراجل الحقد والاُنتقام لا تستكين لهذه القوة الا كما

استكانت مثلها من الشعوب والممالك في الماضي ، وفي الحاضر ، ولعل الاضطدام
يكون بين الفريق نفسه . وكل العلائم تدل على ان هذا الفريق مؤلف من
دول متباينة النزعات ، متباعدة المبادئ .

وصفوة القول ان الغرور القومي الذي نريده في المستقبل هو ذلك
الغرور الذي لا يمس كرامة الغير ، ولاحقه . ولبس من مقتضيات الفخر
والمباهاة ، العدوان وانما الفخر والمباهاة تكونان اسمى قدراً ، وابلغ اثرأ في
النفوس ، اذا استعملتا في طريق الخير ، وفي حدود الحق ، فعالجة هذه الناحية
الروحية هي من أدق الواجبات واعظم المهام .

وكذلك التلقينات الدينية بما انها تؤثر تأثيراً بليغاً في النفوس فيجب ان
ان تتبع فيها طرق حكيمة . لأن الاديان انما انشأت لتهديب النفوس ،
وترقيق العواطف ، وتقويم الطباع ، فهي لم توجد لبذر بذور الشقاق والتفرقة
بين ابناء البلاد الواحدة ولا يوجد دين من الاديان ليس فيه شيء الكثير من
المبادئ الاخلاقية السامية فلماذا يفسح المجال للمجادلات والمهاترات التي
تباعد بين القلوب ، وتباغض بين النفوس ؟ ولما كانت الاديان اداة صلة بين الخلق
وعبده ، فلماذا نسمح بأن تتجاوز هذا الحد وتخرق هذا النطاق الطبيعي ؟
وهذا واجب مهم آخر ملق على كواهل رجال التربية والتعليم ، والسلطة العامة
المشرفة على تنفيذ انظمة التربية والتعليم . فليس من العجائب ان تلقن احكام
الدين في المدارس الحكومية ، والدور العامة . وانما محل تلقينها هو الدور الخاصة ،
والمدارس الخاصة المعدة لغرض تنشأة الذين يقومون لأغراض المعابد ،
والقيام بالطقوس الدينية لكل دين . وأني لأذكر بأن والذي كان قد صمم
على إرساله الى الكلية لا ميريكية في بيروت في عهد طفولتي ولكنه لما وجد

نظامها يقضى على طلاب الكلية كافة ان يمارسوا الطقوس الدينية المسيحية
امتنع عن ذلك واني الآن ، مهما كنت أجد الحرية ، على أنواعها ، لا اسمح
في ارسال ابنائي الى اية مدرسة تفرض عليهم ممارسة طقوس دينية غير طقوسهم
الدينية فرضاً . لأن هذا نوع من الاكراه يناقض المبادئ العامة الاجتماعية
وبرغم ان مبدأ حرية الأديان قد انتشر في الاوساط الانسانية فما زلنا نجد
الدول المستعمرة تخلق في كل يوم اسباباً دينية لأقتال أبناء البلاد المستعمرة
فيما بينهم ، وانها ترى في هذا العمل نوعاً من العمل القومي ، وصورة من
صور النشاط الفكري ، والدهاء السياسي . ان الاصلاح الاجتماعي لا يكون
بهذه الاساليب ، ولا تنمو جذوره اذا اشرب هذه الروحانية .

ان المبادئ المالية والاقتصادية التي بحثناها في التكوين المالي والاقتصادي
تفيد الى درجة كبيرة التنظيم الاجتماعي وتقليل الفروق الاجتماعية حيث تمنع
تجمد الثروات في ايدي قليلة من جهة ومن جهة أخرى تخفف من وطأة
التحاسد والتباغض بين طبقات الشعب ولكن هذا لا يكفي للاستقرار
الاجتماعي في كل شعب فهناك الطبقات العاملة . وهي الكثرة في كل شعب .
وأعني بالطبقة العاملة ، عمال المصانع والمعامل والحرف ، وعمال الأرض اي
« الفلاحون » فهو لا . وان اطلق عليهم وصف « الفلاحون » نظراً لظروفهم
الخاصة فهم عمال . فكما ان في البلاد الصناعية يكون للعمال أثرهم الفعال في
أوساطها كذلك للفلاحين في البلاد الزراعية عين الأثر فهو لا . العمال ، مازالوا
يكافون في سبيل تحسين معاشهم والترفيه عن حالتهم ، من حيث السكنى ،
والوقاية الصحية ، ومن حيث أجورهم ، وعطلاتهم ، ولكن توجد أمور
كثيرة أخرى غير هذه تقتضي عناية السلطات المتواصلة . فالبطالة أصبحت

داء من منأ وسببا من اسباب القورات الاجتماعية في كل مجتمع صناعي . ولئن
 كانت ايام الحرب قضت على البطالة لا لزام الجميع باعمال تقتضيها الحرب، وهي
 كثيرة مختلفة الوجوه ، متعددة النواحي ، ولكن حالة الحرب حالة طارئة
 لا تلبث ان تزول فتعود مشكلة البطالة الى الوجود اكثر قوة وأشد خطورة
 وعدا البطالة فان هناك ضرورات أخرى اقتضتها التطورات الاجتماعية فضاء
 حياة العامل اذا ما اصابته حالة من حالات العجز المختلفة عن القيام بأعماله أو
 اذا بلغ سن الشيخوخة أمر جوهري اننا ما زلنا نسمع ان الخبير الاجتماعي
 والعالم الانكليزي المعروف السير (وايم بيفريج) يعد الآن تقريراً خطيراً
 ليرفعه الى السلطات الانكليزية ولا ندري هل يوفق الى حلول جديدة ، واذا
 وفق هل تجد حوله آذانا صاغية في الاوساط الانكليزية وأوساط البلاد
 المتقدمة الاخرى أم لا ؟ ولكن على كل حال فقد تنتظرنا حالات عصيبة
 وأزمات عسيرة الحل حينما تنتهي الحرب ، وبأذن الله عز وجل بعودة السلام
 على العالم . ان الحرب الحاضرة ليست كالحروب الماضية ، وانما هي حرب
 طاحنة ، طحنت تحت كلهم الانسان ، وما انتيجته يد الانسان ، وما جادت
 به الطبيعة من مواد ، وعناصر ، ان القوة الشرائية في العالم اصبحت اليوم اقل
 بكثير مما كانت عليه ، وكلما طال اجل الحرب ازدادت قلة . فحالة السلم
 المنتظرة ، ستري ضعفا في القوة الشرائية غير معهودة ، لقضاء قسم كبير من
 بني الانسان الاقوياء النشطين المرحين الذين كانوا دعامة هذه القوة وستري
 ملايين من الناس الذين كانوا يعملون في ميادين الحرب وحقوقها ، يعودون
 الى بلادهم ، فيطمعون في عمل ، يكتسبون من ورائه قوتهم ، والمعامل
 والمصانع ، والمحلات التي كانت معدة لهم فيما سبق ، قد غير وقلب اكثرها
 الى اوضاع تفيد الاغراض العسكرية وليس من السهل اعادتها الى حالتها
 الاولى في وقت قصير . وستري حالة السلم ايضا جيوشا كبيرة من المشوهين ،

والضعاف العجاف ، وهي الاسرار المحزنة التي تتركها وراءها مثل هذه الحرب الشاملة ، وهذا اضعاف خطير للجهاز الانتاج . وعدا ذلك فان الضعف في هذا الجهاز سيحس به اصحاب الاعمال واربابها من نواح أخرى ، من ناحية فقدان الكثرة من الخبراء ، والفنيين ، والعمال الماهرين الذين غيبت اجسادهم ميادين القتال ، ومن ناحية المواد الخام التي تبددت في سبيل المقاصد الحربية ، والاموال التي انفقت لا غرض لا دخل لها في تنمية المشاريع العمرانية ، وهل في الحرب غير التدمير الفجيع والخسران المبيد ؟ والعمال الذين سوف يهيئون انفسهم الاعمال المختلفة ستكون أكثريتهم أماما من الشيوخ أو من كانت أعمارهم تتجاوز سني الشباب واما من الضعاف المهازيل ، أو من المشوهين الذين قد يستفاد منهم في ناحية من نواحي العمل ، وقوة انتاج هؤلاء تكون صورة لقوام ، وقابليتهم . فالشباب الاقوياء كانت قد سالت دماء أكثرهم وزهقت أرواحهم ، بين الحديد والنار . وسترى حالة السلم عدا ذلك نسلا جديداً جديراً بالرحمة والاشفاق ، لان الضعفاء لا ينسلون إلا ضعفاء على الأكثر ، وهذه حالة اجتماعية خطيرة تستدعى تدابير خاصة ، كما انها سترى نقداً متضحاً ، لا يقناسب والحركة التجارية وبالتالي سترى حالة السلم ويلات ومصائب تصغر بجانبها ويلات الحرب ومصائبها ، وسيعاني آلامها ويتذوق مرارتها الغالبون والمغلوبون على السواء .

ان الاوضاع الخطيرة التي ستجابهها المجتمعات البشرية في حالة السلم ، تفرض على الشعوب وحكوماتها ان تعاونا وتعاونوا وثيقا للتخفيف من هذه المصائب والويلات ، ولخلق حالة مستقرة تكفل منافع المجموع فلم يعد في الامكان ان تسوى قضايا العمال بينهم وبين ارباب المصانع والمعامل أو بين الفلاحين وملاك الارض ؛ وانما تشمل طبقات الشعب برمتها والحكومة . يجب ان يكون هناك معدل استفادة معينة لمعدل اعمال معينة . وان يكون

اشترك في تدابير التخليص من العوز والفاقة من العمال واصحاب رؤوس الاموال وكذلك الحكومة فـكـما ان الأفراد من عمال وفلاحين ، واصحاب رؤوس الاموال من اصحاب معامل ومصانع ، ومتاجر يشتركون في مقادير معينة يدفعونها لصندوق الضمان فعلى الحكومة ان تضع من المقادير ما يكفي لسد النقص الحاصل في هذا الصندوق . وان يكون جميع افراد الشعب يفيدون من فـيـض هذا الصندوق في الحالات الخاصة التي تعين بلوائح وقوانين ومن هذه الناحية تكون واجبات الدولة شاقة وصعبة ، ومتشعبة في آن واحد . لان هذا التنظيم الاجتماعي يتطلب تشريعات دقيقة ، وانظمة وافية واساليب قوية ، ومراقبه صارمة ، ولاضطراب الحكومات الى المساهمة في مشروع الضمانات ضد العوز الناشئ من اسباب شتى . فقد تضطر الى ابقاء مستوى الضرائب الباهضة التي فرضت اثناء الحرب أو تخفيفها بنسب قليلة الى مدة سنين بعد الحرب الى ان تنظم الحالة الاجتماعية ، وتطرد الحركة التجارية إذ كلما انتظمت الحالة الاجتماعية ، واطردت الحركة التجارية قلت نسب النقص في صندوق التأمين وبالتالي يخف العبء على خزانة الدولة . ومثل هذه التدابير الاجتماعية من شأنها ان تقلل اذا لم تعدم الفروق الاجتماعية بين طبقات الشعب وتزيد في ثقلها واتحادها وتثير حميتها وغيرها ، وعدا ذلك فعلى الحكومات ان تضع تصاميم لمشاريع كبيرة لتشغيل الايدي العاملة ، وان ما احدثته هذه الحرب من تخريبات وتدميرات في البنايات وفي المصانع ، وفي الطرق ، والسكك الحديدية ، وفي الجسور والنواظم والاعمال الاخرى الهندسية ، كل هذه تيسر وضع مثل هذه التصاميم التي تفيد العمران من ناحية ، وتؤمن حاجات الايدي العاملة من ناحية اخرى . وثم واجب آخر ملقى على عاتق حكومة كل شعب بعد الحرب ، وهو ابقاء اشرفها على تحديد اسعار الحاجيات ، واستمرار سيطرتها على التوريد والتصدير الى زمن

ما ، لأن ما عانته الانسانية من أزمات قاتلة بعد ان وضعت الحرب الكونية
الماضية اوزارها يقضى على رجال الحكم في كل دولة ، ان تدبر الحالة ، وان
تتجنب الاخطاء التي وقعت في الماضي واما عن تضخم النقد ، وتركز العملة
على اسس معينة ، تأتلف والتقدم العالمي ، ونفي بحاجة التبادل الاممي فمن
الأمور التي تناقش في غير هذا الموضع

التكوين الدولي !

أ - تمهيد

مثل الأمم كممثل الأفراد ، فكما أن الأفراد في كل جمعية بشرية بسائق الضرورة الاجتماعية يتصل بعضهم ببعض ، لتأمين حاجاتهم ، وتوفير الرفاهية لكل منهم ، كذلك الأمم مضطرة الى ان تختلط بعضها ببعض ، وتتواصل ، لتأمين حاجاتها ، وتوفير الرفاهية لأفرادها ، وهذا الاختلاط الاممي والتواصل الدولي ، انما هما ضرورة اجتماعية لا مفر منها . واقد كانت الامم في العصور الجوالي ، تتصل ببعضها بشق الأسباب ومختلف الطرائق . ففي حالة السلم كانت القوافل التجارية والاساطيل البحرية تغذ السير رائحة آيسة متنقلة من مملكة الى أخرى ، ومن أفق الى أفق آخر تصدر منتوجاتها ، وتجلب وتستورد منتوجات الأمم الأخرى ، وكانت المهاجرات متصلة ، والمهاجرات تجلب معها ، تقاليد وعنعنات واخلاقا جديدة الى البلدان المستوطنة حديثا ، ثم كانت الاتصالات الجنسية والمصاهرات وما تنتج من آثار وعلاقات ، وفي حالة الحرب كانت الجيوش ، تحمل معها لحد كبير أسباب الاختلاط والامتزاج واشتباك المصالح . والحروب كانت لا تهدأ ، ولا تقف عند حد . وهذه الحملات العسكرية ، والفتوحات ، كانت من أقوى أسباب الاتصال الاممي فالأمم اذن في حالة امتزاج مستمر ، واختلاط دائم منذ قديم الزمان

ولكن هذه الحالة الدائمة المستمرة ، اذا كانت محدودة الاقفاق بطبيعة الحركة والتطور في القرون الاولى والوسطى ، فقد اصبحت في العهود الحديثة عظمة الخطورة ، ذلك لانها متناسبة مع التقدم الصناعي ، والنضوج العقلي ، تناسبا طرديا . فهي اذن في حالة ازدياد مستمر ، وازدياد خطير . ان التقدم في العلوم الطبيعية ، قد سبب التفنن في انواع الصناعات ، ودفع بالمنتجين الى ان يبرعوا في صنوف الانتاج المختلفة ، لتطمين رغبات المستهلكين ، وهذه الصناعات ، وصنوف الانتاج تفتقر الى اسواق تنفق فيها ، والى المستهلكين يدفعون اقيامها ، وقد أدى هذا التقدم في ميادين الصناعة والانتاج ، الى التقدم في استنباط الوسائط السريعة التي تنقل بها هذه المواد وقد لعبت وسائط النقل ووسائله ، بركة كانت أم بحرية ، أم جوية ، في الايام الاخيرة ادوارا مهمة في هذا المضمار . ولما كانت الحضارة القائمة مادية صرفة ، فقد اصبحت الصلات الانسانية ، بالصنعة المادية ، وسادتها الروح النفعية . فالتفوحات الحديثة ، وأسباب الحروب الجديدة ، كلها وليدة هذه الصنعة المادية ، وأثر تلك الروح النفعية . واصبحت صلات الأمم وعلاقاتها ومصالحها المشتبكة مؤسسة على الفكرة الاقتصادية قبل ان تكون مؤسسة على أي نوع من الافكار الاخرى . وهذا فرق عظيم ، بين العهود الماضية والعهد الحديث . لاشك في ان كثيرا من الفتوحات الماضية ، والاكتشافات الدموية القديمة كانت تكون لاغراض اقتصادية ، ومنافع مادية . ولكن كان في جانبها أيضا فتوحات واكتشافات اخرى لم تكن ذات علاقة بالمسائل الاقتصادية والمنافع المادية . فمثلا حروب طروادة ما كانت دوافعها ، إلا دوافع الشرف ، والثأر للعرض المنتهك . وفتوحات الاسكندر الكبير كانت قائمة على فكرة توحيد الأمم ، وتحقيق مبدأ الاتحاد العالمي . ولقد كان الاسكندر مخلصا في فكرته هذه ، متحمسا لتحقيق هذا المبدأ . ففتوحاته لم تكن ذات صلة بمنافع مادية ، ولم يكن يقصد

من ورائها تدمير الممالك ، وانتهاك خزائنها ، واستعباد ابنائها . وانما بالعكس
نجد رقيقاً بأبناء البلاد المفتوحة ، آمراً لقواده وجنوده ان يتصاهروا مع
أبناء البلاد المغلوبة ويفيدوا من ثقافتهم ، كما يفيدون هم بدورهم ، اصهارهم
الجدد بثقافتهم . وكان في كل مملكة يحتاجها ، ينصب من ابنائها حكاما
عليها ، وما كان يبادىء مملكة بالعدوان ، أو يسبب لها أذى ، اذا هي وافقته
على فكرته ، وعاونته في مهمته . والقنوحات الاسلامية ما كانت في اول امرها
ترمي الى غاية مادية ، ومنافع ذاتية وانما كان مبدأوها أعلاء كلمة الله العليا ،
وهداية الناس كافة الى دين التوحيد وحروب الثلاثين عاما لم تكن إلا
اصطداما دمويا بين البرونسمات ، والكاثوليك كما ان حروب السلطان سليم
العثماني مع الشاه الصفوي الايراني ما كانت إلا بين المذهبيين الاسلاميين الكبيرين
ولكن حروب العصور الحديثة لم تكن إلا لغايات مادية ، ومنافع اقتصادية .
والسبب في ذلك كما ذكرنا مراراً ، ان الحضارة الحديثة حضارة مادة ومنفعة
بينما في الحضارات السابقة كانت لها جوانب روحية ذات أثر . ان الحرب شر
من دون شك ولكن الأمم في الماضي قد تقدم على هذا الشر بأمل ان تحوز على
الخير . او انها كانت تفكر في الخير على الأقل ، عند ايقاعها هذا الشر
فدعوة الوثنيين الى التوحيد لم يكن يفكر فيها الا لأقرار الخير وان سلك
اليها طريق الحرب ، التي هي شر . وفكرة توحيد الأمم فكرة خير محض وان
اريد تحقيقها بالقوة . ولكن الأمم الحديثة تسلك سبل الشر لأجل الشر . فهي
تقدم على الحرب لتعتدي على مافي ايدي الأمم الأخرى من أسباب الحياة .
وهذه الحالة الأليمة التي وصات اليها البشرية قد دفعت بالكثيرين من ذوي
الضائر الحرة من علماء حكماء وفلاسفة عظماء الى ان ينهوا على الحضارة القائمة
ماديتها ، وان يعلنوا بمرارة وأسف ، خيبة البشرية في مثل هذه الحضارة التي
وان سمت من ناحية المادة ، فهي قد انحطت بالإنسانية درجات عما كانت عليه

في العهود الماضية من ناحية الشعور والمواطف والروح .
ونتيجة التوسع والفتوحات ، تختلف في شدتها ولينها ، في قسوتها ورفقها
بالنسبة الى الغايات التي تستهدفها وهذه حالة طبيعية لا تستدعي نقاشا كثيرا .
لذلك نقول لما كانت في الفتوحات والتوسعات الماضية جوانب روحية ، فقد
كانت أخف وطأة على الإنسانية من الفتوحات والتوسعات الأخيرة التي هي
مادية صرفة . ولا يهمننا كثيرا الاصلاحات الشكلية التي قامت بها دول العهد
الجديد ، من إلغاء الرق ، وتنظيم الحقوق الدولية ، تنظيمًا يكاد يوهم الناس
بأن هناك ما يسمى عدل او انصاف عالمي فالحوادث المادية ، قد اثبتت بادلة
محسوسة ان هذه الاصلاحات انما بقيت آثارها في الاقوال والخطب ، والكتب ،
فالرق قد استمرى دأوه فساد الأمم الحرة والألوان على اختلافها ، وتعددت
قيوده ، وأحكمت حلقات أصفاده أضعاف ما كان عليه في ايامه الأولى .
والحقوق الدولية لم يعد لها أثر بالمرّة ، والعدل العالمي ، قد انمحت آثاره ،
وزالت معالمه . لقد لمسنا العدل في قرارات عصبة الأمم ، ذلك العدل ، الذي صبغ
البلاد المحكومة من الاقوياء ، بدماء ابناءها الأبرياء ، وشعرنا بمدى رعاية الأمم
الكبرى التي يكرر زعماءها نعمة احترام القانون ، وسيادة العدل ، للحق والقانون في
الدول الضعيفة التي اجتاحت في خلال هذه الحرب اقدانها من الدعاية ، منابر
كذب وبهتان ، بعد ان جعلوا حجارة هذه المنابر ، من رؤوس الاحرار
والمفكرين ، والذادة عن حرمان بلادهم المنتهكة . هذا تشرشل وروزفلت
واضرباها في الوقت الذي يعلنون العالم فيه ، ان القانون يجب ان يسود
العلاقات الدولية ، ويتجهمون على سياسة دول المحور ، يقدمون على اجتياح
بلاد ايران المحايدة ، ايران التي كانت تربطها بالدول المجاورة لها معاهدة صداقة
وسلام دائمين . ولم تكن ايران في طريقهم الى عدوهم ، كما كانت البلجيك
وهولاندا والدانمارك في طريق الالمان فهؤلاء الزعماء الذين يتشدقون بضرورة

سيادة القانون واحترام استقلال الأمم ، يعملون في استباحة القانون وهدم استقلال الأمم لضرورة وغير ضرورة ، اسبب وبدون سبب . والغريب ان ما يقومون به من انتهاك حريات وسلب حرمات ، وسفك دماء ، واستباحة بلاد كانت آمنة مطمئنة ، انما هو العدل بعينه ، والانصاف بذاته . ولكن اذا قامت دولة أخرى بحركات عسكرية في بلاد أخرى بقصد الدفاع عن كيانها ، ودفع خطر الدول المتأثرة ، تكون هذه الدولة متناسية القوانين الدولية ، معتدية على حريات الغير ؟ فهل كانت الحقوق الدولية تسمح لبريطانية مثلا ان تصطدم في السواحل الزوجية مع سفن اعدائها ، والمياه الساحلية هي ملك للدولة ، والتجاوز عليها ، انما هو تجاوز على سيادتها وسلطانها ؟ وهل تسمح لها ايضا ان تلقى في المياه الزوجية الالغام وتثبت فيها وسائل العدمير والحرب ، وتجهز الحملات العسكرية ؟ فمن قام بهذه الاعمال المنافية لحقوق الدول في أول الامر ، هل الانكليز او الالمان ؟ وماذا ينتظر من الالمان غير سبقهم الى الاستيلاء على هذه المناطق الحيوية من الناحية العسكرية ؟ فانهم لو تأخروا قليلا اسكانت القوات الانكليزية شاغلة بلاد الزوج . اذن فان المسألة كانت مسألة زمن فقط وان الالمان كسبوا الوقت وحالوا دون القوات الانكليزية في تلك البلاد فلماذا كان الانكليز نصراء العدل وحماة القانون والالمان خصوم العدل ، طغاة جفاة ؟ واذا كان في نظر الديمقراطيين اختراق الجيوش الالمانية حدود البلجيك وهولندا نقضا للقواعد الدولية ، منعها واقعة في طريقها الى عدوها فماذا نسمى عمل البريطانيين في اجتياحها ايران وهي بلاد ذات استقلال ليست واقعة في طريقها الى عدوها ؟

أني لست في صدد تأييد حق فريق ، وانكار فريق آخر في هذه الاعمال وأني مازلت اعتقد بأن حريات الأمم يجب ان يحرس عليها بأي صورة كانت وبأي ثمن كان . وليس من حق أحد التجاوز على حق الآخر .

وانما أرى حالة الدفاع تبسح أتيان أنواع المحظورات القانونية . فلو ان ملكي قائم في واد ويحجز بيته وبين خصمي مرتفع من الارض تعود ملكيته لشخص ثالث . فمن واجبي ان احرص على حق الشخص الثالث في ملكه ما دام خصمي يحرص عليه . ولكني اذا شئت بوادر من شأنها ان تجعل هذا المرتفع من الارض في يد خصمي ، لينحدر علي منه ويسلبني ما املك ويقضي علي . فمن واجبي ان اهتبل الفرصة لاستيلاء علي هذا المرتفع لأن ترددي في ذلك يجعلني لقمة سائغة في حلقه . واذا استوليت عليه فلا أكون باغيا وانما الباغي هو خصمي الذي بدأ في التجاوز علي هذا المكان الخطر علي . ولم يقع في النزوح غير هذا . ان البادئ كانت الجهة البريطانية واما ما حدث في ايران وسورية وغيرهما من المستعمرات الفرنسية المهيضة الجناح التي لم تسكن في حالة حرب مع الديمقراطيين ، فان ما اقدمت عليه بريطانيا في هذه الممالك لم يكن له أي مبرر لأنها لم تكن واقعة في طريقها الى خصمها حتى يقال ان الضرورات العسكرية حتمت عليها ذلك لا سيما في ايران فالتجاوز البريطاني علي ايران عدوان محض ولا دافع الي هذا العدوان سوى الشره في الاستعمار ، واستفحال داء الطمع في هذه الامبراطورية التي لم يعرف التاريخ خصما لحريات الامم مثلها . واعلمني استطيع ان أفي هذه الناحية حقها في موضع آخر اكثر ملائمة من هذا الموضع .

فالقصد من هذه الملاحظات المتواضعة هو التدليل علي ان ما جاءت به هذه الحضارة من اصلاحات ، تعتبر زينة لها ومفاخر لم تكن الا اصلاحات قولية لا تؤيدها الافعال وان فلاسفة هذا العصر وحكامه ما زالوا علي حق في خيبة آمالهم فيها لأنها ملأى بالشرور مترعة بالمفاسد .

وقد يقال ان اميركة ، في حضارتها تعد غصنا من اغصان هذه الحضارة القائمة ، ونبتة من نبتاتها وهي ما زالت تدافع عن حريات الامم وانها

دخلت في الحرب السكونية الماضية لأجل تحرير الأمم وانها تدخل الحرب ثانية لعين الغرض ، وانها لم تقبض سياسة استعمارية وايس لها مطمع في اي بلد من بلاد العالم فاذا كانت هذه الحضارة حضارة مادية صرفة لما كنا نلمس هذا الشعور الانساني في اميركة ذات الحضارة عينها ؟. الحق ان اميركة ما زالت تناشد الأمم في ضرورة احترام القوانين الدولية ، والحرص على استقلال الأمم الضعيفة . واسكن نشدانها الأمم لتحترم القوانين الدولية ، واطهارها الحرص على استقلال الأمم الضعيفة انما هما ناشتان عن اغراقها في ماديتها وشدة حرصها على نفعها ومن تمسكها بمصالحها . فهي ليست حريصة على القوانين الدولية ، وانما هي حريصة على ماديتها ، وهي ليست متفانية في حب انصاف الضعفاء ، لتحرص على استقلالهم وحرياتهم ، وانما هي تدافع بهذه الفكرة عن مصالحها المادية ، ومنافعها الذاتية . فالامة الاميريكية أشد الأمم تمسكا بالمادة ، وتعلقا بأسبابها . ولم يكن لويس ديكفنسن مسرقا في الغلو حين وصف اميركة المادية ذلك الوصف الرائع في كتابه معرض الآراء الحديثة ، على لسان الصحفي « آرثر لاس » ، فهي مادية وعظيمة الخطر في ماديتها .

ان اميركة قد وهبها الله عز وجل بلاداً مترامية الاطراف فسيحة الارحاء ، غنية في المواد الخام ، خصبة كثيرة الخيرات ، لا يعوزها سكان دربو على طرق استثمارها ، والاستفادة من موادها ، فهي في غنى عن الاستعمار والصناعاتها ومنتوجاتها اسواق كبيرة متسعة تزخر بالمستهلكين فالدينا الجديدة برمتها شمالها واواسطها وجنوبها كلها اسواق لها ، وعدا ذلك فانها قد اقتسمت اسواق بلاد الصين مع الدول الاستعمارية الكبرى ، وان نصيبها من اسواق الصين كان نصيب الاسد . والامبراطورية البريطانية ذات الاملاك التي لا تغيب عنها الشمس ، فان اسواقها ، مفتوحة كذلك للمنتوجات

الاميريكية . فهي تتساهل معها وان تشددت مع الدول الاخرى ، لاسباب سياسية ليس هنا محل بحثها . فالامة الاميريكية تملك اسواقا تجارية اوسع بكثير مما تملكه بريطانيا نفسها واكثرها قريب اليها فهي لا تشبه مثلاً بريطانيا تضطر لاجل ان تعيل شعبها ، او ان تصرف منتوجاتها ، وتحافظ على نشاط صناعاتها ، ان تجوب الافاق البعيدة لتقتنص شعباً تهوى عليه وتزدره او رقعة من ارض تجعلها مستعمرة لها ، لتنفق على اهلها بضاعتها ، او تستفيد من مواد الخام الموجودة فيها . ومع ذلك فان الامة الاميريكية لا تخلو من فكرة استعمارية وان كانت محدودة فهي تملك الفيليبين وكوبا ، والجزر المنبثة في الباسيفيك واهالي كل هذه الممالك الواسعة الارجاء من الشعوب الملونة التي لا تربطها رابطة بالامة الاميريكية وليس لها اي مبرر غير القوة لاستعمارها . فهي برغم عدم افتقارها الى الاستعمار فيها ميل الى حداما الى الاستعمار . وان سياسة مونرو ، التي تقتضي عدم تدخل اميركة في الشؤون الاوربية ومشاكلها ، انما هي اثر من آثار المادية في الامة الاميريكية . لان الغاية التي ترمي اليها هذه السياسة هي ان تجعل الدنيا الجديدة ، في نجوة من النزاحم الاوربي ، لتبقى خالصة الى الامة الاميريكية فهي خطة دفاعية قوية تحمي بها منافعها ومصالحها . ويمكن للباحث ان يقدر مادية الامة الاميريكية من الخطوات التي خطتها إن في الحرب الماضية ، وان في هذه الحرب الضروس فهي لما شعرت بأن الصين كانت تدخل ضمن نفوذ الامبراطورية اليابانية من جهة ، ومن جهة اخرى لما وجدت وضع الامبراطورية البريطانية مزعزعا نظرا للانحصارات الحاسمة التي نالتها دول المحور ، ثارت ناورتها ، وقامت بقيامتها . لانها تعد الامبراطورية البريطانية حصناً طبيعياً لها ، سيما انها منذ فجر هذا القرن بدأت تخشى نفوذ الشعب الالمانى ، الممتاز بنشاطه ، وذكاؤه ، المتفوق بقابلياته ، في الجمهوريات الاميريكية الجنوبية وكلما زادت الصلات

الامانية بها وثوقا ضاقت هي بها ذرعا ، واستشاطت غيضا . ففي الحرب الاولى تذرعت بتجاوز الاسطول الالماني على سفنها فاعلنت الحرب واسكن في هذه المرة لم تجد ذريعة تتخذها سببا لاعلان الحرب ، ذلك لان المانية الجديدة ، المانية الربيع الثالث كانت ابعد بصراً ، واعمق تفكيراً من المانية القيصرية . انها تجنبته كل عمل من شأنه ان يكون ذريعة للحرب ، وأبدت حملاً غريباً ، وصبراً عجيبياً حيث اغضت البصر عن كل الاعمال الاستفزازية التي كان يقوم بها روزفلت وتغافلت عن كل المساعدات الحربية ، والمعاونات المادية التي كانت تقدمها اميركة الى الانكليز . ولسكن روزفلت لم يكفه ذلك مع المانية ، وانما مال الى اليابان ، وأخذ يشتد عليها ، ويستفزها ، فكانت الحرب بينهما وبين دول المحور في نهاية الامر . فلو كانت اميركة امة خير تحب السلام العالمي حقاً ، لاصبحت رسول سلام ، لا موقدة نار الحرب ، او على الاقل لما كانت معينة على استمرارها ، واشتداد سعيها . بل اكانت تنظر الى اسباب الحرب ، نظرة المحايد ، الذي يريد ان يصل بنظره الى قرارة الحقيقة . فان وجدت المانية على باطل كانت عليها ، والا كانت بجانبها او على الاقل تلزم الحياد التام واسباب الحرب واضحة . ان المانية طلبت عودة الدانزيغ اليها وان يعدل وضع بولونية في الممر ، حيث لا يجوز ان يكون فاصلاً بين جزئي بلاد واحدة ، والدانزيغ ، والممر كلاهما ارض المانية . ويجوز ان المانية كانت تنوي المطالبة بمستعمراتها ، ومع ان قضية المستعمرات لم تبحث او لم تسكن من اسباب الحرب ، فلا ادري لماذا يحق لغير المانية ان تملك المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس ، ويبتخل عليها بمستعمرات محدودة الرقعة ، محدودة السكان ، كانت قبل ربع قرن تحت تصرفها ، وهي الدولة الضيقة رقعة الارض المزدحمة السكان ؟ فهل اذا طالبت بهذا الطاب تكون خارقة حرمة القوانين ومستهترة بالحقوق الدولية ، ومستعبدة العالم المتمدنين ؟ ولماذا هولندية مثلاً

تستعمر بلادا تتجاوز نفوسها الستين مليوناً ، ومن اغنى بلاد العالم ، مع ان شعبها لا يتجاوز السبعة ملايين ، والمائتة ذات الثمانين مليوناً من الانفس لا يسوغ لها ان تقتصر في جزء من عشرين جزءاً مما تقتصر فيه هولندة ؟ اي عدل هذا العدل ، وأي منطق هذا المنطق ؟ وبالتالي كيف لا نحكم بمادية اميركة ، وانها لا تختلف عن الدول الديمقراطية المستعمرة الاخرى ؟
فالعقبات التي تهترض التكوين الدولي ، هي هذه النزعة المادية القوية التي خالطت دماء الامم المستعمرة ومازجت ارواحها ، وان قواعد السلم لا تلبث ان تنهار منها صرف في تشييدها من جهد ، وبذل من عناء ، اذا لم تكن هناك زواجر روحية ، وروادع نفسية تقف بالامم المتحاربة ، عند حدود الحق ، وتلهم زعمائها وقادتها الرشد والصواب

ان طرق تكوين الدول داخلياً مهما كانت صائبة وحكيمة فهي لا تثمر ثمرها المطلوب ما لم يحكم بناء التكوين الدولي ، وتنظم صلاتها تنظيمياً يمنع أسباب الخلاف ، والاضطدام فيما بينها . لقد كان مشروع تأليف هيئة دولية تمارس حق الاشراف ، على الصلات الدولية ، وتحسم الخلافات التي تتكون فيما بينها من حين لا آخر ، وفق قواعد قانونية وأصول مضبوطة ، أمنية من أمانى محبي السلام العالمي ، وبغية الحكماء المصلحين في الماضي البعيد والقريب .

ان فكرة وضع العلاقات الدولية تحت سيطرة قانونية دولية ، ليست حديثة . فقد تطورت هذه الفكرة بالنظر الى تطور الحضارة الانسانية ، وتأثيرها في العلاقات بين المجتمعات البشرية المختلفة . وقد قسم علماء القانون الدولي ، العهود التي مرت فيها هذه العلاقات الى ثلاثة عهود . الاول يبدأ منذ شعور المجتمعات البشرية بحاجة بعضها الى بعض الى قيام الامبراطورية الرومانية . والعهد الثاني يبدأ من قيام الامبراطورية الرومانية الى توقيع

معاهدة وستفالية عام ١٦٤٨ والعهد الثالث يبدأ من تاريخ هذه المعاهدة الى يومنا هذا .

أما العهد الاول فلم تكن فيه العلاقات الدولية قائمة على مبادئ واضحة والتزامات متقابلة صريحة بين الدول او الشعوب كافة . وانما كانت الدول تقيم علاقاتها على اساس من القرابة في الدم أو الاتحاد في الدين . وان علاقة تقام على مثل هذين الاساسين لابد ان تكون ضيقة الافق لا تتعدى مجموعة معينة ، من المجموعات الدولية . فمثلا ان المجموعات الاسرائيلية كانت تقيم علاقاتها على اساس الدين والعنصر وتعتبر الامم الاخرى غريبة عنها فلم تلتزم تجاهها بالتزامات ، ولم تعترف لها بحقوق . كما ان المدن اليونانية كانت تتحدد اذا ما هاجمها شعب غريب ، أو اذا كانت هي تقرر مهاجمة بلاد غير يونانية لسبب من الاسباب . ولكن على كل حال نجد ان العلاقات الدولية بين المدن اليونانية كانت في كثير من الاوقات تخضع لسلطة هيئة منتخبة وتلتزم بمقرراتها كما نجد انها كانت تحسم منازعاتها بطريقة التحكيم . وعلى هذا الاساس قام حلف دلفي وبلبونز . ولما كانت روما قانعة برقعة ايطالية سواء في عهدها الاول أم في عهدها الجمهوري ، فانها كانت تعقد معاهدات مع الاقوام المجاورة لها ، في ايطالية وتنظم علاقاتها معها على ضوء هذه الاتفاقيات كاتفاقياتها مع السابنيين وغيرهم من الشعوب الايطالية مثلا ولما طمعت في خارج ايطالية وتوسعت في فتوحاتها تغير وضعها تماما . لقد اصبحت امبراطورية . وصارت هذه الامبراطورية موئل لجميع الشعوب التي تخضع لها مباشرة أو بالواسطة ومن هنا بدأ التحول ودخلت العلاقات الدولية في عهدها الثاني ولعلنا نستطيع ان نجعل عهد الامبراطور تراجان ٩٨ - ١١٧ بعد الميلاد مبدءا لهذا العهد . ومن النتائج الطبيعية لمثل هذا العهد ، ان تشيع فكرة خضوع العلاقات الدولية لسيطرة دولة واحدة ، ذلك لان الامبراطورية الرومانية كانت

تسمى سمواً مطرداً في النفوذ وفي السلطان فلم تكن دولة أخرى تنازعها النفوذ وتنافسها في السلطان وقد كان الامبراطور حكماً وكانت الدول والشعوب المتنازعة فيما بينها ، تلجأ الى حكمه في اغلب الاحيان ولكن هذه الفكرة ، فكرة سيطرة دولة واحدة ، على العلاقات الدولية لم تستمر طويلاً فقد تلاشت بأنهيى الامبراطورية الرومانية . غير انها بعثت من جديد على عهد شارلمان ولكن ما لبث ابنائهم ان اقتسموا فيما بينهم الامبراطورية وتوزعوها . ولما نهضت البابوية واخذت هذه السلطة الروحية تنافس الملوك ذوي السلطات الزمنية ، غاض تماماً ، معين هذه الفكرة ، فكرة سيطرة الدولة الواحدة على الصلات الاممية . وقد جر هذا التنافس الروحي والزمني ، اوروبا ومن ورائها العالم الى محن وشدائد ، وجلب عليها الشرور . وقد كانت الحروب الدينية ، بين الصليبيين والاسلام تارة ، وطوراً بين البروتستانتية والكاثوليكية دائمة الاوار متصلة الاستمرار . ولم تحمد من شرورها وويلاتها الا معاهدة وستفالية عام ١٦٤٨ ، وبهذه المعاهدة ختمت الحرب الثلاثين عاماً الدينية بين معسكري الكاثوليك والبروتستانت فجاءها ، وانتهت مجازرها . على ان هذه المعاهدة قد تمخضت عن مبدأين ما زال العالم يركز على دعمتهما ، وان كان هذا الارتركار يختلف قوة وضعفاً بالنظر الى نفسيات الشعوب تارة وطوراً الى ما يجد من الظروف والاحداث والملابسات . وهذان المبدأان هما أولاً الاعتراف بسيادة كل أمة حرة على بلادها المعروفة الحدود . وثانياً : الاعتراف بالتساوي في معاملة الرؤوس المتوجة وان كانت ممالك الملوك تختلف ضيقاً واتساعاً وسلطانها يتفاوت قوة وضعفاً . ومع ذلك فقد شهد مطلع القرن السابع عشر الذي في منتصفه عقدت هذه المعاهدة ، آراء ومقترحات جديدة بالتقدير من شأنها ان تهدي ساسة الامم وقادتها الى خير المبادئ التي يجب ان تقوم عليها الصلات الاممية والى احسن القواعد التي يجب ان تستعمل اليها العلاقات

الدولية . لقد آلت « سلى » وزير هنرى الرابع ملك فرنسا الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت فانبتق عن عقله الجبار ، مشروع اسماء هو « بالمشروع الاعظم » يدعو فيه الى تكوين جامعة تضم الشعوب المسيحية بالقارة الاوربية . وذكر الدول التي تتكون منها هذه الجامعة مع استبعاد الروسية باعتبار انها أمة غير متحضرة واحوالها مضطربة فضلاً عن بعدها عن دول القارة الاوربية كما يطالب في « هذا المشروع بتقرير مبدأ حرية التجارة بين الدول الاعضاء واتباع طريقة التحكيم في المنازعات التي تحدث بين اعضاء الجامعة . ثم تلاه العلامة (ايمريك كروشيه) فوضع مشروعاً هو أوسع افقا من السابق ، وأدنى الى الخير . حيث دعا فيه الى انشاء عصبة او مجلس من الاتراك والبابا والاباطرة والملوك المسيحيين وبهذا يكون قد تخطى الحدود الدينية بأدخاله الاتراك عضواً في هذه العصبة . وطلب ان تتخذ إحدى المدن المحايدة مقراً للعصبة التي تقوم بتسوية كل خلاف ينشأ بين اعضائها ، وحتم على الاعضاء ان يقسموا بأحترام كل ما تصدره العصبة بأغلبية الأصوات دون تمييز بين مسائل الاجراءات والمسائل الحيوية التي تمس سيادة الشعوب ومصالحها وفي هذه النقطة نجد المشرع يذهب الى أبعد مما رآه واضعو ميثاق عصبة الأمم . وايمريك كروشيه ، قد أشار في مشروعه هذا بضرورة مقاومة كل مدين يرفض الرضوخ للقرار الصادر ، بقوة السلاح بغية اقامة سلام شامل . فهو اذن قد طلب استعمال الاجراءات العسكرية الفورية ضد المتمردين من اعضاء العصبة وفي عام ١٦٢٥ أصدر العلامة (هوجو جروشيوس) كتابه (قانون الحرب والسلام) وقرر فيه مبدأ وجوب تطبيق المبادئ التي تحكم حقوق الافراد والتزاماتهم في ظل القانون المدني ، على العلاقات الدولية حيث اعتقد بأن احترام هذا المبدأ من الدول من شأنه ان يمنع الحروب فيما بينها ولاجل تحقيق هذا المبدأ يجب

ان يكون هناك عقد تلتزم بتنفيذه الدول ، وانه يقترح التحكيم لدى مؤتمر دولي لفض الخلافات وتسوية المنازعات . وأما (ويليام بن) فإنه قد أرتأى أولاً تأليف برلمان من الدول الأوروبية يضع قواعد عادلة يرعاها الحكام وتعرض عليه أسباب الخلاف كافة . ثانياً : في حالة رفض إحدى الدول الرضوخ لقرار البرلمان او اذا تباطأت في تنفيذها الى ما بعد الاجل المضروب وعمدت الى الحرب وجب على بقية الأعضاء ارغامها على احترام القرار الصادر في موضوع النزاع . ثالثاً : منع التنافس في التسليح بين الأعضاء على ان لا يمس شؤون الدولة الداخلية أو سيادتها او ايراداتها . ونحن نحو هؤلاء الاعلام كثيرون من اعلام الفكر المتأخرين كـ (سان بيير) و (بفتام) و (كانت) ووضعوا مشاريع ، واقترحوا مقترحات في الوسائل المؤدية الى منع الحروب ونشر السلام العالمي ، عن طريق مؤسسة دولية ، او قوة دولية ذات سلطان شامل كاف في وسع واضعي ميثاق عصبة الأمم ، ان يقتبسوا منها كثيراً ، ويفيدوا العالم المتعطش الى السلام والطمأنينة ، اكثر .

اجل ! كان الأمل في مشروع عصبة الأمم انه يكفل الحاجة الإنسانية ، وبأستمرار الإصلاح فيها ، تكون الانسانية قد اقتربت رويداً رويداً من اهدافها السامية . ولكن حظها السيء ، قد حاد بمؤسسى هذا المشروع عن جادة الصواب ، فوقعوا في اغلاط واخطاء تعذر اصلاحها منذ يوم بداهم في العمل الانشائي . فكان العمل في الحقيقة ليس انشائياً ، وانما كان هداماً ، وقد سبق ان بينا طرفاً من تلك الاغلاط والاخطاء . فالتكوين الدولي القادم ، اذن متوقف على مبلغ ما تحمله نفوس القادة والزعماء من التيات الحسنة ، وما تتمثل في عقولهم ، من صور رائقة ، وما تتفجر به ضمائرهم ووجداناتهم ، من عواطف صافية ، وقد آن لهم ان يفكروا عميقاً ، ويتأملوا

طويلا في الماسي التي مرت ، بالبشرية بسبب هذه الحرب ، والدمار الذي منيت المعمورة به ، والمعائب والويلات التي ذاق صابها ، كل من الغالبيين والمغلوبين ، ليشخصوا الداء ، فيضهوا له الدواء ، قبل ان يفكروا في تأليف الهيئة الدولية ، التي مازانا نسمع من كل فريق وصفا لها يختلف عن وصف الآخر . فالموضوع روحي ، أدبي ، قبل ان يكون ماديا متجسما . فهل توجد في الدول نية حسنة لازالة أسباب الحروب ؟ فاذا توفرت هذه النية سهلت التدابير الأخرى السكافة لتحقيق هذه النية . اني لا ارى ذلك بعيدا وان كانت الطريق وعرة ، كثيرة الحفر والاخاديد فأفلاطون وضع جمهوريته وقام في محاولات لتحقيقها ففشل ثم عاد ووضع « قوانينه » التي عدل بها كثيرا من آرائه التي كان قد بثها في جمهوريته وجعلها ايسر تطبيقا ، واسهل تنفيذا ومع ذلك فانه ابقى على جمهوريته كما هي ثقة منه بأنه سيأتي زمن يمكن فيه تحقيقها وكثير من رجال الحكمة ، وفلاسفة المدرسة الأفلاطونية يرون في الامكان تحقيق جمهوريته . اذن فلماذا لا نأمل ان يتحقق السلام العالمي وان تتوافر النيات الحسنة للعمل في هذا السبيل ، بمؤسسات دولية ومؤسسات قانونية هي أقل قيودا من جمهورية أفلاطون ، بل وقوانينه بعد ان ادرك الجميع ان الحروب العصرية ، وما يستعمل فيها من وسائل التخريب والتدمير تقضى على حياة الجميع ، الغالبيين والمغلوبين ، وان ما يخسرونه في زمن يسير لا تتداركه إلا انتصارات ، ولا تلافيه جهود اجيال ؟

واليوم الذي اضم فيه هذه اللحظات الفكرية بعضهم الى بعض وان كان مواليا لدول المحور حيث في أيديها المبادئة في كل ميدان من ميادين القتال فلا ندرى ما تحبوه إلا بام المقبلة لدول المحور — وطالع الحرب كما اوضحت في دفاعي امام المحكمة العسكرية العرفية ، متغير ، — فقد تنعكس الآية ، وينقلب الوضع ، فيصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا فان قلت

على الفريقين المتخاصمين ، عندما يقدمان على المفاوضة بشأن الصلح ، ان لا يكررا الاخطاء الماضية ، ويعمن الغالب في افناء وتمزيق أوصال المغلوب فانما هو قول صادر من اعماق قلبي حيث كلاهما في الحقيقة مرهق ومتعب ، وكلاهما ممزق الا وصال موشك على الفناء ، فليس هناك غالب أو مغلوب ، ومنتصر ومنحدر . لذلك من صالح الانسانية ، ان يتعاونوا في التعمير والا نشاء ، من جديد ، وأن يقيم الصلح على دعائم قوية ، وقواعد ثابتة فقد ارتوت الارض من الدماء ما يكفيها لاجال طويلة ، وشبعت الطير والحيوانات الاخرى من لحوم الانسان الى حد التخممة ، وظفرت النزوات الانتقامية التي كانت تعتلج الافئدة وتخطر في النفوس بما ارادت ، فأصابت سهامها المقاتل ، ودسرت ، وخربت واهلكت ما فيه الكفاية .

وأول واجب ينتظر المسؤولين عن السلم العالمي ، هو النظر في حقيقة الوضع ، واعادة بناء الامم على ضوء هذه الحقيقة . وقد يقال كيف يتم بناء الامم ، وعلى أي الأسس يكون هذا البناء . فهناك أمم متحاربة مازالت محتفظة بكيانها ، وأخرى فقدت هذا الكيان . وهناك أمم صغيرة تمارس نوعا من السيادة في اراضيها ، ولكنها في عين الوقت خاضعة لنفوذ بعض الدول العظمى ، وهناك شعوب تدار من قبل الدول ادارة استعمارية ، وتحكم حكما مطلقا ، وليس لها كيان خاص ، او نوع من الحكم الذاتي وهي التي يطلق عليها « المستعمرات » سبب هذه الحروب المستمرة ، وعامل الاختصاص الدائم ، فهل تظل على حالتها الراهنة او يكون لها نظام خاص؟ وفي الحق ، انه لا سبيل الى صلح دائم ما لم ينظر الى هذه الاعتبارات نظراً دقيقاً ، ويفكر فيها تفكيراً صحيحاً عميقاً .

ان الامم لا تكونها الدماء فقط ، او التاريخ فحسب ، او المصالح المشتركة لا غير : او الدين ، او اللغة وحدها وانما تكونها مجموعة من

هذه الروابط . فالدماء والمصالح المشتركة والتاريخ المشترك والدين واللغة والارض الواحدة ، كلها عوامل لتكوين الشعوب وخلق الامم . وليس شرطا ان تتوفر جميعها لتكوين امة ، وانما يجوز اجتماع بعض هذه الروابط ليكون كافيا لخلق الامة ، غير ان الاساس المهم ، والرابطة العظمى هما المصالح المشتركة والتاريخ المشترك . وقد يكون في بعض هذه المجموعات ، رابطة اللغة او الدم اقوى من رابطة الدين ، وفي الاخرى بعكس ذلك . فالامة البريطانية ، مكونة من ابناء الجزيرة البريطانية ، وان كان فيهم ، سكسونيون ، وويلزيون ، واسكتلنديون ، وبريطونيون . فقد كونتهم كأمة مصالح مشتركة وتاريخ مشترك قديم وكذلك ممتلكاتها كندا واستراليا ، ونيوزيلاندة ، فهم بريطانيون روحا وان لم يكونوا كلهم كذلك من ناحية الدم . ولكننا لا يمكننا ان ندخل ضمن هذه الامة الامم الاخرى التي حكمتها بالقوة كالهنود وجنوبي افريقية والصومال ، وغينية الجديدة والملايو وبورما وما الى ذلك من الامم العديدة وان كان هناك تاريخ مشترك ومصالح مشتركة لان هذه المصالح المشتركة وهذا التاريخ وهذه الاتصالات لمادية كلها كانت وما تزال قائمة على اساس التغلب والتحكم وان الفورات والاضطرابات دائمة الوقوع في هذه الممالك . فبينها وبين الامة البريطانية نزاع متصل واقتتال متتابع . وهذه الحالة غير موجودة في الممتلكات البريطانية المشار اليها آنفا .

والامم العربية قد كونها الدم والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة والارض الواحدة فشبه الجزيرة عربية وبلاد الهلال الخصيب بلاد عربية ومصر والسودان وشمال افريقية برمتها بلاد عربية أقام فيها العنصر العربي بعد ان خرج من شبه جزيرة ، عسورا كثيرة وعاش فيها عبسة متصلة وغرس فيها تقاليد وعنهاته ونشر فيها آدابه ورافته ، ودينه . فهي بلاد

عربية وبالعالم فان اهلها امة عربية .

فعلى هذا الفرار ينظر الى الامم الاخرى فيعاد بناؤها . فالامة الفرنسية امة قائمة بذاتها وحدود بلادها معلومة . وكذلك الأمة الالمانية ، والأمة الروسية ، والأمة البولونية . وانما سبب الاختلافات المستمرة ، هو العمل في ضم بلاد الى اخرى لا رابطة بينها وبين البلاد التي ضمت اليها ، وفي اخضاع شعب او فريق من شعب لسلطة شعب آخر غريب .

فالامم التي ما زالت محتفظة بكيانها ، واستقلالها ، سواء كان هذا الاستقلال تاما ام ناقصا كما في بعض البلاد الشرقية ، ومنها البلاد المربية فمن السهل الاحتفاظ بكيانها ورسم حدودها ، ان هذه الامم يجب ان تحكم نفسها بنفسها ولا يكون هناك استقلال تام او استقلال ناقص ، لكونها من الفريق الغالب ، أو من الفريق المغلوب

وينظر كذلك في امر الأمم الناقصة السيادة ، او المحرومة السيادة . فان كانت تمت بنسب الى مدينة قديمة . وكانت لها جهود في بناء الحضارات القديمة او الحاضرة فمن الانصاف ان يفسح لها المجال ان تعيش حرة مستقلة وان تحكم نفسها بنفسها ذلك لان مساهمتها في اقامة الحضارات في عهد من عهود التاريخ دليل ناطق على حيويتها ، وعلى قابليتها . ومهما كان الحال فان مدى الاختلاف بينها وبين الامم التي أقامت المدنية الحاضرة ليس بعيداً من ناحية قوة التفكير وقابلية الابداع والاختراع . فالصين والهند ، والامة العربية ، والتركية ، والفرس وغيرهم كل هؤلاء شعوب لها حضارات قديمة ، ولا بناءها القدماء جهود محودة في سبيل تقدم الانسانية فلا مبرر للتحكم فيهم والسيطرة عليهم وانهم يستطيعون ان يساهموا في الحضارة القائمة ، ان تمهيات لهم أسباب المساهمة ، وتوافرت لهم عوامل الحياة والانبعاث ، واذا قيل ان في هذه البلاد مواد ابتدائية ، تصلح للصناعات ، وان فيها كنوزاً

ودفائن تنفيذ الحضارة وانها ان بقيت في أيدي اهلها ، تبقى مدفونة في
جوف الارض ، او مهملة على سطحها لعدم قابليتهم من الاستفادة منها ،
فيجوز تنظيم طريق الاستفادة من هذه المواد والخيرات من قبل الهيئة الدولية
التي سنبحث فيها بعد قليل والاستفادة من هذه المواد والخيرات ، بطريق
المسألة ، افضل من طريق العنف والقوة .

أما الشعوب الاخرى التي لم تسبق لها مدنية وحضارة والتي قست عليها
الطبيعة بعض القسوة فحدث من قابلياتها الفكرية واضعفت فيها النشاط
الضروري ، لاقامة الحضارات ، فيجوز ان تدار من قبل هذه الهيئة الدولية ،
او تدار بطريقة الانتداب تحت اشراف هذه الهيئة الدولية ، على شرط ان
يكون هدف الانتداب عليها يرمي الى مدها بالمقومات المقتضية وتدريبها
وتثقيفها بقدر ما تستطيع قابليات ابنائها ان تحتمل التدريب والتثقيف هذين
وان يحتفظ بخيراتها وكنوزها ، او تستغل بصورة مفيدة لها ، ومفيدة لتقدم
الحضارة القائمة في وقت واحد وبالتالي يجب ان ينظر اليها كشعوب
جديرة بالرفق والحنو لا الغلظة والشدّة .

ولا يتصور انقاذ العالم من مخاطر الحروب وويلاتها في المستقبل اذا
لم تسد هذه الروحية الزعماء والقادة الذين يقودون الشعوب ويضعون لها
اسس الصلح القادم . ففكرة الاستعمار واستعباد الشعوب الضعيفة يجب ان
تزول بالمرّة وكذلك فكرة الانتقام من الدول المغلوبة .

اننا ما زلنا نسمع من افواه وقادة وزعماء الدول الديمقراطية التهديدات
المتكررة لمحاكمة زعماء الفاشيست والنازية ومعاقبتهم بالعقوبات الصارمة التي
يستحقونها وانهم سيؤلفون محكمة دولية خاصة لمحاكمتهم . لنفرض ان الجبهة
الديمقراطية ربحت الحرب وجمعت زعماء الفاشيستية والنازية في صعيد واحد
وبدأت محاكمتهم محكمة دولية ألفت لهذا الغرض . فعلى أي قانون يكون

العقاب ؟ فلاحكم بعقوبة يشترط قانون ارتكبت الجرائم ضده - فهل تعتبر
 معاهدة فرساي قانونا ملزما للمجموعة الدولية ، وان زعماء دول المحور
 ارتكبوا ضده جرائمهم ؟ ان معاهدة فرساي ليست ظالمة وغادرة في نظر
 دول المحور ، أو في نظر المانية على الأقل وهي زعيمة دول المحور وانما
 هي كذلك في نظر الدولة الاميريكية وهي أقوى سند للجبهة الديمقراطية
 وبفضل جهودها ، بقيت الامبراطورية البريطانية حية في الوجود ، وفي نظر
 الروس السوفيت وهم العامل الاول في اضعاف الجهاز الحربي المحوري .
 فالاميريكيون كانوا قد نبدوا معاهدة فرساي لانها ظالمة ، وابتعدوا عن
 اجواء عصبة الامم لانها لم تقم على اسس العدل والانصاف . والدولة الروسية
 تعتبر نفسها من ضحايا معاهدة فرساي فقد اقتطعت منها الدويلات التي أحدثت
 على البلطيق وضم جزء كبير من روسيا البيضاء ، ومن اوكرانية الى الدولة
 البولونية . فأول من يقوم على خرق حرمة هذه المعاهدة الجائرة ، هم
 الاميريكيون ، والروس ، وهم القسم الاكبر ، والشطر الأقوى في الجبهة
 الديمقراطية . واذا كانت هذه المعاهدة بهذه السكيفية فكيف يساق الاتهام ضد
 هؤلاء الزعماء ؟ وهل ان عدل المحكمة يدفعها الى الحكم على رجال المانية
 وقادتها ، لانهم طالبوا باعادة بلاد المانية كانت تستولي عليها امة اخرى لا
 تربطها بها رابطة ؟ فان كان عدلهم من هذا النوع فهل يؤمل ان يكون سلم
 عالمي ، دائم ، او الى امد طويل على الأقل ؟ فالسلم الدائم يقضي على الجميع
 تناسي الاحقاد والضغائن ، وكبت النزعات والثورات النفسية وإن السلم العالمي
 يقضي فوق ذلك ان يشعر الجميع بأن الحرب التي وقعت كانت نتيجة اخطاء
 التصرفات السابقة ، وان الجميع اشتركوا في هذه الاخطاء . كل بفسمة وضعه
 وبقدر قابليته . فلما كانت المسؤولية تشمل الجميع ، فعلى الجميع ان يتحملوا
 ما اصابتهم به الحرب من كوارث ، وليس لهم بعد ذلك غير التعاون على اقامة

عالم أفضل ، وإيجاد نظام دولي يكفل السلام العام الدائم . وليس من الحق ان نفترض الغالبية في جهة الديمقراطية فقد تكونت في جهة المحور وان البوادر ما زالت تشير الى ذلك . فهل في وسع المحور بعد ان يقتصر أن يعيد الأخطاء السابقة ، ويفرق العالم في الدماء مرة أخرى في المستقبل القريب ؟ ان المانية نفسها خربت ما يثيره الظلم في النفوس من الحفاظ والاحقاد وانها جربت بنفسها كيف انها استأنفت في العمل لإعادة تسليحها ولا نبهائها من جديد برغم التحديدات الصارمة التي فرضت عليها وبرغم الاشراف الدقيق على نواحي نشاطها . والأهم التي يصيبها الخسران ، وتقهقر فيها ما في الأمة الألمانية من النشاط والحيوية ، وفيها ما فيها من قوة الابتداع والاختراع وفيها ما فيها من القدرة على العمل ، والشجاعة في سبيل إعادة كيانها ، واسترداد عزتها فمها ضربت حولها من اسيجة تحد من هذه القابليات وتضعف من هذه القوى فلن تستطيع ان تبلغ بسلطانها قرارات النفوس ، وتتحكم في الارواح . انها سوف تعمل ما عملت هي ، وسوف يعود الاصطدام من جديد . اذن فسواء كان المنتصرون والمحورين ، أم الديمقراطيةين ، فعلى الجميع ، أن يتزعوا من عقولهم فكرة الانتقام او فكرة الاستئثار بالمنافع او فكرة الاستعمار التي هي سبب كل هذه المصائب التي عاناها العالم .

وبعد كل ما تقدم نفترض ان التكوين الدولي قائم على اساس التعاون الدولي ، وتجنب فكرة الاعتماد على الشعوب او استعمارها والتحكم فيها وبهذه الفكرة وهذه الروح نرسم الخطوط الآتية :

اولا : تتمتع الأمم المحتفظة بكيانها والأمم المحرومة من هذا الكيان وكانت لها حضارة سابقة او مساهمة في الحضارة القائمة بسيادتها . وأما شعوب المناطق الاستوائية وما يصاحبها وكذلك ما يماثلها من الشعوب الأخرى الشالية التي قست عليها الطبيعة وحدثت من قابليتها ، العقلية والنفسية

فتدار أما بمعرفة الهيئة الدولية المنشأة وأما تحت اشرافها وفق الشروط التي
سيجيء بمبحثها .

ثانيا : ان يزرع السلاح من الدول كافة وتقوم قوات « ملبش » كافية
لمحافظة الامن الداخلي في كل دولة وتجهز بالاسلحة المقتضية تحت اشراف الهيئة
الدولية اما الاساطيل البحرية الحربية فتستحوذ عليها الهيئة الدولية وانما
يعطى بأشرافها لكل دولة بحرية ما يكفي لحراسة سواحلها الداخلية فقط
من هذه القوات البحرية وتمنع المعاهدات السرية معها كان موضوعها ويحترم
مبدأ التحكيم في فض المنازعات الدولية : هذان هما المبدأان العامان .

ب - تأليف الهيئة الدولية

تتألف الهيئة الدولية من مجلسين . مجلس عصبة الامم . والمجلس
الاعلى . فالمجلس الاول ، أي مجلس عصبة الامم يجوز ان يتعدد فيه المندوبون
للدولة على ان لا يزيد عدد الممثلين لكل دولة عن اثنين وبالضرورة تتعدد
الاصوات بقدر عدد الممثلين . والدولة التي لها الحق في ان يكون لها اكثر
من مندوب واحد هي الدولة التي تزيد نفوسها عن العشرين مليون نفس مثلاً
أو التي انتدبت لارشاد بلد ما بأشراف الهيئة . وتنتخب الدول ممثلها في هذا
المجلس ، من مجالسها التشريعية ، أو هيئاتها الشعبية . ليكون هذا المجلس ممثلاً
لأرادة شعوب الدول المنضمة اليه . وأما تعدد الاصوات فإنه مبدأ وان لم
تأخذ به عصبة الامم البائدة فقد سبق ان اخذ به حتى في الازمنة القديمة
فمثلاً ان حلف دلفي اليوناني كان قد اعتبر لكل عضو صوتين اثنين . وكان
هذا الحلف منعقد في الحقيقة بين دول أو مدن ذات سيادة هذا من جهة
ومن جهة أخرى فإن هذا المجلس يقرب من ان يكون برلماناً لشعوب الدول

واعضاء البرلمانات وان كانوا على الاكثر يمثلون احزابا معينة ، فانهم حين يصوتون ، تعد اصواتهم بقدر عددهم لا بقدر عدد الاحزاب الممثلة في كل برلمان .

اما المجلس الاعلى فانه يتكون من اعضاء تفتديهم الحكومات المنضمة الى الهيئة الدولية ويكون عدد المندوبين فيه بقدر عدد الحكومات . أي يكون لكل دولة مندوب سواء في ذلك الدول الكبيرة ، والدول الصغيرة . يجتمع المجلسان ويقضان في وقت واحد ولا يجوز الجمع بين عضويتي المجلسين . اما كيفية اجتماع المجلسين واوراقته والتصويت وطرق حل المشاكل المعروضة عليهما وما الى ذلك من الامور فانها تعين بأنظمة خاصة يقرها مؤتمر الصلح الذي يقيم هذه الهيئة ويجوز ترك بعضها الى كل من المجلسين . وتكون مخصصات المندوبين والممثلين لدى المجلسين على عواتق دولهم المتبوعة .

مهام مجلس عصبة الأمم

أ — تعرض المشاكل الدولية على جميع انواعها ، والمنازعات على تباين اشكالها على مجلس العصبة في اول الأمر . وبعد ان تحقق في اللجان الخاصة بالطرق التي عينها المجلس تعرض عليه فيعطى قراره بالاتفاق او بالاكثرية .

ب — للمجلس ان يؤلف لجان تحقيقية ولجان فنية وعلمية واي نوع من اللجان الأخرى التي يراها ضرورية . وهذه هي التي تقوم بالتدقيقات الأولية وتعرض نتائج تدقيقاتها بتقارير تكون موضع المذاكرة في اجتماع المجلس . وهذه اللجان تكون من اعضاء المجلس كما يجوز ان يكون فيها العلماء والخبراء الفنيون من خارج اعضاء المجلس .

ج — يركز العملة على اساس دولي ثابت ويوحد القوانين التجارية بين الدول سيما المتفرقات الكمركية .

د — يكون المجلس ممثل لدى كل دولة ذات سيادة يشرف على حسن تطبيقها لمقررات العصبة ويراقب شؤون العملة ، والسلاح ووصلات الدولة بغيرها من الدول وهل هناك معاهدات سرية ام لا ويرفع تقاريره الى رئاسة مجلس العصبة لعرضها على المجلس .

هـ — يكون في كل بلد منتدب عليه ممثل للمجلس يراقب سلوك الدولة المنتدبة . وترفع بواسطته شكاوي الاهلين الى مجلس العصبة .

و — تكون نفقات الممثل ونفقات دائرته على عاتق المجلس .

ز — على الدولة او البلد الذي يقيم فيه ممثل العصبة ان يسهل عليه مهمته ويضما تحت تصرفه الوثائق والمستندات التي يطلبها على ان تكون ذات علاقة بمهمته .

ح — مندوبو الدول لدى العصبة هم الذين يمثلون دولهم المتبوعة في المحصومات الدولية ولا يشتركون في التصويت في القضايا المنازع عليها فيما بين دولهم .

ط — تعرض الموازنة العامة في اول الامر على مجلس العصبة ويجري تدقيقها ومناقشتها بالصورة التي تجربها الدول البرلمانية ثم تعرض على المجلس الاعلى شكليا فاذا اعادها الى مجلس العصبة فيكون قرار هذا المجلس بشأنها قطعيا .

ي — لما كان رئيس المجلس واعضاء مكتبه دائمين فلا يجوز ان يكونوا من وزراء الدول او الموظفين فيها . ان وظائفهم في مكتب رئاسة المجلس لا تقبل الجمع مع وظائف او مناصب دولهم المتبوعة .

ك — تكون حتما لجان دائمية ثلاث . الاولى للنظر في التقارير المرفوعة من قبل ممثلي المجلس لدى كل دولة ذات سيادة . والثانية للنظر في التقارير المرفوعة من قبل ممثلي المجلس لدى كل بلد منتدب عليه

وشكاوى اهله وتقارير الدولة المنتدية ودفاعها . الثالثة للنظر في الادعاءات الدولية ضد بعضها البعض وفي مشاكلها . ان التقارير والشكاوى والادعاءات ترفع الى رئاسة المجلس وهذه بدورها تخيلها الى اللجان المختصة .

— لى — للمجلس ان يصدر قرارات استشارية وارشادية فيما له علاقة بمكافحة الاوبئة والمخدرات والانظمة الكمركية وأسس التربية والتعليم والى غير ذلك من الامور التي من شأنها ان تهذب النفوس او تنشيط التجارة او تحسن الحالة الاقتصادية والصحية وتقرب وجهات النظر بين الدول والامم

— م — ترفع جميع قرارات المجلس الى المجلس الاعلى الا اذا كان قد قبل بها الطرفان المتنازعان ، وكان موضوعها خلافا بين دولتين او دول معينة .

— ن — تؤلف لجنة خاصة لتنظيم الموازنة العامة لتأسيسات الهيئات الدولية وقواتها المساعدة لكل عام .

— س — للمجلس ان يؤلف اللجان الفنية والعلمية ، بقدر ما تدعو اليه الضرورة للنظر في امر توزيع المواد الخام المبتدولة في بلد ، والمحروم منها بلد آخر لفرض تنشيط الصناعات ، والتقدم في مختلف النواحي التي تقعضيتها الحضارة القائمة كما ان للمجلس حق بيارن الطرق والاساليب التي يجري بموجبها التبادل التجاري والتعاون الاقتصادي او الصحي بين مختلف امم العالم .

مراسم المجلس الاعلى

— أ — النظر في قرارات مجلس العصبة وتأيدها او اجراء التعديل فيها

ما عدا الموازنة العامة فإن القرار القطعي فيها مودع الى مجلس العصبة .

ب — قرار المجلس الأعلى قطعي ما عدا الموازنة العامة .

ج — يكون لمنتدبي الدول المتخاصمة حق الكلام أمام المجلس الأعلى حين النظر في قضايا دولهم المتبوعة مثل ما كان لهم أمام مجلس العصبة .

د — رئيس المجلس الأعلى هو القائد العام للقوات البرية والجوية والبحرية التي توضع تحت تصرف الهيئة الدولية ويقرارات من المجلس يعين وكيله او وكلائه والقواد الآخرين لهذه القوات ، وهو الذي يوزعها على المناطق والأماكن المخصصة لها . والمجلس الأعلى هو الذي يقرر عدد القوات التي تحتاجها الهيئة الدولية كما انه هو الذي يقدر ما لكل دولة او بلد من حق في السلاح والتجهيزات الحربية الاخرى ، وعدد القوات التي تخصص لكفالة الامن العام للدولة او البلد .

ه — ينعقد كمحكمة عليا ، لمحكمة ومعاينة من يتمرد على القرارات النهائية لكلا المجلسين ويتحدى هيبة الهيئة الدولية ، من رجال الدول وقادتها وكذلك لتعيين مسؤولية الدولة الممردة .

و — المجلس الأعلى هو الذي يقدر مقادير الاقساط التي تدفعها كل دولة ذات سيادة لتلافي نفقات الهيئة الدولية ومؤسساتها وقواتها بعد استشارة مجلس العصبة .

ز — رئيس المجلس الأعلى وأعضاء مكتبه دائميون ولا يجوز ان يشغلوا مناصب وزارية او حكومية في دولهم المتبوعة طيلة اشتغالهم في مكتب الرئاسة .

- ح - لا يجوز الجمع بين عضوية المجلس الأعلى وعضوية مجلس العصبة .
 ط - للمجلس أن يؤلف لجان فنية وعلمية وتحقيقية من أعضاء المجلس أو من غيرهم . وعلى كل فعلية أن يكون أربع لجان دائمة احداها للمزامية والثلاث الاخريات للقيام بالشؤون الوارد ذكرها في مادة « ك » السابقة .
- ي - يقوم مندوبو الدول المتخاصمة بتمثيل دولهم المتبوعة ولا يجوز لهم التصويت في القضايا المتخاصمة فيها دولهم .

مُتَفَرِّقات

- أ - كل دولة ذات سيادة مجبورة على الانضمام في سلك الهيأة الدولية .
 ب - لا يجوز الخروج من الهيأة الدولية . والخروج يعتبر تمرداً يستوجب ترتيب العقوبات السريعة .
 ج - محافظة الأمن في البحار المكشوفة وتعقيب القرصان من واجبات قوات الهيأة الدولية المسلحة .
 د - الاختلافات الدولية على أنواعها لما كانت واجبة العرض على مجلس العصبة قبل اتخاذ أي اجراءات عسكرية من الدول ذات العلاقة ، فكل حركة عسكرية اعتدائية تصدر من الدول المتخاصمة تستوجب اتخاذ الاجراءات العسكرية الفورية من قبل قوات الهيأة الدولية المسلحة .
 هـ - في حالة اشتباك قوات الهيأة الدولية المسلحة مع دولة متمردة ، يجب على الدول كافة ان تقدم المساعدات المادية والمعنوية حسب طلب القيادة العامة بالنسبة لمقدرة كل دولة . والتأخر أو التردد في ذلك يستوجبان عين المعاملة التي تجري بحق الدولة المتمردة .

و — الدول المختلفة فيما بينها يجوز لها ان تسحب ادواتها وشكواها في مجلس العصبة أو في المجلس الأعلى اذا اتفقت فيما بينها على حل الخلافات القائمة بينها حالا سلميا بشرط ان لا يكون قد صدر ، بشأنها قرار المجلس الأعلى الذي تعتبر قراراته قطعية .

ز — يجوز ان يدعى المجلسان للاجتماع في غير المدة المعينة لاجتماعهما السنوية الاعتيادية إذا طلبت ذلك اكثرية أعضاء مجلس من المجلسين للنظر في أمور مستعجلة وتكون دعوتها ضرورية في حالة تمرد دولة أو فريق من الدول ، واشتبكت قوات الهيئة الدولية بالحرب معها أو معه .

ح — يكون لكل رئيس من رئيسي المجلسين نائب واحد على الأقل على ان لا يكون الرئيس ونائبيه من رعية دولة واحدة .

ط — لا يجوز ان يمارس مندوبو الدولة المتعمدة أو فريق الدول المتعمد كل اعمالهم في كلا المجلسين ولا في لجانه أو في مكنتي الرئاسة واذا كان رئيس احد المجلسين من رعية الدولة المتعمد يقوم نائب الرئيس بواجبات الرئاسة الى ان ينتخب رئيس جديد في محله في اول اجتماع يعقده المجلس .

ج - نصيقات !

١ — إن الهيئة الدولية المقترحة ، تنفذ اول كل المجموعات الدوايه في المعمورة ، سواء كانت في اوروبا أم في آسيا أم في افريقية أم في أميركة أم في اوستراليا . وليس صحيحا التفريق بين الامم على أساس القارات أو على أساس العنصرية أو غير ذلك من اسس

التفريق ، التي ولع بها السياسيون . ذلك لان المصالح قد اشتبكت
والمنافع قد امتزجت ، والاتصالات من جميع النواحي قد اشعلت
وتكاثرت بحيث لا يمكن لامة من الامم أن تختص بامة واحدة
أو بفريق من الامم في تطمين حاجاتها واشباع رغباتها فقد يجوز
أن تكون هناك دولة اوربية لها مصالح وعلاقات في ممالك آسيوية
اكثر مما لها في اوربة نفسها . وكذلك فقد نجد دولة شرقية ،
ترتبط بروابط سياسية أو اقتصادية بدول اوربية اكثر مما ترتبط
به بدول شرقية . فالتفريق بين الشرق والغرب ، أو بين اوربة
أو آسيا في التكوين الدولي ، انما هو ضرب من العبث اللهم إلا
إذا يراد بهذا التفريق القضاء على حيوية وحرية الشعوب الاسيوية .
فمثل هذه النزعة لا يمكن ان تؤدي الى استقرار عالمي دائم ، وكما
ان في الشعوب الاوربية رجولة وصفات اخرى تمنع استرقاقها
فكذلك توجد عين الصفات في الشعوب الاسيوية . فالشعوب قد
تفبت ووسائل الماضي لم تعد مجدية للمستعمرين . لهذا فمن الضروري
ان تكون الحياة الدولية المقبلة منزع الجميع ، وموئل الجميع .

٢ — ان الانظام في سلك هذه الحياة الدولية اعتبر اجباريا وفرض فرضا
على كل دولة ذات سيادة تفاديا للاخطاء التي وقعت في الماضي ، حيث
ان امتناع بعض الدول السكبرى عن الانضمام للعصبة قد جعل
سلطة العصبة محدودة ، وهبتها منتقصة كما ان المبدأ الاختياري
الذي تقرر للانضمام للعصبة قد جعل الخروج منها ايضا ميسورا
لا في سبب تافه . فاصبحت العصبة لا تمثل الا فريقا من الدول ،
وهذا الفريق نفسه بضغط الظروف السياسية والاحوال العالمية
اضطر الى ان يداري الدول المنفصلة او الخارجة على مبادئه

العصبة وبدائجها وبذلك سقطت هيبة العصبة بالمرة ، وضاعت الجهود التي بذلت في سبيل انشائها . ولا أجل ان تكون هناك هيئة دولية ذات كيان وذات سلطان فمن الضروري ان يكون الانضمام اليها الزاميا ، والبقاء فيها كذلك .

٣ — اعتبرت الأمم التي ما زال كيانها مضمونا وعامرا ، أو الأمم التي كانت لها حضارة قديمة ولكن لأسباب شتى اضطاعت كيانها واستقلالها ، اعتبرت هذه الأمم ذات حيوية ونشاط فلا يجوز استعمارها ، والتحكم في ابنائها لأنهم ليسوا أقل قابلية . في حكم انفسهم بأنفسهم من الأمم الأوروبية . وقد اوضحنا اسباب ذلك فيما تقدم . وعدا ذلك فإن مثل هذه الأمم يصعب فيما بعد استغلالها لأنها تكون عاملا من عوامل فقدان الاستقرار العالمي . فضلا عن ان الفكرة الاستعمارية اذا بقيت على قوتها فلا تلبث الأمم المنافسة في مضمار الاستعمار ان تصطدم اصطداما دمويا مرة اخرى . فتجنبنا لكل هذه الفوائل يقتضي ان يقضى على مبدأ الاستعمار بمعناه المعروف الآن . اما الاستفادة من خيرات ومواد بلاد هذه الأمم فمن الميسور الحصول عليها بالطرق السلمية وبتصويب وترتيب الهيئات الدولية نفسها وقد ذكر ما يكفل هذه الغاية . اما الأمم الاخرى التي قست عليها الطبيعة فحدث من قابلياتها فأنها تدار اما بواسطة الهيئات الدولية مباشرة واما بطريقة الانتداب . وقد افترضنا الطريقة الثانية هي التي ستقبلها الدول ولكن هذا الانتداب لا يماثل الانتداب الذي سبق ان مارسته عصبة الأمم البائدة . فهذا الانتداب يستهدف قبل كل شيء خير البلاد المنتدب عليها ويحتم على الدولة المنتدبة ان تبذل مجهودها لرفع المستوى الثقافي

والصحي ، والمعاشي لأهل البلاد المنتدب عليها وقد اشترط ان يكون لمجلس عصبة الأمم ممثل في كل بلد منتدب عليه يراقب كيف تؤدي الدولة المنتدبة الأمانة التي وضعت في عنقها ثم هو يقبل الشكاوي من أهالي البلد المنتدب عليه ليعرضها فوراً على مجلس العصبة . صحيح انه ليس له رأي في إدارة البلاد التي يمثل فيها مجلس العصبة وليس له حق التدخل في شؤونها ولكنه يصبح واسطة بين العصبة وبين أبناء البلد بينما انظمة العصبة السابقة كانت تفرض ارسال شكاوي البلاد المنتدب عليها بواسطة الدولة المنتدبة نفسها . وهذا فرق بين الحالتين عظيم . أما عدم اعطائه صلاحية التدخل في شؤون البلد ، أو حق حسم الخلافات المتكونة بين أهل البلاد ، والدولة المنتدبة فذلك أمر ضروري لحسن جريان المعاملات واتلافي الفوضى والارتباك فلا يجوز ان تكون سلطتان عاليتان في مكان واحد ، وحاكمتان تسودان بلداً واحداً ، الأمر الذي يخالف النواميس الطبيعية . ويناقض القواعد المنطقية .

— ٤ — ان وسائل الاعتداء المادية تتمثل بالقوات المسلحة من برية وبحرية وجوية ومالم يقض على هذه الوسائل فلا يكون هناك سلم دائم . لذلك يجب ان يكون نزع السلاح ليس مجرد نظرية يتفق بها الخطباء على المنابر ورجال الدول في المجالس والكتاب في الصحف . والكتب . فالدول تستطيع ان تحتفظ بالقوات المسلحة التي تكفل في داخلها النظام العام ، وتنفيذ القوانين وحماية مياهها الساحلية ان كانت من الدول البحرية ، ولقد جعل أشرف الهيئة الدولية من ناحية التسليح اعترافاً حقيقياً فعلياً . فالمجلس الأعلى هو الذي يقرر القوات المسلحة التي يجب ان تحتفظ بها كل دولة سواء من ناحية العدد

أم من ناحية العتاد وأنواع الأسلحة ، لتحقيق الغاية المنوّه عنها ،
ألا وهي محافظة النظام العام الداخلي وتنفيذ القوانين وحماية المياه
الساحلية ان كانت من الدول البحرية اي ذات سواحل بحرية .
ومن الطبيعي ان المجلس المشار اليه ، لا يقرر هذه القرارات الخطيرة
إلا بعد درس اوضاع كل دولة وتعرف حاجاتها ، من قبل لجانب
ذات اختصاص . وقرار المجلس في هذا الشأن قطعي . لأن القطعية
اذا لم تكن امراً محتوماً فلا تنفك الاعتراضات تتواتر ،
والاحتجاجات ، تتكاثر حيث كل دولة تطمح في المزيد من قواتها
وسلاحها . ومصانع الأسلحة ومعامل العتاد ، واحواض السفن ،
وما الى ذلك من الأماكن التي تفتج فيها أنواع الأسلحة ، تكون
تحت مراقبة الهيئة الدولية الصارمة . فلا يمكن ان تفتج الا المقادير
والأنواع ، التي تجيزها هذه الهيئة . ولتأمين سيطرة الهيئة الدولية
وتثبيت سلطتها على الدول كافة ، على أسس وطيدة يقتضي ان
تختص هي وحدها بامتلاك القوات المسلحة ، والسلاح ، والأساطيل
البحرية الحربية ، والجوية بالأقدار التي تعينها هي ، لتنفيذ مقرراتها
بواسطتها ، وببني على ذلك ان تأمين سلامة البحار المكشوفة يكون
على عاتق قواتها . ولما كانت هذه القوات ، تفتقر الى قائد عام يمثلها ،
ويتزعمها فقد اعتبر رئيس المجلس الا على قائداً عاماً لها . وانه بمعاونة
المجلس يعين القواد ، والضباط ، واماكن اقامة القوات والأساطيل
وبين طرق توزيعها ، واتجاهاتها . وفي هذه الحالة لا تبقى حاجة
لخوف الدول الصغيرة من تجاوزات الدول الكبيرة ، ولا الكبيرة
تكون في وضع يمكنها من الطغيان والتعسف بالدول الصغيرة .
وهنا يصح للسائل ان يسأل هل ان الدول مجبورة على الغاء التجنيد

في ممالكها، وسد المدارس والكليات التي تخرج الضباط، والمستودعات التي تدرب الجنود وتجهزهم للخدمة . ؟

ان تحديد القوات المسلحة ، في كل دولة ، وابداع مهمة الدفاع عن حدود الدول ومصالحها الى الهيئة الدولية لا يقتضى الغاء التجنيد أو سد المدارس والكليات والمستودعات العسكرية بل ان ابقائها ضروري للسلامة العامة . فالقوات المسلحة لكل دولة تحتاج الى تدريب عسكري . وهي في حاجة الى قواد وضباط يشرفون على هذا التدريب ويقومون به ، ويبذلون جهدهم لرفع مستواه . وكذلك القوات المسلحة العامة التي تكون تحت تصرف الهيئة الدولية فهي في أمس الحاجة الى هذه المعاهد العسكرية . وغير هذا وذاك فقد يجوز ان يحصل ترمذ من قبل دولة كبيرة أو فريق من الدول وتكون الهيئة الدولية في حاجة الى قوات مسلحة أكثر عدداً مما هو موجود لديها لصد عدوان الدولة الكبيرة أو فريق الدول . فإذا لم تكن هذه القوات مهمة ومستعدة للعمل ، فقد يضطرب وضعها وتندحر ، فالقوات المدربة الاحتياطية ضرورة دولية لا ندحة منها . اذن فالتجنيد ، ومعاهد التعليم العسكرية ، ضرورة . ولكنها على كل ان تكون في الوسعة التي كانت عليها الدول اثناء تمتعها بالحريية المطلقة في تكوين قواتها المسلحة . ولكن يجوز ان تكون الخدمات الاجبارية اقصر إذ ينماهى في السابق كانت سنتان أو ثلاث ، او أكثر من ذلك فقد تكون مدة الستة شهور او السنة او بينهما كافية .

ومن وسائل الاعتداء الدولي المعاهدات السرية والاتفاقات الخفية . وهذه قد سببت نكبات عالمية هائلة في الماضي . فالقضاء على هذه

الطريقة الدبلوماسية الخطرة من اولى الخطوات لا سقتياب الهدوء واستقرار السلام في العالم . ان الحرب الكونية الماضية كانت نتيجة هذه الاتفاقات والمعاهدات السرية . وبينما كانت تختمر فكرة تحريم المعاهدات السرية اثناء الحرب العالمية تلك، لما تحقق من خطرها على السلامة العامة ، فان انجلترا عقدت معاهدة سايكس - بيكو السرية مع فرنسا، كما انها منحت وعدا لليهود في فلسطين بعين الطريقة . فالدول الكبرى لا يهدأ لها بال الا باقلاق الراحة العامة بالاتفاقات السرية . فأعطاء نهاية حاسمة لهذه الطريقة اصبحت ضرورة تقتضيها مصالح الدول كافة لاسيما الصغيرة منها لتأمن على مصائرها . وقد جاء ذكر تحريم المعاهدات السرية غير مرة في مشاريع الاعلام الحاقوقيين المنوه عنها قبل قليل .

٦ — ان وجود ممثل لمجلس العصبة ، في كل دولة ذات سيادة وممثل له في كل بلد يكون تحت الانهداب من الضرورات التي اقتضتها طبيعة الوضع الجديد . فالهيئة الدولية يجب أن تكافح وسائل الاعتداء ولاجل أن ينجح كفاحها ، يجب أن تكون ملمة بكل ما يقع في داخلات الدول ، من احداث من شأنها اقلق الراحة العامة ، والسلام العالمي . فهمة الممثل في هذه الدول ذات السيادة ، هي مراقبة تنفيذ الدولة التي يقيم فيها ، لمقررات العصبة ، بصورة عامة وللمراقبة انتاج المعامل ، والمصانع التي تعد وسائل العدوان ، وهي السلاح بأنواعه ، وللملاحظة النشاط في هذا السبيل وللحيلولة دون الاتفاقات السرية ، بصورة خاصة . ويشترط في هذا الممثل ان لا يكون من رعية الدولة الموفد اليها ليكون حراً في عمله ولتلاؤثر فيه النزعات القومية ، والعواطف الوطنية . فالهيئة بواسطة ممثليها

تستطيع أن تتعرف إلى حقيقة الأوضاع والحالات في جميع الدول ذات السيادة وعلى ضوء هذه الحقيقة تصدر قراراتها .

— ٧ — تأليف الهيئة الدولية من مجلسين ، أقوم سبيل لحفظ التوازن بين الدول الصغيرة والدول الكبيرة من ناحية ومن ناحية أخرى لتمكين الهيئة من تنفيذ اشرافها ومن تقوية سلطانها على الدول كافة . وقد اعتبر عدد المندوبين لكل دولة من مجلس العصبة متقاربا بالنسبة لآساعها وكثرة نفوسها او لما القيت عليها من واجبات دولية وهذه حالة طبيعية . لأن الدولة الصغيرة يكفي أن يكون مندوب واحد لها ليلم بشؤونها وليدافع عنها في المجلس ولسكن اذا كانت كبيرة ، أو كانت قائمة بمهمة الانعذاب فيقتضى أن يكون هناك أكثر من مندوب ، ليتعاونوا فيما بينهم ، ويقتشاوروا حينما توضع مشاكل وقضايا دولهم المتنوعة موضع البحث في المجلس أو لجانه . ولما كانت قرارات هذا المجلس غير قطعية ما عدا اللزائية فلا خطر على مصالح الدول الصغيرة من هذه الناحية . ولسكن المجلس الأعلى الذي اعتبرت قراراته قطعية فقد روعيت فيه المساواة بين الدول ذات السيادة من دون تمييز فيما بينها . وهذا أكبر ضمان لحقوق الدول الصغيرة . ولا يعني هذا الاختصاص الذي يتمتع به هذا المجلس ان قرارات مجلس العصبة لاهمية لها ، بالعكس فان لقراراته أهميتها الخاصة فهو يثير بقراراته هذه عقول أعضاء المجلس الأعلى ويضع لهم الحقائق عارية مكشوفة بانظر لما يضم بين دفتيه من رجال علم وفن وتجربة وففضل ويسهل لهم اصدار القرارات الصحيحة . ولسكن في عين الوقت ، يجوز أن يندفع المجلس المشار اليه في بعض القضايا ويقرر بعض القرارات

بتأثير العاطفة أو بشقئ التأثيرات الاخرى فيكون المجلس الاعلى معدلا لهذا الاندفاع مخففا من حدته عدا ذلك فبعض المهام لا يصلح اسنادها الى مجلس واحد يتفاوت فيه عدد (١) اعضاء مندوبي الدول أما حرصا على حرمان العدالة من أن تفتك . وأما خشية على المصلحة العامة من أن تصاب بسوء فالمجلس الاعلى له صفة قضائية حيث له محاكمة المتمردين على مقرراته ، أو الذين يبدأون العدوان ضد احدى الدول المسالمة . فمن مقتضيات العدالة ان تتساوى في هذه الحالة آراء الدول . وللمجلس حق القيادة للقوات المسلحة الموضوعة تحت تصرفه ، وله حق تقدير نصيب كل دولة من القوات المسلحة ، التي يجب أن تبقى فيها . فتساوى آراء الدول في مثل هذه الامور ، أمر تقتضيه المصلحة العامة للدول .

وقد يجوز أن تعترض على هذا ، الدول الكبرى قائلة انه من الخطر أن تكون للدول الصغيرة هذه السيطرة في المجلس الذي تعتبر قراراته قطعية . لأن الدول الصغيرة تكون دائما اكثر عددا من الدول الكبرى كما انها بحسب تكوينها تكون من طبيعتها مقاومة هذه الدول والنزوع الى الاضرار بمصالحها ؟ والحق ان الخطر الذي يتهدد العالم انما يتأتى من الدول الكبرى قبل كل شيء . فالدول الصغرى لا تتمنى الا أن تسلم على مصالحها ، وتنبهو من عدوان الدول الكبرى عليها فاذا اطمأنت على كيانها فهي لا ترغب في مقاومة الدول الكبرى او الاخلال بمصالحها التي يقرها عليها القانون الدولي ، ووافقت عليها الهيئة الدولية على ان الدول الصغرى تكون في اكثر الاحيان هي المفتقرة الى مصانة وحماية

« ١ » يكون اسكل مندوب صوت . حيث اعتبر هذا المجلس ندوة تمثيلية للأمم .

الدول الكبرى ، لا العكس . اذن فانخوف من الدول الصغرى لا محل له . هذا من جهة ومن جهة اخرى فليس شرطا أن تمر كل قضية من المجلس الاعلى . فقد يجوز ان ينتهي الخلاف في قضية ما ، قبل اصدار مجلس العصبة قراره فيها اذا اتفق الطرفان المتخاصمان بينهما على تسوية الخلاف بينهما بصورة سلمية ، أو بعد صدور القرار اذا رضى به الطرفان المتخاصمان وحتى بعد صدور القرار من هذا المجلس وقبل صدور القرار القطعي من المجلس الاعلى فاللقطرين سحب قضيتها وحلها بينهما بصورة سلمية فالقضايا التي يعهد المجلس الاعلى قراره بمدها قد تكون محدودة .

— ٨ — إن مندوبى الدول في كلا المجلسين وأن حدد عددهم ، فهذا التحديد لا يمنع حضور وزراء الدول أو فنيها أو اختصاصيها أو محاميها في كلا المجلسين للدلاء بوجهة نظر دولهم المتبوعة على أن يسبق أخبار بذلك لرياستي المجلسين . وأن لا يشتركا في التصويت فيه .

— ٩ — انه من الواجب ان يكون اعضاء مكنتي الرياستين دائمين وكذلك الرئيسان . لأن ممثلي المجلسين المنبثين في الدول والبلدان دائبون على رفع تقاريرهم ، ومستمررون على مراقبتهم وعلى تأدية واجباتهم الاخرى . وفي كلا المجلسين توجد اربع لجان دائمة هي في الحقيقة المنظمة لاشغال المجلسين والمرتبة لها ، والواسطة بين ممثلي المجلسين ، إذن قمكتبا الرياسة في شغل دائم ، وعمل متواصل وقد يجوز أن تقع حوادث تستوجب اجراءات عسكرية ورئيس المجلس الاعلى ذو صلاحيات خاصة في توجيه هذه الاجراءات العسكرية والجيوش العسكرية وسوقها والقيام بشؤونها المختلفة .

وعدا ذلك فقد تكون هناك لجان اخرى اقتضي ان تعمل في مجالات خاصة عيئت لها ، وهذه تفتقر الى مرجع ترجع اليه في شؤونها من حين لآخر . لقد كان في عصبة الامم الغابرة سكرتارية دائمة تقوم بتنظيم اجتماعات العصبة وتهيئة اعمالها ولما كان الوضع في الهيئة الدولية المقترحة يختلف اختلافا بينا ووضع العصبة المنوه عنها . ولما كانت أشغال اعضاء المكتبين ورؤسياهما متصلة ، ودائمة فيكون من الطبيعي أن يتجردوا من كل صفة رسمية في دولهم المتبوعة حتى لا يكونوا تحت تأثيرها او منقادين لاورامها . حيث انهم اصبحوا ملك الهيئة الدولية التي يعملون تحت رايها .

— ١٠ — وقد منع الجمع بين عضويتي المجلسين لمحافظة استقلال كلا المجلسين عن بعضهما . ولحفظ التوازن بين حقوق الدول الممثلة فيها .

— ١١ — وقد اشترط ان يكون اجتماع كلا المجلسين في وقت واحد ، ولمدة معينة واحدة لأن شخصية الهيئة الدولية القانونية مكونة من كليهما كما ان اجتماعها في وقت واحد ، ولمدة معينة واحدة ، مما يسهل انجاز الاعمال وحل القضايا والمشاكل الدولية بالسرعة الممكنة . وانه لمن الخطر التراخي في حل القضايا الدولية وتركها معلقة . على انه يجوز أن تجد امور ذات بال تستلزم الحسم السريع ، في وقت لم يكن فيه المجلسان مجتمعين ، فاذا طلبت اكثرية اعضاء أحد المجلسين دعوة المجلسين لحلها وحسمها يكون من واجب مكنتي الرئاسة تنفيذ الطلب ودعوة المجلسين للنظر في تلك الامور المستعجلة . أما اذا كانت قوات الهيئة الدولية قد اشتبكت في حرب مع قوات إحدى الدول المتمردة ، أو فريق

الدول المتمرد فيكون الاجتماع محتوما حتى ينتهي الاشتباك
وتعاد الامور الى نصابها . لأن هذه الحالة الدقيقة تقتضى المراقبة
الشديدة ، واتخاذ اجراءات مستعجلة لا يتيسر اجراؤها والمجلسان
في عطلتها .

١٢ — اقد أثبتت التجارب ان العقوبات الاقتصادية لا تكون رادعة ،
للدول الباغية . وانما بالعكس فانها لا تزيد الحالة إلا تأزما وتحرجا .
ذلك لأن العقاب اذا لم يكن رادعا فهو مع انه لا يمنع
العدوان قد يترك آثارا سلبية في نفس الدولة المعتدية .
فتزيد في حنقها على الهيئة الدولية وتضعين الفرص للايقاع
بها . ولكن اذا كان العقاب رادعا ، مانعا للعدوان ، فبايقاعه على
الدولة الباغية ينتهي كل شيء . وانها تصبح في وضع لا تستطيع معه
العمل ضد الهيئة الدولية . فاذا بأست الهيئة الدولية من اصلاح ذات
البين بين دولتين متخاصمتين ، او انها لم تنجح في كف دولة ما عن بغيتها
وعدوانها ، فمن الواجب عليها ان تتخذ معها خطة حازمة سريعة ،
وهي تنفيذ عقابها ، بالاجراءات العسكرية الفورية ومن الطبيعي ان
تشفع اجراءاتها هذه بالاياعاز الى الدول كافة ان تقطع صلاتها
الدبلوماسية والاقتصادية معها . وان من أهم عوامل سقوط هيبة
عصبة الامم السابقة من الانظار كان تراخيها في ترتيب العقوبات
وبدءها بالعقوبات الاقتصادية غير المانعة ولا الرادعة وفوق ذلك
ابقائها على صلاتها الدبلوماسية مع الدولة المخارجة على مقرراتها .
والذي لم تفده عبر الماضي كان العمى اولى به وأجدر .

من لم تفده عبراً أيامه

كان العمى اولى به من الهدى !..

١٣ - ان عدم استقرار العملة واختلاف الاسس المستندة اليها في المجموعات الدولية قد سببا وما يزالان يسببان الارتباكات في التبادل التجاري الاثمي ، والاضطراب في الحركات الاقتصادية ويحدان من نموها ويقللان من نشاطها . وان معالجة هذه الناحية اصبحت أمنية الاثم كافة من دور تمييز . لان المعدن الذي كان واسطة للتداول ، واساساً ترتكز عليه عملة الدول المختلفة ، والذي مازال يعتبر اساساً لعملية بعض الدول ، وهو الذهب ، اصبحت غير ملائم لما كان يصلح له في الماضي لاسباب شتى قد اوسعها بحثاً المليون المختصون ، والاقتصاديون النقادون . ومن بسائط الامور التي يشعر بها كل انسان ، هو عجز هذا المعدن عن القيام بمهمة التداول في هذا العصر ، الذي اشتبكت فيه مصالح الامم ببعضها واتسع نطاق التبادل التجاري فيما بينها ، واختلفت انواع الانعاج باختلاف تعدد الاذواق ، وحصل فيه الاغراق في العائق الذي استشرى دأؤه في المجتمعات البشرية ، من ناحية اللباس ، والطعام ، والشراب والسكنى ، والترىض ، ومن ناحية تطمين الرغبات والشهوات ومالي ذلك عدا ما اقتضته مستلزمات الحضارة القائمة والتأسيسات الدولية ، في مجالات الانفاق الاخرى . فالذهب اصبحت لا يكفي لمثل هذا التبادل الواسع الاتاق والصرف الذي لا ينتهي الى نهاية ولا يحد بحدود . وعدا ذلك فان هذا المعدن الثمين قد اختزن في ممالك معينة ، وحرمت منه بقية ممالك العالم . وقد ظهر التفاوت العظيم في اختزان هذا المعدن في ابان الحرب الماضية حيث جذبت الصناعات الاميريكية اقلية واختزنته الدولة الاميريكية في خزائنها فكانت الامة الاميريكية قبل الحرب الحاضرة مالكة لاكثر

من ثلثي ذهب العالم برمته . وقد زاد ادخالها لهذا المعدن في هذه الحرب ، حيث امتدت فرنسة وبريطانية بمقومات الحرب ، ووسائلها وهاتان الدولتان هما الدولتان اللتان كانتا تدخران بقيمة الذهب العالمي تقريبا بعد الولايات المتحدة الاميركية . فكيف يصبح هذا المعدن اساسا لعملة الدول المختلفة ، اذا كان محجوزا في ناحية واحدة من نواحي العالم ؟ صحيح ان بعض الدول قد شعرت بالصعوبة المتأتية من بقاء هذا المعدن اساسا لعملتها ، فخرجت عن قاعدة الذهب . ولكن هذه القاعدة الجديدة لم تسد المجموعة الدولية فهذا الاختلاف الجديد ، الأختلاف بين اخذه اساسا للعملة ، أو الخروج عليه ، قد سبب صعوبات جديدة ، وزاد في ارتباك التبادل التجاري العالمي .

ان اعطاء رأي حاسم في هذا الموضوع الدقيق ، ليس من اختصاص فرد واحد ، أو دولة واحدة . انها مشكلة فنية ، علمية دولية ، يقتضي درسها من قبل لجان مؤلفة من شخصيات مشهود لهم بالتفوق العلمي ، والخبرة الممتازة في هذا الموضوع ، وان تكون القرارات الحاسمة بشأنها صادرة عن هيئة دولية ، لها سلطانها القوي وسيطرتها القانونية على الدول كافة . لذلك ارتئي ان حلتها يناط بالهيئة الدولية المقترحة . وتنظيم اسس العملة ، وطرق التبادل التجاري الائممي من شأنه ان يؤدي الى اعادة النظر في القوانين التجارية النافذة المفعول في كل دولة ذات سيادة . اما العصبية السابقة فأنها لم تكن هباء تماما . انها ما عدا المجالات السياسية التي فشلت فيها كانت قد خدمت الانسانية في مجالات اخرى . وأرشدت الائمم الى اتخاذ كثير من الوسائل الواقية ، أو التدابير الفنية ، والعلمية التي من شأنها رفع

مستوى الأمم ، من نواح مالية ، وثقافية ، وصحية . ومن جملة ما قامت به وضعها اسسا قوية للمعاملات الكمركية . وقد أخذ كثير من الدول بقسم كبير من هذه الأسس كما انها نصحت بتوحيد القوانين التجارية ، وأوضحت الأسس العالمية التي تحقق هذه الغاية ففكرة توحيد القوانين التجارية ليست فكرة جديدة ، وانما هي فكرة قد اشغلت الأذهان قبل هذه الأيام ، وصرفت في سبيل تحقيقها جهود عمودة ولعل الهيئة الدولية المقترحة تفوز بتحقيق هذه الأمنية العالمية . والحق ان تحقيقها ليس امرا مستحيلا فان القواعد التجارية ، وطرقها ، وأحكامها التي تضمنتها قوانين الدول المختلفة كادت ان تكون متقاربة . فهي لا يعوزها غير التنسيق الكامل . والانجام التام .

— ١٤ — إن الاستعمار الذي تنمى لك عليه الدول الكبرى وتنافس فيه لم يكن للدافع اليه شهوة الحكم فحسب . وفي الحق ان الحكم او بالأصح التحكم في الشعوب الضعيفة ان هو الا وسيلة لتحقيق غاية . والغاية هي استثمار بلاد الشعوب وأبائها . فلاجل صرف افكار قادة الشعوب الكبرى القوية عن الاستعمار على شكله الحاضر ، من جهة ومن جهة اخرى لتطمين رغباتهم ، يجب ان تسعى الهيئة الدولية بما لديها من وسائل ، في توزيع المواد الخام ، وما يفيد تقدم الحضارة بصورة عادلة ، وبالمقادير المناسبة وعلى شروط تملئها الحكمة ويرضاها الا نضاف للاستثمار ونوازع الغرض والهوى بين الدول التي هي في حاجة اليها . ليس من حق الشعوب ، أن تحرص على المواد الخام وخيرات بلادها وتمنع الأمم الاخرى عن الاستفادة منها بحجة انها المالك لها وصاحبة السيادة في ممالكها وان توزيع موادها وخيراتهم برغم ارادتها يكون تجاوزا على حقوقها

وانتها كالحريتها وسيادتها . ان حياة التخصر ، تفرض التعاون على
الافراد وعلى الامم ، على السواء . والبلاد ليست متساوية في
نتاجها ، او متعادلة في غنائها وخصوبتها ، وما في بطنها او على
سطحها من مواد تفيد الصناعة ، والأعمال الاقتصادية الاخرى .
ولا تزدهر الصناعة في العالم ، وتنظم المعاملات الاقتصادية على
اختلافها اذا لم تتعاون البلاد فيما بينها لتأمين الرفاهية العالمية ،
والسعادة العامة . فالبلاد الزراعية في حاجة الى انتاج البلاد الصناعية
والبلاد الصناعية مفتقرة الى انتاج البلاد الزراعية . والبلاد الصناعية
او الزراعية فيها بعض المواد ، ومحرومة من مواد اخرى كثيرة
فبلاد ترى فيها الحديد بكثرة ولكن ليس فيها نفط ،
واخرى فيها نفط ولكن ليس فيها حديد ، وثالثة صالحة لزراعة
المطاط ، ورابعة غير صالحة لزراعة مثل هذه المادة ، الى غير ذلك من
الحالات التي تجعل البلاد جميعها محتاجة بعضها لمعونة الاخرى في
الحالة الحاضرة تحصل الامم القوية المغترزة بسلاحها ، على بغيتها ،
بالقوة وعن طريق الظلم والاعتداء . واذا سألتها لماذا هذه الاعمال
غير الانسانية أجابتك بأنها مضطرة الى ذلك لتأمين صناعاتها بالمواد
الخام التي لا يمكن الحصول عليها إلا بهذه الطريقة ، وان هذه
الاعمال التي ينظر اليها كأنها غير انسانية فانها تؤدي الى تقدم
الصناعة ، والى الترفيه عن الشعوب المتمدينة فهي اذن أعمال انسانية
لانها مستهدفة خيرها . فلو ان هناك هيئة دولية تحول دون
احتكار الممالك لموادها الخام الفائضة عن حاجتها ، وتنظم التبادل
على اساس علمية وفنية ، وتجري التوزيع بطريقة عادلة ، لما بقي
عذر للامم تعتذر به او حجة تعتصم بها لتبرير عدوانها ، فالتوزيع

ضروري ، والاحتكار مضر . التوزيع ضروري لأن العالم في تقدم ، وما يصلح لهذا التقدم لا يجوز ان يضمن به . والاحتكار مضر . لأنه يوقف النشاط العالمي ، ويضعف الحركة العمرانية ويشل النظام الاقتصادي . والاحتكار من ناحية أخرى يدفع بالامم القوية المفتقرة الى مواد الخام ، الى الاجراآت العسكرية أو الى الطرق الأخرى التي من شأنها ان تكدر صفاء السلام العالمي ، وتقلق الراحة العامة . فمن صالح الامم الضعيفة اذن ان تجود بخيرات بلادها وموادها وتقايض بها مع الامم الاخرى لتفيد وتستفيد من جهة ، ولتأمين شر العدوان على سلامتها ، وكيانها من جهة أخرى .

— ١٥ — ان وجود ثلاث لجان دائمة ما عدا لجنة الموازنة بجانب مكتب الرئاسة في كل مجلس ، ضروري لاستمرار نشاط الهيئة الدولية ولادامة مراقبتها على الدول ذات السيادة والبلدان الموضوعة تحت الابداب ، ولئلا يطرأ ضعف أو فتور في أعمال الممثلين الموفدين في مجلس العصبة ، أو تبقى تقاريرهم مهملة ، فاللجان هذه هي التي تفحص ما في هذه التقارير من معلومات ، وهي التي تتخذ الاجراءات مقتضية عليها حق اذا ما جاء دور انعقاد المجلس تكون الاشغال المطلوب انجازها ، والتقارير التي يراد النظر فيها منسقة وجاهزة .

— ١٦ — ليس مع المصلحة ان يستمر مندوبو الدولة المتمردة أو فريق الدول المتمرد في ممارسة اعمالهم في كلا المجالسين أو في لجانه أو في مكنتي رئاسة المجالسين لأن صلة الهيئة الدولية تنقطع فوراً بالفريق المتمرد ولا مجال للتعاون مع مندوبيه في أي حال . واذا كان الرئيس لأحد المجالسين أو كلاهما من رعية الفريق المتمرد يقوم نائب

الرئيس بواجبات الرئاسة الى ان ينتخب المجلس عوضه في أول اجتماع يعقده . لذلك فان وجود نائب لكل رئيس ضروري واذا كان نائب الرئيس من رعية هذا الفريق المتمرد فوجود الرئيس لا يطرأ خلل على نشاط مكتب الرئاسة ، او اللجان الدائمة الاخرى ومع ذلك فنظراً لأهمية المنصب فمن اللازم ان ينتخب في محله آخر عند اجتماع المجلس الذي يعود اليه . وعلة عدم انتماء الرئيس ونائبيه لدولة واحدة ، اثلا يكون هناك نفوذ لدولة واحدة بواسطة هذين المركزين الخطيرين من جهة ومن أخرى ليستطيع كل منهما ان يقوم بواجبات الاخر فيما اذا حصل تمرد من دولة أو فريق من الدول وكان احدهما رعية تلك الدولة او هذا الفريق للثلا يطرأ خلل على فعالية ونشاط المجلس .

١٧ - تصدر قرارات المجلسين بأغلبية الأصوات دون تمييز بين مسائل الاجراءات والمسائل الحيوية التي تمس سيادة الشوب ومصالحها ذلك لأن اصدار القرارات بالاجماع في المسائل الحيوية كما نص عليه ميثاق العصبة قد أوجب تأخيراً ، واحداث ارتباك . وكذلك اذا نص على ضرورة توفر اكثرية بنسبة عالية كالثلاثين أو ثلاثة الارباع فانه يؤدي الى عين المحاذير . وقد وجدنا في مشروع « امريك كروشيعة » نصها يفيد ضرورة صدور القرارات بأغلبية الأصوات دون تمييز بينها .

* * *

هذه محاولة فكرية لتنظيم الدولي داخليا وخارجيا وليس من شك في ان

الصورة التي رسمت لهذا التنظيم لا ينتظر ان تكون دقيقة ، رائقة ، والقائم برسمها يعيش في ظلمات السجن ، تتنازع نفسه الا لام المبرحة ، والا حزان الممضية ولكنها هي محاولة تستهدف اغراضا سامية ، ومقاصد نبيلة ، لا يستحيل تنفيذها ، ولا يعسر تحقيقها ان خلصت النفوس وحسدت النيات ، وصفت السرائر وتعاونت العقول على العمل في سبيل الخير !

* * *

فالأهم لا يستحيل عليها ان تقيم في داخل ممالكها نوعا من الحكم يتميز عن انواع الحكم التي جربها العالم قديما وحديثا وثبت فشلها . فالنوع المقترح ، هو الارستقراطية الفاضلة ، الارستقراطية التي تقوم على اساس العلم والكفاءة والفضل فهي ليست ارستقراطية القرون الوسطى التي كان قوامها الظلم للرعية ، والدم والامتيازات الخاصة . ولا هي ارستقراطية فاضلة وبالكنتها معقدة صعبة التحقيق ، عسيرة التنفيذ كأرستقراطية افلاطون ولا هي ايضا ارستقراطية ارسطو يتمتع بها الاحرار فقط ، ولا يعيب من خيرها من وضعهم طابعهم السيئ . في مصاف الارقاء والعبيد ، وحتى ارستقراطية افلاطون ، ومن قبله سقراط كانت قد نزع عن طائفة من الطوائف الانسانية وهم العبيد الارقاء السجاياء الانسانية وجردتها من الفضائل البشرية كما نزعها عنها وجردتها منها ، ديمقراطية بريكليس ، وسولون ، فالارستقراطية المقترحة هي مزيج من محاسن الارستقراطية ومحاسن الديمقراطية وهي ايضا لا تقبل المقارنة مع الديمقراطية الحاضرة المزيفة ، المفسدة للأخلاق ، المستهترة ، المبذرة لثروات الأمم ، الدافعة بالأمم القوية الى ان تستبد بالأمم الضعيفة . ولا مع النظام الديكتاتوري الفردي كما هو الحال في روسية السوفيتية والجمعي كما في تركيا او سويسرة انها ارستقراطية جمعت اطيب أنواع

الحكم ومحاسنه وتجاوت رذائله ومساوئه بقدر الامكان لقد أخذت من الديمقراطية الصحيحة الحرية الشاملة للجميع فلا رقيق ، ولا عبيد ، ان الجميع احرار . واخذت منها طريقة انتخاب الحكام المسؤولين واخذت منها حرية الرأي على اختلافها ، وحرية الاعتقاد على أنواعها ، وساوت بين الطبقات والطوائف امام القانون وفي تكافؤ الفرص . واخذت من الامر استقرار الديمقراطية محاسنها ، فأشترطت ان يكون الحكام من طبقة اختصت بالدراية والحنكة والمعرفة . فلا يجوز لها ان يسموا اليها من كان قليل البصاعة من ناحية التثقيف مستغلا نفوذه الشخصي ، او ثروته ، أو قوة العصبة التي يمت اليها . ثم هي مع ذلك لم تهمل ما تشكو منه الطبقات الفقيرة أو العاملة ، وهي الجمهرة في كل أمة ، والكثرة في كل بلد . كما انها لم تضيق على نشاط العبيريات ، ولم تقعد بالعقول النيرة والنفوس الطامحة ، عند حافة اليأس والقنوط ، انها ارضت امانهم وآمالهم ، وأشبع رغباتهم ، من ناحية الربح المادي ، بأقدار معينة . مناسبة ، ثم هي قضت قضاء مبرما على التحكم الفردي ، أو الاستبداد الجمعي . لأن مثل هذا التحكم ، انما هو شر خالص ، وفساد محض (١) .

وفي التنظيم الخارجي ، حاولت هذه الفكرة قبل كل شيء احلال السلام العام بين الأمم كافة ، والقضاء على أسباب التنافس ، والتناوب والتنافر ولأستمرار تحقيق هذه الغاية انشأت الهيئة الدولية ذات الصلاحية الواسعة ، والسلطان الشامل ، على الصلات الخارجية للدول جميعها من دون ان تؤثر تأثيراً جوهرياً على سيادة الشعوب أو الدول في داخلها . واذا كانت الطاعة لمقررات الهيئة الدولية واجبة ، على كل دولة ، وبلد ، فإن صور الحكم في الداخل تظل منوطة برأي اهل كل دولة وبلد ، على ان لا تكون معارضة

(١) ينظر كتاب السياسة لأرسطو حيث اعتبر نظام الحكم المختلط خير نظام يمكن

تطبيقه في الممالك الوسيعة الا فاق

مع مقررات الهيئة الدولية . ذلك لأن مصدر الشر الذي اجتاحت العالم وما زال
يحتاجه ، على الأكثر انما هو الحرية المطلقة التي تتمتع بها الدول والامم
في صلاتها الخارجية . وعدم وجود هيئة قانونية عليا ، تشرف على هذه
الصلوات ، وتحول دون تأزمها واحتدامها وتقف في سبيل من يبغى العدوان ،
وينزع الى الشر انما ضرره عام تتأثر به المجموعة البشرية جميعها بخلاف فساد أنواع
الحكم الداخلية ، فانما ضرره يكون قاصراً على الأمة التي تعاني نتائج هذا الفساد
فأهميته اذن تأتي بالدرجة الاخيرة . فصورة الحكم المقترحة للتنظيم الداخلي ،
انما هي مجرد فكرة يجوز الأخذ بها أو لا يجوز بخلاف الصورة المقترحة للتنظيم
الخارجي فانها يجب ان تكون حقيقة ، ونافذة .

مناقشة خاطفة !

وليس هذه الفكرة المتصورة لقيام هيئة دولية قانونية تخضع لها المجموعة الدولية ، سهلة الاستساعة ولا هي لذينة المذاق لدى الدول الكبرى التي أقامت عظمتها على حساب الأمم الضعيفة ، وثبتت مجدها على أساس حرمان الغير من رتبته ، وكيانه . وسلبه حق الانتفاع بخيرات بلاده . وليس بعيدا أن تشور نائرتها ، وتتشنج اعصابها لدى سماعها كل نعمة تضعف من سلطانها ، وتوهن من سيطرتها . بل لعلها تقوم وتحجج على وجود مثل هذه الهيئة الدولية ، من نواح كثيرة أهمها ناحيتان . الاولى : إن هذه الهيئة تمس سيادة الأمم وتخل في حق حاكميتها اخلا لا كبيرا والثانية ان ايداع مهمة توزيع الثروات والمواد الخام الى هذه الهيئة ضرب من العبث ، ونوع من اللعب ، لاستحالة قيامها بهذه المهمة لأسباب كثيرة . من حيث صعوبة تقدير حاجة كل امة الى نوع من المواد ، وتقدير انصبة الأمم من هذه المواد ، واستحالة إيجاد اسس يقوم عليها أمر التوزيع وتقدير الانصبة وما الى ذلك من الاسباب العديدة التي لا تدخل تحت حصر .

أما عن الناحية الاولى ، وهي ناحية اخلا ل الهيئة الدولية ، بسيادة الأمم وحق حاكميتها فنقول . صحيح ان هذه الهيئة الدولية في هذه المصالحات الممنوحة لها ، والحقوق المعطاة لها ، اذا لم تخل بسيادة الامم وحق حاكميتها فأنها على كل حال تحد منها الحد كبير . وهذه حالة طبيعية ، وضرورة اقتضتها السلامة الدولية ليس في الامكان التفاضي عنها ماد منها نطمع في ان نتقد

البشرية من المجازر الدامية ، والمذابح الهائلة . على ان تحديد الحرية ، سواء
للفرد أم لامة من الأمم ، امر استلزمته طبيعة الاجتماع فالانسان ، وهو
حيوان مدني بطبعه ، كلما انتظم في سلك جمعية ، وكلما تقدمت هذه الجمعية
في مضمار الرقي والتقدم يفقد من حريته شيئاً فشيئاً الشيء الكثير . الا ترى
انه لو خلق في مكان منعزل بمفرده لما احتاج الى قانون ينظم حياته ولا الى
عادات او عرف او تقاليد يخضع لها لانه في هذه الحالة لا تكون له حقوق
يطلب من غيره احترامها ، ولا واجبات عليه نحو غيره ؟ فالحقوق والواجبات
تنشؤها حالة الاجتماع هذه من بسائط العلوم الاجتماعية ، ومن قضاياها المسلم
بها من قبل كل ذي عقل سليم . فلما كانت حالة الاجتماع تنشئ هذه الحقوق
والواجبات ، إذن فكل تقدم في حالة الاجتماع هذه ، يستلزم نشوء عادات أو
عرف أو تقاليد جديدة متنوعة . وهذه ضروب متنوعة لتحديد حرية الفرد
وكلما اوغلت هذه الحالة في الرقي والتقدم ، تكون وسائل تنظيم الحقوق
والواجبات ، معقدة ، وأسباب استقرار النظام العام فيها ، مختلفة متباينة ،
فعضط الجمعية البشرية هذه الى الأكتاف من سن النظم والقوانين لتكفل تحقيق
هذه الأغراض ، ولتسهل في عين الوقت الحركة التقدمية التي هي دائمة
ومستمرة . والقوانين والانظمة تحد من حرية الانسان وتضييق عليه آفاقه
ولا يقال في هذه الحالة ان هذه القوانين والانظمة لا لزوم لها لانها تفقد
الفرد الجانب الكبير من حريته . لانها ضرورة من ضرورات الحياة وبدونها
لا يستقر نظام ولا يطرد تقدم في أي مجال من مجالات الحياة المتعددة . لذلك
لا يمكن أن نتصور وجود حرية مطلقة . فالحرية محدودة ، وانها دائماً معرضة
للتحديد ، وانها ابدآ تحت ضغط المصلحة العامة وسيطرتها . إذن فالحرية ، هي
قدرة الانسان على عمل كل شيء اباحته القوانين ولم تمنعه . فان قام بعمل ما ،
كانت القوانين والانظمة قد نهت عنه ، فانه يكون قد اضعاع من حريته بقدر

خطورة العمل الذي اجترحه نحوها . وكذلك التباهل في تنفيذ القوانين والانتظامه يؤدى الى الفوضى ، كما ان تفسيرها تفاسير لا تأتلف وروحها ، ولا تندجم مع الاغراض التي وضعت لاجلها لغاية التنكيل بالناس والتشديد عليهم ، يؤدى الى الحكم الفردي وكلتا الحالتين تفتى الى الاستبداد .

وليس القوانين والانتظامه وحدها هي التي تحد من حرية الفرد ، وانما العادات ، والعرف والعقائد التي لم تنص عليها القوانين والانتظامه ولم تأبه لها فهذه أيضا تحد من حريته وتضييق عليه مجال حياته لان على الفرد ان يحسب للرأى العام ، حسابه وأن يقدر الاكاداب العامة حق قدرها . والرقي المستمر للأمم ، وضرورات الحياة المدنية ، وتنظيماتها ، كل هذه أسباب داعية الى الاكثار من هذه الوسائل المضعفة لكيان الحرية في كل فرد . وبمعنى أوضح ان الحضارة والحرية بالنسبة للفرد ، متناسبان متناسبان فكما زادت الحضارة اتساعا ، ونمت وازدهرت ، ضاقت حرية الفرد ، وضعفت وهزات . ومثل الأمم من هذه الناحية كمثل الافراد سواء بسواء . ذلك لان التقدم الحاضر قد جعل من المتعسر بل من المتعذر بقاء امة لوحدها واكتفائها بنفسها فكما ان الاجتماع بالنسبة للفرد حالة فرضتها عليه طبيعته كذلك اتصالات الأمم ببعضها أصبحت ضرورة اجتماعية لا سبيل الى التخلص منها . والاتصال الاممي أو الدولي ، لم يكن واهنا وضعيفا في زمن من الأزمان فهو اتصال دائم ، مستمر . بل انه اتصال مستمر في تطوره دائم في اشغاده ، وكما زادت المدنية رسوخا ازداد قوة ومتانة ، وكما تحسنت وسائل النقل ، ووسائل السفر ، وثقت عراه ، وانتظم عقده . وهذه الكثرة النامية ، والزيادة المتطردة ، في هذه الاتصالات الدولية ، قد انشأتا قواعد تعارف عليها الدول ومبادئ عالمت بها ، ولئن كانت حالة الحرب ، تضعف من شأنها من وقت لآخر ففي حالة السلم ، وفي حالات كثيرة من حالات الحروب أيضا ، تلزم

بها الدول ، وتحافظ عليها بقدر الامكان . لماذا كل ذلك ؟ لأن الجميع كانوا وما زالوا يشعرون بأن من صالح العالم ، ومن خير الانسانية أن تكون هناك قواعد ، دولية تحترمها الدول ، كما تحترم الافراد القوانين الخاصة بها . وعلى ذلك يقولون عن الحقوق الدولية انها قانون دولي ، او قوانين دولية ، وان كانت هذه التسمية الاخيرة لا تصح الآن لفقدان سلطة عليا لها حق تنفيذ القانون . وأما الرأي العام الدولي ، مع اهميته فلم تكن له هذه السلطة العليا . والجهود السياسية قد عملت في سبيل انشاء مثل هذه السلطة ولكن النزعة المادية التي مازالت تجيش بقوة في صدور قادة الأمم الكبرى وزعمائها ، هي التي كانت تحول دون هذا الانشاء . فالذي نتصوره ، هو امكان انشاء مثل هذه السلطة العليا . وهذه لا تكون إلا في ايجاد هيئة دولية قانونية تفرض سلطانها على الدول كافة ، اما اذا لم يكن لها هذا السلطان فلا تكون هناك هيئة دولية قادرة على تنفيذ القانون الدولي واذا كان لابد لها من هذا السلطان فيجب ان تنازل كل دولة عن جزء من سيادتها وتنظام من . ولا يكون تنازها وتنظامها هذان ، مخلين بكرامتها أو عابثين بسيادتها . لانها واقعان بمحض اختيارها ، وفي سبيل الخير العام الذي لا يمكن الوصول اليه إلا بها .

وأما الناحية الثانية وهي ناحية توزيع المواد الخام وصعوبة القيام بهذه المهمة ، فانها ليست بهذه الدرجة من الخطورة بحيث ان يقضى من اجلها على مشروع ينقذ الانسانية من الشرور التي كانت وما تزال ترهقها أرهاقاً عنيفاً ، لأن للهيئة الدولية المقترحة خبراء واختصاصيين يعملون تحت رايها ، كما يوجد في حوزتها ممثلون ومندوبون في كل دولة ذات سيادة وفي كل بلد وضع تحت الانتداب ولكل من هؤلاء اعوانه ودوائره فهم يزودون الهيئة الدولية بنتائج بحوثهم وتبعاتهم ، ويجمعون لها المعلومات الصحيحة ، ويسدون اليها

الآراء الناضجة ، وهم غير متأثرين بعواطف خاصة ، وميول شاذة لا هم
 ليسوا من رعية الدولة أو البلد ، الذي يقيمون فيه ولا لهم مصالح ذاتية أو
 دوافع أخرى تجعل أعمالهم ، مشوبة بالشبهات ، عدا ان رجال الصناعة ،
 والاختصاصيين والخبراء في العالم قد سبق لهم وامتدوا دولهم بكل صغيرة
 وكبيرة وعن كل ما في ممالك العالم ، من خير ، ومناجى ثروة ومواد أولية
 تفتقر اليها الصناعات . وفي الحق ، ان كل شيء متوقف على النوايا ، والعزائم ،
 فان كانت النوايا خالصة ، والعزائم صادقة فلا يقف في سبيلها شيء ولا يعوقها
 عن العمل عائق ولماذا نفكر بعيداً ، فلنأخذ مثلاً دولة من الدول ، ارادت
 ان تنظم موازنتها العامة . فوزير كل وزارة يطمع في ان يكون نصيب وزارته
 من الاعتمادات او في من نصيب غيرها ، ويناقشون ، ويتجادلون وتصل
 الحالة في بعض الاوقات الى ان تنشق الوزارة على نفسها أو تترك مسؤولية
 الحكم . ولكن الميزان الحقيقي للاعتمادات في يد وزير المالية ولذلك يشترط
 فيه ان يكون عدا غزارة علمه ، قويا في حجته رصينا في موقفه ، ذا سيطرة
 ونفوذ يكف كل وزير عن تجاوز الحد المرسوم له ويوزع الاعتمادات
 توزيعاً تقتضيه مصلحة الدولة ، لا مصلحة الوزير . وانه يستطيع ان يقوم
 بمثل هذا التوزيع بالنظر الى المصالح والمؤسسات التي تعمل تحت ادارته وتمده
 من وقت الى آخر بما يطلب من معلومات . ولئن كانت مهمة الهيئة الدولية
 في هذه الحالة ، اكثر صعوبة ، وموقفها ادق وضعا وأشد حرجاً فهي تستطيع
 ان تتغلب على كثير من الصعوبات ، وتجتاز اكثر المواضع الدقيقة ، والواقف
 الحرجة وتصدر قراراتها المطمئنة للعدالة والضامنة لرضاء الجميع ، وذلك
 بما لديها من وسائل وما تحت تصرفها من لجان ذات اختصاص ، وقدرة على
 اسداء النصائح الصحيحة ، وابداء الآراء العلمية والفنية الناضجة .

عناصر الحياة في الامة العربية !

والعل قائلاً يقول ، ان هذه الآراء انما أوحته اليك وضعية الامة التي تمت اليها ، فلو انك من امة عظمى ، لها مواردها الفخمة ومستعمراتها الغنية ، وممتلكاتها الزاخرة ، بالخيرات ، ولها كياناتها المرموقة ، لما تقشبت بمثل هذا الآراء التي تفيد الامة الضعيفة وتجهز على قابليات وامكانيات الامة القوية الناشطة في كل مضمار . وفي الحق ان مثل هذا القول لا يتيسر لمثل جرحه بسهولة ، وان هذه الحجة التي اجابه بها من حيث قوتها ليس في الامكان التغلب عليها أو اضعافها . لاني من دون شك امت الى امة قد حاربتها الغبراء والخضراء ، وناجزتها الاجيال والعصور ، وقاوتها الاحداث والظروف . فهي مجزأة محطمة ، برغم كثرتها ، وهي ضعيفة مهملة ، وان كانت ممالكها واقطارها ، واسعة شاسعة ، غنية ثرية ، وهي محكومة برغم نزوح اهلها الى الحرية بطبيعتهم وثقورهم من الاستخذاء بغريزتهم . وهي لا يحسب لها الآن حساب برغم ما تحتل من اماكن ومضائق ذات خطورة سياسية وعسكرية واقتصادية . ولكن برغم كل ذلك فليس شعوري بضعف امتي هو الذي اوحى الي بهذه الآراء ، ولا قنوطي من انبعاثها من جديد ، هو الذي دفعني في هذه الطريق . ولماذا تكون الآراء المسالمة وفقاً على الضعفاء ، والتشبث بأسباب الخير محصوراً بالفقراء ، ولماذا يفكر الأقوياء في اسباب قوتهم فقط ، والاغنياء بالاحتفاظ بغنائم فحسب ولا يفكرون بغير ذلك مما يؤول الى خير الانسانية ، وسلامة البشرية ؟

ان الشر لكونه شراً يجب ان يعجافه الضعيف ، كما يتجنبه القوي ،
 وان الخير لكونه خيراً ، يجب أن يسعى اليه القوي ، بقدر ما يعمل له
 الضعيف . فليس صواباً أن يقال للضعيف الذي تشبه بالخير ، انك لا تشبهت
 به إلا لكونك ضعيفاً كما انه ليس من الرشد ان يظل القوي راكباً رأسه ،
 من هوأ بما يملك من أسباب القوة ، ولا يعترف بحق الضعيف . ولعل صروف
 الدهر ، وغير الزمان ، لم تبق على القوي قوته ، ولا على الضعيف ضعفه . فالقوي
 اليوم ، قد كان فيما مضى ضعيفاً ، وقد يجوز ان يعود سيرته الاولى في المستقبل
 والضعيف ، اليوم قد كان قوياً في الأيام الخوالي ، وربما يسم له الحظ مرة أخرى ،
 فيستعيد قوته ونشاطه . على انني لست قانطاً من انبعاث الأمة العربية من جديد
 ولا يائساً من عودتها سيرتها الاولى فقومات الأمم ، من حيث كثرة النفوس
 وخصوبة التربة وغنائها ، والمواقع الممتازة والأماكن المصطفاة التي تحتلها ،
 وقابلية الابتداع ، والقدرة على الحضرة والتدين كل هذه متوفرة ، ومتوفرة
 بكثرة في الأمة العربية ، فهي تكاد تبلغ السبعين مليوناً في نفوسها ، ثم هي
 تمتلك أغنى تربة في العالم ، وأنقلها بالخيرات ، وهي فوق ذلك تحتل المواقع
 الممتازة ، والأماكن ذات الخطر ، وبلادها وممالكها متصلة ببعضها ، لا
 تفصل بينها شعوب غريبة ، ولا ممالك اجنبية . هذه شبه الجزيرة العربية على
 سعتها فليس يحتلها شعب غير الشعب العربي منذ العصور السحيقة في القدم الى
 يومنا هذا ، وهذا الهلال الخصيب المتصل بها الممتزجة تربته بتربتها منذ القدم ،
 وهذه مصر ، وافريقية الشمالية الى مضيق جبل طارق ومنه الى الساحل
 الاطلنطي ، كلها بلاد آخذ بعضها برقاب بعض ، يعيش فيها شعب واحد ، دينه
 واحد ، ولغته واحدة ، وعاداته وتقاليده واحدة الا شيئاً قليلاً هو أثر التربة
 وفعل الاجواء . وليست الخطورة باتصال هذه الممالك والأصقاع ببعضها فحسب
 واسكن خطورتها في اهمية المواقع الجغرافية . فالبحر المتوسط انما هو في

الحقيقة بحر عربي . لأن الأمة العربية تستقل بجانب من أوله الى آخره
والأمم الأوربية جمعاء لا تشرف الا على أقل من ثلثي جانبه الآخر . وجبل
طارق ، وان كان على جانب منه سيادة اجنبية ولكن الجانب الآخر في يد
الأمة العربية ، والسويس يخترق بلاداً عربية صميمية فمفتاحا البحر الأبيض
المتوسط اذن في يد عربية . كما ان السويس وباب المندب ، هما في يد عربية وهما
مفتاحا البحر الأحمر كذلك . وشبه الجزيرة عدا البحر المتوسط من جانب ومن
جانب البحر الأحمر ، فإنها متصلة كذلك بالبحر المحيط الهندي . والتعصير
الكثيرة ، على السواحل العربية ، والموانئ الطبيعية والصناعية ، فيها مما تعطى
لبلاد العرب أهمية خاصة ، وغير هذا وذاك ، فهناك قابلية الابتداع ، والاستعداد
للتحضر والتدين في هذه الأمة الكثيرة العدد ، المنبثة في هذه الأرجاء
الواسعة الزاخرة بالمواد الخام والمتصلة ببعضها . فهذه الأمة وان كانت قد
غفت أجيالاً عديدة بعد تأدية رسالتها تأدية أثارت اعجاب العالم ، ودهشته
فقد لاحت في الافق تبشير يقظتها ، فهي برغم ما منيت به من تفكيك أوصال
ومزيق اشلاء ، وتبعثر اطراف فقد أخذت تشعر بوجودها وتقدر أهميتها ،
ففي كل صقع من أصقاعها وثبة ، وفي كل مملكة من ممالكها انتفاضة تثبت
حيويتها ، وتدل على عزيمتها . فمن الوهم الباطل أن يتجاهل امرها ، ومن
الغرور المحض أن يفكر في القضاء على حيويتها ونشاطها فلم بعد التحكم فيها
امراً هيئنا لينا ولا التصرف بمقدراتها سهلاً ميسوراً . لأن مقومات حياتها
متوفرة من ناحية ومن ناحية اخرى فقد عصمتها الطبيعة من الأندثار
بمواقع طبيعية لا تقوى عليها القوى الاصطناعية مهما عظمت . واذا هي عجزت
عن أن تأخذ مكانتها تحت الشمس في هذه الأيام فليس ما يمنع أن تأخذ بعد
حقبة من الزمن ، والسنون والاجيال ، في أعمار الأمم ، ليست شيئاً
مذكوراً ، مادام العمل في سبيل الحياة متواصلاً ، والنقومات المسهلة لهذا العمل

ميسورة . إذن فلسفت أشعر بضعف لاني امت الى الامة العربية ، ذلك لأنني
مقدر أهميتها وعارف بسر حيويتها . واذن فإن ما اقترحت من مقترحات ، وما
ابدت من آراء لم يكن منشؤه الضعف وإنما بالعكس فإن منشؤه القوة ، ولم
ابتغ من وراء ذلك الا خير الانسانية وسعادة الجنس البشري ولو اني كنت
من الأمم ذات القوة والسلطان اليوم ، لما تغير رأيي وتبدل موقعي . على ان
امعان الحضارة القائمة في ماديتهما وتجاهلها الجوانب الروحية ، والمقومات
النفسية تجاهلا كلياً قد افزعا حكاء الأمم المختلفة ، وفلاسفتها ورجال العلم
والأخلاق فيها . ذلك لأن المادة شر والشر لا يعقب الا شراً خالصاً فمثل
الانسانية العاليا ، إنما تتجلى صورها رائعة في النفوس المهذبة ، والفضائل
المؤدية الى سبل الخير . فالأهمال البالغ للنفوس وتركها على سجيتهما وبذل
العناية القصوى في مجالات العلوم الطبيعية المحببة للمادة ، ولكل شيء مادي
وحصر النشاط الانساني فيها فقط ، كل ذلك مما جعل الانسان مادياً قاسياً ، لا
يفكر الا في نفسه ، ولا يرغب الا في اشباع انانيته ، وان لا يتردد في ان
يسلك اي سبيل كان لأجل الوصول الى غايته المادية ، شراً كان أم خيراً .
وهذه النزعة المادية العنيفة في قوتها هي التي دفعت بالأمم الى التنافس في الاستعمار
والتسابق في أعداد القوات اللازمة ، وأسباب التدمير والتخريب الضرورية ،
للظفر بالفوز في هذا السكفاح المجرم ، والصراع الأنيم . واذا كانت العلوم
الطبيعية ضرورية ولازمة لتتقدم الحضارة في الميادين المادية ، فإن العناية بالعلوم
الاجتماعية والنفسية أصبحت أشد ضرورة وأكثر لزوماً لتتقدم الحضارة
في الناحية الروحية واقامة مثل علمها تحتذيها النفوس الشاردة ، ويهتدي
بنورها من اضل الطريق . لذلك يقتضى اعادة النظر في النظم الاجتماعية ،
والأسس القانونية واجراء التغييرات الجوهرية فيها لتتلافى ما فات وتدارك ما
مضي وهذا لا يكفي وإنما يقتضي فوق ذلك ان يتناول التغيير انواع

الحكم واساليبه واسسه ، في داخل كل امة ، أو في اتصالات الامم ببعضها
وهذا ما اهاب برجال العلم ، والحكمة والفلسفة بل والسياسة في كل صقع
من الأصقاع التي نهذت اليها اشعة المدنية وأنوار الحضارة الى ان يقترحوا
أنواع المقترحات ، لأقامة عالم جديد ، اوفر حظاً واكثر رخاء ، وأسعد حالاً ،
من العالم الذي نحن فيه الآن ، والى ان يبحثوا أنواع المشاريع بعقول لا
تأثير للهوى عليها ، وبنفوس عامرة بنزعة الانصاف . ولئن كانوا هؤلاء وما
زالوا قلة ، وما برحوا احاداً ، فان ما ألم بالعالم المتمدن من نوائب ونوازل
ما يكفي لأعادة المفكرين الى صوابهم ورشدكم ولأن يأخذوا بما تراه القلة ،
من آراء وما تسديه الاحاد من نصائح .

نحن والانكليز !

والآن أعود واسأل نفسي قبل ان يسألني الغير ، هل انى فيما أبديت من آراء ، واوضحت من أفكار ، من شأنه ان يؤيد ما ادعيت ويثبت ما زعمت بأنها كانت منزهة عن الهوى ، بعيدة عن نزوات النفس ، خالصة من شوائب التحيز ، واذا كان ذلك كذلك فما هذه الهيجات العنيفة ، والاندفاعات الشديدة ضد بريطانيا . أو ضد الديمقراطية ، التى تزعمها بريطانيا ؟ . ليس من شك فى أنى مغيض ومحنى ، وكل عربي ، عانى ما عانى من عنت بريطانيا وارهاقها ، ورأى ما تقاسمه بلاده من شدائد ، وما ينصب على امته من بلاء لا يسعه الا ان يكون مغيضا محنقا . والمظلوم اذا شكى ، والمصاب اذا أن وتوجع ، والجريح اذا تألم وضمجر لا يقال له لم كل ذلك ، او انك خصم مرؤتك مشوية ونفسك متهممة لا يقبل منك قول ، ولا تسمع لك شكوى . وشأنى مع بريطانيا شأن المظلوم الشاكي ، والمصاب المتوجع والجريح المتألم لا اكثر ولا أقل . وليس من الحق ان اكون متها بالتحيز او موصوفا بالعدوان اذا جلوت الحقيقة ، ولذت بالحق ، واستنصرت العدل . وانما المتهم بالتحيز والموصوف بالعدوان ذاك الذي يغير صورة الحقيقة ويبدل فى الحق ويتشبه بالباطل . على انى لم اكن خصما للشعب البريطانى ، ولا مستخفا بسجاياه وتقاليده او مستهينا بمزاياه وقابلياته . وانما انا خصم سياسة حكومته وعدو وسائلها الاستعمارية الخطرة التى تقبها مع الأمم والشعوب سيما تلك التى وضعها سوء طالعها فى طريق الهند . وقد أبدت غير مرة فكري هذه ،

واعلنتها في مناسبات عدة . وكنت أتمنى ، ومازلت أتمنى ان يكون هناك مجال للتفاهم بيننا وبين شعب هذه الحكومة ، أو سبب يسهل اتصال روحينا ببعضها بعض . حيث للشعب العربي أسباب مبررة كثيرة تسوقه سوقا ، الى مصالحة الشعب البريطاني ، والعمل معه ، أسباب سياسية ، وعسكرية ، واقتصادية وناهيك بها من أسباب . فالشعب العربي قد سبق له ان وُحدَ مساعيه مع بريطانية وحارب معها جنبا الى جنب وسفك دماء بذيه ومنجها بدماء ابنائها في الحرب الماضية ، وتوثقت معها عرى صداقة ، ومودة . ثم ان الشعب العربي الذي ما زال فتيما في الحياة الاستقلالية تعوزه الخبرة ، وتنقصه المعرفة ومن صالحه ان يسد عوزه ويكمل نقصه ، بخبرة ومعرفة الشعب الذي اختلط به وسبقت له صلة به وهو الشعب البريطاني . وفوق ذلك ان موقع البلاد العربية الجغرافي ، واتصالها من اكثر جوانبها بالملكاث البريطانية ، يجعلان من الشعب البريطاني خير مساعد لها في أمورها الاقتصادية ومعاملاتها التجارية . وخير حليف لها اذا ما فاجأتها قوة أجنبية طامعة ، وداومتها جيوش لا قبل لها بردها وصدها . وما اكثر هذه القوى ، على حدودها ، وما أقرب هذه الجيوش اليها ؟ . ولكن حكومة الشعب البريطاني بدل ان تقيّد الشعب العربي وتستفيد منه ، فأنها اعلنت عليه الحرب في كل مجال من مجالات الحياة المتعددة ، وناهضته في كل ميدان من ميادين النشاط . حرمته الحرية ، وسلبت منه نعمة الاستقلال التي كان يجاهد في سبيلها ، واختطفت منه خيرات ، وداست بأقدامها مقدساته وكرامته ، وكأنها لم تطفء غلتها منه ، ولم تشف صدرها بعد . ولقد كبر عليها ان تجده يتحرك بجسده المسلمم وقد صعب عليها ان تراه ينظر بنظرة المدرم فهي تريده جسداً هامداً لا حراك فيه لا من الحركة دليل الحياة ، وهي تريده أعمى لا يبصر ، لأن العمش يهدي الى الطريق . لذلك تجدها ممعنة في ارهاقه ، موغلة في إيلامه ، متشددة في الاجهاز عليه . وليس غريبا منها

ان تكون معه كذلك لأن مقومات الحياة في هذا الشعب متوافرة ، وعوامل
الانبعاث ميسورة ، وبلاده أنما هي بلاد لا يكون مبالغا من يقول عنها انها قطعة
من جنان الخلد ، رفق بها باريها فمنحها مختلف الخيرات ، ووهبها ما شاء كرمه
وفيضه من ضروب اسباب النعيم ، فكيف يهون عليها ان تفلت منها مثل هذه
البلاد الجميلة الغنية ، وكيف تستطيع ان تحتفظ بها اذا لم تنتزع مقومات الحياة
من شعبها انتزاعا ، وقضى على عوامل الانبعاث فيه قضاء مبرما وهي ان
فعلت ذلك بالبلاد العربية ، فانما تفعل ما فعلته مع غيرها من البلاد ، وهي ان
عاملت الشعب العربي هذه المعاملة فانما تعامله بمثل ما عاملت به غيره من
الشعوب . ولست أريد ان ابحت أسباب شكوى الشعب العربي ، واكشف
عن الجروح الدامية في جسده المضي في هذا المكان فليبحث ما عاناه وبعاثيه
هذا الشعب الباسل ، من بريطانية مكان آخر ، ولا أريد كذلك ان أقيم
مناحة وأنصب مأتما ، أو بن فيهما الشعوب العديدة التي قتلتها بريطانيا والبلاد
الواسعة التي استباححت حرمانها لأن هذا ليس من شأن هذه المذكرات التعرض
له من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه من الجور الفاضح على عظمة بريطانية
الاستعمارية ، ان يستقل مجلد واحد ، بتاريخ استعمارها الذي يتصعب ارواحا
بريئة ويسيل دماء كريمة ، ولكني أود ان استعرض قليلا من الحوادث التاريخية
وشيئا من كفاحها ضد حريات الأمم التي مازالت محتفظة بكيانها ، وحيويتها ،
فلعل هذا الاستعراض يعطينا صورة حقيقية للجشع البريطاني ، ومقاييسها
صحيحة نستطيع ان نقيس به ، انانية هذه الامبراطورية الضخمة ومحاربتها
لكل أمة توسعت فيها الحياة ، وشامت منها دلائل التقدم والنهوض . واذا قدر
لنا ان نفوز بهذه الصورة كاملة ، وبهذا المقياس سليا فيكون في وسعنا ان
نتصور مبلغ خيعة الشعوب والأمم المستضعفة بالاستعمار البريطاني ويكون
في مقدور كل احد ، ان يصدر حكمه الصحيح ، ويبدى رأيه الصائب في

الشكاوي المرة ، التي تصدر عن رجال هذه الشعوب ، من حين لا آخر بصورة عامة ، وفي الاعتقادات التي مرت بالقارئ او التي ستمر به في هذه المذكرات بصورة خاصة . حيث انه اذا كانت الحكومة البريطانية تناسب الشعوب الحرية الكبيرة العداء ، وتقاوم الدول الحية وتناجزها الحرب لتقل من حدة نشاطها وحيويتها ، وتتعبق النهضات القومية لتجهز عليها وهي في مهدها . اقول اذا كان هذا شأنها مع الدول الحرة ذات القوة والسلطان فكيف يكون شأنها مع الشعوب التي اخضعتها وتوفقت الى ابتلاعها وازدراؤها والبلاد التي تحكمت بها واحكمت فيها اسباب هذا التحكم ؟

ان التاريخ لم يعرف دولة من الدول خاصمت النهضات القومية بقوة وناهضت حريات الأمم بأندفاع كبريطانية كما ان الانسانية لم تشهد ضربا لها في طرق المكر والخداع للأجهاز على الأمم واستقلال مقومات حياتها من بين جنوبها . ذلك لأنها درست حياة الامبراطوريات المستعمرة الباعدة . ومحصت السبل التي سلكتها والطرائق التي اتبعتها وكان درسها متقنا وتمحيصها دقيقا وأضافت الى هذا الدرس والتمحيص المتقنين الدقيقين اختباراتهما وقابليتهما لذلك كانت وما تزال صعبة المراس في استعمارها ، شديدة الوطأة على البلاد التي تظفر بها . وان فوزها في ميادين السياسة الاستعمارية قد انمى فيها غريزة الاثرة والانانية ، وقوى فيها نزعة الطمع والجشع الى حد كبير وكان من أثر النفسية الاستعمارية القوية ان دفعت بها الى مناجزة الشعوب الحية ، ومقاومة كل حركة فيها ترمي الى النهوض بها ، خوفا على املاكها الواسعة من ان يكون لها منافس فيها ، وحرصا على بقائها في نجوة من كل امة تنفس لها أسباب القوة لتكون دولة مستعمرة مثلها . وعلى ذلك لما كادت اسبانيا تلم اطرافها ، وتتوسع غربا ويمخر اسطولها عباب البحر الاطلسي حتى ساورت بريطانيا الغيرة ، وداخلها الحسد ، ولم يهدأ روعها ، وتسكن نائرتها الا بعد

ان قضت على الازمادة ، اسطول اسبانيا الذي كانت تعز به ، وتنفذ على
اشرعها رايها الاستعمارية وكذلك قاومت البرتغال ، وطاردت اسطولها فورنت
الكثير من مستعمراتها ثم تعقبت الفرنسيين وزاحمتهم ، إن في اميركة ، وإن
في الهند ، وإن في مصر فكأنما كانت فرنسة تسعى جهدها ، وتبذل مجهودها
لتمهد لبريطانيا سبل الاستعمار وتسهل لها الاستيلاء على الممالك ، واخضاع الشعوب .
ولكن بريطانيا ليست بالدولة القنوع فتكتفي بما أصابت من خير كثير ، ونات
من نعم وفيرة فهي تريد كل شيء لنفسها وتريد فوق ذلك أن تمنع كل شيء عن غيرها
ايضا . وكانت تجن جنونا اذا ما توافرت اسباب الحياة لشعب من الشعوب
وأراد الأتعتاق من نيرها . فهي لا تنفك تؤلب عليه عوامل القضاء عليه وتسخر
افراده انفسهم ، فان عجزت عن ذلك ولم تجد وسيلة إلا الاصطدام فلا تتردد
في هذا الاصطدام . ولقد كان هذا شأنها مع الامة الأميركية فانها لما دركت
فسلها من الاجهاز على حيويتها بأيدي بنيها شنت عليها حربا عوانا واسكنها
انتهت الى غير ما كانت تأمل ، فقد انتصرت جيوش واشنجنون عظيم الأمير كان
ولم يكن لبريطانيا ندحة عن الاعتراف بالأمر الواقع وصادت على حربة
أميركة واستقلالها واسكنها مع ذلك آلت على نفسها ان لا تدع واشنجنون
يهدأ بثمار انتصاره وان لا تترك للشعب الأميركي الذي نال حريته مخضبة
بدماء بنيها ، وانزع استقلاله من مخالب الأسد البريطاني انتزاعا ، فرصة يلم
بها اطرافه ، ويجمع شتاته ويستعيد قواه فساجلته الحرب وناجزته الصراع
تاوة بالسر والخفاء وطورا بالجهر والعلن . ولعل الشعب الأميركي كان
اشقى الشعوب مع بريطانيا حيث كانت لسهامها غرضا ولدسائسها هدفا ، منذ
فجر حياته الاستقلالية الى ما بعد الحرب الاهلية ، وهي فترة خطيرة اجتازتها
اميركة ، ومواقف دقيقة تخطتها ، وكانت بريطانيا مصدر تلك الكوارث
المباشرة تارة وطورا مسببتها او مسهلتها .

لم تصادق بريطانيا على استقلال الأمة الأمريكية الا بعد حرب
 ضرور دامت ثمانية أعوام كاد واشنطنون عظيم اميركة أن يلقى السلاح
 يائسا قانطا . لو لم تتداركه الأمة الفرنسية وتنجده بالقائد لا فاييت وقواته .
 واسكن بريطانيا لم تشأ ان تعطى هذه الأمة الفتية فرصة تمكنها من اصلاح
 ما افسدته الحرب الشعواء ، وتعمير ما خربته اسباب الحرب وادواتها المهلكة .
 فقد ألزمت الاميريكيين في معاهدة باريس عام ١٧٨٣ بأن يدفعوا ديون بريطانيا
 كاملة وان يصونوا المحافظين اعوانها في اميركة من كل تعرض واحتفط بمقاطعات
 معينة منها اوسويكو وديتروا وماكينو الى ان ينجز الاميريكيون تعهداتهم
 وهذه طريقة تفتتجها بريطانيا دائما ازاء الدول والأمم لتجعل منها اسبابا
 جديدة للاعتداء على حرياتهم واستقلالها في الأوقات المناسبة . ولقد وافق
 الاميريكيون على ما فرضته بريطانيا عليهم لانهم كانوا يريدون ان
 يعطوا نهاية للحالة التي كان عليها وطنهم وقد ارسلوا الى البلاط البريطاني ألمع
 شخصية لديهم بعد واشنطن وهو جون آدامس ليكون ممثل دولتهم المتحدة
 الناشئة . وقد استقبل ملك الانكليز جورج الثالث الممثل الاميريكي بحرارة
 وقال له « . اني سوف اكون صريحا معك اني آخر من قبل باستقلال اميركة
 في هذه المملكة . اما وقد منح الاستقلال فساكون آخر من يسعى الى
 نقضه » وهذه كلمات جميلة خلاصة تشع بالامل ، واسكن هل وفي الانكليز
 بعهد ملئهم ، أو هل ان مليكهم حقق ما وعد به ؟!

ان الاميريكيين قد نهضوا بوطنهم نهضة جبارة وسارت خطواتهم في
 طريق التقدم متزنة سريعة . لقد نشطوا الى تعمير ما خربته الحرب ، واحيوا
 الارض الموات ، وخضعوا الى رسوم وتكاليف باهضة ليتمكنوا دولتهم من
 سداد الدين ، ولتشيط الحياة الاقتصادية جذبوا الى بلادهم البكر العناصر
 القوية في أوربة فبدأت سيول المهاجرة تتدفق . وكلما زحرت هذه السيول ،

زخرت البلاد بالعمران واكتظت بالنفوس ، وزادت اميركة في قابليتها التجارية وبناء الاساطيل التجارية وحسنت وسائل النقل الداخلية من برية ونهرية ، واختطت لنفسها خطة الحياذ ازاء الحروب التي انغمست فيها أوربة بعد ثورة فرنسة الكبرى لاسيا بعد سطوع نجم نابليون فهذه الحركة المترعة بالامل ، التي بدأتها اميركة ، وهذا الموقف الحياذي الذي وقفته فأهتبت فيه فرصة ملائمة لتظهر نشاطها وتبدى حيويتها قد اذهل بريطانيا ، وتركها تضرب احماساً باسناداس . فبدأت — على عادتها — تبث حباثلها في الاوساط الاميريكية ، ونشطت تحرض الهنود الحمر على العصيان والتمرد ، واعدة زعيمهم تكومسه بشقى الوعود باذلة له الاموال والعتاد فأثارته في عام ١٨١٠ فانزات بهم القوات الاميريكية ضرباتها المعينة ولكنه ما لبث عام ١٩١٢ إلا ان شهد اميركة مشتبكة بحرب دامية مع بريطانيا وقد استمرت هذه الحرب طيلة ثلاث سنوات كاد استغلال اميركة ان يزول فيها وقد اطلق الامريكيون على هذه الحرب اسم حرب الاستقلال الثانية. لا هميتها وفي هذه الحرب مكن البريطانيون الهنود الحمر من ان يبيدوا الاسراء الاميريكيين جميعهم اولئك الاسراء الذين تمكنوا منهم في واقعة نهر ريسن . ولا يزال الاميريكيون عندما يكونون في موقف حرج ووضع يائس يهتفون « تذكر واريسن ا » . ولما زحفت الجيوش البريطانية في صميم البلاد الاميريكية ودخلوا واشنطن عاصمة الاتحاد هاجموا الكابيتول والبيت الابيض مقر رئيس الجمهورية والبنائات الحكومية الاخرى فهدموها وحرقوها وسلموا ما فيها من اثاث وتحف ، ونفائس نادرة ولم تنج بناية ولا موقع ممتاز من الهدم والحرق ، حتى انهم اجتاحوا دائرة تسجيل الاختراعات وارادوا نسفها وحرقها لو لم يكن يذوهم احد حراسها بأن هذا المكان لا يعود نفعه الى الاميريكيين وانما يعود الى خير الانسانية برمتها ، لانه لا يضم إلا

ماله صلة بالمخترعات والاكتشافات العلمية وقد كان للوحشية التي اظهرها
 الانكليز والهنود الحمر في هذه الحرب أثر عميق في نفوس الاميريكيين كافة .
 ولئن انتهت هذه الحرب بمهادنة غيبت . في اواخر عام ١٨١٤ فقد ظل الانكليز
 حرباً على الأمة الاميريكية يفتهمزون عليها الفرص . ذلك لانها أمة ابدت حيوية
 في الميدان الاقتصادي العالمي ، وقابلية في ساحات الاختراعات والاكتشافات .
 وما تظنون في بريطانيا ؟ ان المعروف عنها انها ضد تجارة الرقيق فانها التي حرمت
 هذه التجارة في العالم ولكن هل تصدقون انها نصرت الجهة القائلة بتجارة الرقيق على
 الجهة القائلة بالغاءها في اميركة ؟ من المعلوم ان الحرب الاهلية التي وقعت بين ١٨٦٠
 و ١٨٦٤ بين المقاطعات الاميريكية كان سببها انتخاب ابراهام لنكون زعيم
 الجمهوريين القائل بالغاء الرق فلما انفصلت المقاطعات الجنوبية من الاتحاد استجابا
 على هذا الانتخاب وبدأت الوطن الائم الامداء ، قابله ابراهام لنكون بعزمه الذي
 لا يقل ، حتى اخضعها الى الحق بعد حرب طاحنة وهذه الحرب قد جعلت
 مستقبل اميركة محفوفاً بالمخاطر ايضا لأن احدى عشرة مقاطعة من أصل ٣٤
 مقاطعة كانت قد انفصلت وكان على رأس الانفصاليين زعماء مشهود لهم بالكفاءة
 والقدرة وحسن السمعة . ففي هذا الظرف الدقيق تتقدم بريطانيا الى العصاة
 الانفصاليين بالذخائر والعتاد ، وتجهزهم بالبوارج والسفن الحربية مع انهم
 يريدون ان يبقوا على الرق ، وأن ابراهام لنكون يريد القضاء عليه ، وقد
 لعبت السفينة الحربية « الاباما » . التي باعته بريطانيا الى الانفصاليين ادواراً
 مهمة سببت تلف كثير من القوة البحرية الاميريكية مع ان بريطانيا اعانت
 سياسة الحياد . هي تعلن سياسة الحياد ولكنها تمد جهة وتمسك عن جهة . على
 ان الأمة الاميريكية لم يكن الشر الذي يصيبها وهي في حالة صداقتها معها
 بأقل خطراً على سمعتها وكيانها من الشر الذي كان يصيبها في حالة اختصامها
 معها . والدليل على ذلك ما عاملت به اميركة في الحرب الماضية . فاعدا انها

ابتلعت مالها ، فقد عرضت سمعتها للسخرية والازدراء ، وعبثت بمبادئه ، ويلسون
عبثا ضربا ...!

وفرنسة ماذا لقيت من بريطانية ؟ دع عنك منافستها في الحقل الاستعماري
وترسمها آثارها واقتطافها ثمرات جهودها في أميركة ، والهند ، ومصر وغير ذلك
من البلاد الغنية التربة الزاخرة بالمواد الخام ، المكتظة بالسكان ، فلقد وقفت في
سبيلها بعد ثورتها في ١٧٨٩ ، وكادت لها وأبليت عليها دول أوربة وحرمتها
مما كسبه نابليون من بلاد ، وتيجان ، وما حصنت عليه فرنسة من صيت
وشهرة ونفوذ في العالم ، ولم تعد السيف الى قرابه ، الا بعد ان اخرجتها من
الحرب ذليلة ، وإلا بعد ان ساق امبراطورها اسيرا الى جزيرة سنت الن
بقياسي ضروب الاهانات ، وأنواع الأعنت والارهاب ، والامبراطور أو
رئيس الدولة ، هو رمز مجد أمته ، وعنوان شرفها . فأهانته اهانة للامة التي
تولى زعامتها ، والتشدد عليه جرح لعزتها وكرامتها ، سواء كان هذا
الامبراطور ، أو رئيس الدولة ، محبوبا أم مكروها من شعبه ، مشروعا أم غير
مشروع . على ان نابليون كان أقرب الى قلوب الفرنسيين من غيره من الملوك
وأخف ظلالا عليهم من غيره من الزعماء والقادة .

لقد استطاع نابليون ان يقضي على الدول الاوربية أو على أكثريتها ،
أما عن طريق الحرب وأما عن طريق المسالمة وعقد المعاهدات والاتفاقات
ولم تتصلب تجاهه ، وتظل دائبة في مناوئته دولة سوى بريطانيا لأنها كانت
وما تزال لا يرونها ان ترى امة تزاخمها في عظمتها ، وتنافسها في توسعها
ايا كانت . فصدمة فرنسة التي لم تفق منها الى اليوم ، لم تكن الا بيد بريطانية ،
وما يدرينا على أية حالة كانت تكون خارطة أوربة اليوم لو بقيت الامبراطورية
النابليونية سليمة ولم تنزل بريطانيا فيها ضربتها الحاسمة ؟ على ان بريطانية لم
تكشف بذلك وانما ظلت تراقب التطورات في داخل فرنسة بعيدون تقدر

بالشر ، وتلبيح خطواتها بهمة لا يهترىها فتور ولم تمديدها وتصافحها الا بعد ان وجدت الحياة تدب في عروق الشعب الالماني قوية ، فعادت تحولك للشعب الجديد الناهض ، حبلاها وتنصب شباكها . حينئذ فقط بدأت تتملك الشعب الفرنسي الذي سامته خسفا ، واذاقته ضروب الالهانات ، وعملت المعجزات لكي توسع شقة الخلاف بينه وبين جاره والشعب الفرنسي يسير ورائها ، ويتبع خطاها كأن لم تكن بينه وبينها احداث . . . أجل ! نقلت ثقله نشاطها من الجانب الفرنسي والقتته على الجانب الالماني لا نها وجدته أشد خطراً عليها ، واكثر مساسا بمنافعها ومصالحها واتجهت بكل قواها لتعترض سبيل تقدمه ، وتقيم فيه العقبات ، ولتضعف من القوة الجديدة التي اخذت تنمو نمواً غير مشهود ، ولاجل ان تحقق اهدافها ، فقد استغلت طيش نابليون الثالث ونزقه استغلالا ما كرا ، ودفعته الى العصب والشدد تجاه العاهل البروسي في قضية ترشيح احد امراء البيت المالک البروسي لعرش اسبانيا ولكن جاءت الحرب السبعينية خلاف ما كانت تنتظر فانقلبت الآية واصبح الشعب البروسي ، لا يتكلم باسمه بعد صلح فرسايل وانما يتكلم باسم الامبراطورية الالمانية فزاد سلطان هذا الشعب الضخم بعدده ، القوي بسجاياه ، المبدع بعقله ، وتغلغل نفوذه في الاقطار واجتاحت صناعته ومخترعاته الامصار وبريطانية لا تلين عريكتهما ، ولا يهتد صبرها ، ولا تفقدها توازنها الامور الجسم . فهي ان فشلت في الحرب السبعينية فقد فازت في الحرب الكونية الماضية وثارت لكبريائها من هذا الشعب العنود . فجزئته وأوهنته ، وضربت على قابلياته ونشاطه اسمجة سميكة من القولاذ فشمخت بأنفها ثانية وعادت تسخر العالم لما تريد ، بعد ان اعتقدت بأنها تخلصت نهائيا من المزاحم الخطر الجديد .

وفي الوقت الذي كانت تقاوم فيه فرنسة او المانية ، كانت تصفي على يدها ، الامبراطورية العثمانية بأسم الصداقة التقليدية ، ومن أشد المواقف

اثارة للتفوس ان ترى اموالك ونفائسك يخطفها منك الخاطف وهو يدعي صداقتك وانت لا حيلة لك إلا موافقته على ما يدعيه . لا نك اذا ترددت قليلا سبب هلاكك واضاع عليك حياتك فوق اضاعته اموالك ونفائسك وهكذا كان شأن الامبراطورية العثمانية المتداعية مع الامبراطورية البريطانية الصديقة المتفانية في صداقتها . فهي لم تكن تمنع الاعتداء على الامبراطورية العثمانية في أول الامر ، بل ان هي انصفت سكنت والا فقي كثير من الأحياء كانت المشجع في الخفاء على الاعتداء . فان فازت الامبراطورية العثمانية حرمتها ثمرة هذا الفوز بشتى الوسائل وان هي اندحرت ساومت صديقتها واقتطعت منها ما كانت تريد . مع العلم ان فوز الامبراطورية العثمانية كان نادراً بل معدوما اذا استثنينا فوزها على اليونانيين ثم رجوعها الى حدودها الاصلية بناء على ضغط الدول الاوربية وفي طليعتها بريطانيا . واما اندحاراتها فقد كانت متسلسلة لا تعرف الانقطاع وباستمرار اندحاراتها وتسلسلها كانت التصفية البريطانية للامبراطورية الصديقة مستمرة ومقسلة ايضا . ويكفي نظرة واحدة الى خارطة الامبراطورية العثمانية ، وما اصاب الامبراطورية البريطانية منها لتدرك على مبلغ قيامها بواجب الصداقة ، وعلى مقدار وفائها للدولة التي وضعت ثقتها فيها . فبريطانية عدا الجزر المهمة كقبرص وغيرها ، فقد وضعت يدها على مصر والسودان ومضيقي السويس وباب المندب ، والجزيرة العربية وبلاد الخليج والهلل الحبيب ما عدا الشام (سورية ولبنان) وهذه هي زهرة الممتلكات العثمانية ، والدره الثمينة التي كانت تتألق في تاج السلطان العثماني . واكثر هذه البلدان العربية قد استولت عليها بريطانيا سلما ، وعن طريق المكر والخداع حيث قوت الاُمراء واشيوخ في المناطق المختلفة وحرصتهم على الانقراض على الدولة العثمانية صديقتها . ولم تأخذ منها عن طريق الحرب ألا العراق وفلسطين . وأما بلاد اوروبا العثمانية فقد تقسمت وتجزأت الى دول

صغيرة مستقلة بعضها عن بعض ولم تستطع ان تستعمرها بريطانيا لان شعوبها من جنس أوربي اولاً وثانياً لانها مسيحية وثالثاً لان دولاً كبرى صديقة لبريطانية كانت تثبناها . ومع ذلك فقد سخرتها بريطانيا اقتصادياً واغرقتها برووس اموالها ولكن عدااء بريطانيا قد اشتد وجيبه لما شعرت بأن هناك حركة تقدمية ، ونشاطاً جديداً في البلاد التركية ينزعها مصطفى كمال بعد ان اصبح الخليفة العثماني العوبة يهددها تسخره الى اغراضها وتسوق امامها سوق العبيد . وكأنها ارادت ان تثبت صداقتها لهذا الشعب من جديد ، وتبدي عطفها عليه للمرة الاخيرة فسعت سعيها مشكوراً لتدق آخر مسمار في نعشه كما اعلن ذلك لويد جورج رئيس حكومتها آنئذ فأمدت حكومتها اليونان بأنواع السلاح والعتاد والكرام وألبتها عليه ولكن سوء حظ لويد جورج لم يسعفه بفوز خطته ونجاح تدبيره فسقط مقهوراً وولى مدحوراً ، ونجا هذا الشعب المنكوب بمداقة بريطانيا من الموت بأعجوبة ، وبعضا فر عوامل واسباب خارقة وقد سبق ذكر بعضها في احدى المناسبات .

وهذه ايران الوديعة المسالمة ارادت بريطانيا ان تبتلعها في عام ١٩٢٠ وفرضت عليها تلك المعاهدة الجائرة التي قضت على كل أمل في الحرية والاستقلال لهذه الدولة ولكن ظروف غير منتطرة طرأت فأجبرت بريطانيا على ترك البلاد لاهلها . ولو لم تشب نار الثورة العراقية قوية فأضطرت بريطانيا الى ان تسحب قواتها المنتشرة في ايران آنئذ ، ولو لم تعد الحياة الى روسية السوفيتية ، لكن مصير ايران الذي لاقته في عام ١٩٤١ قد تقدم عشرين عاماً . ولكن الثورة العراقية ، من جهة وعودة التنافس الروسي - البريطاني في ايران الى وضعه السابق ، باستعادة روسية السوفيتية قوتها ، من جهة كانت عوامل من شأنها ان ترجىء نهاية ايران . على ان بريطانيا ما أنفكت تناجز ايران ، في خلال العشرين عاماً التي مرت بين ١٩٢٠ و ١٩٤١ . وتبث شباكها

واحبايلها . وكان زعجها بوجه خاص ما كانت تجده في الشعب الايراني من عزم صادق لتقويم نفسه ورفع مستواه اعداوتها المتأصلة لكل حركة قومية ونهضة انشائية ، فما آذنت الفرصة ، وتم الاتفاق بينها وبين روسية إلا واحتاحت جيوشها كرة أخرى البلاد الايرانية وأخضعتها الى مشيئتها بحجة واهية يخجل الانسان من مناقشتها لوضوح بطلانها .

قلت أني لا أريد ان أورخ الاستعمار البريطاني أو أحصي اعتداءات بريطانيا على الممالك والشعوب وإنما أريد أن اضرب بعض الامثلة وأسرد شيئا من الحوادث التاريخية لتأييد ما ذهبنا اليه ، وقلنا به ، ولرسم صورة تمثل حقيقة الجشع البريطاني ولنضع مقياسا نقيس به انايتها وميلها القوي الى الاعتداء على الحقوق .

وهذه الامثلة والحوادث التاريخية قد شاهدنا بعضها بأعيننا والبعض الآخر قد تحدث به الينا تاريخ العصور الحديثة وما هي إلا قطرة من بحر الاعتداء البريطاني ، فماذا فهمنا منها ؟ فهمنا ان الامبراطورية تأسست على العدوان وسقيت أصولها بالدماء . وقامت صلاتها مع الممالك والشعوب على مقاومة الحريات والنهضات فيها وكما أمعن الانسان في تاريخ بريطانيا تمحيصا وتدقيقا كلما زاد ايمانه بهذه الحقيقة . أذن فكيف يمر الباحث في الشؤون الدولية ، من دون ان يسجل لهذه الامبراطورية احداثا ووقائع تبرز فيها الدماء والدموع والالام ؟ والغرب في أمر هذه الامبراطورية انها ان فازت على أمة وقضت عليها فيها وإلا فإنها تخلق أسبابا جديدة ، لتجعل من تلك الائم التي لقيت منها ما لقيت ، آلة صماء تستعملها في أغراضها وانها على الاكثر تنجح في ذلك . فهذه امير كمة التي وصفنا طرفا من أخبارها مع بريطانيا وهذه فرنسة وهذه تركية الجمهورية أقول ان هذه الدول برغم ما حدث بينها وبين بريطانيا فإنها كانت وما تزال تنفذ مشيئتها وتسير وفق

ارادتها ففرنسة قفصت على كيانها في سبيل بريطانيا وأميركة قد وضعت مستقبلها في
 كف القدر مرة أخرى وكانها لم تعتبر بحوادث القرن الثامن عشر والنصف الاول
 من القرن التاسع عشر فهي لم تعتبر ايضا بالدروس القاسية التي ألقتها بريطانيا عليها
 وعلى رئيسها ويلسون بعد ان انتصرت في الحرب الكونية الاولى بفضل معاونتها لها،
 وهذه تركية تضع يدها في يد بريطانيا التي قاومت الحركة الانشائية بعد
 الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ وناهضت الحركة السكالية واستصدرت احكام
 الاعدام على مصطفى كمال ورفقائه في الجهاد من الخليفة بأعتبارهم عصيات
 ثائرة، وحاولت ان تدق آخر مسمار في النعش العثماني بتجهيزها اليونان
 وتسييرها عليها فلماذا يعني ذلك؟ هل ان هذه الدول أصبحت من الغفلة بحيث
 انها لا تميز صديقتها عن عدوها، وصالحها عن طالحها، أم هي المصالح الدولية
 والمنافع المشتركة قد دفعت بها الى هذا التساند والتعاوض، أم حظ بريطانيا
 وطالعتها؟ ليس من شك في ان العقول التي كانت وما تزال تسيير هذه الدول ليست
 بالعقول التي تغشاها الغفلة ويسودها الفسيمان لأن أساليب بريطانيا لم تعد
 خافية على العقول البسيطة والافهام المتوسطة فكيف يجوز ان تخفى على رجال
 مثل هذه الأمم وقادتها. وانما اكبر الظن انها المنافع المشتركة والمصالح
 الدولية هي التي هيأت لبريطانية هذه الاجواء الصالحة، ومكنت لها من
 تسخير هذه الأمم لتحقيق مطامعها واهدافها. وليس من حقنا ان ندعى
 المعرفة بالمصالح الاميريكية اكثر من ابنائها، أو نزعم الحرص على منافع
 فرنسا أو تركية اكثر من رجالها ولكن هناك أوضاء عامة واضحة،
 وقضايا دولية مبسوطة اسكل ذي عينين ومثل هذه الاوضاع والقضايا يسوغ
 اسكل أحد ان يبدي رأيه فيها. فلنأخذ فرنسا مثلا فما هي منفعتها في معاداة
 المانية ومصافاة بريطانيا مع ان الاولى جارتها، وليس لها مستعمرات تصطدم
 منافعها بها والثانية بعيدة عنها ولها حالات، من استعمارية أو انتدابية أو مطامع

توسعية من شأنها ان تصطدم بها في اكثر الاوقات وبالفعل فقد حصل الاصطدام غير مرة ؟ يلوح لي ان العداء الفرنسي - الالماني قائم على نزعات عاطفية اكثر مما هو قائم على أسس واقعية ، (١) ومصالح مادية فقضية الاثراس والورين ، كانت جرحا نفارا في صدر الامة الفرنسية ، وصدمة عام ٨٧٠ هزت مشاعرهما هزاً عنيفاً بحيث اصبح من المتعذر تناسي آثارها وآلامها . ولكن صدمة فرنسة العنيفة القاتلة هي ليست صدمة عام ١٨٧٠ وإنما هي في الحقيقة صدمة تلك الحروب المتسلسلة التي اثارتها عليها بريطانيا وانتهت بواقعة واترلو ونفي امبراطورها الى جزيرة سفت أن . فلوم تمن فرنسة بتلك الصدمة التي زعزت أركانها ، وضعضعت بغيانها لما اتيج للروسين ان ينشطوا ذلك النشاط العجيب ولما تمكنت الدويلات الالمانية الاخرى ان تنضوي تحت العلم البروسي وتكون من الجميع تلك الامبراطورية الضخمة التي تخشاها فرنسة كما تخشاها الامبراطورية البريطانية فاذا كانت الأحداث التاريخية تعمل عملها في العواطف ، وتسير الاتجاهات السياسية فمن حق فرنسة ان تناجز بريطانيا لائننها التي هدت الكيان الفرنسي ، وغضت من عظمتها ، في كفاحها المتواصل ضد امبراطورية نابليون الاول وما قبلها سيما في عهد لويس الرابع عشر من ناحية ومن ناحية أخرى فهي التي استغلت نزوات نابليون الثالث فدفعته الى معاولة الشعب البروسي دفعا فكانت نتيجة المعاولة ذلك الاندحار الذي اشتهر به عام ١٨٧٠ والائتصاف بدعو فرنسة كذلك ان تعذر ان حرب ١٨٧٠ لم تثرها المانية على فرنسة وإنما اثارتها فرنسة على المانيا وكانت في اثارها معتدية لأن السبب الذي لوح به نابليون الثالث كان قد انتهى

(١) في يوم ١٧ مارت ١٩٥٠ صرح الجنرال ديغول بأنه لا يرى سبباً لعدم التصافي بين الشعب الفرنسي والشعب الالماني أو عدم نسيان احقاد الماضي التي كانت تثيرها الدسائس الخارجية

يرفض المرشح الألماني لعرش أسبانية وقد كان هذا الرفض ترضية كافية للغرور الفرنسي ولكن نابليون الثالث لم يكتف بذلك وإنما أراد تعهداً من عاهل بروسية بأن يتقدم أمير الماني في المستقبل ليرشخ نفسه الى هذا العرش . وما معنى هذا الطلب غير المعقول ، اذا لم يفسر بأنه كان يراد به الاغراق في أهانة الشعب البروسي ممثلاً بملكه . والامعان في إيذائه بشعوره ؟ ان بريطانيا كانت تفيد من ذلك النزاع ، وانه كان من صالحها ان تشترك فرنسة بالشعب البروسي الذي بدت عليه مخايل القوة والفشاط عوض ان تشترك في فعل ان تكون نهايته على يد غيرها . ولكن ذلك النزاع لم يكن بوجه من الوجود مفيداً لفرنسة . وكذلك فان الانصاف يدعو فرنسة ان تتذكر بأن المانيا كانت سخية في مؤتمر فرساي ولم تكن ممعنة في التشديد على فرنسة المقهورة . وان معاملة بسمارك في ١٨٧٠ لم تكن تشابه معاملة كلمنصو عام ١٩١٨ . على ان الجروح كانت قد تكافأت والدماء قد تهاوت بانتصار عام ١٩١٨ ولم تعد المانية تفكر في اعادة الالزاس واللورين او في التحرش بالمصالح الفرنسية . واذا كان هناك حق يجوز الاسادة به ، فيجب علينا ان نتذكر المحاولات الالمانية المختلفة لتقريب وجهتي النظر بين الشعبين الالمانى والفرنسي والتعهدات المتكررة على لسان المسؤولين في المانية بشأن انصراف نية الرايخ الثالث بصورة باتة عن المطالبة بالالزاس واللورين . فما هي اذن منافع فرنسة ومصالحها التي تدعوها الى ان تشترك في حرب مع امة تسعى الى مساالتها ، وترغب في مصافحة يدها ؟ فالصراع الحقيقي هو بين بريطانيا والمانية . لا بين فرنسة وبين المانية . لان بريطانيا ليس من شيمتها أن ترى امة تنهض على قدميها ، وتنفض عروقها بدم الحياة ، وتركها وشأنها . وهذه شغفنة عرفت عنها ذاق علقمها فرنسة نفسها غير مرة . فبريطانية هي التي كانت في حاجة الى صداقة فرنسة بعد ان خفقت اجنحة الذمر الالمانى في سماء اوربة ولولاها لما بقي لبريطانية نفوذ في

الاوساط الاوروبية ولا مكانة مرموقة في مؤتمراتها ، أو كلمة نافذة في تسيير
 سياسة دولها . فبفضل فرنسة احتفظت بالهيبة والنفوذ فماذا جنت فرنسة من
 تضحياتها مصالحها في سبيل بريطانيا ؟ ان بريطانيا ليست لها صداقة ترتكز
 على مثل عليا ، وانما صداقتها وليدة المنافع المادية الخالصة فهي تنشيء
 الصداقات ، لتأمين هذه المنافع ، وتثير العداوات والحصومات بغية الاحتفاظ
 بهذه المنافع . ولقد مر بنا بحث عن مدى الصداقة التي كانت تربط الامبراطورية
 البريطانية بالامبراطورية العثمانية وكيف كان هلاك الأخيرة بسبب اعمال
 الاولى وانها في الأخير عزمت على دق آخر مسمار في نعش صديقتهما التي
 استعصفت خيرة املاكها ، وعيون ممتلكاتها . ولا تعدو الصداقة الانكليزية
 الفرنسية هذا النوع المادي من الصداقة . فهي ساعدت فرنسة بعد اندحارها
 في واقعة سيدان وتسليم امبراطورها . ولكن هل ان بريطانيا كانت عاجزة
 عن ان تدفع الكارثة قبل حلولها أم لا ؟ اللهم ! نعم ! لقد كانت قديرة على
 ذلك ، وفوق ذلك كان الملكة فيكتوريا ارادت مخلصه أن تتدخل في النزاع
 قبل استفحاله والحت في تنفيذ ارادتها ولكن غلاستون وزيرها الاول
 وزعيم الشعب البريطاني وقتئذ حال دون ذلك . حال دون تنفيذ ارادتها لأنه
 كان يرغب من صميم قلبه ان تقع الحرب . وتسفك الدماء لعل بريطانيا
 تتخلص من المزاحم القوي الجديد ولكن حجته الظاهرة التي ادلى بها امام
 ملائكته كانت ليس هناك منفعة لبريطانية من هذا التدخل . كأنه لا يجوز
 لبريطانيا أن تحقن الدماء أو تسعى في حقن الدماء الا اذا كانت هناك مصلحة
 مادية لبريطانيا . ومعلوم ان التدخل الذي رغبت فيه فيكتوريا لم يكن يكلف
 امبراطوريتها نفقات أو اتعابا لا قبل لها بها فامعنى اعتذار الرئيس البريطاني
 بأن ليس هناك منفعة للامبراطورية من هذا التدخل ؟ ولكن بعد أن
 اندحرت فرنسة هو نفسه طلب اني ملائكته أن تتدخل لصالح فرنسة لأن

التدخل أصبح نافعا للأمبراطورية البريطانية . فماذا نفسر احجامه الاول عن التدخل واقدامه في آخر الامر على التدخل اذا لم تكن منفعة بريطانيا في نظره في أول الامر كانت تقتضي اصطدام فرنسا بمزاجها الجديد واسكن لما وجد الدائرة تدور على فرنسا لا على هذا المزاج دلف الى ملكيته يطلب منها التدخل والى الدول الاوربية الاخرى يستنصرها ويستنجد بها لحقن الدماء واحلال صلح شريف بين الامتين الاوربيتين ؟ وبريطانية قد نفست عن المانية كثيراً في مواقف عدة في الفترة التي مرت بين الحربين العالميتين ازعاجا لفرنسة لانها وجدت فيها نشاطا لا تأنس له واندفاعا يمس كبرياتها ونفوذها في اوروبا . لذلك لم تؤيد فرنسا في اقتراحاتها حينما اعادت المانية السار والرين ، وقابلت هذه الحركة الالمانية الجريئة باغماضة عين . فهي تريد ان تحتكر كل شئ لنفسها ، السلطان ، النفوذ ، الاموال البلدان ، الشعوب . واذا طمع شعب من الشعوب في شئ فيجب ان يكون برأيها وبالقدر الذي تقدره هي ، وان كان هذا الشعب حليفا لها ، وأثبتت صدق وفائه لها في مواقف لا تعد ، ومناسبات لا تحصى ولماذا نذهب بعيدا ولدينا مثلان رائعان ما زالت ذكرهما طرية في الاسماع ، ندية في الاذهان ؟ ارادت القيادة العليا البريطانية في اوروبا أن تهرب بقضها وقضيضها من دنكرك الى الجزيرة البريطانية ، والجيش الالمانية كانت آخذة بخناق الجنود البلجيكية يومئذ ولما رأى ملك بلجيكا حرجة موقف جيوشه واقتنع بأن لا فائدة من رجوة من استمرار المقاومة وتكثرت عدد الضحايا بدون مبرر قرر الاستسلام مع جيوشه . وهذه حالة عسكرية يتلبس بها كل قائد ويضطر اليها كل ملك او رئيس دولة . لأن الاستسلام بعد تأدية واجب الدفاع ليس امراً منكراً او غريباً واسكن بريطانيا اقامت الدنيا واقعدتها ضد الملك واركان حربه ورمتهم بالخيانة والصقت به وبهم انواع التهم . ولماذا كل ذلك ؟ لانه لم يأمر

جنوده ان يموتوا الى آخر واحد منهم ليساغلوا العدو واهيئوا بذلك لجنودها سهيل الهزيمة ؟ ان الهزيمة من دون مقاومة لا تكون خيانة لان انهمزمين بريطانيون . اما ملك البلجيكي ورجاله وجنوده فانهم خائنون لانهم ساءلوا بعد قتال عنيف ، ودفاع مجيد . ونسيت بريطانية ان البلجيكي ليست هي التي اعلنت الحرب على المانية وانما بريطانيا هي التي اعلنتها ونسيت ان ما ذاقته وتدوقه الشعوب والممالك الأوربية من مرارة هذه الحرب انما كما بسببها ونتيجة لجشعها وانانيتها ونسيت كذلك الضحايا التي قدمها الشعب البلجيكي والمواقف الجريئة التي وقفها مليكه نسيت كل ذلك ورمتهم بالخيانة لانهم لم يفنوا انفسهم لأجل نجاة جنودها لنا كصين الى ارض الوطن . أية اناية هذه واية قسوة ؟ تطلب القناء لجيوش عددها يربو على الاربعمئة الف لا ناقة لهم في هذه الحرب ولا جمل ، لتتخذ اقل من نصف هذا العدد ، من جنودها الذين كان عليهم ان يصمدوا للموت لانهم جنود الدولة التي اعلنت الحرب .

ولم يكن نصيب فرنسا من الجحود ونكران الجميل من بريطانيا ، بأقل مما لاقت البلجيكي وغير البلجيكي . فهذه فرنسا التي تأثرت خطى بريطانيا في سياستها واستسهلت كل صعب في سبيلها وضحت بكيانها ، وبشبابها وبيلاها وبتاريخها الخافل بعظائم الامور لم تكن في نظر بريطانيا الا خائنة حينما اضطرت اضطرارا لعقد الهدنة وانقاذ الجزء الباقي من الدمار ولماذا ؟ لانها لم تواظب على قذف بفيها في افواه المدافع وعلى تعريض ما تبقى من الوطن الفرنسي للتخريب والتدمير . لذلك كانت فرنسا خائنة واسكن بريطانيا التي لا تجود بالعدد القليل من المدد الذي سبق ان ارسلته الى اوروبا للاشتراك في الحرب فتمعيده مسرعة عن طريق دنكرك فهي مخلصمة وفيه ولم تعدل المصحف

البريطانية ، لهجتها ولم يتطامن ساستها وقادتها في تصريححاتهم وبياناتهم ضد
فرنسة الابد ان اتصل بهم دبعول واتباعه فحينئذ فرقت بريطانيا بين فرنسة
الخائنة وفرنسة الوطنية وهكذا تجد بريطانيا لا تقيم وزنا لصدافة ، ولا تقدر
تضحية حليف ، الا بقدر ما يصببها من نفع مادي . فمثلها العليا المادة . والمنفعة
والمصلحة . ويمكن أن نلخصها بالمادة . والاّن كلما اندحرت الجيوش البريطانية
وقواتها الاخرى في ميدان من الميادين الحربية تهرع الى المستعمرات الفرنسية او
البلاد التي تحت نفوذها وتستولي عليها فبالاّ مس قضت على سورية واليوم تتحفز على
مداغشقر وغدار بما على غربي افريقية او شمالي افريقية كأن لها على فرنسة نأراً
اوديناتا لا حقها من اجلها ، حتى في أيام محنتها وساعات شقتها . ولحظات نزاعها .
ولو كانت فرنسة تلتزم الحياد لما جرأت بريطانيا على الحرب مع المانية .
ولو كانت فرنسة متفقة مع المانية وهذا ما كانت تسعى اليه المانية للعبت في
السياسة العالمية ادواراً لم يسجل التاريخ مثيلاً لها . ولكنها اسلست قيادتها
الى بريطانيا التي لا تفكر إلا في مصالحتها ، ولا تسعى إلا لاجل منافعتها
فأصابها ما اصابها . ولا ندري أنعزوا ذلك الى حظ فرنسة السيء أم الى طالع
بريطانية الحسنى أم الى اسباب مازالت خافية على الجميع ؟

ليس في وسمي ان انفى اثر الحظ وانكرو وجوده بالمرة . لاّني وجدت
كثيراً من جبايرة العقول يعترفون . بالحظ وأثره في الفرد وفي المجموعات
وهذا ما كيا فيلمي الذي يعد من الطراز الأول من مفكري أوربة فانه قد
عقد فصولا ممتعة في كتاب الامير وذكر حوادث تاريخية واقعية متنوعة
يسند النجاح فيها الى مواآاة الحظ ، والفشل فيها الى إدبار الحظ . وانما كان
يعمل مفعول الحظ ، تعليلاً مختلف عما يعمل به الحظ اولئك الذين لم يوهبوا عقله ،
لم تمنحهم الطبيعة عمق تفكيره . فهو يقول ان نصف الفوز قد يعود الى الحظ
والنصف الاخر يعود الى الكفاءة والقابلية فقد يساير الحظ فرداً من

ذوي العقول الصغيرة ويسمو به الى مكانة رفيعة ولكنه لقلّة تدبيره ، ولضعف
حيئلته في الاحتفاظ بهذه المكانة الرفيعة ، لا يلبث أن يهوى من عليائه ،
ويتحطم . والآخر يسايره الحظ كذلك ولكن له عقلية ناضجة ، تمكنه من
الاحتفاظ بما وصل اليه وله قابلية مدبرة تقوى على التغلب على كل ما يعترض
سبيله من عقبات كؤود فيطرد فوزه ، ويضرب مثلاً لذلك البابا اسكندر بورجيا
الذي اوتي حظاً حسناً وعقلاً كبيراً معاً . ولعل وصول القائد الألماني بلوخر
بقواته الى ميدان واترلو بينما كانت جيوش ويلينكتون تعاني مرارة الهزيمة
وانقاده الموقف في المعركة ، يعد نوعاً من الحظ الحسن بالنسبة للحلفاء ، ومن
إدبار الحظ بالنظر الى نابليون . ويعزو فيكتور هوغو وصول بلوخر بالسرعة
التي لم تكن متوقعة ، سلوكه طريقاً قصيراً لم يكن يعلم به وانما اشار عليه
بسلوكه احمد الرعاة الذين صادفهم في طريقه بطريق الصدفة . وسواء كان
هناك شيء يسمى « الحظ » أم لم يكن فقد تنثال صدف وطواري ، وتتضافر
اسباب وعوامل ، خفية أو ظاهرة تسبب الفوز والنجاح ، أو تسبب الفشل
والخيبة . وان من يحسن انتهاز تلك الصدف والطواري ، والتصرف بتلك
الاسباب والعوامل ، يصيب الغاية والهدف ، ومن قصر في ذلك لحقته الخيبة
ومنى بالخسران ، فالمسألة اذن مسألة عقل وأدراك قبل ان تكون مسألة صدف
ومفاجئات . وبريطانية من ابرع الأمم في استغلال الصدف والطواري ،
ومن أمهر الشعوب في استغلال الاسباب والعوامل ، التي تهيم لها الفوز
والنجاح . وهذه حقيقة لا يجوز لنا انكارها عليها برغم خصومتنا لسياستها
لذلك استطاعت ان تسير السياسة الفرنسية لصالحها دائماً لأنها كانت تعرف
كيف تلمس العرق الحساس من عروق فرنسة ولا أنها كانت تجيد التصرف
في استغلال عواطف هذه الأمة اللاتينية القوية الاندفاع ، السريعة التهيج ،
المتهبة الاحساس ، فنجحت في تصوير الاخطار الألمانية ، على فرنسة وفازت
في تمثيلها دور الحريص الصادق في حرصه على المنافع الفرنسية والسكرامة

الفرنسية مستغلة الحوادث التاريخية واسباب النزاع العاطفية . وكما انها
ضربت على الاوتار المثيرة لعواطف فرنسة ونجحت في ذلك ، فهي كذلك
ضربت على الاوتار المادية لتثير مخاوف اميركة من توسع سلطان النازية ،
وتعلقت بصلوات الرحم والقربى تعلقا شديدا . اقد صورت تدهور الصناعة
الاميريكية ، وضيماع ثروتها ان فازت المانية تصويرا بارعا من ناحية ومن
اخرى فقد ناشدتها المعونة والمساعدة مستنصرة بحميتها الانكلوسكونية
لائمة بدمايتها « النوردىكية » الشمالية . وان اميركة آمنت بهذا التصوير ،
ورأت نفسها ملزمة بأمداد ذوي قرباها ، وبني عمها . ولكنها نسيت
الصراع الذي قام به واشنطون في النصف الاخير من القرن الثامن عشر ،
ونسيت المعارك المتسلسلة التي اثارتها بريطانيا عليها تارة بصورة مباشرة ،
واخرى عن طرق غير مباشرة طيلة قرن كامل تقريبا منذ فاز واشنطن
العظيم بطرد القوات الانكليزية من الوطن الاميريكي . وخلال ذلك العصر
الرهيب المتزعج بالمصائب والنوائب تزجها بريطانيا على الوطن الاميريكي
ازجاء ، وترسلها عليه ارسالا ، لم تكن بريطانيا تفكر بصلوة الرحم ولا تحفل
بالدماء النوردىكية ان تسيل غزيرة في سهول اميركة وحزونها ولكنها
تلمست هذه الصلة ، وبصرت عينها هذه الدماء بعدان قطعت الرجاء من
عودتها الى اميركة آمرة ناهية ، وبعد ان نهضت الامة الاميريكية على
قدميها وبريطانيا واقفة حيرى ، تقطع نياط قلبها الغيرة ويحز فيها الحسد
ويرمضها حقد دفين . وهل يظن روزفلت انه خدم امته بخروجه على قاعدة
موترو ومغامرته بمستقبل وطنه للدفاع عن مصالح بريطانيا الاستعمارية
بينما لا توجد هناك اسباب تبرر له هذا الخروج وتلك المغامرة ؟ وعاد ذلك فان
بريطانية وعدت اليهود بالوطن القومي في فلسطين على حساب الشعب العربي
ولليهود سيطرة مالية ، ونفوذ اقتصادي متغلغل في الاوساط الاميريكية

وانها لا تتردد في ان تمنحهم الهلال الخصيب العربي برمته اذا هم اعانوها في
احالة امير ككة الى جانبها فلماذا لا ينظم اليهود حملاتهم القوية العنيفة في
امير ككة ، ليوجهوا سياسة روزفلت شطر سياسة تشرشل ؟ وما يمنع اليهود
ان يستبسلوا في هذا الميدان ، ويثأروا لآباء قومهم الذين شردتهم النازية
عن البلاد الالمانية ، ويصيبوا بلادا واسعة يقيمون فيها دعائم صهيونيتهم ،
وان يضربوا عصفورين بحجر واحد ؟ فأمر ككة اذن قد انساقت بقوة
اليهودية المتمكنة فيها ، وبمهارة السياسة البريطانية ولم تكن هناك منافع
أمير ككة معرضة للخطر ، أو مصالح مستها المانية او في نيتها ان تمس بها في
المستقبل . وهكذا تجمعت اسباب وعوامل ونهيات فرص ومناسبات استغلقتها
بريطانية استغلالا بارعا ، وتصرفت فيها تصرفا ماكرا فخدعت امة تمتاز
بثقافتها وحضارتها وبرزت بصناعاتها ومخترعاتها لتدرك الاخطار عن ممتلكاتها
وتدفع المصائب والويلات عن جزيرتها . وماذا يهمها هي ؟ لقد صرعت
فرنسة ولم تقو بعد على النهوض ، وتخضعت اوربة بالدماء ، فكيف تظل امير ككة
سالمة من الرزايا والمحن ؟ فان كانت العاقبة اندحارا ، فامس وحدها التي
تموت ، لقد ساقنا الى الموت قبل ان نأمن اوربة جمعاء ، وها هي تموت ومعها العالم
الجديد برمته . وان كسبت الحرب ، وانتصرت فليس روزفلت بأعظم من
ويلسون ، ولا هو بأوسع نفوذا منه ، ولا انضج عقلا . اما وانها قد اعادت
ذاك العظيم الى عالمه الجديد يجرد اذيال الحية فهي مطمئنة من ان مصير
روزفلت سوف لا يكون أقل سوءا من مصيره وان نهايته سوف لا تكون
أخف حزنا وأيسر ألما . واني اكاد في هذه اللحظة والحرب في اوجها -
اتحس مصير روزفلت مائلا امامي ، في حالتي الانتصار والاندحار ... (١)

« ١ » الحق : ان الاندحار أصاب الدولتين وانهما الآن في شغل شاغل لمكافحة الدعاية
الشيوعية ودسايسها في العالم .

ويحوز ان تظن تركية بأنها قامت بتعهداتها تجاه بريطانيا وأرضت
كبريائها . فإن هي تظن ذلك فقد تخطى خطاء عظيمًا . ان تركية قد خدمت
بريطانية في موقفها الحيادي المشبوب بميل ظاهر اليها ، وأنقذت الشرق
الوسط والشرق الأدنى من نفوذ جيوش المحور اليها . وانها لو كانت قد
تساهلت ، أو لو انها اتفقت مع المانية ، لانهت امبراطورية بريطانية في
الشرق ولا نهارت بأقل من ملح البصر . فوقف تركية قد أفاد بريطانيا كثيرًا ،
ولكن بريطانيا لا تقنع بذلك . فانها بالمساعدات المادية التي تعهدت بها الى
تركية ، وبتحالفها الذي عقدت احكامه وبنوده معها ، كانت تفتظر ان تنجرف
معهما في الحرب ، وتنفى شعبها في سبيل سلامة الشعب البريطاني ، وهي قد
أشارت عليهما بذلك لما أقتربت الحرب من الحدود التركية ، وانهارت الدولة
اليونانية ، وانها قد لمحت اليها لما اندفعت قوات روميل الى الحدود المصرية
متعقبة جيوش الجنرال أو كينك ، ولكن تركية تصامت عن ندائها ،
وتفاضت عن اشاراتها وتلميحاتها . وبريطانية لا تقيم صداقة لها مثل عليا ،
وانما تقيمها على المنافع المادية المحضة ، وانها لا تقبل بعذر يؤيده الحق ،
ويعززه الصواب ، ما دام هذا العذر يسبب لها كسادا ونهبًا ويكلفها خسائر .
فهي ان سكنت عن تركية اليوم فانما تسكت على مضض ، وان هي
ابتسمت لها فانما تبسم ابتسامة صفراء تنطوي على حقد مشبوب ، وروح
تضطرم بالفضاء . واذا كان بقاء تركية قائما على التنافس على الدردنيل
فبريطانية قديرة على استنباط الوسائل المؤدية الى فض هذا التنافس واعطاء
نهاية له فهي لا تعدم براعة تقودها الى الفوز ، ومهارة تؤدي بها الى الانتصار
سيما اذا خرجت ظافرة منصوره . وبريطانية فوق ذلك تشرف على اقطار
مجاورة اتركية فيها كميات غيرة قليلة من العنصر الكردي . ومواطن هذا
العنصر مناوحة أو قريبة من الاناضول الذي يشتمل على عدد ضخم من

الا كراد . فيكفي لبريطانية ان تذهب الفكرة القومية ، وتوقظ العواطف
العنصرية ، في هذا العنصر القوي ، الشجاع فتضطرم نار الثورة في اكثر
بلدانها وتخلق لها مشاكل متصلة لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة فيها . وهذه
حركة ميسورة لبريطانية ، لا تفتقر الى اثارها الى مجهود كبير . أو
مهارة فائقة .

وان ربح المحور الحرب ، فستقبل تركية أشد ظلاما ، واكثر
تعريضا للاخطار لما اصابه منها من دعايات عدائية ، ووقفات لاتبررها خطة
الحياة . على ان المانية لم تكن يوما مسيئة الى تركية وانما بالعكس فقد
كانت خليلتها في الحرب الماضية وشريكها في المصائب ، التي صبتها على
كليهما دول الحلفاء المنتصرة . فكان منطق الحوادث يقضي على تركية ان
لم تسارع الى جانب المانية ، فهي على الأقل تلتزم الحياد التام المطلق ،
وما التزمته . ولئن اعتذرت تركية بخوفها من مطامع ايطالية في بلدانها
فهذا الخوف لا اساس له لأن المانية أقوى من ايطالية ، وانها اذا اخلصت
از تركية فليس في قدرة ايطالية ان تخرج على ارادة المانية . مع ان الحالة
بالعكس في صلات تركية ببريطانية . فبريطانية لا تلتزم صديقا ، إلا اذا
كانت هناك منفعة مادية وهذه سجيته . وأنني لا أقول ان المانية أو غيرها
من الدول متجردة من المنافع المادية في صداقاتها ومحالفاتها وانما أقول
ان لا المانية ولمثل المانية من الأمم العسكرية ذات النفسيات القوية مثلا عليها
تمنعها من الغدر بالصديق ، والفتك بالخصم من دون أسباب قوية مجبرة .
فهي بقدر ما تلاحظ منفعتها تلاحظ الشرف والاحتفاظ بالتقاليد ، وتنفيذ
الوعود للقواية والعهود الخطية ولكن بريطانيا تختلف عنها بأنها لا تلاحظ
إلا منفعتها فقط ، ولا تتردد في أنيان أي نوع من أنواع المنكر اذا قضت
بذلك منفعتها سواء لديها في ذلك العدو أم الصديق . وهذا تأريخها حافل

بأشواهد التي لا تقبل النقص ، والأمثلة التي لا تحتمل الجدل والنقاش .
هذه مجرد احتمالات يقتضيها منطق الحوادث وطبيعة الأوضاع السياسية
التي مرت بنا . وكما أنه لا قلب للسياسة كما يقولون فقد يجوز أن لا يكون
لها منطق أيضا . والذي أرجوه مخلصا أن يكون الشعب التركي في نجوة من
الاعتداءات وأن تيسر له سبل التقدم والنجاح . لأنه شعب صديق مجاور ،
تربطنا به روابط تاريخية ومصالح مشتركة ، ونصلنا به وشائج قرى ودين
قوية ولئن فأت الشعب العربي أن ينعم اليوم بنعيم الحياة الحرة ، وأن ينغمر
بنور الاستقلال فقد يسره على الأقل أن يتلمس هذا النعيم في جواره المسلم وأن
يتحسس النور وهو يفيض من بيت صديقه الشرقي .

وصفوة القول فإن بريطانيا قد انفردت بأساليبها السياسية وتوحدت
ببراعتها في إنشاء الصداقات ، وأحداث الفتن والاضطرابات ، وبرزت على
جميع الأمم في ماديتها وأنانيتها ولا يسع المتتبع تاريخ نشاطها ، في ميادين
الاستعمار وفي تسيير السياسات المتباينة إلا أن يتملكه العجب ويساوره الاندهاش
من هذه القابلية . ومن هذه الناحية كانت فجيرة الوطن العربي باستعمارها أليمة
ونصيبه في الشقاء من سلطانها عظيما ورزؤه كبيرا .

عمل متواصل !

قال « كانت » . . . حاسب نفسك اذا سقطت واذا خدعت فالذنب ذنبك واذا قعد بك العجز والفاقة فمعنى ذلك انك لم تعمل شيئا لتسكون غنيا ... » . ذلك لان الله عز وجل عندما خلق الانسان قد اودع فيه قوة مدركة ووجدانا بهما يدرك الخير والشر ويشعر بالجمال وفتنته ، والقبيح ومعرفته ، ومنحه ارادة تشير عليه وتوجه سيره في هذه الحياة ، وفرض عليه المسؤولية لقاء تفضله عليه بهذه الارادة . ولذلك فان « كانت » كان مصيبا حقا حين وجه خطابه للانسان فقال له حاسب نفسك اذا سقطت واذا خدعت فالذنب ذنبك واذا قعد بك العجز والفاقة فمعنى ذلك انك لم تعمل شيئا لتسكون غنيا . والحركات الشعبية ، والنهضات القومية توجدها قوى الانسان وتسيرها ارادته ، فان نجحت فمعنى ذلك ان القائمين بها كانوا قد احتاطوا لكل امر ، وتدبروه واحكموا خططهم ، واحسنوا التصرف في تنفيذها ولم يتركوا منفذاً يقرب منه الوهن والضعف ، فتجنبوا بيقظتهم وحسن التصرف مواطن الخطأ ، واتقوا موارد الفشل والخيبة وان خابت فمعنى ذلك انه كانت هناك اسباب دعت الى الخيبة اغفلها القائمون بالحركة او تهاونوا في اتقائها ، او انهم لم يقووا على الصمود في وجهها . فلا فوز ولا نجاح من غير سبب ، كما لا فشل ولا خيبة من دون دواع او جدتها . هذه هي سنة السكون ، الثابتة التي ان يعتريها تغيير ولن يتناولها بتبدل . وان الحظ الذي قال به كثيرون من المفكرين فلم يكن في الحقيقة الا

ملائمة ظروف ، وتوافر فرص وصدف ، استغلها المخطوط والمجدود ففاز
ببغيته ومنه فلو لم تستغل لما كان هناك فوز اذن فالاستغلال ، والعصر
الحسن لهذا الاستغلال هما سبب نجاحه وهما اثر من وجدانه ، وثمرة من
ثمرات قوته المدركة . لا الظروف ذاتها ، ولا الفرص ولا الصدف نفسها .
لقد مر خلال البحوث السابقة كثير من الشواهد والامثلة الواقعية (١)
ضربناها في سبيل تلخيص الاسباب والعوامل التي ادت اما الى نجاح الحركات
والنهضات واما الى اخفاقها وخيبتها . وكانت هذه الشواهد والامثلة ،
حقائق واقعية منها ما شاهدناه في حال حياتنا ، ومنها ما حكته الينا
الحقائق التاريخية ، ونسجته لنا ايدي المؤرخين والمفكرين ، وصورته
عقولهم وافكارهم . والحركات العربية التي انتهت بالاخفاق ، كغيرها من
الحركات التاريخية اصاب القاممون بها في موطن ، واخطأوا في موطن
ولما كانت اخطاؤهم غلبت اصاباتهم ، فقد حقت عليها الخيبة ، وفرض
عليها الفشل والخذلان .

ولئن حاولنا استقصاء اسباب الفشل ، واستجلاء عوامل الخيبة فليس
هذا معناه اننا نريد ان نوهن العزائم بالنقص ، وان ندعوا النشء ورجال
المستقبل الى اليأس والقنوط بالتجريح . بالعكس فانما نبتغي من وراء كل
ذلك تقوية العزائم وشحن الهمم ، واثارة النخوة والحمية من جهة ومن جهة
اخرى تجنب الاخطاء ، واتقاء السقطات لتكون الحركات المقبلة اجدى
نفعاً ، واحكم تدبيراً . والخيبة ليست عاراً ، كما قلت مراراً ، - وانما العار
السكوت عند الخيبة ، والاستسلام للقاتل بعد الخذلان . ففي الامة التي تجري
في عروق بنيتها دماء الحياة ، وتعمر نفوسهم عناصر القوة ، تكون الخيبة
اقوى حافزاً ، للهمم واعظم اثرأ في اعداد النفوس الى النشاط والكفاح . واقد

(١) ما جاء ذكره في هذه المقدمة او في اصول الكتاب التالية .

كان الرومانيون يستمدون قوتهم من هزائمهم ، ويستوحون نشاطهم وفعاليتهم من اندحاراتهم اكثر مما كانوا يستمدون ويستوحون من انتصاراتهم وغالبيتهم . ولقد كان اندحار المسلمين في واقعة أحد سبباً لانتصاراتهم التي انتهت بسقوط مكة في ايديهم وتغلغلهم في داخلية شبه الجزيرة كما ان خيبتهم في واقعة مؤتة كانت عاملاً قوياً لنشاطهم في خارج الجزيرة واخضاعهم للقطر الشامي . والذي يقرأ تاريخ الاسلام بأمعان يستطيع ان يدرك ما احدث الاندحاران ، في أحد وفي مؤتة من ألم في نفوس المسلمين ، وما اثار هذا الألم من همم وألhb من عواطف ، وشحن من عزائم ، هيأت لهم الانتصارات المقبلة . والتاريخ العربي ، طافح بالامثلة متآق بالشواهد ، لكل نوع من الابحاث التي سبق بسطها وانما يتجنبها المؤرخ ، ولا يمسها الكاتب لأن اكثر رجالنا واعظم شبابنا - مع الاسف - يلهون بتواريخ الامم الغربية عن العرب ، اكثر من إلمامهم بتاريخ امتهم وحوادث وطنهم ، ولما يريد الكاتب والمؤرخ ان ينفذا الى صميم ارواح القارئين ببحوثها ونظرياتها ، يضطران الى اقتطاف امثلتها ، واختطاف شواهدهما من تاريخ الغرب ووقائعه . ولهذا السبب ابتعدت في بحوثي عن التاريخ العربي وان كانت النفس به عالقة . واغفلت شواهد امثلته في كثير من المواطن وان كانت الروح بها مفتونة والهة .

والآن اعود مرة اخرى الى تاريخ الامم الغربية لا نزع من بين متونه الامثلة والشواهد . فاروي قصتي عظمة المانية واتحاد ايطالية لنعبر بحوادثها ، ونتعظ بوقائعها .

أ - اتحاد المانية

قلت غير مرة ان عظمة المانية نشأت عن كارثة « يه نا » حين اجتاحت اراضيها نابليون بحيوشه الحرارة ولم يقف زحفه إلا بعد ان أذل برلين ،

وأخضعها لسلطانها . فكارثة « يه نا » التي انتهت بأن تقع برلين صريعة تحت سنانك خيل نابليون ، كانت للامان مثار آلام موحجة ، ومصدر احزان مروعة ايقظتهم من رقدة ، ونهبتهم من غفلة كانوا فيهما سادرين . ثم تلا ذلك قيام العلماء في الجامعات ، والشباب المثقف بحملة انتقادية قاسية تناوات كل شيء في المانية . والمانية في ذلك الوقت ، وان لم تكن بلادها خاضعة للحكم الاجنبي سيما بعد ان قهر نابليون واعاد مؤتمر « فينة » تنظيم أوربة ، ولكنها كانت في شر الاوضاع ، وارداً الحالات ، لانها كانت مجزأة الى ٣٦ دويلة صغيرة كل دولة قائمة بذاتها ، لاصلة لها بالآخرى إلا عن طريق مجلس « الديت » الصورى الذى كان يعقد جلساته في فرانكفورت . وهذا المجلس الذى كان يضم ممثلين عن هذه الدويلات وعن الامبراطورية النمساوية لم يكن في الحقيقة إلا ممثلاً لارادة ملوك هذه الدول ، لاشعوبها ، عدا ان تمثيله لهؤلاء الملوك كان تمثيلاً زائفاً وشكلياً ايضاً . وما كان فى الامكان ان يكون غير ذلك لأن طبيعة الوضع فى البلاد الالمانية ، وجوهر النظام الذى كان يقوم على اساسه هذا الوضع كانا يوجبان تلك الحالة فالمجلس كان ينظر فى القضايا المشتركة بين هذه الدول . وكان لزاماً عليه ان يصدر قراراته باتفاق الآراء . ولما كان ملوك هذه الدول يختلفون بطبيعتهم ويتناحرون بالنظر الى مصالحهم الشخصية فلم يكن من الميسور له أن يصدر قراراً ما فى أية قضية كانت مهما كانت ضئيلة الاثر قليلة الخطورة الا بعد مرور سنين عديدة ، والا بعد فوات المصلحة . فلما أخذ مثلاً حسم قضية الرواتب المتداخلة التي كان طلبها عمامو الامبراطورية القديمة فى عام ١٨١٦ فلم يتم الا فى عام ١٨٣٩ والديون الحربية للسنين التي تخللت ١٧٩٢ و ١٨٠١ لم تفتحه تسويتها الا فى عام ١٧٤٣ بل ان الديون الحربية التي نشأت عن حرب الثلاثين عاماً المشهورة لم تؤد الا بعد عام ١٨٥٠ وان التعليمات التي دونت فى عام

١٨٢١ لتنظيم وتنسيق جيش الهيئة المتحدة الألمانية لم يؤخذ بها الا بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٣٦ . ان تاريخ هذا المجلس مليء بالحوادث والوقائع المادية التي تثبت انه لم يكن ذا أثر فعال في تكوين المانية وتقدمها ، ولم يكن صالحا لأن تعقد الأمة الألمانية الآمال عليه . والأمة الألمانية كانت في حاجة ماسة الى حركة نشطة تنقذها من التجزأة التي منقتها واوهنتها ، والى قادة حازمين يأخذون بيدها ويهدونها سواء السبيل . وكان احرارها ومنكروها يدركون ادراكا عميقا حرجة الوضع ودقة الموقف وان وطنهم انما كان يضطرب بين الحياة والموت ، فاما سكوت يفتحي بالموت ، واما نهضة عنيفة تعيد له الحياة خضبة مرعة . ولقد ذاقوا ضربات نابليون ، وتجرعوا علقم الاحتلال وصاحبه ، وما دامت في جانبهم الأمة الفرنسية الذكية النشيطة الجريئة فلا مفر لهم من جمع شتاتهم وتوحيد كلمتهم واتحاد افكارهم والا فلا مصير لهم غير الفناء .

ولقد حاولت الطبقات المثقفة والمتعلمة وعلى رأسها الفلاسفة ، واساتذة الجامعات ان تقوم بحملة جريئة ضد الاوضاع القائمة آنذاك فبدأت بمطالبة القوانين الأساسية للبلاد ، ومنح شعوبها الحرية في الكلام والاجتماع والفسر وانقاذها من سلاسل العبودية ، لتهيئ نفسها الى الاتحاد وتكوين المانية المتحدة . وانهقدت لهذا الغرض في ١٨٤٦ مؤتمرات جرمنية تبادل الرأي فيها علماء الألمان ورجالهم . وفي عام ١٨٤٨ انتهت اضطرابات برلين وفينة بمنح الملوك القوانين الأساسية لدويلاتهم وجمع المجالس التأسيسية لهذا الغرض . وفي فرانكفورت عقد الاحرار الألمان برلمانا تحضيريا ، جمع أعضاؤه من نواب المجالس النيابية للدويلات الألمانية . وقد قرر هذا المجلس انشاء برلمان لجميع البلاد الألمانية ، ينتخب أعضاؤه عن كل ١٠٠.٠٠٠ الماني عضو واحد وقد حصل الاتفاق على تنفيذ هذا القرار الخطير وبالفعل تكون البرلمان المنتظر وبدأ بسن قانون أساسي لألمانية المتحدة ، كما عهد بمقام الامبراطورية بصورة

موقفة الى أحد امراء البيت المالک النمساوي . والف هذا بدوره « الوزارة
الامبراطورية » .

ولما بدى بتصديق مواد القانون الاساسي أخذت تعترض سبيل البرلمان
عقبان خطيران . اولهما كيف تتكون المانية المتحدة ومن أي البلاد وثانيهما
من يكون امبراطوراً ، هل تودع الامبراطورية الى امبراطور النمسة ام الى
ملك بروسية ؟ وكانت العقبة الاولى ذات اهمية خاصة ، فاذا تغلب عليها
البرلمان تلاشت اهمية العقبة الثانية بطبيعة الحال لانها فرع للاولى .

ان السبب الموجب الى الاتحاد ، والحافز الحقيقي الذي دفع برجال
المانية المثقفين المفكرين الى تنظيم الحملات التي انتهت الى هذه الاجراءات انما
كانا ناشئين عن الخوف من تكرار المآسى التي حلت بألمانية في عهد نابليون
لذلك كان المفكرون يطعمون في تكوين المانية متحدة ، مؤلفة من العنصر
الألماني الخالص بزعامة بروسية وآخرون كانوا يقولون بفكرة اوسع من
هذه الفكرة ، كانوا يقولون بانشاء المانية الكبرى التي يجب ان تؤلف
من البلاد الألمانية والبلاد النمساوية في وقت واحد ، وتكون زعامتها في
عائلة هابسبورغ النمساوية .

فالبرلمان اصطدم بهذين الرأيين وسبب هذا الاصطدام انقسام اعضاءه
الى قسمين غير ان حزب المانية الصغرى كان قد تغلب على المانية الكبرى
واصدر البرلمان قراره باغلبية ٢٦١ ضد ٢٢٤ ، بتكوين المانية الصغرى المؤلفة
من جميع البلاد الألمانية ماعدا الامبراطورية النمساوية وانتخب ملك بروسية
ملكاً لها . وكان انتخاب ملك بروسيا حلاً طبيعياً للنقطة الثانية . ولكن
تقلية الملوك في القرن التاسع عشر لم تكن قد انطلقت من عقاها بعد ، فهي
ما زالت تعتقد بالحق الالهي وانه ليس للشعوب الحق ان يمنحوا التيجان الى
الملوك وبناء على هذه العقلية ، فقد امتنع ملك بروسية ان يتلقى تاج المانية

المتحدة ، من الشعب الألماني لأن تاجا يتلقاه من الشعب إنما هو تاج « من
طين ومن خشب » فهو لن يتلقى التاج الا من نفسه وإلا من أقرانه وانداده
فهذا الرد المقاجي ، قد سبب غضب الاحرار ، او سخط الجمهوريين منهم
بالاخص ثم بتجريض امبراطور النمسة واغرائه قام الملوك الآخرون
بسحب ممثلهم من المجلس واخذ كل واحد منهم يطارد الاحرار في بلاده
ويتعقبهم وبهذه الصورة انتهت هذه المضاعى جميعها بالخيبة ، واختفى ظل القوانين
الاساسية من البلاد . ولكن ملك بروسيا ابقى قانون بلاده الاساسي ، على انه قد
افهم الشعب بأن مجلسه لا يتعدى المجلس الاستشاري لا اكثر ولا اقل حتى ان
النواب كانوا في التشريعات الرسمية يأتون بعد الضباط الذين رتبهم لا تزيد
عن الرئيس في الجيش .

ومنذ عام ٨٥٠ الى ١٨٦١ كانت تسود الاوساط الألمانية الارتباك
الفكرية والحيرة الروحية . فالعلماء والمثقفون كانوا لا يدرون كيف يوحّدون
بين هذه الرؤس المختلفة الأفكار المتباينة الاغراض والاهداف فان جمعوها
تحت الراية البروسية اخذ امبراطور النمسة يدس الدسائس ، ويقتل الحبال
لتشتيت جمعهم ، وتفريق كلمتهم ، وان أمالوها الى الراية النمساوية قامت قيامة
الاكثرية الألمانية القائلة بالافتراق عن النمسة لأن البلاد الألمانية اذا اتحدت
في ظل راية النمسة فقدت عنصريهما وزال أثرها كأمة حيث ان الاكثرية غير
الألمانية الموجودة في الامبراطورية النمساوية تغطي عليها ، وتبطلها وكان
يؤيد هذه الاكثرية في دعواها الحققة ملك بروسيا ورجاله .

وفي عام ١٨٦١ وبفضل وصول بسمارك الى مقام المستشارية تعينت
خطوط الجهاد الألماني واضحة ، ورسمت السياسة الألماني بدقة واتقان .
قرر هذا الداهية ان يوحد المانية « بالحديد والدم » لأن طريق السلام
قد انسد ، وخطة الملاينة قد باءت بالفشل غير مرة ، فهو لا يريد ان بعيد التجارب

الفاشلة ، ولا يعاود الخطط الفاسدة .

درس الأوضاع درس خبير حكيم ، وبحث المشاكل بحث مدرك عليم
فخلص بنتيجة واحدة ، هي لم يعد في الطاقة تحمل تدخلات الامبراطورية
النمساوية في الشؤون الألمانية . وعليه فيجب ان يقام الاتحاد الألماني المنتظر
على اساس طرد الامبراطورية النمساوية من ساحة العمل ، والتكتمل حول ملك
بروسية ليعطي حداً للتنافس بين العائلتين المائكتين ، ولما كان طرد
الامبراطورية النمساوية من ساحة العمل الألماني لا يمكن ان يتم الا بحرب ،
وان بروسية ليست مستعدة لمجابهة القوات النمساوية فقد اعتبر اعادة تنظيم
الجيش الألماني وتنسيقه عماد سياسته الداخلية . ولما كان يخشى ان تؤدي
الاجراآت التي صمم على انجامها ، الى اتفاق الدول الخارجية ، فقد جعل
خطب ود الدول ذات العلاقة او كسب رضاها عماد سياسته الخارجية . اذن
فقد اقام سياسته العامة المؤدية الى الاتحاد على ركنين احدهما داخلي وهو
تقوية الجيش وثانيهما خارجي ، وهو مسايرة الدول ذوات العلاقة والعمل
في كسب رضاها ، ومداراتها .

ان اصلاح الجيش كان يقتضى الاتفاق ، والترخيص للاتفاق كان يستلزم
الرجوع الى رأي البرلمان ، ولم يكن سهلاً على بسمارك ان يقنع اعضاء البرلمان
بالترخيص له بالاتفاق بنطاق واسع واكثريةهم كانت تتجنب الحرب وتزعم
الى الاقتصاد . ولكن بسمارك تقدم بطلباته غير عابئ بما كان يجري في
أروقة البرلمان من مؤامرات تقف في سبيله وتقعده بمشروعاته . فلما جوبه
بالرفض حل المجلس ثم استأنف الطلب فجوبه بالرفض مرة أخرى ، عندئذ
أخذ ينفق على الجيش ، ويزيد فيه من دون ان يراجع المجلس بل أخذ
يقدم الى المجلس الاعتمادات بعد ان تكون قد انفق وتم امرها
واصبح المجلس بعد ذلك مجلساً استشارياً محضاً لا كيان له ولا سلطان على

ان بسمارك وان أغضب الامة في شخص مجلسها ، فقد استطاع ان يكون لها جيشا لجبا مدربا احسن تدريب ، ومفسقا اروع تفسيق . ثم مال الى الناحية الخارجية فأطمع نابليون الثالث امبراطور فرنسا في معاونته لتحقيق اغراضه في بلجيكا وسواحل الرين فكسبه الى جانبه كما انه ساعد امبراطور روسيا في اخضاع البولونيين الذين كانوا قد أعلنوا عصيانهم في ١٨٦٣ فنال رضاه وفي حين الوقت افلح ان يجعل ايطالية في جانبه بوعده اياها بـ « وانه تيا » واما بريطانيا فانه كان يعتقد بأن لا مصلحة لها تدعوها الى التدخل وبهذه الصورة استطاع ان يجعل الامبراطورية النمساوية في عزلة تامة وان يأمن جانب هذه الدول ، على اساس انها اذا لم تكن متحالفة معه فهي على كل حال سوف تكون ملتزمة بجانب الحياد . فيما اذا حدث حادث بينه وبين النمسة وبدأ يتحين الفرص ويتربص بالنمسة الدوائر ويهيئ أسباب الحرب ضدها .

ففي عام ١٨٦٤ هاجمت بروسيا والنمسة هولشتاين وشله زويغ واصبحتا في حالة حرب مع الدانمارك . فأعطيت هولشتاين الى النمسة وكانت شله زويغ نصيب بروسيا .

وفي عام ١٨٦٦ هاجمت بروسيا هولشتاين بحجة ان النمسة تروج فيها الافكار الانقلابية فعرضت النمسة الامر على مجلس « الديه ت » فقرر لمصلحتها .

ان قرار المجلس هذا ، قد دفع بروسيا الى ان تعلن انحلال الاتحاد الشكلي الذي كان يمثل مجلس « الديه ت » وبواقعة واحدة ، سحقت بروسيا القوات النمساوية وحطمتها .

فهذا الاصطدام انتهى بنتائج ثلاث :

(١) طرد النمسة من حياة المانية المتحدة وتحكم بروسيا بالبلاد الالمانية

برمتها وفي ضمنها شله زويغ وهولشتاين

(٢) الحاق كل من « هانويرا ، وهس ، وناساو ، وفرانكفورت »
بروسية بالقوة .

(٣) عقد اتحاد من بروسية وما الحق بها من جهة ومن الدول الالمانية
الشمالية التي ظلت محافظة على استقلالها ، على ان يكون ملك بروسية رأس
هذا الاتحاد . وان يفتقى مستشار الدولة من وزراء بروسية بأرادة الملك وان
يؤلف مجلسمان أحدهما يطلق عليه مجلس الاتحاد وهو يؤلف من مندوبين
الحكومات الداخلة في الاتحاد وثانيهما يسمى بالرايخشتاغ وهو يؤلف من
من النواب المنتخبين .

وفي كانون الثاني ١٨٧١ وفي فرسايل اعلنت الامبراطورية الالمانية
بعد اندحار فرنسة . على ان هذه الامبراطورية لم تغير الوضع في المانية
المتحدة حتى انه لم يكتب قانون اساسي لها . وانما بقيت الحالة على ما كانت
عليه ولم يتبدل غير الاسم فقط وغير انضمام الممالك الالمانية الجنوبية الاربع
الى الاتحاد ، والحاق الاراس واللورين بألمانية

ان هذه العظمة التي تلخصت حكايتها في بضع صفحات ، لم تنفأ الا بين
الحديد والنار ، وفي وسط الدموع والآلام ، ولم تعد رواقها على الارض
الالمانية ، الا بعد اندحارات اليمه ، وخيبات وهزائم مثيرة للشجون . انه من
اليسير على المرأ ان يقرأ قصة تطورات أمة ، ويلم بمجهودها ومساعدتها ، ولكنه
ليس من اليسير ان يقدر قيمة تلك التطورات ، واهمية هاتيك المساعي والجهود
الا بعد تأمل طويل وتدقيق دقيق ان. المانية الى ان تعززت ببسمارك لم تكن
واثقة من حياتها ، وتعبير اصح انها الى تلك اللحظات لم تكن قد عيقت طريقها ،
واختطت خططها . لقد كان فيها بانون مشيدون ، وقد كان فيها مخربون
هدامون . وقد كان الخطر يكتمفها من خارجها بقدر ما كان يعمل في داخلها .
والهمم والعزائم ، اذا ارادت امرأ ، امضته ، مهما كان صعبا ، عارما . انها

تلهم النفوس الصبر على الشدائد والمكاره ، وترزقها رباطة الجأش وقوة الجنان في الازمات والملمات ، بل انها تستغل الاندحارات والهزائم كما تستغل الفتوح والانتصارات . وماذا يظن في المانية المندحرة المستسلمة في عام ١٩١٨ ؟ انها نشأت نشأة جديدة اخرى كانت فيها اكثر اتحاداً ، واشد قوة من المانية القيصرية ، او المانية الامبراطورية . فلو كانت عناصر الحياة فيها ضعيفة واهنة لرختها مصيبتها ، واذهلقتها كارثتها ، ولكننا القوة المتفجرة في عروق بنيتها لم يهدأ اغتلامها وصخبها إلا بعد ان اعادت الى المانية فتوتها ، ونشاطها ، بصورة أكثر روعة ، والطفرونقا . فالعظمة المانية اذن كانت وما تزال وليدة الآلام والدموع ورغبة المصائب والنوائب ، وصفية الهزائم والاندحارات .

ب - اتحاد ايطالية

وكما كان شأن المانية العظيمة فكذلك كان شأن ايطالية المتحدة . لقد كانت في فجر القرن التاسع عشر تعبيراً جغرافياً فقط كما قال مترنيخ واسكن هذا القول قد جرح كبرياء الايطاليين الشعارين بكيانهم ، واهاج عواطف المثقفين منهم ، واثار نخوتهم وحميتهم فعملوا جاهدين في سبيل احياء مجد روما ، واعادة سلطان ايطالية وكيانها . وقد افلحوا في عام ١٨٤٨ ان يعيدوا الى المقاطعات الايطالية المتجزأة حرياتها ، وان يضطروا امراءها وملوكها الى ان يعلنوا القوانين الأساسية الكافلة للحريات العامة . ولكن الحركة لم تكن محكمة التدبير ، فعادت على المقاطعات المذكورة شرراً ، وبأت على بنيتها بالويل والثور ، ورجعت بهم الى الحالة التي كانوا عليها قبلاً ، واصبحت ايطالية من جديد تعبيراً جغرافياً فقط ، ولا شيء غير ذلك . لقد اعاد ملك نابولي الادارة المستبدة ، بعد ان امدته كل من فرنسا واسبانيا والنمسة بجيوشها والنمسيون احتلوا مقاطعة « روماني » والبابا اعاد الادارة المستبدة السابقة في روما . ولقد طردت النمسة جيوش ساردينيا من لومبارديا ، وقضت على جمهورية فينيسيا

الحرية ولم تعد في ايطالية حكومة وطنية حرة ، تستطيع العمل في سبيل
ايطالية ، او ترفع الصوت عنها الا حكومة صغيرة انزوت في ساردينيا لقد
عاد النفوذ الاجنبي الى الارض الايطالية ، اشد عنفا ، واقرى سلطانا واثقل
وطأة ، حتى ان « دازه غليو » وهو احد اركان الحركة ، وزعمائها المفكرين ،
قال « .. اني لا استطيع ان اقرر ماذا سيكون لا مناص لنا من ان ننظر الى
ان ينتهي انحدارنا الى اعماق الهاوية حتى نعود فنجمع شتاتنا ، ونعيد تنظيمنا .
فاذا جمعنا انفسنا واعدا تنظيمنا فيجب علينا ان نستأنف العمل واسكني واثق
من اني سيف لا أعمر الى ان يحين اقتطاف ثمرته . »

هذه الكلمات التي يمازجها الحزن والام ، ويطفوا عليها الامل والقوة ،
توضح لنا الى اية درجة كانت الخيبة مريرة والفشل فجيعا . لقد انحدرت
ايطالية بسبب هذه الحركة الى الهاوية ، واسكن دازه غليو لم ييأس فانه
يعلم عزمه على جمع شتات ايطالية واعادة تنظيمها ليستأنف العمل من جديد
وان كان هو لا يؤمل ان يقتطف ثمرته . ولئن حرمته الاقدار ثمرته فلتكن
نصيب بنيه وليرقد هو في قبره منعا ما دامت ايطالية ماضيه في سبيل الجهاد
ومعترمة الحياة الحرة .

لقد بدأ الايطاليون يجمعون شتاتهم ، بعد خيبة حركة ١٨٤٨-١٨٤٩
ويعيدون تنظيمهم كما ان مفكرهم اخذوا يستقصون اسباب الخيبة ، وعوامل
الخسار و يبحثون الاخطاء ويدققون في السقطات . فخلصوا من جميع
ابحاثهم وتدقيقاتهم ، واستقصا آتهم ، بنتيجتين اثنتين . هما أس الداء
وسبب البلاء . اولاً ان ايطالية لا يمكنها ان تقوم لها قائمة ما لم تحدد موقفها
الداخلي وتعيينه تعيينا تاما يدرأ اسباب الخلاف ويقضي على عوامل التفرقة .
واقدر كان الايطاليون منقسمين على انفسهم حين قاموا بحركة ١٨٤٨-١٨٤٩
فقد كان فريق منهم يعمل للملكية وفريق يعمل للجمهورية وقد كان

اختلاف الفريقين في نوع العمل سببا لا ضعافها كليها امام القوات الاجنبية المترصدة لها الحائقة عليها . نعم . ان الايطاليين كانوا يجمعين على تخليص الوطن الايطالي من السلطان الاجنبي واسكن ماذا يفيد اجماعهم على الغاية اذا كانوا مختلفين في الاسباب والطرق الموصلة اليها ؟ وكيف تندحر القوة الاجنبية اذا كانت القوة الوطنية غير مترصدة الصنفوف ، ولا متمسكة الأجزاء ؟! فهذا ما زريني يزعم ايطالية الفتاة ولا يريد لا ايطاليا غير الجمهورية وذلك مانين يؤيد هذا المبدأ ويتولى بنفسه رئاسة جمهورية البندقية وتلك الأحزاب الملكية التي تؤيد عائلة سافووا ولا ترغب في ان تجد عرش ايطالية في غير ابنائها . فاذا لم تتفق وجهات النظر ، وتوحد طرق الكفاح فليس من سبيل الى الفوز والنجاح معها بذل الفريقان من جهود جبارة .

وثانيا ان ايطالية — وأكثر بلادها خاضع لسلطة اجنبية قوية — لا يتصور لها النجاح في أية حركة ما لم تعضدها قوة اجنبية خارجية . ان الاعتماد على النفس شيء جميل ومبدأ قويم من دون ريب . واسكن الاعتماد حدوداً ، وان له ظروفًا وحالات معينة لا يتعداها . ففي كثير من الحالات والظروف ، لا يكفي الاعتماد على النفس اذا لم يقو بأسباب خارجية ، ويسند بعناصر تزيد قوة ومضاء . وكانت ايطالية في حالة ووتنوع لا تكفيها لاجتماع ظلمات الاستعباد الاستنارة بمبدأ الاعتماد على النفس وحده لأن طريق جهادها ، كان مظلمًا و كان مليئًا بالحفر والأخاديد الى درجة لا تستطيع معها عبوره الا ان تستهدي بنور قوي الأشعاع ، جمعت عناصره من قوى متعددة .

وكما هيأ القدر لالمانية بسمارك يقوم بععب . تقويمها ، وتقديمها فقد هيأ القدر كذلك الكونت كافور لايطالية . لينهض بها . يأخذ بزمام امورها . وكان كافور رئيس حكومة ساردينيا ، المماسكة الايطالية المستقلة الوحيدة . لقد أقام سياسته على مبدأين الاول توحيد صفوف ايطالية في الداخل

وتوجيهها نحو هدف واحد هو تكوين ايطالية بزعامة عائلة سافوا حاكمة « بيمونتي » والثاني كسب عطف الدول الاجنبية وطلب معونتها . فسياسة الداخله اذن : كانت ترمي الى جمع كلمة الملكيين والجمهوريين والاتحاديين وحشرم في صعيد واحد وتوحيد جهودهم ليؤيدوا اتحاد ايطالية بزعامة ساردينيا ويستظلوا براية الملكية فيها . وقد أيد الجمهوريون والاتحاديون سياسة كافور الملكية وتنازلوا عن فكرتهم الجمهورية بعد ان وثقوا بأن نجاة ايطالية لا تقيسر الا بالعمل تحت راية ملك سردينيا الايطالي وقام مازيني فألقى حزبه الجمهوري المسمى بحزب ايطالية الفتاة وأسس بدله حزب الاتحاد القومي مبدأه تحرير ايطاليا على أساس الملكية وماين رئيس جمهورية البندقية الذي كان قد التجأ الى باريس بعد اندحاره في عام ١٨٤٩ أعلن تأييده للملكية كذلك . وخطب اصراء عائلة سافوا المالكة بقوله المشهور « ... يا أيها الاصراء . ابعثوا ايطاليا الى الوجود فاني معكم ! ليكن الاتحاد والاستقلال شعارنا ودستورنا ! ... » . ولماين هذا موقف رائع ازاء رجال الحكومة البريطانية حين عرض عليه أحدهم اقتراحا يرمي الى تسوية المسألة الايطالية بانشاء ادارة نمسوية ملائمة . حيث اجابه برسالة جاء فيها « . انه من الدناءة لائمة ان تخضع لحاكمية أجنبية . نحن لا نطلب ادارة نمسوية ملائمة وانما نطلب منها ان تغادر بلادنا وتتركنا وشأننا . » .

فكافور قد اتخذ كل ما يقتضي من التدابير لتوحيد كلمة الايطاليين وتوجيه أحزابهم وجبهاتهم السياسية الى هدف واحد هو العمل المتواصل لانقاذ ايطالية بزعامة عائلة سافوا الملكية . وبعد أن استوثق من هذه الناحية أخذ يعمل في حقل السياسة الخارجية لكسب الدول ذوات العلاقة الى جانبه واول خطوة خطاها في هذا السبيل اشتراكه في حملة القريم وارساله جيشا قوامه ١٥٠٠٠ نفرأ وبهذه الحركة أولا استطاع أن يكسب عطف

فرنسة وبريطانيا واثانيا كسب لحكومته حق الاشتراك في مؤتمر باريس الذي انعقد في عام ١٨٥٦ لتسوية المشكلة العثمانية - الروسية وكان يرمي من وراء اشتراكه في هذا المؤتمر الى بسط مظالم النمسة في الوطن الايطالي لممثلي الدول فيه .

وقد استغل كافور فرصة وجود نابليون الثالث على رأس الحكم في فرنسة كأمبراطور له سلطة ديكـتاتورية ، استغلالا عظيما لصالح ايطاليا . حيث ان نابليون كان من جملة أعضاء الحزب السري الذي الف في عام ١٨٣١ لا نقاذ ايطالية فهو من مؤيدي استقلال الوطن الايطالي والعاملين في سبيله . وقد زاد كافور بتصرفاته الحكيمة في ثقة نابليون به وعطفه على مقاصده السياسية . فانه عدا اشتراكه في حرب القريم نزولا عند ارادة نابليون فقد وعده كذلك بالحق سافورا ونيس بفرنسة وفي الحق ان حركة اتحاد ايطاليا لم تأخذ شكلها الحاسم الا منذ ١٨٥٩ أي منذ أن عقد الاتفاق بين كافور ونابليون . وبناء على هذا الاتفاق فقد أعلن نابليون وكافور الحرب على النمسة وقد احتلت الجنود الفرنسية لومبارديا برمتها واسكن نابليون سرعان ما عقد الصلح مع النمسة لأسباب تخص فرنسة فقط فاضطر كافور الى ان ينحونحوه ، ويتعقب أثره فتصالح كذلك بعد ان كسب لومبارديه وفي خلال الحرب قام الاتحاديون في كل من توسكانا وبارم ومورون فاعلنوا في هذه المقاطعات القانون الاساسي اليمونتي اي « ساردينيا » ووجدوا دوائر البرق والبريد والغوا الرسوم السكركية بين البلدين وبالأخير طابوا بالانضمام الى « ييمونتي » وبعد اجراء تصويت عام تم الالحاق في عام ١٨٦٠ ولم يبق خارج الاتحاد سوى نابولي وروما فأما نابولي فقد وجه اليها غاريبالدي بترتيب خاص من كافور . هاجم غاريبالدي جزيرة صقلية برفقة ١٠٦٧ فدائيا ومنها اجتاز حدود نابولي ففر ملكها وتبعثرت قواته ف وقعت صريعة تحت اقدام احرار ايطالية فأعلن غاريبالدي دكتاتوريته فيها

لم يكن في وسع كافور ان يهاجم حكومة البابا لأن نابليون الثالث كان يحميها فاتجه صوب بروسية يسايرها ويتفرق معها ولم يحل عام ١٨٧٠ وتقع الكارثة على نابليون حتى اهتبلها كافور فرصة مؤآنية فدخلت جنوده روما ، واعلنها عاصمة لاطالاية ولم يمر ربع قرن على هذه الحادثة حتى سميت ايطاليا الى صف الدول الاوربية المعظمة فالصبر على الشدائد والاُمَل في الحياة ، والعمل المتواصل بحزم وارادة ، كل هذه كانت اسبابا قوية لتبعث امة كانت في اول القرن التاسع عشر تعبيراً جغرافياً فقط ثم صارت في اواخره احدى دول أوربة المعظمة .

* * *

فالأمم حين تعمل في سهيل حريتها ، وتتحرك من أجل سيادتها وكرامتها الوطنية ، قد تعتور طريقها عقبات ، وتقوم في وجهها صعاب بل قد تمنى بمصائب وويلات ، وتصاب بخسارة في الأرواح وفي الأموال وبأندحارات وهزائم لم تكن في الحسبان ثم تعود فتجمع أطرافها ، وتستأنف نشاطها وتندفع الى الأمام ، وتظل تكرر هذه الاندفاعات الى ان تظفر بما كانت تصبو اليه . وان قابلية الأمم وجدارتها للحياة انما تقاسان بما تبدي من روح عارمة ، وصبر على المكاره ، وقوة في العمل لتحقيق الأمل ، وان فشلت مراراً واندحرت اندحارات متعاقبة !

* * *

ان الحركات العربية التي تشع حقاً وصدقاً قد باءت بالفشل . وهذه خاتمة أليمة بلا ريب . واكن هذا الفشل يجب ان يكون انا مصدر قوة جديدة ، نستأنف بها العمل وتندفع بها الى الامام . ان في كل أمة فريقاً من أبنائها يحاربون أمانيتها ويقاومون آمالها ، ويثبطون العزائم ، ويحبطون المساعي والاعمال الوطنية . وقد يجدون في خيمة حركة ، وفشل مشروع ، خير فرصة يستغلونها لبث سخوم آرائهم ، واشاعة فئدهم وانغمهم في أرساط

الامة . ان مهمة الاحرار مكافحة هذه الجرائم الفتاكة ، واستئصال شأفتها واحباط مساعيها قبل كل شيء . اننا اذا خسرنا المعركة فقد كسبنا الشرف كسبنا الشرف لائن الشعب العربي قد أشهد العالم أجمع ، على أنه شعب أبي لا يرضي الضيم ولا الاستعباد ، ولا يقبل ان يستقيم الى الاجنبي أو يخضع لأرادته . واذا كان قد دحر امام قوة لا تتكافأ ولا تقناسب مع قوته فليس في هذا الاندحار ما ينقص رجواته ، أو يفض من شرافة مقاصده ونبل غاياته .

ليس في وسع القوة ان تزيل معالم الحق ، أو ان تطمس انواره . ونحن ما دمنا نفشد حقاً ، فلن تنتهي جهودنا ومسايعنا بالخسران فلا بد من يوم أغر عجل ، نفرض فيه أرادتنا ، ونعتز بالحق الذي كنا ننشده . والدهر لا تصفو مشاربه لا أحد سبياً للظالمين وعبره واضحة ، جليلة ، وعظاته بينة فصيححة وساء قال من ركب شيطان الغرور ، وجمحت به نزوة الضلال فظن نفسه من المؤبدين .

نحن لا نخاف الاحرار والمخلصين المؤمنين بحق وطنهم عليهم والمقدرين واجباتهم نحوه . ان هؤلاء في جانبنا في كل وقت ما دامت غايتنا شريفة ، واهدافنا واضحة ، سواء فزنا بالظفر ، أم اصابتنا الاندحار . لان الحق مفهومه واحد لا يتغير بالاندحار او بالظفر ، فكما ان من كان يفسد الحق ، ولم يسهفه القدر بالظفر به لا يجعله اندحاره مبطلا ، فكذلك من يطلب باطلا فظفر به لا يمكن ان يكون غير مبطل ذميم .

ثار عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان ، الخليفة الاموي واعلن خلافته في الحجاز . أني لا أريد ان احقق في أي جانب كان الحق . واسكن على كل حال ان عبد الله حين خرج على عبد الملك كان يشعر في قرارة نفسه أنه أحق منه في الخلافة ولكن غريمة قد ضربه بالحجاج القوي الشكيمة

الغليظ القلب فقهره . حتى آل أمره الى ان ينزوي في المسجد الحرام والى ان يبقى في قلة من الاعموان والرفاق . لقد بذل الحجاج له الايمان فأراد هذا ان يستمزج رأى أمه اسماء ذات النطاقين فلما وافاها وصف لها حاله ، وكيف ان رفاقه منهم من قتل ومنهم من خارت قواه وتزلزلت أرادته وانه لم يبق معه إلا الاقل من القليل فماذا تظنون تجيب الأم ابنتها في مثل هذا الموقف الذي قد تغشاه سحب الموت وأحرق به ربابه ؟ انها كانت اسمى من ان تنصح أبنتها بالاستسلام وتفضيل الايمن على حياته وعدم تغضبتها والقذف بها في ميدان الشرف عزيزة كريمة . قالت له وهي تشمه وتلمسه لانه كانت عمياء قد قاربت المثة عاما ، « ... يا بني ! لا يلعبن بك صبيان بني أمية عش كريما ومت كريما . فان الموت لا بد منه انك اما ان تكون على حق فكيف تجفوه واما ان تكون على باطل فكيف ساغ لك سفك دماء المسلمين ؟ » اجابها أنني أخشى ان يمثل بي . قالت « . ان الكيش اذا ذبح لم يأمن السليخ ... » ولم تكف بذلك فقد اخبرته بانها خارجة تراقبه في ساعة السكفاح ، لتشدمن قوته ولتدفعه الى الاستبسال دفعا ، وما كان عبد الله بحاجة الى الاشارة والتشجيع فهو ابن الحرب وابوها ، ولكنها القوة في الروح ، والقوة في الايمان قد سمحت بأبنة الصديق فأوحت اليها بأن تقف من أبنتها البكر هذا الموقف الذي يتأرجح طيبا ويشع نوراً . ولقد كان عبد الله عند حسن ظن أمه به فقد قاتل الى ان قتل دون معتقده ، وفي سبيل فكرته .

ان الايمان بالحق وحده قوة . والمؤمن الصادق في أيمانه اذا صمم وأراد فإنه يأتي بالعجب العجاب . على ان الحقوق قد تختلف في الجوهر والكيفية ، كما تختلف صلة المؤمنين بها - قوة وضعفا . فالحق الشخصي وان كان محترما ومقدسا ، ولكن الحق العام هو اكثر حرمة وقدسية وكذلك يختلف الحق

العام نفسه من حيث الأهمية والمكانة . فحق الملكية ، أو الخلافة ، وإن كان ذا صلة كبرى بالأمة وبكيانها ، فإن حق انقاذ الوطن من العدوان الأجنبي هو أعظم أهمية وأسمى مكانة . ومعنى ذلك أن الذب عن حياض الوطن واستخلاصه من السيطرة الأجنبية هو واجب يفرض على كل فرد تأديته بأمانة وإخلاص ، قبل أن يفرض عليه واجب السعي لترتيب الملكية أو الخلافة في شخص ما من الأشخاص المكونة لمجموع الأمة وكذلك صلة المؤمنين بالحق قد تختلف قوة وضعفا . فليس من شك مثلا أن عليا ابن أبي طالب رضوان الله عليه كان أحق في الخلافة من معاوية . كان أحق منه ليس لقرابته الواشجة بالنبي العربي ، وللهصفات والسجيا الكثيرة التي تجعله أكثر قابلية لتحمل عبء هذه الأمانة فقط وإنما لاتفاق كلمة ذوي الحل والعقد عليه ومبايعتهم له . وكذلك شأن يزيد بالنسبة إلى الحسين بن علي . فإن بيعه يزيد كانت باطلة لأنها أخذت بالقوة والعنف . ولو خير المسلمون في وقتها فما كانوا ليختاروه خليفة والحسين بن علي حي في الوجود .

والنزاع الذي قام بين الخليفة الأموي عبد الملك وبين عبد الله بن الزبير وادعاء كل منهما بالخلافة وصلة كل منهما بهذا الحق ، كانت أقل قوة من صلة الإمام علي ، وأبنة الحسين بدون شك . إذ لو حققنا في الموضوع لجاز أن نصل إلى نتيجة واحدة هي أن الأولين كلاهما ليس له أي حق فيها لوجود من هو خير منه في الإسلام في عهده . لكن إذا نظرنا إلى كليهما ، وإذا اعتبرنا أن لا ثالث لهما يطالب بالخلافة وأردنا أن نحكم إرادتنا فيها ، فنختار أحدهما . لكن هو أنا مع ابن الزبير لأنه بلا شك ، كان أكثر غيرة على مصالح المسلمين ، وأشد حرصا على إقامة شعائر العدل والانصاف في الرعية من عبد الملك ، وبالتالي فإنه يكون أكثر صلة بحق الخلافة من عبد الملك . أني أقصد من وراء هذه الملاحظات المتواضعة الوصول إلى نتيجة واحدة ، هي أن

الحق قد تتفاوت درجته بالنسبة لأهميته وخطورته ، وقد تتفاوت كذلك صلة المؤمنين بهذا الحق أو مدعيه بالنظر الى بعضهم البعض ومع ذلك نجد الايمان بنوع من هذا الحق ، ايمانا صادقا يؤدي الى مواقف رائعة ومشاهد مثيرة للاعجاب . بغض النظر عن الفوز او الخيبة فيها فكيف اذا كان الايمان بحق من اسمى الحقوق مكانة ، وكان المؤمنون من أشد الناس صلة به؟ ان الحق في الخلافة وان كان في طبيعة الحقوق العامة التي تستلزم التضحية في سبيلها ، واسكن حق الوطن على بنيه اذا تحكم فيه اجنبي اكثر قدسية من هذا الحق ، واولى بالذب دونه والدفاع عنه . واذا كنا قد اكبرنا ايمان المدعين بهذا الحق ، في أشخاص الرجال الذين يعتقد المسلمون بأنهم اولى من المتغلبين عليه فلماذا نستهيئ بأيمان الذين قاوموا الاجنبي وارادوا انقاذ الوطن من سلطانه؟! فان كنا ماديين لا شأن لنا بالتوازن الروحية ولا حرمة لنا الاوامر الدينية فمن واجبنا ان نستقل بوطننا وان نستغل خيراته لمصلحتنا وحدنا . وان كنا مؤمنين بالدين الاسلامي مقتفين آثاره وعاملين بأوامره ففرض علينا ان نكون في حالة جهاد دائم ما دام وطننا يئن تحت الطغيان الاجنبي الذي لا تصلنا به صلة ، ولا تربطنا به وشيجة .

لقد خطب ابو بكر حين ولي الخلافة في الناس فقال بعد ان حمد الله واثني عليه . اني قد وليت عليكم واستبخركم فان رأيتموني على حق فاعينوني وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني اطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ... » لقد طلب لمن يسدّدوه اذا رأوه مال الى الباطل وعلق أطاعتهم له بأطاعته لله عز وجل ، فان هو عصاه كانوا في حل من طاعته . لانه لا طاعة مع عصية ولم يكن منفرداً في موقفه هذا ، فقد حذا حذوه ابن الخطاب وابن عفان وابن ابى طالب وحسبك من هم .

ان هؤلاء الخلفاء الذين رافقوا صاحب الرسالة ، فكانوا في حياته

وزرائه وبعد ان لحق بيارثه خلفائه انما يمثلون في اقوالهم واعمالهم حقيقة الاسلام الصافية الرونق ، النقية الجوهر .

والدين الاسلامي لم يأمر المستظلمين برايته ، الناهلين من معيته ان يكتفوا بسيادتهم في بلادهم ، وانما امرهم ان يجاهدوا في سبيل اعلاء كلمة الله وان يخوضوا المعارك في سبيل هذه الغاية المشرفة مستبسلين مستميتين في خارج بلادهم ايضا . يدل ذلك موقف الخليفة الثاني من ابي عبيده ابن الجراح قائد جيوشه في الشام حين لامه لوما شديداً على ابقاء جيوش المسلمين بعيدين عن موطن الجهاد وفسحهم المجال ، لتذوق غضارة العيش ، ورفاء الحضارة خروفاً منه على قوة معنويتهم من ان تنحط وعلى نشاطهم من ان يصاب بتخاذل وفتور .

ان ديننا هذا مدى نظراته الى الحياة العزيزة الشريفة كيف يعقل انه يرضى للمسلمين ان يكونوا اذلاء في ديارهم ، مستعبدين في بلادهم ، وان يستكبروا لهذا الذل ، وذلك الاستعباد ؟

ان الحركات العربية ، انما قامت على مبادئ وطنية ، تقول بها الاحكام الدينية ، وتدعو اليها الشريعة المحمدية والمبادئ الوطنية لا تتعاكس والمبادئ الدينية سيما المبادئ الدينية الاسلامية . لان المبادئ الوطنية التي كانت شعار القائمين بالحركات لم تكن ترمي الا الى انقاذ الوطن من الاستعباد الاجنبي وتحكمه المقيت وايداعه الى ايدي بنيهم لينعموا فيه على اختلاف طوائفهم واديانهم . والحركات العربية كانت معروفة المقاصد ، واضحة الاهداف . انها لم ترم الى منفعة شخصية ، او تحقيق مطامع ذاتية . بالعكس فان المنفعة الشخصية والمطامع الذاتية ، انما كان يمكن الوصول اليها بسهولة عن طريق عدم القيام بها ، عن طريق السعي في تشييط العزائم ، واضعاف الهمم . فهي فوق انها لم تكن ترمي الى منفعة شخصية او تحقيق مطامع

ذاتية فقد كانت مغامرة خطيرة ، وتضحية عظيمة في سبيل الله والوطن
انها كانت مغامرة خطيرة وتضحية عظيمة في سبيل الواجب والواجب انما
هو التضحية ، هو الحياة لله وللناس لا لاهلنا فقط كما عرفه بحق الفيلسوف
السياسي « جول سيمون »

نعم قد تسمح القدرة احياناً بان يكون الواجب هيئاً والسكنها غالباً
تضطرنا الى ان نتوجه نحوه بين الاخطار والالام والى ان ننسى لاهله
الدوق والمنفعة والمحبة والبغضاء والى ان نبذل في سبيله حق الحياة . فاذا
خبأت ثواباً للرجل الشريف فاننا نخبؤه في طيات القبور . واذا كان هذا
الثواب عظيماً فقد غالت بثمنه ...

وفي الحق ان الواجب يكون غالباً شاقاً وصعباً ، لانه قائم على التضحية ،
وعلى الفناء في سبيل الله والناس . ولا يفرض في الواجب الفوز والنجاح دائماً
فحسب المرأ ان يؤدي واجبه عن طيبة خاطر وطماً نية فلا يبالي بعدئذ أكان
بفوزه ارتفع الى العيوق . ام بخيبتة هبط الى الحضيض . فعلى كلتي الحالتي ، انه
ارضى الله والناس ، وانه كسب المثوبة ونال الجزاء من التاريخ والاجيال
المقبلة . ان الذين يبنون احكامهم على النتائج فقط من دون التفات الى الجوهر
والحقيقة ، انما هم قوم وهنت نفوسهم ، وهزلت ارادتهم ، واضاعوا سبيل
الرشاد . ان النتائج لا تصلح في اي وقت من الاوقات ان تكون معياراً
توزن به الاعمال ، ولا مقياساً تقاس به الجهود والمسااعي ، انما الاعمال تقدر
بجواهرها وتقاس بحقائقها .

عقبتان

ان الشعب العربي متفرق في اقطار عديدة ، وممالك واسعة مترامية الأطراف واكل قطر بيئته ، واكل مملكة وسطها ، وكما ان البيئات والاطراف تختلف فكذلك تتباين التأثيرات الخارجية فيها ، والقوات التي تضغط عليها وتحكم في شعوبها ولكن برغم كل ذلك فلا يسعنا ان نستبين بالعوامل التي تقارب بين هذه الممالك والاقطار والاسباب التي تكون من شعوبها وحدة ظلت قائمة ، محتفظة بجوهرها ، امام حوادث التاريخ ، وتقلبات الزمن . والعراق كجزء من هذا الكل ، متأثر بتلك العوامل ، متصل بها تيك الاسباب واذا اردنا ان نبحت امر اضه ، وادواءه مثلاً ، فليس لنا ان نكون بعيدين عن هذه العوامل والاسباب التي تتفاعل في كل بيئة عربية ، او مملكة عربية . صحيح ان اكل بيئة عربية . واكل مملكة عربية لها ، ظروفها الخاصة ، وطبائعها الخاصة ، وحالاتها الخاصة ولكن هناك طبعا علما تخضع له هذه الشعوب المتفرقة باعتبارها منحدرة من اصلاب واحدة ، وتجري فيها دماء واحدة ، واثرت فيها حوادث تاريخية واحدة وحالات عامة ، قد تلبست بها بصفتها مجموعة أمة عربية ، شرقية ، مسلمة ، تحتل اماكن ومساكن لها خطورتها العالمية من ناحية الزراعة والاقتصاد والسياسة ، ومن ناحية تحكمها في مواصلات الأمم ، وسيطرتها على الطرق التجارية والعسكرية . ويلوح لي ان هناك عقبتان كؤدان تحولان دون حرية هذه الشعوب واستقلالها ، او بتعبير اصح بان هناك عقبتان يستغلها العالم المتمدين ضد الشعوب العربية .

اولاها خارجية لها صلة بالسياسة الخارجية واخراما داخلية قد سيطر منها دم الشعب العربي ، وانبث منها تكوينه وخلقه ، فلاولى حرمان الشعب العربي من المعاونة الخارجية او صعوبة حصوله عليها والثانية طبع الشعب العربي وخليقته .

العقبة الأولى ...

لقد مرت بنا في البحوث السابقة ، تفاصيل وافية ، عن نهضات الشعوب ، ومطالباتها في حريتها واستقلالها ، سواء ضد الادارات المستبدة التي كانت قائمة فيها ، أم ضد تحكم الأمم الأجنبية فيها . والذي يعنيننا من هذه التفاصيل ، هي التي لها صلة بالنهضات والحركات التي قامت ضد تحكم الأمم الأجنبية .

لقد فهمنا من هذه التفاصيل ان أمة محكومة من أمة أجنبية اخرى ، اذا ارادت أن تنجو من ذل هذا التحكم ، وتفلت من قيوده اصبح لزاما عليها أما أن تتركن الى مساعدة امة أجنبية اخرى لتأخذ بيدها ، وتسير بها في طريق الحياة . وهذه قاعدة عامة ، وأما ان تنتظر فرصة التنافس الدولي واختلال التوازن فيه لمتجود عليها المجموعة الدولية بالحرية والحياة . ولما كان الطريق الأخير ، متوقفا على الفرص والمصادفات ، فإن الطريق الأول كان على الأغلب هدف الزعماء والقادة في كل امة تريد الحياة والنجاة .

ان أثر المعاونة الأجنبية في بعث الامم وخلقها كان قويا في كل دور من ادوار التاريخ ولسكن قوة هذا الأثر اخذت تنمو وتطرد في نموها كلما نمت المدينية الحاضرة ، واطردت في نموها . ومعنى ذلك ان قوة اثر المعاونة اصبحت تناسب تناسباً طردياً مع تقدم المدينية وهذه احدى نتائج المدينية المادية القائمة ، الخطرة على حياة الأمم وحرياتها ذلك لان تقدم المدينية

اذا كان يتناسب مع قوة أثر المعونة الخارجية تناسباً طردياً ، فمعناه ان تقدم
 المدنية يتناسب تناسباً عكسياً مع حريات الأمم واستقلالها . وزيادة في
 في الايضاح اقول . ان الأمم المحكومة في العهود السابقة كانت تستطيع
 ان تنال حرياتها ، واستقلالها بطرق وأساليب هي أبسر من الطرق والأساليب
 التي يجب عليها ان تسير بمقتضاها في ظلال المدنية القائمة في عهدنا الحاضر .
 ذلك لأن نسبة التفاوت بين قوة الأمة الحاكمة ، وقوة الأمة المحكومة
 كانت أقل من النسبة بين القوتين في الوقت الحاضر . واذا كانت النسبة قليلة
 فالأمل بالفوز والنجاح ، يكون أكثر ضماناً مما لو كانت النسبة كبيرة .
 فقبل اختراع الماكينة ، والبخار والكهرباء كانت الأسلحة التي تستعمل في
 الحروب معروفة وكان للقوى العضلية والحيلية أثر كبير في الاستفادة من
 تلك الأسلحة . كما ان وسائل التموين ، ووسائل النقل لا تعدو الحيوانات التي
 لها قابليات محدودة ، ففي تلك العهود كان في وسع الأمم المحكومة ان تنال
 حريتها واستقلالها بجهود أقل ، بل انها قد تنظر بما كانت تريد بمفردها من
 دون حاجة الى معونة خارجية . ولكن بعد اختراع الماكينة ، والبخار
 والكهرباء فقد انقلبت الأوضاع تماماً ، وتغيرت الأسلحة تغيراً كلياً .
 اصبح الفكر هو المهيمن في الحروب بدل القوى العضلية والحيلية ، واصبحت
 الماكينة هي التي تعمل عملها فتتأكل عوض السهم ، والسيوف والرمح ، فما كنة
 المدفع الرشاش ، وما كنة المدفع ، وما كنة الدبابات وما كنة الطائرات هي التي
 تقرر النتائج في الحروب . وأمس القلاع والحصون ، والحنادق ، وما الى
 ذلك من الموانع التي تعملها يد الانسان لا تقوى على الصمود امام نيران هذه
 الانواع من الماكينات . بل ان الموانع الطبيعية أخذت تتداعى ، وتتصدع من
 هول فتكاتها وعظيم تخريباتها . ثم ما كنت السيارات والطائرات وما كنت
 السفن أخذت تلعب دورها المخطير في تنظيم التموين ، وتنظيم العقل وتقريب

البعيد . ان الامة القوية المتحكمة ، التي استحضرت اسباب القوة ، وعبأت مختلف اسلحتها النارية اخذت تهدد الامة المحكومة ليس من الارض فحسب بل من الارض ، والبحر والسماء على السواء . ولما كانت الامة الحاكمة تعمل قبل كل شيء لتجريد الامة المحكومة من جميع انواع الاسلحة الحديثة ، فاصبحت النسبة كبيرة بين قوتها ، وقوة هذه الامة . فمها غلت فيها الروح الوطنية وكنمت فيها قوة المقاومة فهي لا تقوى على مجابهة نيران الاسلحة الحديثة . اذن فان المدنية القائمة ليست في جانب الامم الضعيفة ولا يمكن ان تكون في جانبها في وقت من الاوقات . اني ضربت امثلة كثيرة ، وابنت وقائع متعددة تاريخية (١) توضح هذه النقطة فلا وجه لاعادتها هنا ايضا . فالنتيجة التي نخلص اليها من هذه الملاحظات البسيطة هي ان الامم المحكومة تزداد امامها الصعوبات والعقبات كلما ازدادت المدنية تقدما ، واستحدث العقل البشري انواعا جديدة من الاسلحة . واذا كانت الامم المحكومة تحتاج الى المعونة الخارجية في العهود السابقة فكم بالأحرى ان يتضاعف احتياجها ، اليها ، في هذا العصر ؟ .

وهذه الامم التي انبعثت من جديد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وتلك الامم التي وجدت في القرن العشرين انما اكثرها قد نال الفوز والنجاح بفضل المعونات الخارجية . وأما الامم التي خلقها التنافس الدولي ، أو التي بعثتها الموازنة الدولية فهي ما زالت ، قليلة العدد ، وضميمة الاثر في توجيه الانسانية . فلولاً معونة فرنسية لم يستطع واشنطنون ان يقيم صرح الحرية في العالم الجديد ، ولولا تدخل الدول الاوربية العظمى لاسيا بريطانيا وروسية لما تكونت دول البلقان . ولولا فرنسية أولا والتصادم البروسي - الفرنسي ثانيا لما انبعثت ايطاليا برغم جهود بنينا العظيمة في حركات عام

(١) لقد وردت شواهد كثيرة في هذه المقدمة واسول الكتاب الثلاثة الاخرى .

١٨٤٨ - ١٨٤٩ . ولولا كسب بسمارك عطف الدول الروسية والفرنسية والابطالية لما استطاع ان يكون الاتحاد الالماني في عام ١٨٦٦ ولولا حيازة الدول الأوروبية في التصادم البروسي - الفرنسي لما اعلنت الامبراطورية الالمانية في ١٨٧١ . هذه حقائق يحكيها لنا التاريخ البعيد والقريب ، لاندحة لنا من الاقتباس من انوارها والسير على ضيائها . واليوم الذي نحن فيه لا يحاكي أيام القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر بل انه لا يشبه الربع الاول من القرن العشرين . وان صعوبة التخلص من التحكم الاجنبي فيه قد تضاعفت ، بصورة تدعو أبناء الأمم المحكومة الى ان يفكروا في مصائر أمهم تفكيراً عميقاً ويبحثوا مشاكلاً بدقة ولباقة اكثر من ذي قبل بكثير .

واذا قلنا ان المعونة الخارجية أمست ضرورة لا غنى عنها لكل أمة تطمح في حريتها وأستقلالها فليس معنى ذلك انها لا تعمل من جانبها لتنظيم شؤونها ، واعداد نفسها وتهيئتها لخوض المعارك الأستقلالية . ان أول عنصر من عناصر الفوز ، هو الثقة بقوتها ، والأعتاد على مواردها والأتكال على سواعد بنيتها وقابلياتهم . ان الوقود لا يحرك الماكينة اذا كان فيها خلل ، أو اصاب آلة من آلاتها العطل . فالوقود انما يحرك الماكينات السليمة ، الكاملة الاجزاء والآلات . وكذلك الامة اذا لم تكن مهيئة نفسها ، ومستحضرة جميع أسباب النهوض فمن العبث ان تطلب المعونة من الخارج وان تفيد من هذه المعونة . فالصعوبة التي اشترنا اليها ، وقلنا انها تزداد بأزدياد تقدم المدينة القائمة انما نريد بها ان الأمم المحكومة اليوم مهمل أعدت نفسها واستحضرت أسباب القوة لها ، فلا يؤمل الفوز ما لم تدعم بمعونة خارجية للاختلاف الكبير بين قواتها وقوات الامم الحاكمة لها ، والتفاوت العظيم بين الاسلحة التي تعتمد عليها الامم الحاكمة ، والاسلحة التي يفرض وجودها في ايدي ابناء الامم المحكومة

مع ان الحالة لم تكن بهذه الدرجة من الخطورة في العصور السابقة واما الأمم التي ركنت الى الهدوء والرضى بحالة الذلة والاستكانة فلا تنجسها من ذاتها واستكانتها معونة خارجية ، ولا عطف دولي .

فالآن وبعد ان عرفنا أن المعونة الخارجية ضرورة لا مفر منها ، فأين يمكن ان يجد العرب حليفهم ؟ ومن أي جانب يستطيعون ان ينالوا المعونة ؟ وهل في إمكانهم ان ينالوها ؟ ان الاجابة عن هذه النقاط ليست من الأمور السهلة كما يظن لأول وهلة . لأن الشعب العربي له حالات خاصة تميزه عن باقي الشعوب الأوروبية ، أو المسيحية التي نالت حريتها واستقلالها بفضل المعونة الخارجية . انما يحول دون معونته عاملان خطيران ليس من الهين التغلب عليهما . هما موقعه الجغرافي ، وشرقيته واسلاميته . لا أدري أحسن حظ الشعب العربي أم أسوء . حظّه انه يحتل اماكن تنظر اليها الأمم الأوروبية المسيطرة على العالم اليوم ، بقوتها المادية ، بعيون تنقذ بالشره والطمع . انها زاخرة بالمواد الخام التي تحتاج اليها الصناعة الأوروبية ، وانها خصبة مزرعة تفتقر الى إنتاجها الزراعي الشعوب الأوروبية التي ضنت الطبيعة على اكثر اراضيها وقيعائها بالخير . وانها الجسر الذي تمر من عليه قوافل أوربة التجارية والذي يوصل الغرب بالشرق . وانها زاخرة بالنفوس التي تصلح لاستهلاك الانتاج الأوروبي . ان شمال أفريقيا جميعه في أيدي العرب ، من الساحل الاطلسي الى السويس ومن السويس الى فلسطين ومن فلسطين الى سورية الى العراق ثم شبه الجزيرة العربية وسواحلها العجيبة التي تكثر فيها الموانئ الصالحة لرسو السفن ، ولنشأت الحركة التجارية العالمية . فهم يهيمنون على البحر الابيض المتوسط وهم الموصولون بين البحر المتوسط وبحر الميـط الهندي من طريقين ، من السويس وباب المندب ، ومن البصرة وما اليها . وان البحر الأحمر انما يعد في الحقيقة بحراً عربياً خالصاً تقريباً . وفي هذه البلاد

ذات الخطورة من ناحية التجارة ، والسياسة وسوق الجيش ، شعب تربو نفوسه على السبعين مايونا . وهذه النفوس الكثيرة العدد انما متصلة ببعضها لا تحجز بينها بلاد اجنبية عنها في العرق والدم . فماذا نفهم من هذا الوضع ؟ ..

نفهم من هذا الوضع : ان الامم الاوربية التي سيطرت على العالم وموارده بقوتها المادية كانت وما تزال تعتبر البلاد العربية بلداً جديدة بالاستعمار ، حرية بالاستغلال لتنشيط صناعاتها ، ولتصريف منتوجاتها ، وللاحتفاظ بامتلاكاتها الاخرى بالمرور منها اليها . ولما كانت استعمارها واستغلالها لا يتأتيان إلا بالقوة والسيطرة التامة فتنافس هذه الامم المشتركة تسوقها حتما الى الاتفاق فيما بينها ضد ابناء هذه البلاد والى ترك الخلافات الاخرى جانبا اذا كانت هذه الخلافات تؤدي الى زوال منافعها في بلاد العرب . وان هذه الدول لم تفتأ تراقب كل حركة استقلالية تحاول القيام بها الامم العربية وتسعي للقضاء عليها بمختلف الاساليب ووفق خطط مرسومة تتفق عامها فيما بينها . فكيف يجد الشعب العربي حليفا له يأمل منه معونة في يوم من الايام اذا كان منظورا اليه محلا للاستغلال هو وبلاده ؟ . فمشكلة العرب السياسية متأمة من هذه الناحية . والوقائع التاريخية المادية مازالت تؤيد هذه الحقيقة وتؤكد كدها . ولعل اكثر الامم الاوربية مناهضة لآمال الشعب العربي ، وأمانيه هما الامتان البريطانية والفرنسية . فاذا ارادت بريطانيا مثلاً ان تستصفي لها مصر نجدها تتفق مع فرنسا على هذه الخطة وتمنح فرنسا لقاء مساعدتها إياها في اطلاق يدها في مصر ، حرية التصرف في مراكش واستنادا الى هذا الاتفاق تضع فرنسا يدها على مراكش ، أو اذا طمعت فرنسا في سورية ولبنان فانها تطلق يد بريطانيا في العراق ، وفلسطين وسائر بلاد شبه الجزيرة . واذا قامت حركة استقلالية في سورية تعاونت السلطان على اخفاقها الواحدة تضرب وتطارد والاخرى تسد

الحدود ، وتمنع الفارين والملاحقين من الالتماء اليها . وكذلك اذا حصلت نهضة وطنية في العراق حاربتها الدولتان بجميع الطرق والوسائل . واذا كان التعاون بين هاتين الدولتين فيما يتعلق بالاممة العربية واخضاعها تعاوناً صميمياً فان تعاونهما مع الدول الاخرى الطامعة او المتحكمة في الاقطار العربية الاخرى لا يقل صميمية واخلاصاً . فقد رأينا فرنسا تخف الى مصالوة عبد الكريم الريني حينما استفحل أمره ضد الاسبان وكاد يقضي على نفوذهم في بلاد الريف فأشتركت الدولتان الكبيرتان الاوربيتان ضده . خفت فرنسا الى تجدة الاسبان لانها لا تريد ان تفوز حركة وطنية عربية في منطقة عربية مجاورة لمراكش العربية التي تسيطر عليها هي وتتحكم في ابنائها خوفاً من ان تدب الروح الوطنية في هذه المنطقة العربية ايضاً . وكذلك ايطالية لما ارادت ان تدوخ ليبيا العربية وجدت معونة صادقة وتأيداً حاراً من الامم الأوربية . ولم يخطر على بال احدى تلك الامم ان تحول بين ايطالية واستعباد شعب عربي وديع ، ذلك لان ليبيا كانت جزءاً من بلاد تركية المسماة أولاً ولان شعبها شعب عربي مسلم ثانياً . فتعاونت الامم الأوربية ضد الشعب العربي والبلاد التي يحتلها هذا الشعب الكثير النفوس القوي الشكيمة لم تفتر حديثه ولم تخف وطأته الى يومنا هذا .

ان الحضارة القائمة التي بزت الحضارات السابقة في اكتشافاتها واختراعاتها وابداعها ، لم تغير حقيقة الانسان ، ولم تبدل في ميوله واهوائه ونفسيته وان غيرت في طرز حياته ، وبدلت في طرق معيشتة واساليب تفكيره . فالانسان الذي حكم على سقراط بأن يشرب السم ، أو الذي اقام مجزرة العرب المسلمين في الاندلس أو الذي اقام مجزرة بارتلمي ، أو أثار حرب الثلاثين عاماً او الذي حكم على « آييلار » و « ديكارت » بالسكوت وعلى « بره نو » بالموت وعلى « غاليله » بالسجن أقول ان هذا الانسان مازال يعيش في القرن

العشرين باهوائه وميوله ، وانايتيه وزهوه وكبريائه . واذا كان هناك شيء من التغير والتبدل فأتما هو في الشكل والصوره ، لا في الاصل والجوهر ، واذا كان الانسان الذي جاءت على يده هذه المنكرات وغيرها وغيرها كان يعمل بدافع الاخلاص والتفاني في سبيل الدين ، فإن المنكرات والجناسيات التي يشاهدها عصرنا هذا وتقسيمها حضارته انما تبررها لديه المنفعة المادية ومغريات الاستعمار والاستغلال فالظلم واحد ، والجناسيات متماثلة في قوتها ، والميول والاهواء هي . واهل انسان القرن العشرين قد غلظ قلبه واشتدت ميوله وأهوائه اكثر من سلفه لأن الذي يحفزه الى الظلم والعدوان وارتكاب الجناسيات والموبقات عامل المادة والمنفعة بالدرجة الاولى وعامل الدين بالدرجة الثانية بينما ذاك الانسان كان الدافع له العامل الديني في الدرجة الاولى . واذا وجد أثر للمادة والمنفعة في عمله فأتما يأتي بالدرجة الثانية . واسئ كان لا يصح التفاضل في حالات الظلم والعدوان لأنها شر في حد ذاتها فإن الواقع يضطرنا الى ان نقرر بأن الظلم والعدوان اللذين تثيرهما المادة والمنفعة يكونان دائما أقل عبثا وأعظم خطراً من ذينك اللذين تثيرهما الروح الدينية .

فالعرب اليوم تعمل ضد مصالحهم قوتان هائلتان . المادية الاوربية والروحية الدينية . وانما لنخطأ اذا تهاونا في أمر القوة الثانية ومنينا انفسنا بأن التطور العقلي قد ازال التعصب الديني ومحا من النفوس نعراته . صحيح ان خطره قد قل عما كان عليه في القرون الوسطى ولكن قوته ضد الشعوب الشرقية مازالت ذات خطر . ان هذه القوة قد لعبت دورها الخطير في تقويض دعائم الامبراطورية العثمانية المسلمة وانما مازالت تلعب دورها ضد الامم العربية المنتشرة في اقطارها المترامية . فليس من السهل على الشعب العربي ان يجد له حليفاً في الامم الاوربية شقيقاً عليه حريصاً على حريته واستقلاله .

ولكن هل ان هذه الحال تدفعنا الى اليأس والقنوط ولا نحاول ان نصافح
يد احداها ، او ان نصادق بعضها لنحقق اغراضنا القومية ونأمل منها
المعونة والمدد ؟

ان ارادة الانسان لا تقهر . فاذا صمم وأراد بجهد وحزم ان ترده عن
تصميمه وغرضه العقبات والصعاب معها كانت صليبة صليدة .

اننا جربنا الامم التي حاربت آمالنا ، وخاصمت نهضاتنا ، واعترضت
سبيلنا . وقد احتككتنا بالعالم الغربي فاطلعنا على كثير من مقاصد أممه ، وغايات
حكوماته ، وفي وسعنا ان نتلمس طريقنا على ضوء تجاربنا ومعلوماتنا . ان
البلاد العربية تقسمها بالدرجة الاولى الى الامتان البريطانية والفرنسية وبالدرجة
الثانية تتحكم فيها ايطاليا واسبانيا . ومن الطبيعي ان نقول أن هذه الدول
باجمعها لا تصلح للحلف العربي ، ولا يؤمل منها الخير للشعب العربي . ففرنسة
وايطاليا واسبانيا قد اختبرنا شدة وطأتها وصرامة حكمها ، بالفعل . فهذه
الامم الثلاث شديدة الشره في استعمارها قوية الاندفاع في طريق الاستغلال
والانتفاع وهي فوق ذلك كاثوليكية المذهب ، العنيف بتعصبه الحاد في خصومته
الدينية . وأما بريطانيا فانها وان كانت اكثر تساهلا من الناحية الدينية لأن
مذهبها بروتستانتى ، فهي عنيفة في طمعها ، قاسية في اساليبها الاستعمارية وانها
فوق ذلك ترى في البلاد العربية اهمية خاصة لوقوعها على طريق الهند ، فلا يعقل
ان تهادن الشعب العربي ، وتفسح له طريق الحياة بالمرّة . وعدا ذلك فقد اصبحت
بريطانيا خصما لدودا للشعب العربي من ناحية تشجيعها الوطن القومي الصهيوني
في فلسطين ، وسعيها المتواصل ، في سبيل تمكين اليهود في فلسطين واذا
امكنها في بلاد الهلال الخصيب العربية كافة . والسياسة الصهيونية ان
تكون غير خصيمة وعدوة للسياسة العربية . ان جنوح السياسة البريطانية
لتعظيم سياسة الوطن القومي اليهودي قد محى كل أمل في امكان الوصول

الى اتفاق بين الشعب البريطاني والشعب العربي في المستقبل . هذه نقطة جوهرية لا يمكن ان يتناسى اهميتها وخطورتها كل فرد عربي .

لو لم تكن بريطانيا نزاعة الى الاستعمار بعنف وقوة ، ولو لم تكن تؤيد سياسة الوطن القومي اليهودي لجاز ان تكون خير حليف يتمنى الارتباط به الشعب العربي نظراً الى الصلات التاريخية بين البلدين والى امكان الاستفادة من قابلياتها ، والى سهولة الاتصال بها وبممتلكاتها . ولكن ما كل ما يتمنى المرأ يدركه :

وأما أميركة فلقد كانت في الماضي مقتنية سياسة العزلة ، فلم يشأ شعبها ان يتدخل في شؤون العالم وسياسته الا بقدر ما تسمح به المنافع الاميركية المتفقة مع القاعدة الاساسية التي قامت عليها سياستها - الخارجية وهي قاعدة « مونرو » ولكنها في هذه الحرب الضروس قد استطاعت بريطانيا بلباقتها وكياستها ان تأخذ روزفلت عظيم الأميركيين بيدها وان تكسب بسببه الشعب الأميركي . وقد لاحت بوادر كثيرة تدل على ان روزفلت يسير في سياسته في الطريق التي سارت عليها بريطانيا وفرنسة من قبل ، اي انه اخذ يميل الى التدخل في الشؤون العالمية ، والى الاستفادة من السياسة الاستعمارية التي كان الشعب الأميركي يعظاها بالنفور منها والابتعاد عنها . وان أميركة اليوم فوق كل هذه التطورات التي حدثت في سياستها الخارجية وميولها ، تعيش تحت ضغط اليهود المالي في بلادها . ان رأس المال اليهودي في أميركة وهذه المجموعة اليهودية القوية فيها التي تقارب الاربعة ملايين من الانفس قد دفعتا بالامة الأميركية الى الحرب دفعا ، وتوفقت - في تحقيق اكثر اغراضها وامانيها بالاضافة الى الجهود البريطانية . وان الحكومة الأميركية - ولا اقول الشعب الأميركي - اخذت تشجع وتعهد الوطن القومي اليهودي والسياسة الصهيونية بحرارة وحماسة اكثر من بريطانيا . وهذه البادرة

الخطرة المخيفة من شأنها ان تجعل الشعب العربي في يأس وقنوط من عطف امير كمة او ان شئت فقل من عطف الحكومة الاميريكية .

فلم تبق لدينا من الاُمم الاوروبية المهمة التي يرجى خيرها ويتقى شرها بالنسبة الى الشعب العربي ، غير الاُممتين القويتين ، الالمانية والروسية . الاولى نظامها نازي والثانية شيوعي .

ان روسية لا تهتم بالدين ولا تأبه نفوارقه واختلافاته . لانها امة لا تعترف بالدين ، ولا تسمح له بأن يجري نفوذه في اوساطها . وهذه مزية كبرى بالنظر الى منافع الشعب العربي ومصالحه . وروسية فوق ذلك لا تقرب السياسة الاستعمارية ولا تبرر استعباد الاُمم والتحكم في مقدراتها وانها تقول بهذه السياسة لان مبادئ مذهبها قائمة عليها ولان مصالحها تقضي بها لاضعاف الدول الاستعمارية الكبرى المنافسة لها وبلاضافة الى كل ذلك فان بلادها الواسعة الأرجاء وتقاليدها السابقة ، مما تهيب بها الى الانفعال بشعوب الشرق الاوسط التي يكون الشعب العربي في طليعتها . فأمل الاستفادة في معونة الشعب الروسي ، كبير والرجاء في حكومته عظيم ولكن الشعب العربي حريص على تقاليده وعنناته ، متمسك باذابه وتاريخه ، حذب على دينه وقوميته . فهو يأبى ان يتدخل اوساطه وبيئاته ، نظام لا يقر الاسرة ولا يحترم الدين ، ولا يأبه بالتقاليد والعننات ، ولا يهتم بالقومية والوطنية . لذلك يصعب عليه التقرب من الشعب الروسي الذي يدين بالشيوعية المادية لكل هذه العناصر التي يراها هو ضرورية لحياته . ولكنه قد يضطر الى التقرب من هذا الشعب اذا يأس من معونة الاُمم الاخرى كافة ، وقنط من رحمة الناس عليه . (١)

(١) ولكن تصرفات الحكومة الروسية في خلال الحرب الكونية وما بعدها وسيطرتها على دول البلطيق ودول شرقي اوربية ثم تعاونها مع الانكليز والاميريكين في =

واما الشعب الالماني سيما البروسي منه فإنه قبل كل شيء بروستاني المذهب والامم البروتستانتية كما بيئت غير مرة تكون على الاكثر اكثر تساهلا من الامم النصرانية الاخرى ، السكاثوليكية او الارثودوكسية على ان الشعب الالماني بالنظر الى نوع الثقافة التي درج عليها ، والفلسفة التي قامت عليها مدنيته ، فإنه اكثر الامم البروتستانتية تساهلا في المسائل الدينية فالشعب العربي لا ينحشاه من هذه الناحية بتاتا والشعب الالماني اذا كان ذامبول استعمارية فإنه على كل حال لم يبلطخ تاريخه بجنايات الامم المستعمرة الاخرى ومنكراتها هذه حقيقة ليس في مقدورنا نكرانها . واني وان قلت انه ذو ميول استعمارية فلا في لا اريد ان ادفع عنه هذه التهمة بالمرّة لانه سبق وان استعمر بعض المقاطعات ولا انه ما زال يطالب باعادتها اليه بعد ان سلبتها منه معاهدة فرساييل .

والشعب العربي انما يأمل من الشعب الالماني خيراً لاسباب كثيرة عدا ما ذكر آنفا منها . أ - ان الشعب الالماني عدو اليهودية . فهو اذن خصم طبيعي لسياسة الوطن القومي الصهيوني في فلسطين فمن هذه الناحية تتفق مصالحه ومصالحة الشعب العربي . ب - ان الشعب الالماني منافس عنيد لكل من بريطانية وفرنسة . وبريطانية وفرنسة هما الاممتان القويتان القاهرتان للشعب العربي ، والمتحكمتان في مقدرات بلاده وخيراتها . ومن مصلحة الشعب العربي ان يستفيد من هذا التنافس ويستغل لمصلحته هذا التزاحم - خ - ان الشعب الالماني قد خير أهمية الشعب العربي ، وخطورة البلاد التي يحتلها كما انه قد ألم بكثير من أخلاقه وعاداته وعنعناته ، ومن اندفاعاته ، وحر كاته في سبيل نوال حريته واستقلاله . فليس من مصلحة ان يسير مع هذا الشعب في

= بمث دولة اسرائيل من العدم ومحاربتها الامل والأمني العربية كل هذه قد خيبت آمال العرب اجمعين وأصبحوا لا يفرقون بينها وبين الشعوب المستعمرة ، الرأسمالية .

الطريق التي سارت عليها كل من بريطانية وفرنسة وانما مصالحته تقضى عليه بأن يماشيه في آماله وامانيه ، ليكسبه الى جانبه اولاً ، وليضرب عدوته اللدودتين بريطانية وفرنسة ثانياً .

ان هذه الاسباب لها اثرها الفعال في توجيه السياسة الألمانية لصالح الشعب العربي . اني لا ابرى المانية من المنفعة المادية ومن اطاعها في البلاد العربية ، واسكني أقول ان المنفعة والاطماع المادية اذا كانت معتدلة فهي لا تضر بمنفعة الشعب العربي . ان الشعب العربي ، لم يقل بريطانيا ولا لفرنسة اني أضن عليكم بكل شيء ، واحرمكم من كل منفعة تطمحان اليها في بلادتي . لم يقل هذا القول لها وليس من مصالحته ان يقول لها هذا القول . لأن صلات الشعوب والأمم انما تقوم قبل كل شيء على تبادل المنافع ، والاشتراك في المصالح ولا توجد امة من الأمم المستقلة منها وغير المستقلة لا تحتاج الى منتوجات ومواد الأمم الأجنبية عنها . ان الأمة التي تقول بحرمان الأمم الأجنبية من خيراتها انما هي تلك التي تريد ان تعيش في عزلة عن العالم وما من امة في هذا العصر ، بقيادة على مثل هذه العيشة ، المنعزلة او على استساعة مثل هذه الحياة الجافة المجردة . واسكن بريطانيا وفرنسة اخذنا الشعب العربي بأساليب الرق المريعة ، ورمته بالدواهي القاصيات .

اني واثق بأن الهوة الى درجة اصبحت عميقة وسحيقة في عمقها بين الشعب العربي ، وبين كل من بريطانيا وفرنسة انه ليس من المعقول ان نتصور امكان اجتيازها في يوم من الايام في المستقبل . وقد كانت ثقتي هذه وليدة الاسباب التي مر اكثرها في البحوث السابقة وان ثقتي هذه هي التي كانت تدفعني دوماً الى القول بإمكان الاستفادة من الشعب الألماني . (١)

(١) لم تمد المانية ذات موضوع اليوم بعد ان اندحرت وانهارت . ولم تمد مصلحة للشعب العربي في التعاون مع شعب مندحر واسكن أين يجد الشعب العربي حليفه؟ فهذه النقطة قد أعيد بحثها بتفصيل في كتابي « العالم العربي بعد الحرب الكونية الثانية » على ضوء نتائج هذه الحرب

ان الحرب ما زالت تطحن الرجال وتذك معالم المدنية بوسائلها المخربة .
وان جبهة المحور ما زالت سليمة ولكن طالع الحرب قد تغير وقد يكسب الحلفاء
الحرب وتندحر المانية . فبوسع الشعب العربي حينئذ ان يتجه صوب الامة
الروسية (١) واذا احسن قاذبه التصرف ، وكانوا حذرين متيقظين فانهم
يستطيعون ان يدركوا مبتغاهم في الامة الروسية من دون ان يمس بدين
وسطهم الاجتماعي أي ضرر . واذا خرجت روسية ظافرة مع الحلفاء ، فان
الصفاء بينها وبين حلفائها هؤلاء لا يدوم طويلا لان طبيعة مبادئ نظاميهما
متناقضة فالتنافس بينهما سوف يعود أعنف قوة واصحاب عوداً . والامم
المظلومة من واجبه ان تستغل التنافس الدولي ، والاختلاف الأسمى لمصلحتها
واني واثق من ان روسية لن تترك الحلفاء يتمتعون بانتصارهم هادئين ناعمين .
فلا بد من الاصطدام والتناحر في يوم من الايام (٢) . ومبادئ الاصطدام
سوف تكون ايران والعراق وسائر البلاد العربية المجاورة لان بريطانيا
لا تتصل بها الا عن هذه البلاد .

لو كانت هناك امة شرقية مسلمة مستقلة استقلالاً تاماً ، تصلح للاستفادة
من معونتها ومساعدتها فبالطبع ان هذه المول الشرقية المسلمة تكون أجدر
من غيرها بالالتفاف معها . ولكن الامم الاوربية التي تعاونت على الشرق
طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تترك امة شرقية مسلمة واحدة يركن
اليها فبأنهيار الامبراطورية العثمانية قد فقد المسلمون آخر ملجأ لهم يلجأون
اليه عند اشتداد الخطوب . واما قيام الجمهورية التركية على انقاض الامبراطورية

(١) اكرر واقول ان روسية لم تعد صالحة لتكون حليفة أو صديقة للشعب العربي
وقد ذكرت الاسباب بالتفصيل في كتابي « العالم العربي بعد الحرب الكونية الثانية » .
(٢) ان الاصطدام الادبي بين المعسكرين قد حصل بالفعل فالنبوءة الاولى قد صدقت
والاكن نبوءة امكان استفادة العرب من هذا الاصطدام قد كذبت واسفاه ! .

العثمانية فيها شيء من القوة والحياة وان كان باعثا الى سرور المسلمين وغبطتهم ولكن هذه الجمهورية قد اتعظت بالحوادث وأعتبرت بالعبر التي مرت على الامبراطورية التي قامت هي على انقاضها فهي منذ ان انبعثت من جديد الى يومنا هذا ، لم تفتأ تتقرب من دول الغرب ، وتنفض من على جسمها رداء الشرقية ، والعصبية الاسلامية ، وبدأت تتغافل عن كل ما يمس الدين ، والشرق وحصرت همها بالسياسة الاوربية ، واتجاهات المدنية الاوربية . اننا لانشك لحظة في ان رجالات تركية الحديثة يشعرون بعاطفة ولاء وميل في قرارات أنفسهم لفوز ونجاح الأمم الشرقية المسلمة ويرجون لها الحياة الحرة والاستقلال . لأن الزمن الذي مر على تكوين نظام دولتهم الجديدة ، أقصر من ان يتناسوا فيه هذه الصلات الروحية ، والروابط الدينية ولسكنهم لا يستطيعون الجهر بهذه العاطفة ، حرصا على كياناتهم من ان ينهار ، وحفظا لاستقلالهم من ان تعود الأمم الغربية لأجنتائهم من أصوله . وانهم لذلك معذورون . وأما الأمة الايرانية والافغانية فليس موقفها بأحسن من موقف العرب .

لعل اليابان بصفتهما دولة شرقية ، تقضي مصالحها بإبعاد النفوذ الغربي من آسيا ، يستفاد من مهونتها ومساعدتها . ولكنها اسوء الحظ بعيادة عن البلاد العربية ، ولم تسع هي لتزيد في اتصالاتها بنا على انه من المفيد ان يكون هناك اتصال بينها وبين البلاد العربية . وان تبدأ البلاد العربية بهذا الاتصال للاستفيد من معونة هذه الاممة العظيمة الشرقية اذا لم تكن من الناحية المادية فمن الناحية الادبية ، وفي الاوساط الدبلوماسية والمؤتمرات السياسية . لأن المعونة لا تنحصر في الامور المادية فقط وقد يجوز ان تكون المعونة الادبية في حالات خاصة ، اكثر فائدة للأمم المستضعفة من المعونات المادية . وفي الوقت الذي تنسابق فيه دول أوربة لتكوين جبهة أوربية أو اتحاد أوربي لا يعقل ان اليابان تغفل عن ضرورة وجود اتحاد آسيوي تقوم هي

بزعامته ، بصفتها اكبر أمة في آسيا . ففي حالة فوز المحور في الحرب بفتيحة
مهادنة شريفة يجوز للشعب العربي اذن ان يستفيد من اليابان بقدر ما يستفيد
من المانية . واذا اندحرت فالآية سوف تنقلب تماما .

* * *

ولقائل ان يقول ما هي فائدة العرب من اعتمادهم على المانية أو روسية
وهما ليستا متصلتين بالبلاد العربية مع ان بريطانيا وفرنسة متصلتان بها
ومجاورتان لها . فكيف يتصور ان تعاونا البلاد وهما بعيدتان عنها مع ان
التعاون محتمل مع بريطانيا وفرنسة في كل وقت لا اتصال الحدود ،
واشتراك المصالح ؟

ان هذا القول يصدق على المانية ولا يصدق على روسية . لأن روسية
قريبة من البلاد العربية ولا يحجز بينهما غير البلاد الايرانية التي هي منطقة
لتنفيذ الروسي فيها شأن عظيم . ومهما كانت الحال . فان عدم الاتصال ربما
يكون من الميزات الخاصة التي تحبب للشعب العربي التوادد مع المانية أو مع
روسية . لأن الائتم الضعيفة مهما بدت عن الائتم القوية التي ترحو معونتها
ومساعدتها تكون اكثر أمنا على مستقبلها وأشد ثقة بسلامة سلطانها . وليس
فرضا على الأمة المطالبة المعونة ان تكون مصاقيمة لأرض الأمة المطلوبة
معونتها . ان الائمة الفرنسية امدت البلاد الاميريكية في نهضتها ضد بريطانيا
وبينهما البحر الاطلنطي . والامم البلقانية استقلت عن الامبراطورية العثمانية
وبينها وبين بريطانيا او روسية حواجز طبيعية وامم مستقلة من القديم .
وان هذه الحواجز والموانع لم تمنع عنها المساعدات المادية ، كما لم تمنع المساعدات
الروحية والادبية المؤثرة . والمانية وروسية تستطيعان بمختلف الطرق وشتى
الوسائل ان تعينها البلاد العربية في نهضاتها من الناحيتين المادية والادبية اذا
شاءتا ذلك . ألم تخف بريطانيا وفرنسة لنجدة بولونيا حين هاجمتها المانية في
اوائل هذه الحرب ؟! أما كانت الوفود البريطانية في موسكو تعمل لعقد

اتفاق بينها وبين روسية قبل اتفاق موسكو مع برلين ١؟. لم تكن بريطانية مصالحة للبلاد البولونية كما انها لم تكن قريبة من البلاد الروسية اذن فهل في وسعنا ان نقول ان سياسي بريطانية كانوا قد اضاءوا ارشدهم بالمرّة في اقدامهم على مثل هذه الاتفاقات ١؟. فالاتفاق قد يقع بين أمم وممالك منفصلة بلادها بعضها عن بعض ولكن تربط بينها المنافع المادية ، والاسباب السياسية. وعلى هذا الاساس فلا لوم ولا تثريب على الشعب العربي اذا مال الى جانب المانية ، او انه طمع في المعونة الروسية. (١) على انه قد يجوز ان يكون هذا البعد في المسافة بينه وبين المانية اوروبية مما يدعو رجاله وزعمائه الى ان يفضلوا الاتصال بها على غيرهما من الامم. لائن التجار يرب والوقائع المادية قد انتهت غير مرة ، ان الامم القوية المجاورة للامم الضعيفة حين اقدمت على انجاد بعض هذه الامم الضعيفة انتهت بنجدها ومعاونتها ، بوضع يدها عليها.

لقد كان الرومانيون ينجدون الامم الضعيفة ثم يلحقونها بامبراطوريتهم او يجعلونها تحت اشرافهم وسلطانهم. وكانت تسهل عليهم عملية اللاحاق او الاشراف بقدر ما تكون تلك البلاد ، قريبة منهم. وكذلك كان معونة الفرس اعظم اليمين سيف ابن ذي يزن كانت قد انتهت بوضع اليمين تحت اشراف الفرس وسلطانهم. وان موسى ابن نصير حين هاجم الاندلس لم يكن يفكر باللاحاقها بالامبراطورية العربية في أول الامر وانما هاجمها ، ليعاون صاحبها الشرعي اورليان على غاصب التاج فيها لوزريق بعد استنجاد الاول به ولكن بعد ان عبرت جيوشه العدو ، راقته تربتها ، وجذبت نفسه ربوعها ، فاستصفهاها للامبراطورية العربية. وان امير تونس زيادة الله ابن الاغلب لما فتح جزيرة

(١) هذه كلها مجرد احتمالات كانت ترد على الحاطر عند تدوين هذه الآراء والذكريات

اما الان فلا محل لها لأن المانية انتهت وروسية قد افصح عن نواياها

صقلية انما كان مدفوعا بروح المعارضة « الفيمي » الثائر ضد الامبراطور
الجرمني في الجزيرة . فلو لم تكن الممالك المنجدة قريبة من البلاد المنجدة لما
وقعت الاخيرة في ايدي امراء الاولى . ولعل من اكبر العوامل التي ساعدت
بريطانيا وفرنسة الى ان تعبثا بمواثيقهما وعهودهما للعرب ، واقتسامهما البلاد
العربية بينهما كانت صفتها صفة المنجدين لها ، كان قرب هذه البلاد منها
واتصالها بممتلكاتها . والويل كل الويل للامم الضعيفة اذا انجذبتا أمم
قوية قريبة منها ، متصلة بها ، وطامعة في خيراتها وكنوزها .

العقبة الثانية

قدم النعمان ابن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين
فذكروا من ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الامم
لا يستثنى فارس ولا غيرها فانكر كسرى - وقد اخذته عزة الملك - على
النعمان موقفه وتفضيله العرب على سائر الامم وندد بالعرب وفضل جميع
الامم عليهم في كلام طويل فاجابه النعمان « . . . واما الامم التي ذكرتها
فأي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها قال كسرى بماذا ؟ قال النعمان . . بعزها
ومنعتها وحسن وجوها وبأسها وسخائها وحكمة أسستها وشدة عقولها
وأفقتها ووفائها فأما عزها ومنعتها فانها لم تنزل مجاورة لأبائك الذين
دوخوا البلاد ووطدوا الممالك وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم
نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الأرض وسعة وفهم السماء وجنتهم
السيوف وعدتهم الصبر اذ غيرها من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر
البحر . واما حسن وجوها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم
من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة وأما انسابها

وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها . حتى أحدهم ليسأل عن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب ألا يسمى آباءه أباً فأباً . حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل من غير قومه ولا ينسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه . فأما سخاؤها . فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والتاب عليها بلاغه وحمله وشعبه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتبني بالقلدة ويجترى بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدثوة وطيب الذكر . وأما حكمة أسفتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس شيء من أسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ومعادتهم الفضة والذهب وحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفين ولا يقطع بمثلها بلد قفر . وأما دينها وشريعتهما فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم شهراً حرماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً بنفسكون فيه مناسكهم وذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه وأخيه وهو قادر على اخذ ثأره وإدراك رغمة منه فيحجزه كرمه ويمتنعه دينه عن تناوله بأذى . وأما وفائها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الأمانة فهي وث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يعلق رهنه ولا تخفر ذمته وإن أحدهم ليبلغه إن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصحب فلا يرضي حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته ، لما أخفر من جواره . وإنه ليلجأ إليهم المحرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله . وأما قولك أيها الملك ، يئدون أولادهم فانما يفعل من يفعله منهم

بالأنث أنفة من العار . وغيرته من الزواج . وأما قولك ان افضل طعامهم لحوم الأبل على ما وصفت منها فما يتركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا الى اجلها وافضلها فكانت مرا كبهم وطعامهم مع انها اكثر البهائم شحوماً واطيبها لحوماً وأرقها الباناً وأقلها غائلة واحلاها مضغة وأنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه . وأما محاربتهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الأتقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فأنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم اذا آمنت من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها بالزحف اليها وانه أنما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم . وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفقتهم من اداء الخراج والورث بالأسف

فعجب كسرى لما اجابه النعمان به وقال انك لا اهل لموضعك من الرئاسة في أهل اقليمك ولما هو أفضل ثم كساه كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . ولما عاد النعمان الى الحيرة جمع وجوه العرب وألف منهم وفداً الى كسرى ليلقى بين يديه الخطب التي تكشف عن عقول العرب الراجحة واحلامهم البعيدة الغور ، فكان ما كان من أمر الوفد مما هو مسطور في الكتب مشهور ذكره في الاوساط العربية كافة .

ان وصف النعمان هذا الوصف لقومه كان وصفاً رائعاً رائعاً . ولست أريد ان احقق صدق حكاية النعمان ، وصحة وقوع حادثة الحكاية واورد الأدلة على ذلك خشية الاطالة والخروج عن الصدد ، وانما في مقدوري ان اقول انه اذا كانت الحكاية غير صحيحة في تفاصيلها ، فهي صحيحة في مجملها واذا كانت الجمل والتعابير ليست للنعمان في القاطنات وحروفها فليس بعيداً ان يكون النعمان قد تكلم بمعناها ومغزاها . على أن طبع العرب الذي عاشوا

عليه قبل النعمان وما بعد النعمان الى يومنا هذا مما يؤيد ان وصف النعمان كان صادقا ، ومتفقاً مع واقع الحال واذا اراد أجنبي ان يتغلغل في الاوساط العربية الحرة ، في نجد وتهامه وفي مواضع مختلفة من اليمن فانه لا يرى امامه إلا قوما كما وصفهم النعمان برغم تقادم الازمان ، وتوالي العصور . فلسنا نكون بعيدين عن الصواب ، إن وثقنا بحكاية النعمان هذه ، وصدقناه في وصفه لقومه اقيام الأدلة المادية بجوانبه ، فاذا نفهم من هذا الوصف ؟ نفهم ان الشخصية الذاتية قوية في العرب ، قوة تركت في كل فرد منهم أثرها العميق وطابعها الواضح فالقوة في الشخصية الذاتية ، أو القوة في الروح الفردية كانت طابعاً يميز العرب عن غيرهم من الأمم وظاهرة عمت أوساطهم ونفذت في صميم مجتمعاتهم برغم تباعد الأقطار التي يحتلونها ، والممالك التي يستوطنونها . وان هذا الطابع أو هذه الظاهرة النفسية قد سايرتا الشعب العربي في مختلف ادوار حياته ، وتوالي عصور تأريخه . وهذه الناحية من أخطر النواحي التي يجب ان يعالجها مثقفو العرب ، وعلمائهم ، وزعمائهم وقادتهم . لأنها اذا كانت تنطوي على مفاخر جمة ففيها اخطار جمة ايضا . ان النعمان قال وقوله حكم قاطع صحيح ، ان ترك العرب لاعادة الانقياد لرجل منهم يسوسهم ويجمعهم انما مبعثه كثرة البيوت التي تدعى الفضل فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفثهم من اداء الخراج والورث بالعسف . فهو ان ساق قوله هذا مساق الفخر والمباهاة بعزة العرب وكون القوة العنيفة في شخصياتهم ، فان هذه القوة أو بتعبير أصح ان هذه الفردية القوية هي التي سببت لهم المصائب والشدائد وهي التي انحدرت بهم الى دركات الذل والعبودية وقعدت بهم عن مجارة الأمم في الحياة الحرة السعيدة مع انهم يربون على السبعين مليوناً من الانفس ، ذلك لأن أنفسهم أبت ان تطيع قادتها ، وان تخضع لرجل معين يسوسها ويجمعها عن رضا منها واختيار ، فذالت الى الاجانب وخضعت

لهم مضطرة مكرهة . مصدقة لقول زهير ابن ابي سلمى :

ومن يعص اطراف الزجاج فإنه

يطيع العوالي ركت كل لهدم ...!

فالروح الفردية العارمة هذه ، قد أبت عليهم ان يجتمعوا ، على أمر ، وان يوحدا صفوفهم لبلوغ غاية ، وحببت اليهم التفرقة والتشتت وسهلت عليهم التنابد والتنافر والتناحر فأصبحوا ضعفاء بفرديتهم امام الاعداء المتساندين المتجمعين ضدهم . كان التنوخيون في العراق يأبون مصافاة الغساسنة في الشام وكان الغساسنة يمتنعون عن مصافحة بني اعمامهم التنوخيين في العراق ولكن التنوخيين في عين الوقت كانوا يصافون الاكاسرة ويوالون الفرس والغساسنة بدورهم كانوا يضمحون بأنفسهم ويسخون بكل غال لديهم في سبيل البيزنطيين . كان اليمانيون ينصاعون لمرازمة كسرى في وطنهم ويتطاحنون هم فيما بينهم ، ويتطاول بعضهم على بعض في الحسب والنسب والمكانة في العشرة والبيت .

جاء الاسلام ونهى عن العصبية الجاهلية ، واعلن الاخاء والمساواة ونبذ السخائم والامحقاد وما كادت تنصرم سنون على الحماسة الدينية والغيرة على المعتقد الجديد الذي أدى بالعرب الى السلام والمهادنة فيما بينها ، حتى عادت العصبية تتلمس طريقها الى المجتمع العربي ، ونائرة الخـلاف تنفذ الى صميم الوحدة التي أقامها الدين الخنيف . فتصدع كيان الاممة وتمزق الشمل ، فسطت الجموع الحاشدة على الخليفة الثالث فخرجوا شبيته بالدماء ثم انفتلوا يختصمون فيما بينهم . فمنهم فريق سار في لواء الخليفة الرابع ومنهم فريق انخزل الى جانب معاوية فاحتربا ثم نشأ فريق ثالث وهم الخوارج يحاربون الفريقين ، ويستحلون دماء الطرفين . فهذه الوحدة العربية التي كونتها الديانة الاسلامية الجديدة وهذه الفتوحات العظيمة التي امتدت في سـاططانها المتراخي الاطراف

كومضة البرق في كبد السماء ، أو خفقة جناح الطائر في اجواء الفضاء قد بدأت تتلاشى وتحترق بالتدريج . وقد بدأ تلاشيها وأختفاؤها ولما تمر على النهضة العربية الإسلامية مدة العصر الواسع . ومن يستطيع ان يجرح قول مونتسكيو حين بحث العوامل التي تهيأت لامتداد عمر المملكة البيزنطية (١) « ... كان من المنتظر ان يقضي على المملكة البيزنطية على يد العرب ، الذين انبعثوا جديداً من الجزيرة ولكن هؤلاء ما كادوا يوسعون سلطانهم حتى اختلفوا فيما بينهم فنجت بذلك بيزنطة من المصير الذي كان محتما عليها ؟

أختصمت الأموية مع الهاشمية ، ثم لما دالت الدولة الاموية بفعل الاعاجم ، والعرب معا ، وقامت الدولة العباسية في الشرق والاموية في الغرب تجددت المجازر في الشرق واشتدت الخلاقات فمنهم من يؤيد سلطان العباسيين ومنهم من يؤيد حق الطالبيين (وترى هنا الهواشم انقسموا على انفسهم ايضا فأصبحوا ، اما عباسيين واما طالبيين) ومنهم من كان يعمل في السروق العلانية لتقويض السلطان العربي ، مها كان استناده ، عباسيا كان أم طاليبيا أم أمويا واقامة السلطان الأعجمي في مقامه وبقية هذه الدولة تتداولها ، ابدي الأمراء من فرس واثراك وديلم الى ان لفظت أنفاسها وكذلك الدولة الاموية في الغرب ، فقد مزقتها الخلاقات . فما كاد القرن الرابع الهجري ينسلخ حتى ودعت الحياة وقامت على انقاضها دويلات ، متناحرة فيما بينها ، متناكرة تستصرخ الأجنبي لينصر بعضها على بعض ، حتى انتهى الامر بأن أنزوى السلطان العربي في اسبانيا الوسيعة الأرجاء ، بقرناطة وما اليها ، وفي هذا الجزء الصغير ايضا لم يكفوا عن تبثهم وفسادهم فظل عبد الله الكبير الملقب بالزغل يقاتل ابن اخيه عبد الله الصغير ، وعبد الله الصغير يهاجم الكبير وكل منهما يستنجد بالفرنجية الى ان هاجم قرناطة فردينا ند الكاثوليكي فخارب

« ١ » كتاب أسباب عظمة روما وانحطاطها • لونتسكيو

تحت لوائه عبد الله الكبير ابن اخيه عبد الله الصغير انتقاما منه وكرهية له
فاندحر الصغير امام القوة الغشوم فقبض فرديناند على ناصية الحال هناك
فطرد الصغير من وطن آبائه واجداده ، وثنى بالكبير ايضا فهلك الحصان
المتناحران بعد ان سلما العرب وبلاد العرب هناك الى ذلك الظالم الباطش فكان
بذلك آخر عهد العرب في هاتيك الاطراف .

ونحن إذ نعيد ذكريات المآسي فلا يجب علينا ان نفسى المحصومة العنيفة
بين المضربة واليافية وما تركت ورائها من آثار سيئة ، ومعالم دامية سواء
أنهى الشرق أم في الغرب . فقد كانت هذه المحصومة جاهلية ولـكن بينما كان
من المتوقع ان تنتهي بأنبياء الدين الجديد في الجزيرة فأنها بالعكس فقد
أزدادت عنفا وقوة . فهذه تقول نحن أحق بالملك لأننا متسلسل فينا وتلك
تقول نحن أحق بالملك لأن النبوة نزلت فينا وانوارها انما شعت من
جانبنا . وبقية على هذا التناحر والتهارش الى ان اسكتها الاجني بقواصمه
ودواهيه فلم تعد تسمع منها غير ألانين الموضع ، والتألم المفعج وأختفت في ظل
الصغار والاسحقار . حقوق الطرفين في الملك فلا تسلسل الملك فيهم انجدهم ،
ولا نزول النبوة عليهم اسعفهم .

لقد غشى النعاس العرب فرقدوا عسورا عديدة كلها شر وكلها
مصائب وإحن وكلها ظلام دامس ولما أخذوا على صميجات الانسانية
في هذه العهود ، التي تحرك فيها حتى الصخر الاصم ، يستفيقون من ذلك
الرقاد الطويل المتعب عادوا الى عصبياتهم ، وركنوا الى تناحرهم وتنازلهم
يأط بهم عرق الفردية النابض ، وتغتمل فيهم روحيتها المتأججة فلم يعترفوا
بالدواهي المفزعات ، ولا بالماضيات الموجهات قام الحسين العظيم في نورته
الكبرى ، وأنبرى له غير قليل من أمراء العرب وملوكهم يناوئونه ويناجزونه

فلا هو نظامن لهم ولا هم اخفضوا جناحهم له فأنطوت أيامه ، وتداعى
سلطانہ . احترب العراق والمملكة السعودية سنين لم يستفد من هذا الا حتراب
غير الاجنبي الطامع في الاثنين ولم يفتنه شره إلا بألف علاج وما زال في
صدور بعض قادة الطرفين داء . وما كاد السلام يستقر بين هاتين المملكتين
الشقيقتين إلا وأستعر الخلاف بين احدهما واليمن . فكان قتال . وكانت
ضحايا ودماء ، ثم اصطلاحا وما زال في القلوب شئ يفيض تارة على الاسنة
وطوراً على الاعمال الفردية (١) .

وهذه مصر تحترب احزابها برغم انها اكثر ثقافة من البلاد العربية
الاخرى ، وتلك سورية تقتتل جماعاتها وجبهاتها الوطنية وغير الوطنية . ومن
يعتقد بأن الزعيم الشابندر كان يريد اسورية شراً ؟ . ولكنه قاوم أخوانه
في المبدأ وحارب الكتوليين وصدع الوحدة الوطنية في سورية فأضعف نفسه
وأضعف معه وطني الكتلة فأهتبلها الفرنسيون المتزصدون فرصة سانحة
فجردوا سورية من استقلالها النوعي واخفتوا الروح الوطني فلا الكتلة
ثبتت في مقام الحكم ولا الشابندر ورفقاؤه نالوا ما يبتغون .

فهل حقاً ان الذين زاحموا وطني مصر في مصر ، والذين ناهضوا
مخلصي سورية في سورية والذين اسعروا الحروب في نجد والحجاز واليمن
أقول فهل هؤلاء جميعهم كانوا اعداء أمتهم ، وخصوم وطنهم ؟ . وهل انهم
انما أرادوا في مواقفهم هذه ، ان يذلوا أنفسهم وأوطانهم للأجنبي لقاء منافع
مادية ، ومكاسب شخصية ؟ . من يجرأ ان يحجب بالاجاب على هذه
هذه الاسئلة ؟ ليس من شك في ان هؤلاء الذين سببوا لأوطانهم النكبات
والشدائد وهياؤا في اوساطهم ومجتمعاتهم للأجنبي السلطان وثبتوا اقدامه

« ١ » اشارة الى المؤامرة التي قام بها بعض البانين ضد جلالة الملك عبد العزيز ابن
السعود وذلك بعد وقوع الصلح بين المملكتين .

في تربة وطنهم ، اذا لم يكونوا جميعهم فأكثرهم لم يكونوا يقصدون من وراء أعمالهم منفعة الاجنبي على حساب وطنهم ، ولا ان يذلوا أقوامهم للأجانب الطامعين ولكننا حفزهم اليها التنافس والتحاسد ، والروح الفردية التي كانت وما تزال طابع الشعب العربي ، وظهرته النفسية الخاصة به . ان ملوك وأمراء شبه الجزيرة لم يتحمل بعضهم البعض ، وزعماء مصر وبلاد الهلال الخصيب لم يتطامن احدهم للآخر وانما ارادوا ان يكونوا ملوكا اجمعين . فباتوا بتناكرهم ، وتباغضهم ، واختلاف ريعهم ضعفاء اجمعين .

ان هذا الطابع الذي رسم العرب بمسحه طوال هذه العصور والقرون وان هذه الظاهرة النفسية التي رنقت عيشهم ، ووعرت حياتهم اذا افتخر بها العرب وتباهت بها ملوكهم فهما اعمري داؤم العضال ، ومرضهم القتال فهل آن لنا ان نفكر في علاج يشفى انفسنا من شرورهما ، وتخليص طبائعنا من جراثيمهما ؟.. فهلا يسمع العرب بأذانهم ما يقوله المستشرقون الغربيون عن العرب ؟. انهم يقولون ان العرب ماديون . لذلك تكثر فيهم الخيانات وتكرر منهم اعمال الغدر بأوطانهم !!.. ولماذا اعتقدوا فينا هذا الاعتقاد ، وفكروا في رجالنا هذا التفكير ؟... لائهم يرون على تمادي الاحقاد والعصور ، اننا نتناكر وتباغض ، ونختلف فيما بيننا ، ثم نسلم انفسنا واوطاننا ، وجميع ترائنا للأجانب ونحن صاغرون .

ان الغلو داء مميت . انه مستنكر في الاعمال الرديئة ، وانه غير محبب في الاعمال الحسنة الطيبة ايضا . انه مذموم في كل شيء ، في الحسن وفي القبح . ان كل شيء تجاوز حده انقلب الى ضده وان ارسطو كان عظيما حقا اذ جعل الفضيلة في اواسط كل شيء . وقد قات العرب ايضا ان خير الامور اواسطها . فالكرم اذن انما هو بين الشح والتبذير ، والشجاعة انما هي بين

الجبن، والمغامرة ، فكما ان التبذير لا يوصف يوما بالكرم فكذلك المغامرة لن تكون شجاعة في اي حال . وماذا نقول في المتبتل المنقطع الى العبادة ، الضان على نفسه بكل شيء ، التارك العمل ، هل انه يوازي ذلك الذي يقوم بالفرائض والواجبات الدينية فقط ثم ينفلت ليعمل ، ويضرب في الارض ليعيش هو واهله برخاء وينال من متع الحياة ما استساغه الدين واباحته المروءة ؟! ليس من شك في ان الاخير هو افضل من الاول مقاما سواء أعند الله عز وجل أم عند الناس . واذا كانت الاديان السماوية قد أمرت الانسان بأن يعمل لاخرته كأنه يموت غداً فقد نبهته الى ان يعمل لدنياه كأنه يعيش ابداً . فالتقصير خير والقلو شر .

والمستشرقون حين يقولون عن العرب ما يقولون فلا نهم يرون نتائج تصرفاتهم تماثل تصرفات الماديين حقا ثم انهم لم يكلفوا أنفسهم عناء تدقيق البواغث الى هذه التصرفات ، ولا التحقيق عن طبائع الشعب العربي وغرائزه . فوقعوا في خطأ الوصف .

ان العرب أبعد الناس عن المادية ، وأعمالهم أبعد الأعمال عن اعمال الماديين . ان قوما تصل بهم الحال الى أن يرهن أحدهم قوسه ، او عصاه ، أو عوداً من الأرض يتلقفه فلا يفلق رهنه ولا تخفر ذمته ، لا يمكن ان يكونوا ماديين . ان قوما تبلغ بهم عزة النفس ، الى أن أحدهم ييلقه أن رجلاً استجار به وهسى أن يكون بعيداً عن داره فيصاب . فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التي أصابته او تفنى قبيلته لما خفر من جواره فلا يصح ان يرموا بالمادية . وان قوما يسمون بالوفاء الى درجة ان احدهم يلحظ اللحظة ويومئ الايامه فتكون ولثا وعقدة لا تحملها الا خروج نفسه فلا يجوز ان يوصموا بالتقذر والخيانة . ليست هذه اقوال مجردة ، او حكايات ابتدعها الخيال ، وصورها الوهم . كلا . فانها حقائق ملموسة وحالات منظورة في كل

وقت وعصر .

جاء الحاجب بن زرارة كسرى لما منع تيميا من ريف العراق فلما ادخل عليه وتقدم بطلبه قال كسرى فان اذنت لكم افسدتم البلاد وأغرتم على العباد وأذيتموني قال حاجب بن زرارة فاني ضامن للملك أن لا يفعلوا قال فمن لي بأن تفي أنت ؟ قال . ارهك قومي فلما جاء بها ضحك من كان حول كسرى وقالوا : لهذه العصا يفي ؟.. قال كسرى ما كان ليسلمها لشيء ابدأ فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف ، وقام حاجب بن زرارة بعهدده ولما هلك ارتحل ابنه عطارده الى كسرى يطلب قوس أبيه فقال له ما أنت الذي رهنتها قال أجل ! . قال فما فعل ؟.. قال هلك وهو أبي وقد وفي له قومه ووفي هو للملك . فردها عليه وكساه حلة .

كان كليب وائل عظيم معد كلها قد داخله الزهو والغرور وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ويقول وحش كذا في جوارى فلا يهاج . ولا تورد ابل أحد مع ابله ولا توقد نار مع ناره ، حتى قالت العرب أعز من كليب وائل ، وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة وكان كليب وائل قد تزوج جلييلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جسساس ابن مرة . وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جسساس بن مرة وكانت نازلة في شيبان مجاورة لجساس . وكان لها ناقة يقال لها سراب ففرت ابل كليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة بفناء بيتها جوار جسساس بن مرة . فلما رأت سراب الابل نازعت عقالها حتى قطعتته وتبعته الابل واختلطت بها حتى انتهت الى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة فلما رآها انكرها فاستد عليها بسهم فخرم ضرعها ففرت الناقة وهي ترغو . فلما رأتها البسوس مالكتها قذفت بنهارها عن رأسها وصاحت واذلاه واجاراه وخرجت فأحسست جسساسا فقتل كليبا وقامت بسبب ذلك حرب البسوس التي دامت

عشرات السنين وسفكت فيها دماء غزيرة .

يمر الاعمى الشاعر بأبي المحلق وهو شيخ هامة اليوم او الغد ، فقير لا يملك غير ناقة واحدة فيعقر له وحيده هذه التي كان عليها معتمده فيترك عمله هذا دويا في القبائل العربية وينطق الشاعر الضيف بقصيدهته العصماء التي التي منها قوله :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار في بفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
وان أردنا أن نورد الشواهد والادلة التي زخرت بها بطون الكتب
لضائق بنا المجلدات ، فعلام تدل هذه الاعمال ؟! وأين ترى المادية فيها ؟..
أبالغوا بالكرم حتى يصل درجة التبذير والاسراف ام بالغوا بالوفاء الذي يبلغ حد
السكال وفوق الكمال أم بالغوا بالعزة والنجدة وحفظ الجوار الحالة التي تشبه الجنون ؟ .
قوس برهنه لقاء عمل عظيم فيضطلع به ثم لا يترك وانما يقطع وربته المراحل
الطويلة والقيافي الشاسعة ليسترده من مرتنه . خرم ضرع ناقة تعود لامرأة ،
يكاف المحير لها قتل عظيم معد ، فتكون بين الحيين تلك الحرب الضروس الطويلة
الامد . ضيف يكتبني بالقلدة ويحتزيء بالشرية يعقر له مضيفه ناقتة الوحيدة .
ان قوما هذه أخلاقهم وطباعهم كيف يجوز أن يوصموا بالمادية وبالقدر
والحيانة ؟.. انها لعمرى فرية صدرت عن المستشرقين ان لم تكن تدل على
نيات سيئة نحو الشعب العربي فاننا نثبت خبطهم وخلطهم في المشرقيات !..
ليس ثمة مادية وخيانة وغدر وانما هي فردية قوية وغلو في العزة والاباء
لا اكثر ولا أقل ، ولئن تماثلت نتائج الاعمال التي تثيرها المادية ، وتوحيها
الحيانة والغدر بفتائج اعمال النفسية الفردية القوية والغلو في العزة والاباء فان
طارفا كبيرا في البواعث والأسباب ليؤدي حتما الى اختلاف في الأحكام على هذه
النتائج المتماثلة . ان القتل انما هو ازهاق الروح ، وان ازهاق الروح على اطلاقه

فعل مذموم . ولكن هل ان كل ازهاق روح يكون مذموماً ؟ لقد يجوز أن تكون بواعث القتل شريفة كضرورة انقاذ حياة جملة ناس ، او صيانة عرض او دفاع عن وطن فهل يكون القتل المنبعث عن هذه الأسباب مذموماً ، وبالتالي فهل تكون هذه النتيجة مستنكرة ؟! فالحكم على النتائج من دون ارجاع النظر الى أسبابها وبواعثها خطأ فاضح ، ان الذي يقتل اسبق عداء ، او لا ارتكاب عمل فاضح ، او لسرقة مال ، او لتطمين شهوة الغدر التي تعتلج في بعض النفوس الواطئة لا يجوز أن ينظر اليه كما ينظر الى من يقتل للدفاع عن عرض كاد أن يفتكه او مال أو شك أن يسرق او وطن هو جرم ، فالنتيجة وهي إزهاق الروح وان اتحدت في كل هذه الأعمال ، ولكن بواعث هذه النتيجة اختلفت فيجب ان تختلف الأحكام باختلاف هذه البواعث .

ان الذين يخونون أو طائهم ، لقاء منافع شخصية ومكاسب ذاتية ، كأن ينضوون تحت ألوكة الأجانب ليحاربوا أبناء وطنهم من دون أن يفكروا هم في ملك او سلطان ، او يدلون على عورات مواطنهم او يكونون آلة صماء في أيدي الأجانب لينزل بواسطتها البلاء على البلاد ، او ما الى ذلك من الأفعال والأعمال المذمومة ، لا تلمس في طباعهم اثر من العزة والاباء ، ولا قليلاً من مكارم الأخلاق ومحاسن الوفاء . فهؤلاء انما يعملون لنفعهم الخاص ، يقبضون جعلاً مقدراً لقاء قيامهم بهذه الأمور . فعلى مثل هؤلاء يصدق القول بأنهم ماديون ، وانهم خائنون غادرون ، ولكن العرب انما يحتربون فيما بينهم ويختلفون ، يقتلون ويقتلهم ولا لأنهم قبضوا جعلاً مقدراً من الأجانب ولا لأنهم أرادوا أن يسودهم الأجنبي ويتحكم في مقدراتهم الغريب ، انما يقومون بهذه الأفعال وينجزون هذه الأعمال ، من شدة عزتهم وإبائهم ، من حبهم العميق للأجلال والسلطان . يريد كل منهم ان يتفرد بالسلطان ، وان يكون هو الأعلى ولكن تكالبهم على السيطرة وحبهم

الاعمى للاجلال والسلطان ، وغلوه في الاستقلال الفردي واندفاعهم العنيف في الفردية كل هذه أسباب ، مهدت للاجانب سبيل النفوذ الى أوطانهم واختراق صفوفهم فوقعوا صرعى عزتهم وابائهم ، وضحايا فرديتهم ونفسياتهم القوية في تمردها . والاهواء والميول النفسية اذا كانت حادة عنيفة واضاع العقل سيطرته عليها ، انطلقت كاسميل يحرف ما يقع في سبيله من خفيف وثقيل ، ومنقول وثابت .

اني لا اريد ان ابرر للعرب اعمالهم ، ولا اطمح الى التخفيف من لومهم وتقريعهم على ما جنته ايديهم ، وما أثمت عليه نفوسهم من تصرفات انتهت بعبوديتهم وذلتهم في الامس واليوم ولكننا ابحت امراً واقعا ، واجلو حقيقة ثابتة . ولو كنت ممن يعتقدون بأن الشعب العربي شعب مادي يميل الى الحيانة والقدر بطبعه وغريزته ، اقول لو كنت اعتقد فيه هذا الاعتقاد لما جشمت نفسي عناء البحث في اسباب اضمحلاله ، ولا سهرت من اجل تحري عوامل نهوضه . لأن شعبا ماديا ، يميل بطبعه الى الحيانة والقدر ، خطر مربع على الانسانية فكيف يصلح للحياة يوما من الايام ؟ واي انسان اضاع رشده ، وتجرد عن ضميره وتخلي عن مروءته فيرضى ان يعيش مثل هذا الشعب الخطر على الانسانية ويسعى ليهي له اسباب الحياة ؟ فالحق ان الشعب العربي ، لم يكن ماديا ، وانما كان فريسة لمادية الشعوب المستعمرة ، ولم يكن غداراً خائناً بطبعه وغريزته ولكنه كان ضحية غدر الغريب وخيانتة له ، واذا كان فيه عيب فإن عيبه في فرديته القوية وغلوه في استقلاله الفردي وبالتالي فإنه صريع اهوائه وميوله الحادة العنيفة ولكنها اهواء وميول طاهرة ، نبيلة لاشك في طهارتها ونبيلها . ولماذا لا تكون بعض الاهواء والميول نبيلة طاهرة ؟ ان الميول والاهواء كما يجوز ان تكون شريرة كالحقد الذي هو في الحقيقة منبع الشرور ومصدرها ، فقد يجوز ان تكون خيرة كالحب والصدقة

والوطنية وحب الخير والشفقة والا جلال والا عجاب ، بل ان فلاسفة المدرسة
الايقوسية ومنهم «دوجالد ستوارت» (١) يذكرون انواعا كثيرة للاهواء
والميول الخيرة ولا يذكرون للشريعة الا نوما واحدا هو الحق بد اعتبار ان
ليس للبغض الا طريق واحد وهذا ما يؤيده «ديكارت» (٢) ايضا .

ان الاهواء ما هي الا ظواهر تبدو في انفسنا من غير ان يكون لنا
فيها عمل او بالقل من غير ان يكون لنا فيها عمل ضروري وليس لها حقيقة
الا انها تغيرات تلحق مادة التفكير . فاللذة والالم والحب والبغض والرغبة
والرهبة كلها أهواء . وهذه الاهواء تصاحب كل فرد ، وترافق كل انسان
وانما تختلف شدة ولينا ، قوة وضعفا بالنظر الى الاخلاق الطبيعية والمكتسبة
لكل منهم . فهي في الحقيقة الباعث لكل اعمال الانسان ولولاها لما كان
للانسان عمل ، بل لكانت حياته مجدبة قاحلة لا تقع فيها ولا خير . ان الذين
يهاجمون الاهواء ، وينددون بها انما هم اولئك الذين لم يدركوا اثرها في
حياة الانسان واتجاهاته . فلو اعطي الانسان الادراك والاختيار بغير الهوى
لكان قادرا على العمل مدر كما لما يجب أن يعمل ولكنه يكون غير مهتم ولا
عامل . كان بين تلك الازادة التي يملكها والادراك الذي يحسه هوة عميقة .
وانما خطورة الاهواء واضرارها تبدو اذا انفلتت من عقاب العقل ،
واستخدمت الازادة لا غراضها . والانسان باعتبار كائناتنا يتمتع بخاصة العقل ،
فانه مسؤول ليس عن نتائج أهوائه فتحسب بل وعن أهوائه نفسها ذلك لانه
يستطيع أن يوجهها كما يريد او يقاومها . ومعنى ذلك أنه يمكنه أن يذعن لها
او يمتنعها ان يعينها ويساعدها او ان يمتنع عليها وان يفتح لها قلبه او يقفله

«١» دوجالد ستوارت فيلـوف ايقوسي ولد في ابديمبورغ سنة ١٧٥٣ وتوفي في ١٨٢٨

«٢» ديكارت عالم فرنسي نبغ في الفلسفة والهندسة وهو اول من أسس علم النفس

الحديث ولد سنة ١٥٩٦ وتوفي سنة ١٦٥٠

دونها. صحيح ان للاهواء قوانين تولدها وتنميتها في نفس الانسان ولكنها
متى تكونت ونمت وجدت ازاءها الارادة والعقل .

اذن فالاهواء وان كانت طبيعية في الانسان فانه يستطيع أن يتصرف
فيها كيف يشاء عقله . وأن يجعلها خاضعة لارادته متى يريد ويهوى . وبقدر
ما تكون تربيته قوية وثقافته ناضجة تكون سيطرة عقله على أهوائه قوية ،
وتحكمه فيها صارما . وهذه النتيجة التي خلصنا اليها ، هي التي تعيننا في بحثنا
هذا ، ومن أجلها سقنا هذه الاحاديث .

تحليل وتمحيص

وكما ان كل أمة تتكون من أفرادها فكذلك خلقها العام ، وطبائعها تتكون من الأخلاق والطباع الغالبة في كل فرد من أفرادها . والطبيعة العامل الأول في تكوين هذه الأخلاق العامة والطباع الغالبة بلا ريب . فحرارة القطس وبرودته ، خصوبة التربة وجدها ، سهولة الأرض ووعورتها جبالها وسهولها ، وقوعها على السواحل البحرية وبعدها عنها ، كل هذه عوامل طبيعية مؤثرة في التكوين الخلقي وتوليد الطباع . ان حرارة الطقس تدع الإنسان ان يكون سريع التهيج مثلاً ، وبرودته تجعله بارد الدم وخصوبة التربة تنمي فيه غريزة الكرم وجدوبها تقوى فيه الميل الى الافتصاد بل تقوى غريزة البخل . وسهولة الأرض تميل بالإنسان الى الكسل بينما وعورتها تزيد في نشاطه وكدحه وكذلك المناطق الجبلية تجعل من أبنائها أشداء أقوياء بينما المناطق السهلة تضعف في أبنائها هذه الخصائص وفي الحق اننا اذا اردنا الدقة في التعبير نستطيع ان نقول ان الطبيعة واختلاف الأجواء وتباين أنواع الأرض تنمي أو تضعف الميول والطباع ، وتخضع لها النزعات والأهواء . اذ ان منشأ الأهواء هو الإنسان نفسه فجميع أنواع الأهواء والميول ، انما هي موجودة في قرارة نفسه وانما تكييفها عوامل الطبيعة لتلطف بعضها وتقوى أخراها حسب مقتضى الحال ، وتأثيرها فيه . ولكن العقل وما يضع من قواعد للتربية اذا لم يكن قادراً على ان يقضي على البواعث والعوامل الطبيعية فإنه ولا شك قادر الى حد كبير على توجيهها والحد من قابلياتها .

ان الحب من أهواء الانسان المحببة فهذه الظاهرة النفسية ضرورية له سواء انتجت له لذة أم ألماً والحب قوام كل شيء في هذه الحياة . فهو يحب نفسه قبل كل شيء ، انه يحب ان يحيا حياة سعيدة ، يحب الامتلاك ، ويحب الاجلال ويحب السيطرة والنفوذ ، ثم هو يحب أسرته ، ويحب وطنه ويحب الانسانية التي يتقلب في احضانها . فهذه أنواع الحب ، كلها أهواء وكلها نبيلة في حد ذاتها ، شريفة في غاياتها ، اذا اقتصد الانسان فيها واعتدل في استعمالها .

من يستطيع ان يجرد الانسان من حبه نفسه ؟ لا القوانين الوضعية ولا عوامل التربية والتعليم بقادرة على نحو هذه الظاهرة الطبيعية من نفس الانسان . ان الذي تهدد آلام الحياة فيلجأ الى الانتحار فيرمى نفسه في الماء . ويقبل رجل آخر لا تقاذه فمن النادر انه يرفض الحياة التي يأتيه بها منقذه . ان مجاورته للموت ترده أشد حبا للحياة . وكثيراً ما نرى عظاما لا يهابون الموت ، ولا يخشون مرارته يتخاذلون أمامه في حالات خاصة حين يكونون منه قاب قوسين أو أدنى ، ولا يبالون بما تصاب سمعتهم ، من أذى ، وما تنال مكانتهم في اوساطهم الاجتماعية من مهانة . ألا ترى عظيم قرطاجنة « هسدر وبال » ذلك الذي دافع عن وطنه وحارب الرومانيين بقوة وجسارة يلقى بنفسه في أحضان أعدائه ويستسلم لهم حين قرر رفاؤه ومنهم زوجته ، ان يحرقوا أنفسهم في بنائهم لئلا يقعوا في أيدي اعدائهم أذلاء صاغرين ؟ وهذا الاشعث بن قيس وهو عظيم من عظماء القبائل اليمانية التي حاربت جيوش المسلمين في حروب الردة ، والذي عرف عنه دائماً انه لا يهاب الموت ولا يخشى سلطانة والذي هب لمقاومة جيوش الخليفة الاول لمجرد سماعه من النساء اليمانيات ، يا اشعث خالانك ، خالانك ؟! .. حيث استعثن به واستنجدن ، فهل يصدق المرأ ان رجلا هذه مكانته وهذه سجاياه يترك قبيلته نهب السيوف والرماح ،

لينجو هو بنفسه مع اثني عشر نفرأ من أقربائه ، نتيجة مساومة رخيصة ؟
 لماذا حصل كل ذلك ؟.. انه حب الحياة المنبعث من حب النفس ... ان
 حب النفس شعور طبيعي في الانسان ، ليس في قدرة القوانين القضاء عليه
 ولا في وسع التربية أن تمحوه ، ذلك لأن « طبيعة الارادة الانسانية هي أن
 تطلب السعادة قبل كل شيء ، ثم تنتقل من ذلك الى رغبات خاصة ... (١) » حتى
 ان الذين زهدوا في الحياة الدنيا واحتقروها أشد الاحتقار لم تخل انفسهم
 من هذا الحب . انهم انما يزهدون فيها ويحتقرونها اما خوفاً من النار في الحياة
 الآخرة واما طمعا في الجنة ونعيمها فهم اذن يضمنون بأرواحهم ان تعذب في
 النار او انهم يريدون امتناعهم بنعيم الجنة ولذا نذرها . ولقد يجوز ان يكون بين
 هؤلاء المتصوفة من يقنى حبا في ذات الله ، لله ، لا خوفاً من ناره ولا طمعا
 في جنته ولكن كم هو عددهم ؟ لاشك انه قليل جداً . فالآثرة اذن سلبية
 طبيعية في الانسان وانما تمت وتندد بها اذا خرجت عن حد الاعتدال وتعدت
 الطور وانقلبت الى ضرر محض بالغير .

وكذلك حب الامتلاك وحب الأجلال وحب السلطان والنفوذ فانها
 سجابا طبيعية وانما تضعف وتقوى وتتطامن وتشتد بعوامل الطبيعة او
 عوامل التربية وتأثير البيئة . فحب الامتلاك انما هو ميل طبيعي ألهمتنا اياه
 الطبيعة . فالانسان ليس يحب الامتلاك لأنه سيميل الى اللذة فقط وانما يحبه
 لنفسه . فهو يتذوق روحيا ويتلذذ احساسه اذا امتلك شيئا . فكلمة « هذا الشيء
 لي » هي نفسها ملذة تستدر ذوق الانسان وتنمى رغبته . فهذا الميل الطبيعي
 حي في نفس المتوحش والطفل والأبله والأصم والأبكم ونحن . نتعجل في
 الاستيلاء شرهين على ما يلزمنا من طعام ولا نحتمل ان يغضب منا وكذلك
 نتعجل في الاستحواذ على المواد الاخرى ولا يروقنا أن نفلت من ايدينا فما

(١) قول بوسويه وهو تيسير فرنسي اشتهر بالفصاحة في الخطابة .

معنى ذلك ؟ .. معناه أن الطبيعة التي كونتنا وأنشأتنا لنكون النظام المدنى في هذه الحياة افرغت في أنفسنا العناصر الضرورية لتكوين هذا النظام ومن جملة هذه العناصر الميل الى الامل . هذا هو الحق الصراح أما ان هذا الحب يضعف في بيئة ويشتد في أخرى ، ويتنزل في نفس انسان ويشتد ويلطف ويعتدل في نفس انسان آخر فكل هذه الاختلافات انما هي اما نتيجة عوامل طبيعية خارجة عن نفس الانسان واما نتيجة التربية والوسط . صحيح ان الطبيعة لم تلهمنا حب الذهب والفضة ولا حب تلك الأوراق المألمة ذات القيم العظيمة ولكنها تعلمنا حب القيم الاعتيادية بسهولة لأن فينا ميلا طبيعيا للامل .

وان حب الاجلال طبيعي كذلك في الانسان وان كان من اليسير على التربية ان تنميه وتغير فيه . ان كل انسان في هذه المجموعة البشرية يتأثر الى حد ما بالذم والقدح . ان هذا الشعور انما هو اول المشاعر التي تظهر في الاطفال وهو انفعلا اذا استخدم في تربيتهم . ان كل هيئة اجتماعية تستخدم ذلك المحرك المزدوج من العقاب الشائن والثواب الكريم وكل فرد يسعى بطبعه وغريزته الى أن يكون محلا للثواب الكريم ، والجزاء الحميد وبعيدا عن موطن العقاب ، والاحتقار والاذراء . ان المتوحش الذي يستمكن بحجور الجبال ، او يحيا في وسط المروج والغابات يستأثر به حب الاعجاب ويشعر بزهو ومباهاة حين يجد في نفسه القوة والشباب . ان هذا الحب خير انواع الحب الاخرى اذا استطاع الانسان التصرف فيه تصرفا حسنا . انه يوحى اليه بالتضحية ويشير عليه بالاخلاص ويدفعه كثيرا الى مواقف البطولة فيخلف الفضيلة ويشبهها . يعززم امرى القيس الشخوص الى القسطنطينية بعد أن طارده المنذر ابن النعمان صاحب العراق ، فيودع اسلحته ودروعه التي كان تركها له ابوه حجير الكندي ، لدى السموأل صاحب حصن الابلق الفرد ،

فيطالب المنذر « السموأل » بتسليم رديعة امرىء القيس لديه فيما بي عليه فيحاصره في حصنه وفي تلك الاثناء كان ابن السموأل يتصيد خارج الحصن مع رفقة له فلما آب الى حصن أبيه قبض عليه المنذر وهدد السموأل ان لم يسلمه الوديعة قتل ابنه ففضل السموأل ان يرى ابنه قتيلا مضرجا بدمائه على ان يخون الامانة فيسلم المال الذي كان قد اؤتمن عليه - وهكذا كان .

يجلس المنذر بن النعمان في يوم يؤسه فيقبل عليه حنظلة ابن ابي عفراء فيأمر بذبحه فيطلب منه حنظلة امهاله سنة ليرجع الى أهله ثم يعود فيقول له المنذر من بكفلك . فينظر هذا الى وجوه القوم فيعرف منهم شريكا بن عمرو فيطلب منه ان يكفله على ان يقتل مكانه ان هو لم يرجع فيجيب على ذلك فلما كان العام المقبل يجلس المنذر في مجلسه ينتظر حنظلة ان يأتيه فيبسط عليه فيهم بقتل الكفيل شريك واذ هو في هذه الحالة فاذا براكب قد طلع على القوم فاذا به حنظلة قد أقبل متكفنا متحنطا ومعه نادبته فيؤثر هذا الوفاء بالعهد في نفس الملك فيطابق حنظلة ويترك تلك العادة السيئة (١)

يحكم بروتوس (٢) الأول القنصل الروماني على اولاده بالموت لانهم

« ١ » كان المنذر رجلا نبادامانه من بني اسد احدهما خالد بن المضلل الفقعي والاخر عمرو بن مسعود فأغضبا في بعض النطاق فأمر ان يحفر لكل منهما حفير في ظهر الحيرة ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين ففعل بهما ذلك حتي اذا أصبح سأل عنهما - وكان اذا فعل بهما ذلك في حال السكر - فأخبر بهلاكهما فتدم على ذلك ونغم الامر ثم ركب المنذر حتى نظر اليهما فأمر ببناء الغريب عليهما . - والغريب هو البناء الخيد - فبنا عليهما . وجعل لنفسه يومين في السنة يوم نعيم ويوم يؤس . فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الابل وأول من يطلعه عليه في يوم يؤسه يعطيه رأس ظربان اسود ثم يأمر به فيذبح ويأطى بدمه الغريبان - والظربان دويبة كالهرة منتنة وفي المثل هما تذا زمان جلد الضربان - اي يتسايان « ٢ » بروتوس هو اول قونسول في روما . وهو الذي قام بمعونة « كوالان » زوج « لوكره جيا » التي اعتدى على عفافها « سيكستون ابن آخر ملك في روما « تاركن » فاتتجرت . بقلب نظام الحكم في روما من الملاكى الى الجمهورى . وصار هو وكولاتين =

انهمروا مع الاعداء على قلب الحكومة وأساءوا الى روما . وينفذه فيهم .
يعدم ميلينوس القنصل الروماني ابنه لانه قاد رتلا ضد الاعداء بدون امر
القيادة العامة خلافا للنظام العسكري النافذ .

يفامر الرواد والمواعون بالاكتشافات ، بأنفسهم فيلقون بها في مجاهل
افريقيا التي تشتعل بالنار او يرمون بها في ثلوج المنجمدات او يعرضونها الى
الاطخطار بين الجرائم الفتاكة ، او بين المواد الكيماوية القابلة للانفجار
والاشتعال في كل لحظة فمنهم من يلقي حتفه ومنهم من تكتب له السلامة فينجو .

فما هذه المغامرات ، والتضحيات ؟ ولماذا ؟ . . انه حب الاجلال
قد دفع بهم الى هذه المخاطر ، وحب اليهم هذه المغامرات والتضحيات فمنهم
من يخشى على سمعته ، او على ان يفوته المدح والثناء فيستخو بأبنه او يهود
بنفسه ، ومنهم من يرغب في ان يخلد اسمه في الاوساط العالمية ، وان يعطر
ذكره في حفل الانسانية فيخلص من مغامراته وتضحياته باختراع جديد ،
يحفظ به حياة الانسان او اكتشاف مفيد تستغله الامم - لخيرها - او يفوته
الحظ فيلغظ انفاسه في اثناء تأديته الواجب فيكون في عداد الشهداء . ومنهم
من يرى وطنه مهدداً ، والمصلحة العامة في خطر فيقذف ببنيه وهم فلذات
كبدته الى الحفر ويوسددم الاثراس لانهم كانوا من المسيئين لهذه الآثام التي
تلحق شرورها الوطن .

فحب الاجلال اذن مفيد لتقدم الانسانية وتثقيف الامم ومؤد الى
رفع مستواها ، وتنمية اسباب الحياة السعيدة فيها ، ان احسن التصرف فيه . ذلك
لان حكم الانسان على اعماله عرضة للخطأ والفساد فهو في حاجة الى الاعتماد
على حكم الغير لذلك كان من النادر ان لا يخضع ولا ينقاد بغير شعور منه الى

= فونولين لأول مرة في الحياة الجمهورية الرومانية ومن احفاده بروتوس قاتل سيزار
الروماني المشهور

حكم الناس الذى يسمونه الذوق العام . فحتى علم ان عملا ما من شأنه ان ينال رضا الناس عامة ويلائم الذوق العام او انه يوجب سخط الناس ونفور الذوق العام منه ، فهو يذساق بكليته وبجراحة لأن يقوم بالعمل الاول ، ويسمى بمجد لأن يبتعد عن اتيان الثاني . انه ينظر الى ميل الرأي العام اكثر مما ينظر الى ضميره او الى العمل نفسه . صحيح ان الذوق العام قد يتغير من وقت الى آخر والرأى العام فى نوع من الاعمال قد يتبدل بين آونة واخرى ولكنه حسبه أنه قد قام بما يرضى الذوق العام ، ويطمئن الرأى العام . على ان الذوق العام او الرأى العام لا يكونان دائما مخالفين للعقل والمبادئ الانسانية فعلى الاكثر تكون صلتها بالعقل والمبادئ الانسانية قوية واذا كان هناك ذوق عام قد أثبتت الحوادث بعده عن مواطن الحق والعدل أو رأى عام قد برهن العقل على سخفه وفساده فان المدقق المتعمق فى تدقيقاته ليجد آثار العدل والحق ، ورسوم المبادئ الانسانية التى يقول بها العقل دائما ، تعمل عملها الخفى فى ضمن ذلك الذوق العام او ذياك الرأى العام . لناخذ مثلا الرق . فقد كان نظاما كان الفلاسفة أنفسهم يرونه ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية . ولكن الجماعات البشرية التى كانت تعمل بهذا النظام أما كانت تبتسج الى كثرة العتق والتحرر ؟ . ألسنا نرى المدح والاطناب فى المدح فيها يكونان نصيب من يعامل رقيقة بالرحمة والرافة أو يفسح المجال له لأن يعيش عيشة وادعة مترفة ؟ . ان روما حين يكثر فيها الرقيق كانت تميل بسخطها الى تحريره . وافلاته من قيود العبودية ثم تخلع عليه رداء الرعية الرومانية وحقوقها . ان الانبياء المرسلين والفلاسفة الحكماء كانوا دائما يشجعون الناس على تحرير الرقاب او ينصحونهم ليسيروا مع أرائهم وعبيدهم باللين والرفق ان افلاطون حين غضب على عبده وامر اسبوزيب (١)

(١) تفيظ افلاطون يوما من عبده فمهم بضربه فذكر انه فيلسوف وان الغضب يذهب =

أن يضربه عوضاً عنه وامتنع هو عن ضربه ، لم يكن ذلك منه إلا لأنه خشى
أن يدفعه الغضب إلى القسوة بعده فأمر اسبوزيب الذي لم يكن تحت تأثير
الغضب في ذلك الوقت . نعم أن افلاطون قد كبر عليه أن يتماكك الغضب
وأن يكون تحت سلطانه وهو فيلسوف لا يخلق به أن ينال الغضب منه منالاً
ولكنه في عين الوقت كان يلاحظ عبده ويرعاه . فما معنى كل ذلك ؟ . اننا نجد
آثار الرحمة ومبادئ الانسانية تهذب ذلك الذوق العام وتخفف من غلواء
ذيك الرأي العام الذي كان يرى في الرق دعامة نظام الاجتماع

كذلك نظام الاستبداد الذي كانت تعانیه الأمم في القرون الاولى
والوسطى حيث كان يعم المعمورة ويسود الاوساط وكانت الآراء العامة
تستقيفه . فهل كانت تلك العهود تخلو من حركات حرية تنال عطف الجماهير
وتكسب رضاهم ؟ . ان هذه الجماهير وان لم تكن قادرة على اظهار شعورها في
الجمهور والعلن ولكنها كانت تشعر في قرارات نفوسها بميل وانجذاب نحو
تلك الحركات الحرة . اذن فبوسعنا ان نلمس في كل دور من ادوار التاريخ
آثار العقل ومبادئ الانسانية في العوالم التي كانت تتخبطها الاذواق
والآراء العامة التي كان يتخللها شيء من الفساد مع العلم انها لم تكن في
وقت من الاوقات كثيرة في انواعها خطيرة في نتائجها . لأن الله عز وجل
قد أقاض نعمته على عباده فمنحهم قوة العقل وألهمهم مبادئ العدالة ووفر
للانسانية العناصر المقومة لنظامها . لذلك نجد الاذواق العامة او الآراء
العامة دائماً كانت ضد الاعمال المخربة للنظام الاجتماعي الهادمة للعمران
وان وجد منها ما يفتو عن مبادئ الانسانية والعدالة فذلك الاثر
تغلب طبقة من الطبقات الشريرة لزمان من الزمان ، وفي هذا النوع

= بالمقل الحال الذي لا يلائم مكانته فالتفت الى اسبوزيب قائلاً « . اضربه انت فأني
غضبان . . »

الشاذ من الآذواق والآراء أيضا نستطيع ان نبصر نور العدالة
وفيض الرحمة

اذن فان حب الاله جلال يؤدي خدمات جلى للانسانية وتقدم الحضارات
ان أستغل استغلالا معقولا . وكذلك حب السيطرة والنفوذ فانه طبيعي في
الانسان وأنه أثر من آثار المنافسة الحادة بين الافراد . فلكل انسان الحق
في ان يسعى ليكون له مكانة في المجتمع وان يخلق له نفوذاً في الوسط الذي
يعيش فيه صغر أثر هذا النفوذ أم كبر . هذا حق من حقوقه الطبيعية ولكن
لماذا يكون حب السيطرة والنفوذ بغيضا للنفوس ؟ أي لماذا اذا ربي أحد
الافراد بحب السلطان بغضب ويشور ؟ . بغضب ويشور لأن هذا الحب
يفسر على الاله كثر بالاثرة الشديدة أو الطمع ! ...

وفي الحق ان هذا الوصف يكون ممقوتا اذا كان منشأؤه الشعور الشديد
بالاثرة والميل الجنوني وراء المنفعة الخاصة . ويكون ممقوتا لسبب مضاعف
أولاً لأن حب النفس مبغوض لاسيما اذا ما ظهر وأخذ به الناس . وثانياً
لأننا نثق ولنا العذر بأن الذي يسعى وراء ارضاء رغبته في احتياز
السلطان لا يستخدم سلطته متى حصل عليها إلا لتنميته وتمكينه فهو يبدأ بأن
يكون طامعاً وينتهي بأن يكون مستبداً ولكن من استعمل هذا الحب بصورة
معتدلة ، واستهدف المصلحة العامة يكون خيراً محضاً ولا يلحقه المقت والبغض
من الكافة .

انه لفرق عظيم بين ان يقتناول السلطان ما يتيادس (١) ، أو يريكلس (٢)

« ١ » مليتياديس من ألع القواد اثنين وهو الذي غلب الجيش الايراني في واقعة
ماراتون الشهيرة في ٤٩٠ قبل الميلاد

« ٢ » يريكلس . اركون آيثنى كان عهده عهد آئينة الذهبي عاش في القرن الخامس
قبل الميلاد

أو أريستيديس (١) أو تيبوس (٢) أو تراجان (٣) أو ابو بكر أو عمر ابن الخطاب أو علي ابن أبي طالب أو غيرهم من العظام الذين اوقفوا نفوسهم لخدمة أوطانهم ، وتضميد جراح الانسانية وبين ندرن أو كاليكولا أو دهنيس (٤) أو فالاريس (٥) أو يزيد أو الحجاج الطغاة الجفاة .

ان الانسان يحب بطبعه وغريزته أسرته ووطنه والانسانية ، وان هذه الانواع من الحب مرتبطة بعضها ببعض وان كانت تبدو لأول نظرة انها متناقضة متباينة . ولا أريد ان اتعمق في تفصيل هذه الناحية وانما اكتفي بأن اقول ان حب الأسرة يقضى الى حب الوطن ، وحب الوطن يؤدي الى حب الانسانية وان الانسان لا غنى له عن هذه الانواع الثلاثة من الحب

« ١ » اريستيديس زعيم آثيني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ومعروف بالحزم

وحب العدالة

« ٢ » قيصر روماني اشتهر بمحصر جهوده في سبيل تخفيف آلام الشعب وكان يقول اذا مر به يوم واحد لم تساعد فيه فرصة يقوم بمأثرة طيبة « لقد ضيعت يومى » .
عاش في القرن الاول

« ٣ » من اعظم اباطرة روما بذل اقصى مجهوده لأنعاش روما وان موقفه حين سلم السيف الى احد قواده مشهور حيث قال له « ... ايها القائد اني اسلمك هذا السيف لتسمل له الصالحى مادمت عاملاً بالقانون مؤيداً للعدالة وضدي اذا انحرفت عنها ... »

« ٤ » دهنيس طاغية سيراكوزة في صقلية حكم من ٤٠٦ و ٣٧٦ قبل الميلاد . وكان قد وصل في ظلمه الى درجة انه ابتنى ديوانه في السجن الذي كان يلقي فيه ضحاياه وانشأ من السجن الى ديوانه مجرى خفياً يسمع بواسطته كل حركة أو كلام يحدث في السجن مهما كانت الحركة خفيفة ومهما كان الصوت ضعيفاً . وقد بني هذا المجرى بمهارة فائقة . ومضى شمر من احد السجناء حركة مريبة أو كلاماً يحتمل التأويل والتفسير قضى عليه في الحال

« ٥ » طاغية « حيرجة » أو « اغرى جانت » في صقلية ايضا . حكم من ٦٧٥ الى ٥٦٤ . وقد اشتهر بظلمه وعسفه . حتى انه صنع آلة على شكل نور كبير . كان يحمله ويلقي فيه ضحاياه . وكان يتلذذ ويتنشق اذا سمع انينهم ، وشهقاتهم وزفراتهم تار عليه الشعب فأحرقة بالآلة التي كان قد اعد لها لخصومه من قبل

لأنها من جملة مقومات كيانه في هذه الحياة .
فالذي يهمنا من جميع هذه الأنواع من الحب ثلاثة ، حب الامتلاك ،
حب الاجلال ، حب السلطان او حب السيطرة والنفوذ . وائرها في حياة
الشعب العربي وتكوين خلقه ومزاجه .

* * *

ان الباعث لنا لأن نخص هذه الأنواع الثلاثة بالعناية لأنها أكثر
نفوذاً في ارادة الانسان واشد فعلا في نفسه ولما كان هذا هو شأنها فإنها
تكون بالنتيجة من أخطر البواعث والعوامل التي تخلق الطبائع العامة في الأمم
والشعوب وتؤثر في امزجتها .

لقد مر بنا ان هذه الأنواع من الحب هي من الأهواء والميول التي
تولد مع الانسان وتنمو فيه بنموه . فان احسن توجيهها واقتصاد في
في استعمالها واعتدل كانت ذات خير وبركة عليه وعلى الوسط الذي يعيش
فيه وان هو افراط فيها كانت شراً عليه وعلى المجتمع الذي نشأ فيه . لأن
الغلو في حب الامتلاك يولد البخل ، والغلو في حب الاجلال يفتج الغرور
والغلو في حب السلطان يؤدي الى الاستبداد . وجميع هذه النتائج خطيرة ليس
على الفرد فقط وانما على الوسط الذي يعيش فيه ذلك الفرد . لأن الطبائع العامة ،
انما هي صورة للطبائع الفردية ليس غير . على ان الغلو في الامتلاك اقل خطراً
من الغلو في الحبين او الميلين الآخرين ذلك لأن حب الامتلاك اذا انتج
البخل فان هذا الضرر انما ينحصر اثره في الفرد او في المحيط العائلي الذي
يعيش فيه الفرد . وان اضراره المباشرة بالمجموع اذا لم تكن معدومة تماماً فهي
ذات اثر ضئيل لا يؤبه له ابداً . وانما الخطورة هي في الغلو في حب الاجلال
الذي يفتج الغرور وحب السلطان الذي يؤدي الى الاستبداد . لأن ضرر كليهما

لا يؤثر في الفرد او النطاق الضيق الذي يعيش فيه الفرد وانما يتجاوزهما الى المجتمع بل الى المجتمعات الاخرى الخارجية .

ان الانسان اذا افترط في حب الاله جلال مثلاً تتكون فيه نزعة التفرد والاستقلال في العمل والرأي ، وتتلشى فيه خليقة الطاعة والانقياد للغير لان الغرور يسوقه الى ان يرى نفسه فوق كل شيء . واذا تأثرت افراد أمة من الامم أو اكثريّة أمة من الامم بهذه السجية وصارت لها طبيعة ظاهرة ينشأ عن ذلك ميل عام للتمرد على القوانين والسلطات ، ورغبة شاملة في عدم الانقياد اسلطة ما ، أو الانضواء تحت زعامة فرد ما . وهذا النوع من حب الاله جلال ما يصح ان يطلق عليه حب الاله جلال الفردى . لانه يؤدي الى الغرور الفردى . وهذا النوع من الداء هو ما كان ولا يزال يعانى به افراد الشعب العربي .

وقد يظهر الغلو في حب الاله جلال في صورة اخرى كأن يدفع الغرور بالفرد الى ان يشعر بالتفوق القومى على سائر الاقوام فيكون في تلك الحال الغرور القومى ان قيام الفرد بواجباته القومية نحو بلاده وقومه ، من المزايا الحميدة ، ومن المبادئ الاخلاقية ايضا . وانه مهما بذل في سبيل قوميته وبلاده فلا يكون مغاليا ، او متخطيا حدود الواجب وان كان في ذلك حتفه وهلاك أسرته وكل عزيز لديه . لان الواجب يدعوه الى ان يفضل النفع العام على النفع الخاص ، واذا اقتضت المصلحة العامة ان يقف هو ومن يحب فعلية ان يعرض نفسه ومن يحب الى الفناء ، بجذل وسرور ، وسخاء وكرم . فلا غلو في التضحية في سبيل صيانة الوطن من الاعتداء او محافظة منافع الامة والبلاد لان التضحية في مثل هذه الحالة تكون واجبا فكأنما هو يقوم بالواجب لا اكثر ولا اقل . ولكما الغلو يكون ممقوتا وخطراً اذا تجاوز حدود صيانة الوطن وحفظ منافع الامة الى الاعتداء على منافع شعب آخر واختراق

حدود وطنه تحت تأثير الغرور القومى فهذا النوع من حب الاجلال
يصحح ان يطلق عليه حب الاجلال الشعبى ، او القومى الاعتدالى لانه
يولد شعور الاعتداء على الغير وان أثر هذا الشعور نراه جليا واضحا في
الشعوب المستعمرة كبريطانية وفرنسة وهولندا وايطاليا .

فالغلو في حب الاجلال الفردي اذن يفتج القوضى ، وفقدان النظام في
الامة والغلو في حب الاجلال الشعبى او القومى المتطرف يؤدي الى الاعتداء
على حقوق الامم الاخرى والعبث بحريتها وكيانها وكلا النوعين خطر على
الانسانية وممقوت من الضمائر الحرة والعقول السليمة .

قلت ان الفرد قد يضحي بنفسه وبمن يحب تحت تأثير الاجلال بنوعيه
الفردي ، والقومى ويكون في تضحيته هذه مقدر ومحبا لان في هذه
التضحية نلمس المبادئ الانسانية ونرى معنى الواجب فلا يكون المضحي
مغاليا ، مهما كانت خطورة تضحيته . فهذا الذي نراه يقدى ابنه وفلذة كبده
في سبيل احتفاظه بشرف الامة وحرصه على الوديعة التي اؤتمن عليها ، لا
يمكن ان نلومه على مجازفته بابنه مال كان يستطيع ان يؤدي ثمنه لمستودعه
فيا اذا اراد التحلل من الموقف . لان الوفاء واجب ، وحفظ الامة واجب
فهو انما قام بالواجب ، لا اكثر من الواجب . وكذلك الذي تعهد بأن يعود
الى الملك ليقتله بعد امهاله مدة معينة فلا تسمح لنا المبادئ الاخلاقية ان
نعيبه على قدومه وتعريض نفسه للقتل بينما كان في وسعه ان يفلت من الموت ،
سيما اذا كان الحسك ظالما وغير مستند الى سبب شرعى او قانوني . لان
الصدق في القول والوفاء بالعهد انما يقول بهما الواجب فهو لم يقم بغير الواجب
وليس في عمله أثر من الغلو (١) فهذا النوع من الاجلال الفردي انما هو محبب
للفسوس الكريمة ، مستساغ لدي العقول الكبيرة

(١) اشارة الى ما وقع في حادثتي السمؤال والمنذر .

و كذلك ما عمله بروتوس في تضحية اولاده في سبيل روما ، او ما قام به ميلينيوس في اعدامه ابنه لخالفته للنظام العسكري او ما قام به « ريجيولوس » (١) حين ابلغ روما حقيقة وضع القرطاجيين ونصح السناتو بأن لا يقبل مهادنتهم و صلحهم لانهم في طريق الهزيمة والانكسار او ما اقدم عليه « لويس فارس أساس » (٢) من عمل خطر لما صاح بأصحابه « الي الي دونكم العدو ... » في اللحظة الحرجة التي كان عليها وضع مواطنيه . فهؤلاء وغيرهم من العظام الاباطال لم يكونوا مغالين في القاءهم انفسهم بين المخاطر والمهلك لانهم انما قاموا بالواجب نحو وطنهم وبلادهم فمثل هذا النوع من حب الاجلال القومي مقدر من الجميع لانه في حدود الواجب ، ومن جملة المبادئ الاخلاقية والانسانية .

و كذلك الرواد المكتشفون ، والعلماء المخترعون ، والفنانون المبدعون اذا لفظوا انفسهم في الصحاري والقفار . او في المحيطات والمنجمدات او بين العقاقير السامة ، والمواد الملتببة والمتفرقة فانهم انما كانوا يقومون بواجباتهم نحو العلم ، ونحو الانسانية وخير البشرية فلا يكونون قد تطرفوا في مقاسراتهم او غالوا في اقدامهم وبالتالي فان حبهم لهذا النوع من الاجلال انما يكال رؤوسهم بقيجان الشرف والمجد ، فلا سبيل الى اومهم وتعنيفهم .

ولكن ماذا نقول للذين يتمردون على النظام ، ويفرمون بروحهم الفردية ويطمح كل منهم ان يكون اميراً او ملكاً ؟ او الذين يدفعون بآمتهم الى العدوان والتجاوز وهضم حقوق الامم الاخرى بدافع حب السيطرة

« ١ » ريجيولوس قائد روماني كان في سجن القرطاجيين فخدعهم بأن يكون سفيرم لدى روما ليقنمها في الصلح ثم يعود اليهم اذا اخفق فانه بعد ان نيه السناتو الي ما كانت يريد عاد الى قرطاجنة وعرض نفسه للمذاب والموت . وقد سبق ذكره في البحوث السابقة

« ٢ » لويس فارس اساس ضابط فرنسي اشتهر بتضحية نفسه لاشعار الجيش بوجود العدو ليلة الموقعة المشهورة بموقعة « كلوستر كاب » بين الفرنسيين والهانوفرين وهي ليلة ١٥ اكتوبر سنة ١٧٦٠ ولد في سنة ١٧٣٣

وبسائق التفوق العنصرى ، او الغرور القومى ؟. فكما ان الروحية الفردية العنيفة خطرة وبغيضة للنفوس كذلك هي الروحية القومية الحادة فانها ظالمة ، قاهرة متخطية حدود الواجبات وعابثة بمبادئ الانسانية . واذا كان اضرار الاولى تنحصر في مجموع معين من المجموعات البشرية فان الثانية تتجاوزها الى اكثر من مجموعة بشرية واحدة وتفرق الانسانية في الدماء . وكما ان نهاية الاولى الموت فان مصير الاخرى الاضمحلال والقضاء .

واقدر اضرار العرب حريتهم بسبب روحيتهم الفردية ، وغلوم في حب الاجلال الفردي واضاعت روما كذلك عظمتها بتأثير غرورها القومي الحاد . (١)

واليوم تلوح في الافاق عين البوادر . فالعرب تنسازعهم الروحية الفردية وتمنع عليهم الحياة الحرة والشعوب المستعمرة تتطاحن وتتفانى فيما بينها ، وقد خر غير واحد من هذه الشعوب المستعمرة التي تنزوا بها روحية الغرور القومى ، صريعا يتخبط بدماؤه ويتقلب في شروره وآثامه (٢)

فالشعب العربي اذن مصدر بلائه من طبعه ، ومنشأ ذله وعبوديته من مزاجه وخلقه . فما هي العوامل التي كونت هذا الطبع ، وأنشأت فيه هذا المزاج والخلق ؟ .

اقدر نشأ الشعب العربي ، في شبه جزيرة العرب . وهذه القطعة من المعمورة ، تعوزها الحصوبة ، وكثير من اسباب الحياة المترفة ، وعوامل الثبات والاستقرار .

لقد كان هذا الشعب في حياته البدائية يهيش عيشة قبيلية ، ومن طبيعة

«١» تراجع الابحاث السابقة فقد ذكرت الاسباب المؤدية الى سقوط روما واضمحلالها بشيء

من التفصيل .

«٢» اشارة الى ما حدث بفرنسة

الحياة القبلية ان يكون الفرد فيها قوى الشكيمة ، يشعر شعوراً قوياً بشخصيته ويعتمد اعتماداً مطلقاً على قوته الفردية ، واستقلاله الذاتي . انما تميل القبائل الى الاستقرار والهدوء ، وتعود النظام والطاعة ، وتشذب فيها الاخلاق والطباع ، فتقوم الليونة والمرونة مقام الحشونة والعنجهية . يأخذ الترف واللطف مكان شطف العيش ووعورة الخلق وتبنى المساكن والبيوت الدائمة بدلا عن بيوت الشعر والخيام . وتتغير الطباع شيئا فشيئا وتلين وتنعيم اذا سكنت ارضا معينة لا تبرحها وأخذت تحرثها وتستغلها وتستثمر كنوزها وتربثها . ففي هذه الحالة تشعر بحاجة ملحة الى نظام يحفظ مصالحها وتعود الطاعة الى نوع من السلطة تكون هي المهيمنة على الافراد كافة وتقوم بحراسة منافع الجميع وتوزع العدالة فيما بينهم . وبفضل النظام والطاعة والجهود المشتركة يستبحر العمران وتنظم الامور ويجود العقل بفيضه فتنشأ الحضارات ويقوم التمدن . واذا حرمت القبيلة من الاسباب والعوامل المفضية الى الثبات والاستقرار فانهما تظل محافظة على طباعها البدائية متمسكة بالتقاليد والعادات التي عليها علمها وضعها القبيلي . هذه ظاهرة عامة تسود المجتمعات البشرية كافة . فالطبيعة اذن لها اثرها الاكبر في تكوين طباع الامة وامرحتها . ولما كانت شبه جزيرة العرب بلادا قد ضمت عليها الطبيعة بخيرها فقد اضطر ابناءؤها الى ان ينتقلوا من مكان الى آخر طالبا المريع ، وانتجاعا للماء وللعشب وظلوا ينتقلون دائبين فيوما نراهم بحزوى ويوما بالعقيق ويوما بتيما واخرى بالدناء وهكذا ظل هذا الشعب يقاوى الطبيعة وتقاويه ويطمع فيها وتطمع فيه . فعدم استقراره في مكان ثابت ابقى فيه الروح القبلية العنيفة ومعنى ذلك انه لم يستطع ان يبنى له سكنا ثابتا ولم يتعود النظام والحياة المنتظمة المرتبة ، وهذا الحال أدى به الى ان يجعل فكرة الطاعة دبر أذنه وتحت قدميه . ومن ثم فانه ظل على خشونته وعنجهيته

فالتربية اذن كانت من اكبر العوامل التي كونت فيه هذا الخلق العام الذي نشكو منه اليوم .

ولكن الشعب العربي لم يكتف بعامل الطبيعة لانهما هذا الخلق فانه قد غذاه بالتربية ورعاه بالتفشئة . لقد سبق ان قلت ان الالهواء وان كانت تولد مع الانسان وتنمو فيه بنموه ولكن لعوامل التربية ، اثرأ كبيرا في توجيهها او تقويتها او اضعافها . فالفرد العربي ينشأ عقبه ومن كان في كفالاته على الروح الفردية ويحبب اليه عدم الانقياد للغير والتمرد والعصيان ويجد في كل هذه الحالات لذة عظيمة يرغب في هؤلاء الصغار ان يقاسموه فيها كما يجد فيها معالم الشرف ورسوم المجد ويحبب هؤلاء ان يتعلقوا بها وان يترينوا بمحاسنها . ان الفرد العربي يعتمد على قوته ويزهو بمحتدته ونسبه فهو يريد ان يبرز الجميع في ذلك فيعلم بفيه طريق المنافرة والمباهة ويطلب اليه ان يكون قويا في نفسه عظيما بديته سيداً في قومه . ثم انه لا أجل ان يكون سباقا في المكرمات مشاراً اليه في الملأت ، فانه يأتي بضروب البطولة ، والعجيب من الاعمال التي تؤيد بطولته ، وتثبت كرمه وسخائه . فمنع الجار ، ورعاية حقه ، والذود عن شرف قبيلته والذب دون عصمته ، والسخاء والبذل للمستضعفين ، والتجدة للمستغنيين كل هذه طباع تكاد تكون عامة لكل فرد منهم . لذلك اذا نشأ في القبيلة شاعر أو خطيب أو حكيم تباشرت بهم وعقدت لهم حفلات الانس والفرح ، واذا اظهر فريق من ابناء القبيلة ضروبا من الشجاعة ، وجاد بمحمدة ، أو قام بمأثرة هتفت له القبيلة وحاطته بأنواع الرعاية والعناية . وأخذت السنة القوم تلهج بالحمد والثناء ، ومجالسهم تقناقل مأثره ومحامده . فالتربية التي تقوم على هذه الانس من شأنها ان تقوي تلك الروح الفردية فتكون حادة عنيفة لانها طبيعية في الانسان أولا ثم انتمها البيئة ثم عززتها التربية

صحيح ان الشعب العربي ، لم يعيش جميعه في شبه الجزيرة بل ان فريقا كبيرا منه كان قد تغفل في البلاد المصاوبة - كبلاد الهلال الخصيب العربية - وان في هذه البلاد ، أسبابا كثيرة للثبات والاستقرار التي تغري الانسان وتدعوه الى ان يبني فيها مساكن دائمة ثابتة ، وان ينزع الى الحضارة وان يعود النظام والطاعة ، وما الى ذلك من بوائت المدنية والحضارة واسكنه بالرغم من كل ذلك فقد ظلت فيه الروح القبلية تستعر في نفسه والسبب في ذلك انه كان في تربيته محافظا ، وعلى فرديته حريصا . وبلوح لي ان مؤلف كتاب تاريخ اللغات السامية القيم الدكتور «اسرائيل ولفسون» لم يعد الحقيقة حين قال ان الشعوب السامية تتميز في كثرة ملوكها وانقسام شعوبها الى درجة هائلة . ان هذه الملاحظة ، انما هي ملاحظة قوية وصحيحة فاذا نظرت الى اليمن مثلا ، - وهي الموطن الوحيد في الجزيرة الذي كان يمكن أن تقوم فيه حكومات منظمة - لوجدت فيها مئات الأقيال مبغضين هنا وهناك وكذلك اذا دقت في حالة فلسطين لرأيت فيها كثيرا من الملوك الضغائن المتباغضين المتنازعين ولا اجد سببا لهذه الظاهرة العامة التي لاحظها الدكتور اسرائيل الا هذه الروح الفردية التي تطلب العلى وتدفع بكل فرد منهم الى ان يكون ملكا او اميرا . واذا كنا نشعر بأثر الفردية في نفوس هؤلاء الذين سكنوا الحواضر فما بالك بالفردية التي تتقمص الافراد الذين لم يتفكروا عاكفين على الحياة القبلية؟؟ لماذا ظلت هذه الروح قوية وحادة في قوتها ؟ لأن التربية العربية قدغذت الوسط بها وانمتها عوض ان تخفف من غلواءها وتكسر شررتها كما قلت آنفا . وانما التربية استمرت على قوتها في الحواضر كما لو كانت في شبه الجزيرة ، لأن هؤلاء الذين نزحوا عن اوطانهم الاصلية ، واستقروا في هذه الحواضر ، لم يقطعوا صلاتهم بوطنهم الاصيلي ، ولم يبتعدوا عن قبائله بأرواحهم ، وان كانوا بأجسادهم عنها

بعيدين . انهم ظلو ينظرون الى تقاليد وعنعنات وطنهم الاصلي كمثل عليا لهم من واجبه ان يترسموا مبادئها ويتبعوا قواعدها . وفي الحق ، انه لم يكن بالمستطاع ان يقطعوا صلاتهم بوطنهم الاصلي او ان يتعدوا عنه بأرواحهم لأن الاختلاط ظل على قوته ولأن ليس هناك حواجز طبيعية تمنع هذا الاختلاط . فالذي يخرج من الحيرة او من الشام او من فلسطين يستطيع ان يصل اليمن او الحجاز او يسوح في الدهناء وعسير ونجد بكل سهولة وأين ما يحل رحاله يجد قوما يتكلمون لغته ويتخلقون بأخلاقه ويصل وياهم الى ارومة واحدة او الى جد واحد ، فكيف يتعسر الاختلاط ويصعب الامتزاج ؟ وفوق كل ذلك ان العرب الذين سكنوا الحواضر وأقاموا في فلسطين او في الشام او في الحيرة لم يبين منهم الدور الثابتة والمساكن المستقرة الا الخاصة . واما الكافة فقد ظلت تستمكن بيوت الشعر والخيام وترعى الابل والماشية وتنتقل من مرعى الى آخر ومن ماء الى غيره لأن العادة التي اعتادوها وهم في شبه الجزيرة قد لازمتهم وهم في خارجها .

وليس من شك في ان حياة الحضارة قد أثرت في فريق العرب الذي كان قد تعودها واستساغها ولكن هذا التأثير كان ضعيفا لم يسيطر على الالهواء والميول الحادة في هؤلاء ، كحب الاستقلال الفردي والتنافس في الشرافة وعراقة المحتد ، والعصبية للقبيلة والعشيرة . فقد ظلت هذه الالهواء والميول قوية في عرب الحواضر كقوتها في عرب الأرياف والصحاري والبواري . ولما كانت طبيعة هذه الالهواء والميول ، تناقض النظام والطاعة ، والاستقرار والثبات ، وتنمي روح التفرقة والتشتت ، فقد كان العرب لا يملكون حريتهم في البلاد التي نزحوا اليها كالشام وفلسطين والعراق حيث كانوا تحت اشراف وسيادة الاجنبي بل ان اليمن وقد كانت مهد العروبة وموطن العرب الاصيل فانها قد وقعت صريعة تحت أقدام الفرس . صحيح انهم كانوا يملكون شيئا

من الحرية واسكن هذه الحرية تكاد تكون معدومة وفضلا عن ذلك فانها كانت في مقام الشيء المستعار متى ما اراد الاجنبي ان يسترده استرده . واذا كانت او اسط شبه الجزيرة وشمالها قد بقيت في نجوة من السلطان الاجنبي فانما كان ذلك لانها بلاد قفراء لا تجذب اليها الرغبات ، ولا تتحلب لها اللهاة . فالحقيقة المرة التي يجب علينا ان نعترف بها هي هذه . فبسبب نجاة صميم شبه الجزيرة من الاحتلال الاجنبي لم يكن قوة العرب وانما جدوب التربة وفقر المحيط . واما المواطن العربية التي فيها خير وبركة ، والتي كان فيها مطمع فقد دخلت تحت نفوذ الاجنبي فاليمن كانت تحت سلطان الفرس والشام وفلسطين وما اليها فقد كانت في قبضة البيزنطيين والعراق وحواليه كان تحت نفوذ الفرس . وكما ان الفرس والبيزنطيين كانوا يدفعون بعرب العراق ، وبالعرب الشام الى ان يقتلوا في سبيلهم ولقائدتهم ، فقد كان عرب شبه الجزيرة البعيديون عن السلطان الاجنبي ايضا غارقين في الدماء الى الانذقان واذا تحريت أسباب سفك هذه الدماء الغزيرة لوجدتها تافهة لا تعدو هذه الامهواء والميول الحادة العنيفة ، التي يمكن جمعها في كلمة الروحية الفردية .

وبينما كان العرب في الجزيرة يتخبطون في ظلماء الجاهلية ، طاع الدين الاسلامي بأنواره من افاق الحجاز الذي لم يكن يعرف يوما من الايام ما هو السلطان الاجنبي وما هي آلامه وأوجاعه . وكان طبيعيا ان ينشأ مثل هذا الدين الحنيف المقدس لحرية الانسان ، والقائل بالانحلال الفاضلة والامر بمبادئ الانسانية الصحيحة من هذا القطر الحر ، لان الاقطار العربية التي كان يزاول فيها الاجنبي نفوذه وسلطانه ليس في وسعها ان تقوم بمثل هذه الحركة الانقلابية الحرة لمناقضتها لمصلحتها .

لقد جاء الدين الاسلامي بعبادة جديدة وبآداب جديدة ، وبأحكام للاجتماع جديدة . وكما انه حارب العبادة الوثنية بعنف وشدة فقد حارب كثيراً

من العادات السيئة ، والعنعنات والتقاليد القبيحة التي كانت وليدة الاهواء والميول الخطرة بعين العنف والشدة . فالقرآن الكريم اسقنكر العصبية الجاهلية وسفك الدماء المحرمة وندد بعادة المنابذة في الألقاب والمنافرة ، والمباهلة ، وجاءت سنة الرسول الاعظم موضحة احكام القرآن ، معيدة على الأذهان استنكار هذه الميول والاهواء الخطرة ثم قام من بعده خلفاؤه الاربعة يحاربون ما حارب القرآن والرسول من عادات وعنعنات وتقاليد . فترك العرب ما نهام عنه القرآن والرسول والخلفاء فاطاعوا ، وانصاعوا الى النظام واختفت منهم تلك الميول والاهواء التي كونت منهم تلك الطباع الخطرة ، والامراض الحادة . قلت اختفت ولم اقل ذابت او تلاشت ذلك لانهما عادت الى الظهور بعنف وقوة ولم تمر مدة طويلة على مجاورة الرسول العربي ربه . ومعنى ذلك ان الحماسة القوية للدين الجديد ، وانشغال القوم بالعبادة الجديدة ، وجهادهم في سبيل الله واءلاء كلمته كل هذه عوامل نفسية كانت قد ألهمتهم عن انفسهم ، وعن ميولهم واهوائهم القديمة . ولكن تناقص هذه الحماسة القوية بمرور الزمن ، قد فتح الى القلوب منافذ جديدة تسربت منها تلك الاهواء والميول وكانت تقوى وتشتد كلما بعد العهد واشتط . وهذه ظاهرة اجتماعية تسود المجتمعات البشرية كافة . فأن الحركات الانقلابية سياسية ، كانت ام دينية ام اجتماعية تصحبها دائما حماسة منقطعة النظير ، تلهم الجماهير عما كانت قد تعودت عليه من اهواء وميول ، وما كسبت من عادات وتقاليد وعنعنات . ولكنها تعود هذه الى النفوس بالتدرج كلما خفت حرارة الحماسة ، وبردت جذوتها . فالروحية الفردية ، التي كانت من أقوى مميزات العصر الجاهلي بدأ العرب يشعرون بقوتها وسلطانها ، في اواخر عهد الخليفة الثالث ثم اخذت طريقها في النمو والازدياد بتوالي الأيام ، وبفعل الأحداث والفتوح . وقد دلت الوقائع المادية على ان العرب يكونون قوة لا تقف في سبيلها قوة اخرى ،

إذا اتحدوا ، وتضامنوا ، وأحسنوا الطاعة وانصاعوا الى النظام ذلك ، لانهم فوق المزايا العظيمة ، — والتي هي كريمة في حد ذاتها — التي منحتهم اياها القدرة المبدعة فانهم قوم ذووا احساس دقيق ، وذكاء نادر . فاذا انضاف الى مزاياهم هذه الذكاء المشرق والاحساس الرهيف ، ومالوا بكليتهم الى النظام والطاعة جاءوا بالمبدع ، وقاموا بالاعمال الخارقة . وبالفعل انهم ~~كانوا~~ امبراطورية ضخمة مترامية الاطراف في خلال مدة اقل من العصر الواحد . واذا كانوا قد احتفظوا بسلطانهم في الشرق لمدة خمسة عصور كوامل ، وفي الغرب ثمانية عصور مع ان آثار الهدم ، بدت فيهم مبكرة جدا ، فسبب ذلك انما هو ناشئ من عظم الامبراطورية التي كانوا قد خلقوها ، ووسعة الممالك التي اجتاحتها .

وبعد كل ما تقدم يجوز ان نسائل انفسنا لماذا عادت فيهم هذه الروحية الخطرة التي سببت ضياع حريتهم مع ان الدين الاسلامي قد أمر بالقضاء عليها . ثم انهم رأوا فائدة أبطالها بالمسكانة العالمية المشرفة التي كانوا قد بلغوها ؟ . أما كان في مقدورهم ان يحافظوا على حالتهم الاجتماعية التي كانوا عليها في صدر الاسلام ؟ ...

يلوح لي انه كان في وسع العرب ان يحافظوا على حالتهم الاجتماعية الجديدة التي انشأها لهم الدين الجديد ، وكان في مقدورهم ان يصونوا مملكتهم الواسعة الجديدة لو انهم صرفوا عناية خاصة الى طرق التربية والتهديب وبذلوا جهداً معيناً ، في سبيل الاحتفاظ بالروحية الجديدة التي ألهمهم اياها القرآن وسنة الرسول وأعمال الخلفاء الراشدين .

قلنا غير مرة ان التربية لها أثرها الكبير في توجيه الأهواء وتنميتها . او اضعافها لذلك فقد كان لا كداب القرآن وحكمة الرسول و اخلاق خلفائه من بعدها اثرها الفعال في توجيه الأهواء والميول اتجاهاً صحيحاً . فقد نست

العرب التي آمنت بالدين الجديد احقادها وتركت شحنائها ومالت بكليتها الى النظام وركنت الى الطاعة . وكان كبيرهم يلقن ناشئهم ، وعلمهم يعلم جاهلهم الا آداب الجديدة هذه ، فما لبثوا زمنا حتى صاروا خلقا جديداً ، وقوما آخرين . ولما جاور الرسول ربه ، ارتفعت بعض الرؤوس في اقطار شبه الجزيرة تلك الاقطار التي دخلت فيها آداب الدين الجديد ، حديثاء وقادت فتنة الردة المعلومة ، ولكن هذه الفتنة الخطيرة لم تجابه من المؤمنين الا قوة مكنية مترامية ، فما كادت الاولي تقدح شررها ، حتى طمها سيل الثانية فقام عمود الدين بعد ان كاد يميل ، وآتت الآداب من جديد اكملها في جميع الاوساط العربية بعد ان اوشكت ان تقطع جذورها العاصفة . ثم استأنف العرب تأدية رسالتهم تحت الوية الخلفاء ، فكانوا في جهادهم برة اتقياء ، وفي تأدية الرسالة كراما أوفياء . ولو ان التزمية استمرت على الصورة التي قالت بها آداب الدين الجديد ، والتمسأة سارت وفق ما كان يأمر به قادة الدين الجديد ، اصغت النفوس ورقت الالهواء والميول ولساد العقل عليها وتحكم فيها . ولكنها ما هي الا ومضة من ومضات الدهر ، او خطفة من خطفات العصر حتى عادت العصمية الجاهلية في شكل اخر ورجعت تلك الالهواء والميول بصورة اخرى . فاخذت الروحية الفردية تعبت من جديد عبثها القديم في المجتمع العربي واوساطه وقام القادة والزعماء يدعون الامرة ويطالبون بالسلطان وكل منهم يزعم انه احق من غيره لأنه الصق رحما بالنبي ، اولائه كان اعظم بيتا في الجاهلية ، او لأنه أفضل أعمالا . اولائه اقدم اسلاما . فكان النزاع بين المهاجرين والانصار وكان الاختلاف بين اليمانية والمضرية ، وكان الخصام بين قريش وسائر المضرية ، ثم اشتد الامر واستغلق ، فقامت قريش تتفاضل فيما بينها ، بل ان الأموية والهاشمية اخذت تتناكر بل ان الهاشميين اخذوا يتفاضلون ويقتابذون فيما بينهم ولم تكن هذه الروحية تهيم على الافراد والكافة ولا

الامراء والقادة فقط ، وانما بلغت مجالس الخلفاء ، وأوساطهم ايضا . وما قولك في معاوية الذي كان أفضل خليفة بعد الخلفاء الراشدين ، واحلمهم واكيسهم والذي كان من المنتظر ان يكون هو أول من يشجب هذه الروحية ويدراها على النفوس ؟ انه كان من أشد النافخين فيها ، والمورين في زندها . واذا كنا نرى هذه الروحية حادة ، عنيفة في رجل الحلم والكياسة كمعاوية فهل نستغرب اذا لمسناها في غيره من الخلفاء والامراء والقادة ؟ ..

ان كتب التاريخ ، والادب قد عقدت فصولا خاصة لهذه المجالس والمحافل التي كان يعقدها إما الخلفاء وإما قادتهم وامراءهم يقتناظر فيها اليمانيون والمضربون ، أو المضربون وقريش ، أو الامويون وبنو هاشم أو الطالبيون والعباسيون . ويتلاحون ويتهاترون . فكيف تصفو السرائر ، وتتنقى القلوب وتنمو نزعات الخير ، وتضعف نزعات الشر ، اذا كانت الرؤوس والقادة ينزعون هذا المنزع ، ويسلكون هذه الطريق ؟ ..

قال معاوية لرجل من اليمن : ما كان أجمل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ؟ .. اجابه : أجمل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ولم يقولوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا اليه . قال الأبرشي الكلبي لخالد بن صفوان وهما عند الخليفة هشام بن عبد الملك . فآخرك . قال له خالد قل فقال الأبرشي وكان يمانيا ، لنا ربع البيت يريد الركن اليماني ومنا حاتم طي . ومنا المهلب بن أبي صفرة . فقال خالد منا النبي المرسل وفيما الكتاب المنزل ولنا الخليفة المؤمن . قال الأبرشي لا فآخرت مضريا بعدك .

نزل قوم من اليمن بهشام بن أخواله من كلب ففخروا عنده بقديعهم وحديثهم فقال هشام لخالد بن صفوان أجب القوم فقال يا أمير المؤمنين وما

أقول لقوم هم بين حائك برد ودانج جلد وسائس قرد ملكتهم امرأة ودل عليهم
هدهد واغرقتهم طارة فلم يقيم أيمان بعدها اليوم قائمة .

فماذا تترك مثل هذه المفاخرات ، والمشاحنات في نفوس الطرفين ؟ . وإذا
كانت تربية الملوك والأمرء على هذا الطراز فما أملك في تربية الطبقات
والجماهير ؟ . وكيف تكون وحدة ، وتكون طاعة ، ويكون نظام ؟ .

لقد ناظر عبد الله بن الزبير معاوية في مجلس حاشد فأخذ كل واحد
منهما يبين اسباب شرافته وفضله على الآخر ولم تعد مفاخرتهما ، ان يقول
أحدهما للآخر ان جدي خير من جدك وأبي خير من أبيك وجدتي أفضل
من جدتك وعمتي اكمل وخالتي أروع وأمي انقى في كلام كثير ، وهما من
قريش ، ومن الذوآبة من قريش . وكذلك أبو جعفر المنصور ومحمد بن
عبد الله بن الحسن الطالبي فقد كانت بينهما مراسلات أنطوت على المفاخرة
بالأجداد والآباء والعلماء والخالات والامهات مع ان كليهما هاشمي ، جدهما
واحد وبيتهما بيت النبوة . فلا المنصور يرى الطاعة واجبة عليه لمحمد ، ولا محمد
يرى الانقياد الى المنصور . ولو لم يؤد اثبات بعض هذه المفاخرات والمساجلات
الى الإطالة لاثبت قسما منها هنا ولكن قليلا كثيرا ، وكثيرها ممل وما على
القارىء إلا ان يرجع اليها في مظانها وما اكثر هذه المظان ؟ .

والآن ليدقق المنصف في هذا النوع من الآداب ، وفي هذا الطرز
من التربية فهل يراهما يتلائمان وآداب القرآن والتربية التي اقام قواعدها
الرسول الأمين ، وخلفاؤه الراشدون ؟ .

صحيح ان القرآن لم يفصل النظام الاجتماعي الذي يجب ان تكون
عليه الملة الاسلامية ، وانه لم ينص على الحدود والعقوبات إلا على أنواع
معينة واسكنه وضع أسسا سليمة لهذا النظام ، وزجر الناس عن التخلق
بالاخلاق الجاهلية . وكانت السنة النبوية مفصلة لهذه الأسس ، موضحة

لما استغلق فهمه على العامة ، كما ان في اعمال خلفائه الصالحين واعمال الجهرة الصالحة من اصحابه من مهاجرين وانصار ما يكفي من المبادئ والقواعد ، التي يجوز ان يقوم عليها اصبح نظام اجتماعي ، واحسن طراز للحكم ، واكمل نوع للتربية والتنشأة . وليس من المعقول ان يأتي القرآن على كل صغيرة وكبيرة تمس الاجتماع أو الحكم أو التربية لأنه كان للاسلام كالدستور للأمم المتحضرة اليوم ، وكان على رجال الحكم في الاسلام ان يتبعوا سنة النبي ومبادئ خلفائه الراشدين كأنها قوانين لا يجوز الخروج عليها ، إلا اذا تحققت في ذلك مصلحة عامة . ولكنهم تركوا كل ذلك ، عمداً أو خطأ واهملوا تلك المبادئ والقواعد ، ومالوا الى الماضي يسترجعون ذكرياته ، وينهشون عصبياته ويحيون اهوائه وميوله ، لاجل التفرد في السلطان ، والسمو الى السيطرة والنفوذ . واذا قلت قولي هذا فلا أعني به ان المسلمين اهتموا احكام القرآن بالمرّة أو انهم لم يتأثروا بادآبه وبآداب الرسول وخلفائه مطلقاً . فقد تغيرت فيهم كثير من الميول والطباع ، واختفت منهم أنواع من العادات والتقاليد السيئة التي حاربها القرآن والرسول ومن جاء بعده من الزعماء والقادة . ولكن هذه الميول والطباع ، وهذه العادات والتقاليد السيئة التي تناوّلها التغيير أو اصابها الاختفاء لم تكن تلك التي لها أثرها الاكبر في تقويم الخلق العام ، وفي تنقية الذوق العام من الاوشاب والادران . بل لعل هذا التغيير في هذه الانواع انما طرأ لأن القرآن وضع احكاماً تترك آثاراً مادية ضد من يرتكبها . ان عادة الوأد للبنات قد تركت . وهذه العادة قد حرّمها القرآن بنص صريح . فلماذا تركت هذه العادة ؟ ان الخوف من العقاب كان السبب المباشر لتركها . لأن قتل النفس المحرمة يستوجب القود ويستلزم القصاص . ان الاقتران بزوجة الأب بعد وفاته كانت عادة سيئة قد حرّمها القرآن تحريماً مطلقاً فتلاشت آثارها من الاوساط العربية . لأن من يقدم على هذه الموبقة كان

ينظر اليه نظرة احتقار وازدراء من جهة ويحرم ما ينتج منها من اولاد من الارث لانهم نتاج السفاح من جهة أخرى . على ان العرب لم يحفلوا من تركهم هذه العادة ، ذلك لان احكام الدين الجديد ، لم تضيق عليهم فقد جعلتهم في سعة من اللذائد الجسدية المشروعة حيث اباحت لهم تعدد الزوجات . ونهى القرآن عن الخمر والزنا والميسر وهذه عادات وان كانت مباحة في العصر الجاهلي ، ولكن لم يكن يأخذ بها إلا عرب الحواضر أما عرب البوادي وهم الاكثرية الساحقة فقد كانوا يشكرونها ويبتعدون عنها وهذا أمر طبيعي لان قوما يقدسون آباءهم واجدادهم ، ويعتنون بحفظ الانساب ويفتخرون بها ، يكونون بطبيعتهم بعيدين عن الزنا ، الفعل الذي يعث بصحة الانساب ويخلط الدماء . وكذلك احتساء الخمر ، والاعتكاف على المقامرة فلا يمكن ان يجد المهامر تعاف في مثل هذا القوم الذي يحرص على المروءة وكرامة النفس . فالعرب حين تركوا هذه العادات ، كان يباشروا منهم عرب الحواضر فقط وهم قلة لا وزن لها اذ اقيست بالاكثورية الساحقة المنكرة لها ، المستقيمة اياها . والحق ان احكام الدين الجديد ، وآدابه قد أثرت تأثيراً نوعياً في تهذيب الالهواء والميول ، ولقد كان تأثيرها في نطاق محدود ، ودائرة ضيقة . فأما الالهواء والميول الخطرة ، تلك التي تثير العصبيية ، وتنمي نزعة عدم الانقياد وعدم النظام ، وتقوي الروح الفردية فقد ظلت حادة عنيفة بل زادت حدة وعنفا بعد الاسلام لان ملك العرب قد اتسع ، والميل للامرة والسلطان قد نما وتضاعف في نموه بنسبة تلك الوسعة .

إن حب الاجلال هو نوع من الالهواء ، والالهواء بنفسها متغيرة لا تعرف الثبات . وفكرة النظام لا تنشأ من الحض فقط وانما تنشأ من الماران واستعراض المثل . والانسان تنصارع في داخله قوتان خطيرتان هما اللتان تسييرانه وهما اللتان تدفعانه الى الاعمال ، هما قوة العقل وقوة الالهواء .

فتمت تحمكت الاولى بالثانية وسيطرت عليها عرف بهذا التفوق والسلطان طريق
الفضيلة ومتى كانت الثانية هي الغالبة ركب الطريق الوعر ، وجاء بالمنكرات .
ذلك لأن الاوهاء قد تسقط في لحظة لأنها متغيرة ولكن العقل هو الذي يبقى
وحده مساويا نفسه دائما كما قال سينيكا (١) بحق . فبقوة العقل يستطيع
الانسان ان يدرك قيمة الفضائل وحدودها ، وبقوته يستطيع ان يميز الانسان بين
الافراط والتفريط . لذلك كان ارسطو لم يتعد الحقيقة حين وجد الفضيلة في اواسط
الامور . لأن العقل اذا تحكم هان عليه ان يهدي الارادة الى الوسط من كل
امر . فانتقاد بعض المدارس الفلسفية رأيه هذا بحجة انه مرن لا يبين بوضوح
معرفة الوسط في كل أمر انما هو انتقاد لم يقم على اساس صحيح .

فالعرب كانوا تحت سلطان حب الاجلال الفردي الحاد لذلك كان
غرورهم الشخصي او الفردي حاداً عنيفاً ، نفص عليهم حياتهم ، وافقدتهم في
كثير من الاوقات حريتهم . فظاهرة الفوضى الناشئة من عدم الطاعة ، ومن
الحرص على الاستقلال الفردي حرصاً جنونياً تسكاد تكون عامة في جميع
الاساط العربية ، جاهلية كانت أم مسلمة . والغرور الشخصي انتهى بهم
كذلك الى الاستبداد ، حين اقاموا الملك وشيده بعد تلك الفترة السعيدة التي
اشرنا اليها مراراً . وهذا مرض آخر كان له أثره الدامي في المجتمعات
العربية .

فبرغم ان الدين الجديد قد قال بالشورى ، وناهض الظلم والاستبداد
وبرغم ان سيرة الرسول ، وخلفائه الاربعة كانت تنطوي على اجلال الحق
والحرية ، فإن الحكومات العربية التي قامت بعد زوال تلك الفترة كانت
حكومات مستبدة على الاغلب . وهذه نتيجة طبيعية للروحية المغرورة .

« ١ » سينيكا فيلسوف روماني ولد في قرطبة بالأندلس وعاش في روما في القرن
الأول للمسيح وهو مرابي الأباطور نيرون وقد قتله نيرون ولم تشفع له فضاله عليه .

فالفرور الحاد يدفع بالمتغلب على الامارة والسلطان الى ان يركب كل صعب
لاجل الاحتفاظ بسلطانه وصيانة منفعة الخاصة

والطبيعة العربية النافرة من الاستسلام والاستخذاء لكل سلطة ،
الشغوفة بالحريّة المطلقة وعزة النفس ، هذه الطبيعة التي تأتي الانقياد
حتى للسلطان العادل ، والسيطرة الهيمنة لمجرد انها تحمي من الحرية الشخصية
كيف يتصور ان تنقاد بسهولة الى السلطان الجائر والسيطرة المستبدة ؟ . لذلك
كان العراك دامياً ، بين طبيعة الفرد العربي ، وبين طبيعة الاستبداد الذي
كان بطمع ان يفرضه المتغلبون على الامارة والسلطان وكان العنف والقلو
في الشدة من الجانبين ، من الجانب الحاكم ومن الجانب المحكوم . فالجانب
الحاكم كان يدرك انه امام قوة نفسية عنيفة لا يمكن ان تذال إلا في الامعان
في العنف والتغالي في الشدة والجانب المحكوم كان يشعر بحيف عظيم ان ينقاد
الى نظام ، وان يعطي طاعته راضياً مختاراً الى من ليس له حق السيطرة
والنفوذ عليه . وهذه الروحية هي التي تفسر لنا عهود الاضطراب ، التي مرت
بحياة الامم العربية ، بعد الاسلام . اننا اذا استعرضنا تاريخ الامم العربية
ايام عزها وسؤدها لم نجد فيها حقبة من الزمن خلت من الفتن والاضطرابات
وسفك الدماء ذلك لأن الروحية الفردية قد منعت عليهم الحياة المنظمة
والانقياد للسلطات أولاً وثانياً لأن الاستبداد الذي جنح اليه المتغلبون على
الامارة والسلطان قد ازاد في القوضى وأوغل في الشدة والعنف . فالملوك
أو الخلفاء أو ممثلوهم من قواد وعمال يتولون شؤون الامصار كانوا مطاي
الحرية في التصرف بأرواح الناس واموالهم ، فلا الأرواح كانت مصانة ،
ولا الاموال والحقوق كانت في أمان .

ادعى الزبير الخلافة واصطدم قائده بقائد الخليفة الاموي عبدالملك ابن
مهروان في الرعدة فهزم قائد ابن الزبير جيش الخليفة بعد ان قتل قائده فتحصن بمسماة

رجل ومم من اهل الشام على عمود الرينة وهو الجبل الذي عليها فأحاط بهم
عباس ابن سهل قائد ابن الزبير فطلبوا الامان . فقال انزلوا على حكمي فترلوا
على حكمه فضرب اعناقهم اجمعين .

قدم رجل من الثائرين على سلطان الخليفة ، الى الحجاج فقال له على
دين من انت قال على دين ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين فقال اضربوا
عنقه ثم قدم آخر فقال له على دين من انت قال على دين ابيك الشيخ يوسف
فقال والله لقد كان صواما قواما . خل عنه يا غلام ! فلما خلى عنه انصرف
اليه فقال له يا حجاج سألت صاحبي على دين من انت فقال على دين
ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين فأمرت به فقتل وسألتني على دين من
انت فقلت على دين ابيك الشيخ يوسف فقلت اما والله لقد كان صواما قواما
فأمرت بتخيلة سبيلي . والله لو لم يكن لا بيبك من السيئات الا انه ولد مثلك
اكفاه . . . فأمر به فضربت عنقه . ومات الحجاج فاحصوا من قتل
صبرا فوجدوهم مائة الف وعشرين الفا وعرضت السجور بعد الحجاج
فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين الفا لم يجب على واحد منهم قتل او صلب . وكان
الحجاج يعلن بغضاه لآبناء العراق ، والعراقيون كانوا يظهرون كرههم ومقتهم
الشديدين له . ولقد اراد ان يحج فاستخلف ابنه محمدا على أهل العراق ثم خطب بالاعراقيين
فقال يا اهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق اني اردت الحج وقد استخلفت
عليكم محمد أولدي وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله في الانصار فإنه
أوصى فيهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم وانى أوصيته ان لا يقبل من
محسنكم وان لا يتجاوز عن مسيئكم . ألا وانكم قائلون بعدي مقالة لا تمفعكم من
اظهارها إلا خوفا ، لا احسن الله له الصحابة وانا اعجل لكم الجواب ، فلا
احسن الله عليكم الخلافة وبرغم هذا العداء المتبادل بين الحاكم والمحكوم فقد
ظل الى آخره عمره حاكما على العراق . وخليفة المسلمين يرى بعينيه ويسمع
بأذنيه مقالة العراقيين بالحجاج وسيرة الحجاج معهم فلم يحل بينهم وبينه لأن

مصلحته كانت تقتضي ذلك .

غضب المهدي الخليفة العباسي على وزيره يعقوب ابن داود السلمي فآلقاه في سجن مظلم وصادر جميع امواله وأفراد عائلته المنقولة والثابتة ولم يخرج من السجن الا بعد ان فقد السجن نور عينيه وقد كان يعقوب من المع الاذباء وابرز الساسة في عصره .

وغضب الرشيد على البرامكة فقتل جعفرا البرمكي وسجن اياه واخوة جعفر وصادر جميع املاك وأموال البرامكة وكذلك غضب المتوكل على وزيره الأديب العربي الأكبر محمد ابن عبد الملك الزيات فقتله قتلة شنيعة وصادر جميع ما كان يملك .

اننا نكتب القلم اذا اردنا استعراض الحوادث المفجعة الفردية او الأجماعية التي صدرت عن تلك الإدارة المستبدة . وما كان يقع في الحكومة العربية القائمة في الشرق كان يقع مثله وأشد في حكومة العرب في الغرب . لم تكن هناك قوانين مكتوبة يعرف الفرد منها ما هي الاعمال الموجبة للعقاب وما هي المباحة ولم تكن هناك سلطة خاصة للتشريع ، ولا سلطة خاصة لتنظيم السلطة التنفيذية . كانت الارادة الكيفية هي التي تفرض حكمها . الخليفة مطلق الارادة ، عماله وولاته مطلقوا الارادة ، حياته وشرطته وحراسه مطلقوا الارادة . نعم ! كان هناك قضاة يحكمون بالقرآن وبالسنة ولكن الاتفاق التي تدخل ضمن صلاحيات القضاة وسلطانهم كانت محدودة . فالاعمال التي كانت تمس الأمن العام ، والنظر في الاعمال السياسية ، كانت في قبضة العمال والولاة وتابعة لارادة الخليفة . لذلك كانت حياة الافراد ، وانتزاع الثروات والممتلكات متعلقين بارادتهم الكيفية ، ومتوقفين على اشارة منهم .

ألا ترى الحجاج في لحظة يعني أحدهم من القتل ثم لا يحتاجه بالمنطق يعود فيضرب عنقه ؟ وجعفر البرمكي بينما كان في المساء مصاحبا للخليفة

أصبح معالقا رأسه وأوصال جسده في أماكن متفرقة في بغداد وأفراد عائلته في السجون وممتلكاتهم وثوراتهم منترعة من أيديهم ؟

واي ادارة يسودها نظام ، ويسيطر عليها قانون تيسح لا أحد الولاية أن يقتل صبرا من أبناء جلده مائة وعشرين الفا ، خلال مدة ولايته ويكون في سجنه أكثر من ثلاثة وثلاثين الف نفس لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ؟ . واي نظام هذا الذي يستسيغ ان يبلغ الجفاء بين الحاكم والمحكوم الى درجة أن يقوم الحاكم فيخطب أبناء البلد الذي يحكمه بمثل تلك العبارات القارصة ، المنطوية على الفظاظ والجلافة بسمع الخليفة وبصره ..؟

فهل ان العرب كانوا بدرجة من البلادة انهم لا يعقلون التنظيم ولا يدركون فوائده ؟ . ان الثابت غير هذا . الثابت ان العرب قوم أذكاء ألباء ، لهم عقول راجحة ، واحلام بعيدة الغور والثابت ايضا انهم ابدعوا حضارة وأقاموا مدنية تدلان على عبقرية وقوة ابداع . اذن فما هذا التناقض ؟ . الواقع أن تربيتهم كانت قائمة على تقوية وتنمية الروح الفردية ، التي كانوا يرون فيها مثلهم الأعلى ، ومستندة الى الغرور الفردي الذي كان من طبيعتهم اولاً ثم رأوا تقويته وتنميته كواجب عليهم ثانياً . ولما استفحل امره فيهم لم يقووا على التخلص من شروره والافلات من ويلاته فيما بعد . ولما تحون لهم سلطان في العالم ، مالوا الى الاستبداد لانه من النتائج المحتملة لهذا الطبع العام او الذوق العام . وانهم برغم اقامة حضارة ومدنية أفرغوا فيها نتاج قرائحهم الفياضة ، ومفاتيح ابداعهم وعبقرياتهم فقد ابتعدوا عمداً في السياسة وصنعة الحكم عن الاصول التي تنفس عن الحريات السياسية . انهم أخذوا من اليونان والرومان حكمتهم وفلسفتهم ، أشربوا روحهم في البحث عن الحقيقة ، أشاعوا في أوساطهم ومجتمعاتهم علومهم وفنونهم ثم أضافوا الى كل ذلك ، الطابع العربي والمسحة العربية وأوجدوا حضارة سميت باسمهم وأقاموا مدنية وسمت

بمبسمهم ومع ذلك فأنهم لم يأخذوا من أولئك شيئا مما له صلة بالسياسة وصناعة الحكم . لم يوجدوا سلطات للتشريع ولا للأدارة والتنفيذ ولم يقبلوا واحداً من الطرق التي كان يعمل بها اليونانيون أو الرومانيون في التصويت واحصاء الآراء ولم يخضعوا إرادتهم لنوع من القيود . هما كان شكلها ذلك لأن الآخذ بهذه الأمور مما يتناقض وروحيتهم ومما لا يتلائم وطبعهم العام ، وذوقهم العام . وهل يعقل انهم يدركون غوامض الفلسفة ويتغلبون على مشكلات المنطق ، ويهضمون دقائق العلوم والفنون ويعجزون عن ادراك الأصول الديمقراطية ، وكيفية جمع المجالس وانتخاب الأعضاء وسن القوانين ؟ ١ . اذن كيف أقاموا حضارة ومدنية في ظل الاستبداد وكيف ارتفع مستواهم الثقافي وهم على تلك الحالة التي كانت تسودها الروحية الفردية وعدم الاستقرار . . ان الاستبداد الوطني لا يمنع قيام حضارة ومدنية كما ان النضوج العقلي يجوز ان يكون في الحالة التي تسودها الروحية الفردية وعدم الاستقرار . ذلك لأن الاستبداد الوطني لا يقضي الا على النشاط السياسي وما يقتضيه هذا النشاط . وقد سبق لي أن أوضحت هذه النقطة حين بينت الفروق المميزة للاستبداد الوطني ، عن الاستبداد الأجنبي (١) . واكبر دليل مادي ينهض بصرحة قولي هو أن عهد الإصلاح أو عهد النهضة العلمية الذي قام في أوربة وأنتج هذه المدنية القائمة انما كان في عصر الاستبداد الأوربي ، اذن فقد يجوز أن تقوم حضارة في ظل ادارة مستبدة ولكنها تكون ذات حدود معينة وآفاق ضيقة وكذلك الحضارة العربية فقد كانت حضارة خاصة لا تنافسها الادارة المستبدة .

أرجو أن لا يفسر قولي تفسير أعاطفيا . اني اذا قلت ان ادارة الحكومات العربية التي قامت بعد فترة الخلفاء الراشدين كانت استبدادية ، فلا يعني هذا أنه

« ١ » هذا الموضوع قد بحث في اصول الكتاب الاخرى .

لم يأت خلفاء او امراء اقاموا منارالحق ، واقاضوا نور العدل او لم تقم فترات
كان يسود فيها نوع من النظام والاستقرار . فقد جاء خلفاء وامراء اخلصوا
في تأدية رسالتهم وكانت عهودهم كلها او اكثرها خيراً وبركة كما انه قد
قامت فترات كان يسود فيها نوع من النظام والاستقرار ولكن مع ذلك فإن
الوضع كان مستقبداً والحالة مضطربة . لأن قيام بعض الخلفاء والامراء
العادلين لا يغير الوضع اذا كانوا لم يتخذوا الأسباب المانعة اقيام الحكم
الاستبدادي من بعدهم . الا ترى ان روما القيصرية كانت ادارتها مستبدة وان
كان على رأس الحكم فيها امثال تيتوس وتراجان وانطونيوس ومارك اوريل
الفضلاء العادلين ؟ . ذلك لانهم وان عدلوا في حياتهم ولكنهم لم يضعوا
الاسس الثابتة المانعة لاستبداد من يأتي من بعدهم فكان أيامهم كانت أيام
هدنة في ظلال الادارة المستبدة . على أن الطاغية المستبدة قد يكف في
بعض الفترات من أيام حكمه عن الظلم والاعساف ويهادن شعبه . فحالتهم
كحالتهم سواء بسواء من حيث الحقيقة والجوهر وقد سبق لي أن عالج
هذه النقطة بشيء من التفصيل في الابحاث التي تناولها اصول الكتاب ويقال
عين القول في الفترات التي كان قد ساد فيها نوع من النظام والاستقرار

ولكن الاستبداد العربي هذا ، بقدر ما كان شراً على أبناء العرب والمسلمين
فقد كان خيراً على الامم غير المسلمة ، وعلى أبناء البلاد المفتوحة الذين كانوا
قد احتفظوا بأديانهم ، كالمسيحية واليهودية . لأن أحكام القرآن بحكمهم
كانت صريحة لا تقبل التأويل . فالخوارج حين كانوا يقتلون كل مسلم لا يقول
بقولهم ولا يرتأي رأيهم كانوا يحافظون على الطوائف غير المسلمة ويصونون
اموالهم وممتلكاتهم . وكذلك كان شأن الفاتحين العرب في معاملة الطوائف
غير المسلمة في البلاد التي كانوا يفتحونها . لذلك كان الفتح العربي هيناً ليناً على
أبناء البلاد المفتوحة وما كان مغالياً جوستاف لوبون حين قال لم يعرف التاريخ

فأرحم من العرب

وصفوة القول ان حب الا^جلال الفردي الحاد في العرب قد أنتج فيهم
الغرور الفردي وهذا الغرور الفردي منع عنهم النظام وحب اليهم عدم الا^جنقياد
لاحد منهم وبالتالي أدى الى تفرقهم واضطراب امورهم وفقدانهم حريتهم .
وان هذه النفسية المغرورة قد جعلت نظام الحكم فيهم استبداديا ، ولم يستطع
العرب ان يقدموا للانسانية حضارة ومدنية الا بقدر ما كان يتسع لها نظام
الاستبداد . وكان يجوز ان يخدموا الانسانية اكثر ويخلقوا مدنية أوسع
آفاقا وأغزر درأ لو كانوا قد تأدبوا بأداب القرآن وتربوا على المبادئ التي
تركها الرسول وخلفاؤه لهم وقضوا عن طريق التربية والتهديب على هذه
الروحانية او خففوا من غلوها على الام^قل . واليوم تقوم في سبيلنا هذه الروح
كعقبة كؤود لأنها لا صقة بالروح وتمترجة بالدم . . .

وقبل ان انهي البحث عن هذه العقبة الخطرة ، أود ان اقول على نفسي
سؤالاً ربما يتوارد على فكر كل من يقرأ هذه الملاحظات المتواضعة فأقول لماذا
هذه العناية المفرطة بهذه الروحانية الخاصة . والعرب كغيرهم من الشعوب
نهضوا وفتحوا الممالك واقاموا مدنية خاصة بهم وعاشوا ثم هرموا وشاخوا
وزالوا كما هرم وشاخ وزال غيرهم من الشعوب . فأين اليونان واين الرومان ؟
ألم يصبحوا من قصص التاريخ وألم تكن في هؤلاء هذه الظاهرة النفسية ؟
واي بشر يخلو منها وهي من الام^قهواء التي تولد معه . ولا تنزله الى ان
يوسد رمسه ؟ وهل من سبيل الى تغيير هذه النفسية في الشعب العربي بعد
ان رأينا عجز الدين الجديد عن تغييرها ؟

من حق كل عربي أن يقتبج عوامل اضمحلال العرب ، وأن يستقصي
العلل والأسباب التي أردت هذه الام^قمة الذكية القوية الى الهاوية . ولما كانت
الروحانية الفردية ، في طبيعة العوامل والأسباب التي هوت بها الى الحضيض

فقد أصبح لزاما على كل عربي ان يبحث طبيعتها ويسعى جاهداً ، لايجاد وسيلة تقضي على شرورها وتزيل أضرارها ومضراتها وتكيفها الى حالة مفيدة . نعم ان الائم كالأفراد تولد وتعيش أجلا معيناً طال او قصر ، ثم يدركها الهرم والشيوخوخة والموت . ولكن أليس في الامكان ان يؤخر أجل الهرم والشيوخوخة والموت ؟ . . . ان الفرد يستطيع ان ينهي أجله مبكراً ، اذا اراد ذلك . كأن يستغرق في اللذات الجسدية ويدمن استعمال المواد المخدرة ويهمل نفسه فلا يهتم بنفسه اذا مرض ، ولا يبالي اذا نام في العراء ، يطيل السهر ، لايقنأول الطعام الصحي ، او الغذاء السكافي منه لمحافظة الجسد على قوته . فكل هذه عوامل قد تسرع في حياة الانسان وتكون سببا لاقتطافها في ربيعها . وعكسها من شأنه ان ينظم حياته ويوفر اسباب الاطالة . والله عز وجل قد جعل لكل شيء سببا والائم ايضا قد يدركها الفناء وهي في مقتبل عمرها ، وقد يتأخر أجلها الى آماذ طويلة . وما دام في مقدور الانسان ان يراعي صحته ويتجنب موارد الخطر فكذلك في مقدور الائم ان تتجنب الاسباب والعوامل التي ادت الى اضمحلال غيرها ، وأن تبصر في امورها وتتقي مواطن الزل ، وتحتاط لدرا المفاسد عنها لئلا تضعف فيها قابلية المقاومة . وتكون عرضة للاختلاطات .

ان الائم لا تموت الا بعلم واسباب ولا تبعث وتحميا الا بعوامل واسباب ايضا ، هذه حقيقة مفروغ منها اذن فمن الواجب استقصاء جميع هذه العلل والاسباب والعوامل ، المؤدية بها الى الموت ، او المفضية الى القوة والحياة . نعم ! ان العرب كغيرهم من الائم انبعثوا وعاشوا وأدركهم الهرم والشيوخوخة ورقدوا كالأموات حينما من الدهر ثم بدأت علائم الحياة فيهم من جديد . ولكن ما بدأت حياتهم الجديدة هذه الا وشمنا بولدر الفناء والاضمحلال التي سببت هرمهم وشيوخوتهم ورقدتهم من قبل تلوح في

الآفاق من جديد فكيف لا يقلق من هذه الحالة من يتصل بهذا الشعب بوشيجة الدم ، ويرتبط به برباط الرحم ؟ .

ولقائل ان يقول ان العرب لم يهلكوا ويندثر مجدهم ، بسبب هذه الروحية الفردية فقط وانما تضافت عليهم عوامل ، واجتمعت فيهم أسباب واحدت بهم علل متنوعة كثيرة . وهذا حق وصواب لا غبار عليهما ولكن هذه الروحية هي التي انهكتهم وأضعفت فيهم قابلية المقاومة فلما ان تضافت عليهم العوامل الأخرى ، عجزوا عن المقاومة والقوا السلاح مستسلمين مستخذين . وانك ان دقت أسباب اضمحلال وفناء الامم ، او أسباب رقيها وعظمتها تجد اسبابا خاصة تتميز عن غيرها ، هي التي كانت السبب الاصيل للاضمحلال والفناء او للرقى والعظمة . فالباحثون انما يقتنولون تلك الأسباب الخاصة المتميزة عن غيرها ، ويجعلونها مدار تدقيقاتهم ومادة بحوثهم . فالرومانيون مثلا كانوا قد وصلوا الى الذروة في عظمتهم وكانت عوامل عديدة قد ادت بهم الى ان يدركوا هذه العظمة المنقطعة النظير ولكن على كل حال فان روحية الجندي القوية المشبعة بالنظام العمارم ، وبعدهم عن الترف والزينة كانا السببين الخطيرين المتميزين من بين تلك الأسباب التي سببت تلك العظمة . كما ان فقدان تلك الروحية وانهمار ذلك النظام ، واستغراقهم في الحياة المترفة كانا من الأسباب المتميزة في زوال تلك العظمة وتداعي صروح ذلك المجد .

ونحن لا نلام اذا اولينا عنايتنا الروحية الفردية الخطرة التي مزقت اوصال الشعب العربي قديما ، والتي اخذت تحطم معنويته ، وتهدكياته من جديد

قلنا غير مرة ان حب الأمتلاك ، وحب الأجلال ، وحب السيطرة انما هي انواع محببة من انواع الحب ، وانها أهواء نبيلة في حد ذاتها ، شريفة في غاياتها اذا اقتصر الانسان فيها واعتدل في استعمالها . وفوق ذلك انها طبيعية

في الانسان ليس في الامكان ولا من المصلحة تجريده منها بتاتا . فنحن اذا
نعالج هذه الناحية بالنسبة الى الشعب العربي ، فلا نقعد من وراء ذلك تجريده
منها وانما تكيفها وتهذيبها وتوجيهها اتجاها آخر يفيد ولا يضر ، هذا جل
ما نطمح اليه ونبتغيه .

ان الامم تسير بهذه الانواع الثلاثة من الحب . فهي تحب الامم تلاك
وتحب الاجلال وتحب السيطرة ولكن القليل منها ما يغلو بحب الاجلال
وحب السيطرة غلو العرب ، واذا كان فيها نوع من الغلو فلم يكن هذا الغلو
فرديا ومؤديا الى الفوضى وعدم الانقياد لسلطة معينة . ان اليونانيين ،
والرومانيين كانت فيهم روحية الاجلال القومي بدرجة قوية ، وانك اذا
قرأت تاريخ هذين الشعبين فلن تقع عينك إلا على مواقف رائعة ، ومشاهد
رائقة يتسابق فيها العظماء والكبراء الى التضحية في سبيل المجموع . كانوا
يعملون بنظام ، ويمجدون الطاعة ، ويميلون بطبعهم وغريزتهم الى الاستقرار
والثبات . لا يريد أن تأتي باسماء وحوادث جديدة ، لأن ما ذكر آنفا في
سياق الاحاديث ما يكفي لاثبات هذه الحقيقة . ويلوح لي ان العامل الطبيعي
كان اكبر عون لقذف هذه الفضيلة في ضمايرهم . لأن سكان المناطق الباردة
يكونون بطبيعتهم ميالين الى الاستقرار والثبات ، وبناء منازلهم بالحجارة .
وهذه الحالة من شأنها أن تكون فيهم روحا اجتماعية منظمة ، تخضع لسلطة
عامة ، وتنقاد للنظام وتمرن على الطاعة . وحتى ان البرابرة الشماليين « الهون »
حين تغفلوا في اواسط اوربة وجنوبها ، وتدخلوا في شؤون الامبراطورية
الرومانية الغربية ، كانوا يتميزون عن غيرهم بالطاعة الى قادتهم ، والانقياد الى
زعمائهم . فهذه الروحانية الطاعة للزعماء والانقياد للسلطات العامة ،
من شأنها أن تخلق في الفرد او بتعبير أصح تنمي فيه روح الاجلال ، القومي ،
او الوطني ، لا حب الاجلال الفردي او الفرور الفردي ، وتكون الروحانية

العامة ، او الطبع العام للامة ، الفناء في سبيل المجموع ، او الميل الى خدمة
 المجموع . واذا احسن التصرف في استعمال هذه الروحية تكون رحمة على تلك
 الامة وخيراً وبركة . ثم ان المدنية التي تنشأ عنها تكون مدنية واسعة الاتاق
 غزيرة النفع للانسانية . فالليونانيون كانت لهم هذه السجية لذلك كانت
 مدنيتهم شاملة ، والرومانيون كان فيهم شيء من هذه الروحية فكانت مدنيتهم
 تكاد تقرب من المدنية اليونانية . ولم يصب اليونانيون والرومانيون الضعف
 ويدركهم الانحلال الا بعد أن غلوا في روحيتهم القومية والوطنية غلواً كبيراً
 دفعهم الى الاعتداء على الشعوب الاخرى واغتصاب حرياتهم ، وكنوزها
 وسائر خيراتها . فالليونانيون عدا اراضيهم فانهم قد ملأوا سواحل البحر
 الابيض ، سواء مايقع منها في جانب آسيا ام مايقع على جانب اورية بالمستعمرات
 وكذلك الرومانيون في اواخر العهد الجمهوري فانهم قد استولوا على خير أجزاء
 المعمورة فكونوا منها امبراطوريتهم الضخمة ، فماذا انتج هذا العدوان ؟
 أنتج ان هذه الفتوحات قد درت عليهم بنعم لم يكونوا يحملون بها ، فمالوا الى
 الى الحياة المترفة ينغمسون في لذائذها ، وينالون من نعيمها وهنائها . وتركوا
 واجباتهم ، وأهملوا شؤونهم العامة . توزعت فيهم الثروات ، توزعها غير عادل ،
 فظهرت الفروق الاجتماعية بصورها الحقيقية فأخذت حروب الطبقات تشتد
 وتقوى ، فضاعت تلك الوحدة ، وتلاشى ذلك الانسجام الاجتماعي ، تعود
 القواد والولاة والجنود الذين كانوا قد عاشوا على حساب الامم المفتوحة على
 حياة البطر وعلى القسوة والصرامة اللتين كانتا وسيلتهم في حكم تلك الامم
 المغلوبة فلما عادوا الى اوطانهم الاصلية ، أشاعوا في أوساطها روحيتهم
 الجديدة فكثرت الانتفاضات ، وتزاحمت الجبهات على الحكم ، وتعددت
 الاحزاب واختلفت الميول والاهواء . كل هذه عوامل قوية كانت سببا
 لروال عظمتهم وسلطانهم ، وبالتالي اختفاء مدنيتهم ، فالغلو بالغرور الفردي

كما أنه يؤدي بحياة الأمم ، كما أودى بحياة الأمة العربية كذلك الغرور الوطني إذا استبد ووصل الى درجة العدوان على حريات الغير فإنه يورد الأمة حتفها . ان المفكرين مجمعون على أن روما لو لم تقبع خطى العوسع ، ولو انها بقيت على الحالة التي كانت قد رسمتها الجمهورية لها ، لاستطاعت ان تقاوم الزمن أمداً اكثر ، ولا نتجت مدينة أكمل وكانت عيشتها أفضل . وفي الحق ، ان تاريخ روما أبان عهدا الملكي ، وأثناء العصور الاولى لجمهوريتها التي اعقبت عهدها الملكي ، كان مليئا بالمواقف البطولية ، وذاخراً بالماثر الغراء ، وكانت الأمة تصطبغ بقوة واقتداراً .

فالغلو خطر في كل شيء كما اوضحت مرارا فكما ان الغرور الفردي مضر بالفرد ومجموع الأمة كذلك الغرور الوطني والقومي يكون مضرًا بمجموع الأمة اذا تجاوز على حريات الشعوب الاخرى ومنافعها . ولكن على كل حال فان الغرور الوطني ، او القومي هو اهن شر من الاول . لأنه لا يجهز على حياة الأمة وكيانها بسرعة وانما يمهأها الى اجل . فهو يقضى عليها بصورة تدريجية اولا وثانيا اذا انتهى الى نوع من الادارة المستبدة فيكون استبداده اخف وطأة بخلاف الغرور الفردي فإنه لا يمهأ الأمة ان تعيش طويلا ويكثر فيها الفتن والاضطرابات ثم انه اذا انتهى الى نوع من الادارة المستبدة فيكون استبداده قويا لا يقاوم ، ثقيل لا يطاق .

أمل !

فهل من سبيل الى تغيير هذه النفسية في الشعب العربي بعد ان رأينا ان الدين الجديد كان قد عجز عن تغييرها ؟ .. انى اقول نعم ! . وتوجد سبل كثيرة الى تغيير هذه النفسية لا سبيل واحد فقط . لأن ارادة الانسان لا تقهر اذا صممت على شيء . فمادامت الارادة بعيدة عن متناول اليأس والقنوط فهي قادرة على أتيان كل شيء . ولما اذا يمتنع التغلب على هذه النفسية اذا كانت هناك عزيمة ماضية ، و ارادة صارمة ؟ .. ان الارادة الانسانية استطاعت ان تزيل من الوجود ، او تلطف وتهذب اشد الطباع التصاقا بالنفوس ، وتزعزع اركان أقوى الانظمة في الحياة الاجتماعية . من كان يصدق قبل ثلاثة او اربعة قرون ان عادة الرق سيقضي عليها في وقت من الاوقات ؟ ومن كان يصدق ان نظام الاستبداد الذي استحكمت حلقاته واستفحل امره في المجتمعات البشرية ان ينهد يوما من الايام من اساسه ويهوى صريعا ؟ .. فكما ان الرأي في الغاء الرق كان يبدو شاذا وغريبا في تلك العصور فان الرأي بوجوده او امكان وجوده في المجموعة البشرية اليوم يبدو شاذا وغريبا . وكذلك النظام الاستبدادى وان لم يخف من هذا العصر تماما ، فان اكثر المجموعات البشرية الحرة قد اطرحته ونبذته وأخذت بأنظمة جديدة ملائمة فكيف حصل هذا التغير ؟ ...

ان الاستبداد مثلا كان قد استولى على اذهان الجماهير في العصور الخوالي بحيث ان كثيرين من المفكرين كانوا قد وقعوا في ودة اليأس من شفاء

الانسانية من بلواه ألا ترى كانوا حراً قديراً مثل « الفيهري » قد غمرته موجة قاتلة من اليأس حتى انه عاب على الناس المفكرين ، الازدواج لانه لا ينتج إلا أسارى ينضافون الى كتلة الأسارى المؤلفة منها المجموعة البشرية في ظل الإدارات المستبدة؟ (١) وكيف ينتهي به التفكير الى ضرورة الازدواج عن الازدواج اذا لم يكن اليأس قد اعتصره عصرآ ؟.. فلو لم يكن الازدواج أكان في مقدوره ان يطلع هو على الوجود ، فيشجب الاستبداد بعنف وقوة ويندد بحالاته ويصف طباعه ؟ ولو لم يكن الازدواج هل كانت الحرية تظهر بأنصار ابطال يذودن عنها ، ويعملون من أجلها ، كمنسكيو ، وجان جاك روسو ، وفولتير ، أو تفوز الانسانية بالعقول الكبيرة التي أسدت لها الخير الكثير ، كعقول اسحق نيوتن ، ولوفن هوك (٢) ، ورومور (٣) ولينزار (٤) وسيلانازاني ، وكانت وديكارت وهيكل ومم من اساطين العلم والفن وهؤلاء انما ولدوا ونشأوا وعاشوا وماتوا في ظل الإدارات المستبدة؟. فالحق ان اليأس ليس غيره هو الذي ساق الفيهري الى ان يقول قوله هذه ، ويرتأى هذا الرأي. على اني أقول اذا كان الاستبداد يزيد في شقاء الانسانية ، فعلى الانسانية ان تزيد في القسوة لتزيد في شقاء المستبدين . اني اذا اهلكتني الادارة المستبدة ظلماً وعدواناً ، فولدي الذي اعقبه هو الذي سوف يأخذ بثأري وثأر الانسانية من المستبدين الظالمين وان هو هلك فأولاده وعقبه .

« ١ » اقرأ كتابه « الاستبداد » فصل . « الزوجية والاولاد في ظل الإدارة

المستبدة » .

« ٢ » لوفن هوك ولد عام ١٦٣٢ ومات عام ١٧٢٣ من أول غزاة الميكروب وكان عضواً

في الجمعية الملكية البريطانية

« ٣ » عالم فرنسي ولد عام ١٦٧٢ درس الفيزياء والرياضة وبحث في الحيوان والنبات

وفي الكيمياء والصناعة وهو موجد مقياس الحرارة المعروف بأسمه

« ٤ » ولد عام ١٧٢٩ قس ابطالي . اثبت ان الميكروبات ككل الاحياء لا بد لها من

آباء . هند موته اوصى باهداء مثاقته الوبيثة لتجري عليها التدقيقات العلمية .

ان الامل في القضاء على الظلم والاستبداد ، يظل حيا مادام النفس قائما
ولا ينقطع الامل إلا اذا انقطع النفس ، وتناقضت المجموعات البشرية وانحصر
التوالد بالطبقات المستبدة . ماذا أفاد اليأس ديموستينيس (١) مثلا حين سم نفسه
أو بروتس حين انتحر ؟ لقد كان في وسع ديموستينيس ان يبقى على نفسه
ويناضل ضد اعتداء المقدونيين على أثينة ، وكان في مقدور بروتس ان يعيش
ليحارب انطونيوس أمداً أطول لعله يزعزعه عن مكانه وينقذ روما . نعم !
كان في امكانهما ، وامكان غيرهما من العظام الذين تولاهم اليأس فأضاعوا
حياتهم ، ان يبقوا عليها ، ليكافحوا ، ويناضلوا حتى اذا ما دنت ساعة الموت ،
تلقوه بصبر وشجاعة ورباطة جأش كما تلقاه سقراط من قبل .

وما تنفست الجماهير بروح الحرية ، واخصيت الارواح بالفضائل ،
واستبحر العمران وتقدمت المدنية إلا بجهود اولئك البواسل الذين تغلبت
ارادتهم على كل صعب ، واجتازت كل عقبة ونسوا اليأس ونبذوه ، وتدرعوا
بالامل وتسربلوا به . فليس من المتعذر أذن ان يوجه عامل التربية والتعليم الخلق
العربي العام ، توجيهاً آخر ، وان يكيف الروحانية في أبناء الشعب تكييفاً يلائم
الظروف التي يعيشون فيها اليوم .

ليس من شك في انه توجد كثير من الصعاب امام العاملين لتغيير هذا
الاتجاه ، ولتكييف هذه الروحانية ، لأن فعل مئات السنين ، واثار العصور
الكثيرة لا يزولان بسهولة ، ولا في زمن يسير ، ولكن ما دام الامل في النجاح
عظيماً ، فلا يجب علينا ان نقف خائرة قوا ، منهدة عزيمتنا . ان الشعب العربي ،

« ١ » خطيب آثيني أشهر بكفاحه ضد فيليب المقدوني وله مجموعة خطب تسمى « فيليبك »

سم نفسه حين اجتاح الجيوش المقدونية آثينة .

« ٢ » بروتوس قاتل سيزار غضباً لوطنه روما . وهو الذي ارسل كلمته المشهورة بعد

اندحاره من قبل انطونيوس التائر بدم سيزار ، وحين اعتزم الانتحار « ابتها الفضيلة ..

ما انت الا كلمة جوفاء ... »

الذي هو شعب سامي ، اذا ابتعد عن الروح القبلية ، وتمشت فيه التربية على اساس آخر يناقض هذه الروح ، يتغير خلقه ، وتتطور روحية وباني بالحوارق فهو ليس شعباً جامداً لا ينزع الى التطور والتغير اذا توافرت اسبابها ، ونهيات عواملها . ان الشعب الذي اقام المدنية الاولى في التاريخ ، في بلاد الرافدين كان شعباً سامياً . وفوق ذلك ان العرب كانوا قد اقاموا مدنية رائعة ، ودولة ذات نظام في اليمن عرفت في التاريخ بأسم الدولة المعينية . وحتى ان الهيكسوس (العرب الرعاة) الذين اجتاحتهم مصر ، واقاموا فيها سلالتهن الحاكمة ما لبثوا ان امتزجوا بالمصريين ، وعرفوا النظام ومرنوا على الطاعة ، واستطاعوا ان يؤدوا الى المدنية خدمات جلى . وكانت مدة حاكميتهم فيها التي استغرقت عدة عصور حافلة باسباب الحياة ، زاخرة بروائع الفن ، وان اثرهم في الحياة المصرية كان قويا وظاهراً حتى بعد ان اختفى سلطانهم وانتهى نفوذهم السياسي في البلاد . لماذا حصل هذا التغير والتكيف ؟ حصل ذلك لان الشعب السامي ، حين تغفل في مصر وجد فيها تربة صالحة للثبات والاستقرار واقامة حياة تختلف عن الحياة القبلية التي من مقتضياتها التنقل ، وبمرور الزمن استطاع ان يكون ذلك النظام الاجتماعى البديع الذي تمتدح عن تلك المدنية الرائعة . وكذلك كان شأن من حل منهم في بلاد الرافدين . والعرب الرعاة الذين اخترقوا الحدود المصرية وان كانوا في مبدأ أمرهم بدوا لا يعرفون نظاماً ، ولا يدينون بطاعة لسلطة ما ، فقد أثرت فيهم الحياة المصرية ، والاوساط المصرية فتحلوا من عاداتهم البدوية ، وتحلقوا بالخلق الجديدة فأعادوا واستفادوا .

فلوقائع التاريخية تثبت لنا أولاً ان الشعب السامي بحملته ليس شعباً جامداً ، بعيداً عن التطور والتكيف ، وثانياً ان الشعب العربي الذي هو شعب

ساحي في الصميم ، لم يكن بأقل قابلية الى التغير والتكيف عن أخويه في مصر ، وفي بلاد الرافدين . فالمسألة انما تحتاج الى صبر وطول أناة ، ثم التثبت من صحة المبادئ التي تقوم عليها التربية ووسائل التعليم ليكون الاتجاه صحيحا والتطور ناميا ، ومتواصل النمو . وان المدنية القائمة وان كانت مرتكزة على روحية مادية جافة ، فقد هيأت وسائل وأسبابا تيسر كثيرا من الصعاب التي كانت تعانها الأمم في أيامها الخوالي ، في سبيل التربية والتعليم . والطباعة بتيسيرها الكتب والفشرات والرسائل قد جاءت بانقلاب عظيم في عالم التربية حتى ان كثيرا من الأمم لا يستطيع المرأ ان يجد فيها اليوم من لا يقرأ ولا يكتب . وما كانت الحالة تبلغ هذه الدرجة الرفيعة لو لم يكن هذا الاختراع في الوجود . فكثرة المدارس ، وبيوت الثقافة وسهولة الحصول على الكتب والفشرات والرسائل ، ثم سرعة توزيع هذه المواد الثقافية بين الاوساط كل هذه اسباب تعين الى حد بعيد على تذليل الصعاب . ويضاف الى ذلك دور السينما ، ثم الاذاعات الاسلامية . فهذه يجوز - اذا روقت مراقبة دقيقة واعتنى بأمرها - ان تكون أشد أثرا في تعميم الثقافة ، والبلغ مفعولا في توجيه الاهواء والميول الى الاتجاهات الصحيحة من المدارس نفسها . وهذه العوامل المنشطة الى العقول ، المقوية الى الارادات ، والمهذبة للاخلاق لم تكن متيسرة في السابق . فمن كل هذا نستطيع ان نقدر الى اية درجة قد تيسرت لنا الاسباب .

ان أول مهمة للقائمين بشؤون الشعب العربي في الاقطار العربية كافة ، ان يتقنوا القبائل العربية الكثيرة المنتشرة في الصحارى والقفار من حالتهم البدوية واغرائهم بشتى الوسائل ، بانشاء القرى والقصبات وتعويدهم على قبول الحياة المدنية .

والمهمة الثانية هي تكثيف الروح الفردية وتغيير اتجاهها من الناحية

الفردية الى الناحية القومية . واقامة السياسة التربوية على هذا الاساس . على ان لا تقصر المساعي التي تبذل لغرض هذا التوجيه الجديد ، على البيوت والمدارس ، وانما يجب ان تنفذ الى كل مكان . فاذا انجزت هاتان المهمتان بلباقة ومهارة أصبح من الميسور على الشعب ان ينهض بأعباء الحياة ، ويأخذ مكانه تحت الشمس كشعب له أثر في المجموعة الدوائية . فوسيلة الانقاذ اذن تقوم على أساسين الاول تحضير القبائل البدوية والثاني تغيير اتجاه الروحية الفردية الى النسانية القومية . كلنا يعلم ان الشعب العربي اليوم مجزء ومتفرق ولا تجمعهم راية ، ولا توحيد آراء بنيهم ، وافكارهم قوانين واحدة ، وانظمة متماثلة ، ولا تقرب بين آمالهم وامانيهم سياسة واحدة ، وحكومة واحدة ، ولا تلائم بين طباعهم واخلاقهم مناهج ثقافية ومبادئ تربوية متقاربة أو متناظرة فكل قطر كأنه يعيش في معزل عن اخيه ، ذلك لأن هذا الشعب الكثير النفوس ، العظيم الموارد ، المحتل اماكن شاسعة ، وممالك مترامية الاطراف خاضع لدول استعمارية ضخمة في قوانينها ، قوية في اسباب استعمارها ، صارمة في معاملتها ، قاسية في حكمها . وان هذه الدول تترصد حركاته ، وتترقب همساته ، وتتعقب أثره فهي تبذل كل قوتها ونشاطها لتحول دونه ودون اسباب الحياة ، ولتمنع عنه عناصر القوة والنشاط اتريل منه قابلية الانبعاث . ان هذه الدول ، مازالت بشق الاساليب ومختلف الوسائل دائبة على تنمية الروح القبلية فيه ليمبق على بداوته ، بعيدا عن الحياة المدنية ، وانها تسن مباشرة ، أو تضطر الحكومات المحلية الى ان تسن القوانين والانظمة التي من شأنها ان تقوى هذه الروح وان تباعد ليس بين الاقطار العربية بعضها عن بعض فحسب بل تباعد بين ابناء القطر الواحد ، والصقع الخاضع لحاكمية واحدة . وكذلك انها تفرض انظمة للتربية والتعليم ، تمت بواسطتها الضمائر وتشيع في النفوس الاخلاق المردولة ، والسجايا المستعجبة ، وتحذر الاعصاب

ونظيم المواهب والقابليات ، لتفتت العزائم وتتخاذل الهمم ، وتضمحل الحيوية والغشاطر . فالسيطرة الأجنبية التي استفحل أمرها في البلاد العربية كانت وما تزال العقبة الكأداء التي تعترض سبيلنا وتحول دون ما نبغيه . إذن فكيف السبيل الى تحقيق هاتين المهمتين الاساسيتين ؟ ..

ان الأمم التي تعتلج فيها قوة الانبعاث ، وتتعلم فيها عناصر الحياة ، قادرة على التغلب على كل ما يعترض سبيلها ان شاءت و ارادت . فوضع الشعب العربي لم يكن باكثر حرجا ، من الشعب البولوني . فهذا الشعب الاخير كانت تنقسمه ثلاث دول قوية الشكيمة محيطة به من كل جانب . هي الامبراطورية النمسوية ، والامبراطورية الالمانية ، والامبراطورية الروسية ومع ذلك فقد عمل لا نبعاثه ، وهياً اسباب نجاحه بوسائل كثيرة وانه فوق ذلك استطاع ان يحتفظ بكيانه ، ويصون تراثه خلال المئة والخمسين عاما التي قضتها تحت السلطان الاجنبي ولما افدت ساعة التحرير كوحدة سياسية مترامية فأنشأ كيانه وخلق نظامه السياسي ، فكان في الانشاء عظيما ، وفي نظامه بصيرا حكما . ان وجوه العمل ، واساليه قد تختلف في كل أمة بالنظر الى مستواها العقلي ، ومزاجها العام ، والظروف الملائمة لها . فاني اذ اقول قرلي هذا ، فلا أقصد به ان على العرب ان يسيروا على غرار البولونيين لان الظروف والمزاج العام ، والمستوى العقلي والثقافي كل هذه تختلف في الشعبين ، وتباين في المملكتين ، وانما اقول ان العرب يستطيعون ان يعملوا في سبيل حريتهم و خلاصهم بحماسة وأمل ، لان وضعهم ليس أصعب من وضع البولونيين أيام بؤسهم وشقايتهم .

اذا كان العرب لا يقدرّون على الغاء القوانين والامنظمة التي تفرق بين ابناءهم ، والتي تنمي الروح القبلية في القسم الاكبر منهم وتحقق العداوة والحزازات بين طبقاتهم ، بصورة مباشرة فانهم يقدرّون على اضعاف اثرها

ثم ازلتها من بعد ، باتخاذ وسائل تؤدي الى هذا الغرض عن طريق غير مباشر . ان العناية في تنظيم القرى والقصبات ، واصدار قوانين وانظمة تكفل هذا التنظيم انما هما عملان يحبطان مفعول القوانين العشائرية النافذة مثلا في العراق وسورية او المراسيم البربرية النافذة في صراكش او المراسيم المتعلقة بأدارة الواحات وغيرها في مصر . ان ظاهر القوانين والامانة المنظمة للقرى والقصبات وان كان لا يفيد الامانة على تلك القوانين والامانة المضرة ، فانه يطعن فيها في الصميم في الخفاء ، والدول الاجنبية المسيطرة لا تمنع المشاريع التي ترمي الى تأسيس القرى والقصبات . نعم ! يجوز انها تضع العراقيل في سبيل انشاءها او تنظيمها ولكنها على كل حال ، لا تجرأ على المجاهرة في محاربتها او اعلان سخطها على مثل هذه السياسية العمرانية بالنظر الى الاتجاه الذي اتجهت اليه الامم والشعوب في هذا العصر . على ان المهم هو ان الامانة التي تعمل لحمايتها وحريتها ان تتكفل على مؤسساتها الشعبية قبل كل شيء وانها في الوقت عينه لا تهفل عن الاستفادة من المشاريع الحكومية وتستغل اجرااتها فتأخذ منها ما يصلح وتذر ما يفسد ، ويضر . اذ ليس كل عمل حكومي شرا كله ولا كل مشروع ضارا محضا . فاذا كانت في كل مشروع او عمل حكومي وجوه تفيد غايات ومنافع الاجنبي المسيطر ففيم ايضا وجوه وجوه يمكن للاحرار الاستفادة منها لخير المجموع سواء كانت هذه الوجوه جاءت عمدا ، أم معصادة . ولرب رمية تكون من غير رام كما قال المثل .

طالبوليونيون الذين ذكرتهم انما عولوا قبل كل شيء على مؤسساتهم الشعبية ، ألا انهم لم يتركوا فرصة تمر عليهم من دون ان يستفيدوا من بعض الاعمال الحكومية لا غرضهم الوطنية . انهم حافظوا على موارد الاقتصادية واثروهم القومية فأنشأوا المصارف وبيوت المال على حسابهم ، وانهم احتفظوا بتقاليدهم وعنائهم القومية وروحيتهم الوطنية فقاموا بيوت التهذيب

ومدارس العلم والفن من امواهم ، انهم صانوا شعائرهم الدينية واخلاقهم فأسسوا الكنائس والصوامع والبيع بمجهودهم الشعبي ، انهم نظموا كياناتهم الاجتماعية ووجدوا تفكيرهم ، واتجاههم فأكثروا من النقابات الحرفية ، والجمعيات التعاونية والغرف التجارية ، وانهم ذبوا عن تراثهم الصناعي والفني فبنوا من خالص امواهم المعامل والمصانع ، والفوا الشركات وكانت كل مؤسسة من هذه المؤسسات وكل مصلحة من هذه المصالح ، تعمل بهدوء وسكون لتنمية الروح الوطنية ، وتقوية الاصل بالمستقبل فالتاجر كان يعمل لبو لونية ، والمدرس ، والراهب والصانع والعامل ، والملاك ، والزارع والمالي ، كل واحد من هؤلاء كان يعمل لحياة بولونية وحريتها في الدائرة التي كان يعمل فيها ، والمحل الذي كان يعيش فيه ولم يكن البولونيون وحدهم يقومون بهذه الاعمال الجبارة الوطنية وانما اكثر الامم التي نالت حريتها في العصر المتقدم وفي هذا العصر ، كانت تقوم بمثل هذه الاعمال وان المدقق لتاريخ الحركة البلغارية ، يستطيع ان يقتبس منه امثلة رائعة في البطولة والجهاد القومي قام بها رؤساء الكنائس والرهبان والقسس وهم رجال روحانيون يكونون عادة أقل ميلا الى الشؤون السياسية من سائر الطبقات ، فما قولك في غيرهم ممن كان اشد التصاقا بالسياسة منهم ؟ .

واذا كان العرب تختلف عندهم وجوه العمل ، عن هذه الاعمال فان الواجب يفرض عليهم الامتداء بالروحانية التي حركت هذه الامم الى العمل ، وانارت سبلهم اثناء الكفاح والجهاد . لذلك حتى اذا كانت الحكومات المحلية لم تقم بشيء فيما يتعلق بتنظيم القرى والقصبات ولم تسن لهذا الغرض القوانين واللائحة فبأمكن الشعب ان يحقق هذا الغرض بمجهودده وبماله . وكذلك في المدن ، والارياف في قدرته ان ينشئ بيوت التهذيب ومدارس العلم والفن ، وان يؤسس النقابات الحرفية والجمعيات التعاونية والغرف التجارية ، وان

يقيم المصانع والمعامل والمصارف وبيوت المال ، وان يجعل كل هذه المصالح والبيوت والمؤسسات كدور للتهديب الروحي ، والتوجيه الوطني . ان الحكومة وعماها ، لا يستطيعون ان يقفوا دون هذا النشاط الشعبي ، اذا صمم الشعب على هذا النشاط مهما كانت الحكومة متيقظة ، حازمة . لأن هذه الجهود انما هي جهود روحية ، فلا تستطيع ان تنفذ اليها قوات الدولة وحرابها .

كيف تستطيع الدولة ، ان تمنع النقابات ، والجمعيات والغرف او تحول دون انشاء المصانع والمعامل ، والمصارف ، او تحرم على الناس انشاء بيوت التهذيب ومدارس العلم والفن الاهلية ؟ .. ليس في امكانها ان تمنع مثل هذه المؤسسات عن مزاوله اعمالها الاقتصادية والاجتماعية . فاذا استغلت هذه المؤسسات اوضاعها القانونية وقامت بهذه الواجبات القومية فمن يجراً على لومها وتعنيفها من رجال الدولة وعماها ؟ . انى اذا لقنت ابنائى في البيت الروح الوطنية واشربت نفوسهم الفضيلة فهل من سبيل الى ؟ .. ان هذه الجهود الروحية ، ليست مادية حتى يعثر عليها من قبل السلطات الحكومية فتكون سببا للمسؤولية الجنائية او التأديبات العرفية انما هي تلقين آراء ، وتلقيح افكار ، واتصال ارواح وامزاج نفوس تحت ستار التنظيم الاجتماعي ، والاقتصادي .

ان العرب في حاجة ماسة الى انشاء هذه المؤسسات اولا لانها تنظم حيائهم الاجتماعية والاقتصادية وثانيا لانها تعودهم على الحياة المشتركة وتعينهم على تذوق النظام والطاعة وثالثا تبعث فيهم الميل الى العمل لخير المجموع وتوجه روحيتهم الفردية القوية ، توجيهها قوميا هو الغاية الاساسية من كل هذه الجهود .

انا ما زلنا فقراء في هذه المؤسسات . لانميل الى التعاون مع بعضنا ، ولا نرغب في الحياة المشتركة ولا نتذوق حياة الجمعيات ، والنقابات . واذا

اردنا ان نؤسس مثل هذه المؤسسات فسرعان ما نتصرف تصرفات من شأنها
 ان تلفت انظار الحكومات اليها ، فتسعى الى غلقها والقضاء عليها بأعتبارها
 خطرة على الأمن العام في نظرها . فعلى العرب اذن واجبان اساسيان الاول
 واجب السعى في تحضير القبائل الرحل ، لتهيأ للحياة المدنية ، ولتلقى مبادئ
 السياسة التربوية . والثاني اقامة السياسة التربوية في الاوساط على اساس
 توجيه الروحانية الفردية ، او الغرور الفردي ، الى روحية قومية ووطنية اي
 الى غرور قومي ووطني معتدل ، وتفهم الكافة ان الروحانية الفردية لا قيمة
 لها اذا لم تكن هذه الروحانية قومية ووطنية . وفي الحق انه من الحق ان يفكر
 الفرد بالغرور الفردي ، وأن يشمخ بأنفه اذا كان وطنه ذليلا وقومه يسومهم
 الأجنبي الخسف والهوان . ان البريطاني ، او الالماني ، او الروسي ، اذا
 تجاوز حدود بلاده وساح في البلاد الأجنبية ، يكون موفور الكرامة في اي
 محل استقر فيه ، او اية جهة قصد اليها ، ذلك لأن نفوذ دولته يظله في حله
 وترحاله ، وعز قومه يرافقه في غدوه ورواحه . فهو بنفوذ دولته وعز
 قومه ، يسير سرفوح الرأس ، عزيز الجانب واذن فهو يشعر بطبيعته بغرور
 شخصي بفضل الغرور القومي الذي هيأ لشعبه هذه المكانة الرفيعة بين
 الشعوب . بخلاف الذي لا ينتمي الى شعب محترم ذي مكانة مرموقة من
 المجموعة الدولية فهما كان مغرورا بنفسه ، مزهوا بحسبه ونسبه ، مدلا
 بثروته وجاهه ، فانه ان ينعم بوفور الكرامة ، ولا بعزة النفس ، ولا بأي
 أثر من النفوذ ، اذا اجتاز حدود بلاده ، وعبر الى بلاد الغير ، لانه محروم من
 ظل دولة يقيه العدوان ، فما قيمة غروره اذن وما هو أثر زهوه وادلاله ؟ .
 فالغرور القومي يأتي بالغرور الشخصي ولا عكس . وهذه حقيقة يدركها كل
 انسان مهما ضعف ادراكه ، وقلت ثقافته . وان انس فلا انس دمدمة
 الحكومة البريطانية وزجرتها حين تعرض بعض ابنائها في بلاد السوفيت في

عام ١٩٣٣ (١) الى بعض الاجراءات العارمة التي قامت بها الحكومة السوفيتية بحقهم . فمن أجل اشخاص معدودين ، كادت ان تحدث بين المملكتين فتنة عمياء . لولا ان تتدارك الحكومة السوفيتية الامر وتبدي بعض الرفق واللين بحق هؤلاء . فلو كان هؤلاء عربا مثلاً هل كانت الحكومة السوفيتية تأبه لهم . او تمسك عن اجراءاتها ضدهم ؟ . ان سياستنا التربوية يجب ان تقوم على هذا الاساس الصحيح : اساس الغرور القومي ، لا الغرور الشخصي الذي لا يحدى نفعا والذي ليس من ورائه غير الشر والاضرار المميتة .

ولا يصح ان يعترض على توجيهنا الروحية الفردية ، الى الروحية القومية باعتبار ان الروحية القومية ايضا تكون مخرطة ومضرة بالنسبة الى الايضاحات التي سبق سردها . لأن الروحية القومية لا تكون مخرطة ومضرة الا اذا تجاوزت حدودها ، ووصلت الى درجة العدوان على حريات الامم الاخرى ومنافعها . والعرب ليسوا في حاجة الى ان تبلغ بهم الحالة الى هذه الدرجة ، الى درجة الاعتداء على الغير ، لأنهم كثر في نفوسهم ، ولأن بلادهم غنية وزاخرة بالمواد الخام وواسعة . فهم ان احتفظوا بحرياتهم وسيادتهم في حدود مما لهم وأوطانهم كانوا اسعد شعب على وجه الارض ! .

(١) اشارة الى الاحكام المقايية التي اصدرتها المحكمة السوفيتية ضد بعض الفنانين الانكليز الذين كانوا مستخدمين لديها والذين اتهموا بجرائم التخريب والتدمير .

الأسباب الأصلية

في اخفاق الحركات العربية

ان الأسباب التي ادت الى اخفاق الحركات العربية كثيرة وقد يستطيع القارئ ان يلم بها اذا دقق ما جاء في البحوث السابقة بصورة عامة ، وما جاء في الصفحات التي تضمنت اخبارها بصورة خاصة . ولكننا على كل حال نستطيع ان نرجعها الى أسباب أصلية معينة .

١ — الروحية الفردية الحادة التي تقمصت ضمائر العرب ووجداناتهم .

لقد سببت هذه الروحية الخطرة ان يتنكر العرب بعضهم لبعض ، وان ينعدم الانسجام في اتجاهاتهم وتفكيراتهم ، وأن تختلف ميولهم واهوائهم فأخذ كل فريق ينقض ما ابرم غريمه ، ويهدم ما اشاده قريبه وهذه الفوضى الروحية قد استغلها الأجنبي المسيطر الى أقصى حدود الاستقلال ففرض على كثير من عناصر الحياة فينا .

ولو كانت رؤوس الجهات السياسية متفقة فيما بينها ، في الأهداف والاعراض — كان سهيل حياتنا السياسية اتخذ وجهة أخرى ، غير التي نحن عليها الآن . ولكن الغرور الشخصي أبى على هذه الرؤوس ان تتحد فإذا قام فريق منها بعمل في الحقل القومي وأصاب شيئاً من النجاح ، وقسما من رضاء الرأي العام ناهضه فريق آخر منها ومال الى الجهة المغايرة لاحقاً في ادلال شعبه ، وإضاعة حريته

واسكن انتقاما من ذلك الفريق الذي اصابه النجاح ، واحاطه الرأي العام بشيء من عنايته وعطفه ، وارضاه الغرور الشخصي . في كل شعب يوجد خونة ماديون وفي الشعب العربي ايضا يوجد من هذا الطراز السافل من الناس . واسكن المرؤة والحق ، بمنعانا ان نقول ان الذين قاوموا الحركات الوطنية ، كانوا كلهم من هؤلاء . بالعكس : فقد نستطيع ان نقول ان اكثر المقاومين كانوا من الذين سبقت لهم خدمات جلى للقضية العربية بصورة عامة ، واقضيا باقطارهم بصورة خاصة . وانما قاوموا وعارضوا ، واشتدوا في مقاومتهم ومعارضتهم ، بتأثير هذه الروح الفردية الخطرة ، وتحت ضغط الغرور الشخصي ان الهوى فيهم قد غلب العقل ، وان ميولهم النفسية أخضعت لها ارادتهم ، فنهجوا نهجا خسرت بسببه القضية الوطنية ، وفازت بفضلها السياسة الأجنبية الطامعة .

٢ - لم نحسن التصرف في انصالاتنا الخارجية ، ولم نتخذ التدابير الحازمة الحكيمة للاستفادة من المعونة الخارجية بينما كان في مقدورنا ان نستفيد منها استفادة عظيمة وقد اوضحت هذه النقطة في بحوث سابقة فلا وجه لإعادة النظر فيها .

٣ - فقدان المنظمات السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية . فحرماننا من المنظمات السياسية أو يجب تشتت اعمالنا السياسية ، واختلاف اهدافنا وغاياتنا القومية ، واضعاف جبهاتنا الوطنية . وخلق اوساطنا من المنظمات الاجتماعية والاقتصادية ادى الى انحلال معنوياتنا وروحياتنا والى انحطاط قوتنا المادية . وانعدام قابلية المقاومة فيما .

٤ - ان العالم الخارجي لا يعرف عن العالم العربي شيئا ، واذا عرف شيئا فانما قد تسرب اليه من الجهات المعادية للعرب ، او من الجهات التي لها

مصلحة في اظهار العرب على غير حقيقتهم وهذا النقص الكبير
ناشئ عن عجزنا عن اتخاذ التدابير الحازمة فيما له صلة بفن
الدعاية الذي اصبح في هذا العصر ، أهم الفنون وأعظمها وأخطرها .
ان الدعاية فن وعلى العرب ان يحسنوا هذا الفن ، ويلبوا بدقائمه ،
وأن يعملوا في حقها جادين غير هازلين . معتمدين على انفسهم
غير متواكلين .

لم اتعرض لذكر الأشخاص ، ولا لأنواع المقاومة التي لاقتها
الحركات القومية في كل قطر عربي لأن ما جاء في البحوث
السابقة ما يكفي لأجله القصد ، وايضاح المرام . ولعل هناك
اسبابا اخرى أقل أثراً ، وأهون مفعولا تعاونت على الأخفاق
والخيبة ولكن في ذكر المهم منها الكفاية وما أسعدنا اذا تمكنا
من القضاء عليها وحدها !!

طرق الخلاص !...

— ا — علينا ان نقضي قبل كل شئ على الروحية الفردية فينا كما قلت مراراً بالسعي في تحضير القبائل الرحل لتعويدها الحياة المدنية واعدادها لاسئساغة السياسة التربوية وببذل الجهود المشتركة في المدن والقصبات لنقل الاتجاه النفسى من الفردية الى الاتجاه القوي والوطني .

— ب — ان نقيم صلاتنا الخارجية على اساس متين وان نختار الحليف ، والصديق الذي نخف الى مساعدتنا ، اذا اضطررنا الظروف الى الانتفاض على القوة الأجنبية المسيطرة علينا . لان كل حركة انقلابية ضد قوة اجنبية متحكمة لا يكتب لها النجاح إلا بالمساعدة الخارجية .

— ج — علينا ان نجعل الأجنبي المسيطر قلقاً على منافعه المادية وسلطانته ونفوذه في بلادنا بدرجة تضطره الى وضع قوات كبيرة تكبده نفقات توازي أو تزيد على منافعه المادية التي ينالها من جراء عدوانه على حرياتنا السياسية وراثتنا القوي . ان هذه الطريقة تستلزم بذل تضحيات جمة مادية وأدبية من قبلنا ولكن علينا ان نتحملها مغتربين ونصبر عليها محتملين . لقد سبق لي ان اوضحت في مناسبات عدة ان أهم ما يرجوه المستعمر في هذا العصر ، ان ينال المنافع المادية من وراء استعمار له بلد ما ، فإذا اجبر على انفاق الأموال على قواته المسلحة ، ما يوازي المنافع التي يكسبها من

البلاد المقهورة ، او ما يزيد عليها فان رغبته في الاستعمار ،
فان رغبته في الاستعمار ثقل ولربما يضطر الى مصافاة الشعب
الشعب المحكوم ويتفق معه على شروط تكون في صالح هذا الشعب
نعم !.. يجوز انه يشتد في أول الامر في ضغطه في الشعب بقصد
اخضاعه واضعاف قابلية المقاومة فيه ويرتكب كثيرا من الجنايات
والاكتام واكنا يجب ان نؤمن ايماننا قويا بأنه كلما أشد في ضغطه ،
وأمعن في جناياته وآثامه يكون الا أمل في الخلاص والنجاة
كثيرا وعظيما . ان النظام الاستبدادي لم يمن بتلك الهزائم الحاسمة
ويتلاش أثره في كثير من الممالك والاقطار إلا بعد ان استفحل
أمره وثقلت وطأته على الناس . ولقد كان كثير من الأحرار
المفكرين ، يرون في اشتداد المستبددين على الرعية سبيل النجاة الى
الحرية بل ان غير واحد منهم (١) كان يعرض رجال السياسة على
اغراء المستبددين ليستبدوا على الرعية وليضغطوا على الكافة لتلتهب
النفوس وتضطرم الجوانح بروح الا انتقام واتمته على الصدور
بالحق والبرهان . لأن هذه الحالة مما تساعد كثيرا على خلق
الحركات الحرة والاندفاع في سبيل انقاذ الوطن من العابثين به .
فمن واجب العرب اذن ان يعملوا المستحيل لا جل ان يجعلوا الاجنبي
في بلادهم قلقا على مصيره مضطربا على منافعه ومصالحه وان يتقبلوا
بصدور رحمة ما ينزله فيهم من بلايا ومصائب .

د — ان الجندي ذات أثر خاص ، في تسهيل القيام بالحركات الوطنية في
المستقبل ، لأنها أولا تعود النفس على الحياة المشتركة وعلى النظام
والطاعة وثانيا تقرب فيما بين الافراد من الناحية الروحية وثالثا
تعلمهم كيفية استعمال السلاح على انواعه وتعودهم على تحمل المتاعب

« ١ » الفيه ري : كتاب الاستبداد

والمشاق . واثن كان تنفيذ انظمة الجندية تحت مراقبة الاجنبي والقيام بالواجبات الجندية وفق تعليماته ولكن على كل حال ان الغاية التي نرمي اليها تكون حاصلة بالضرورة . فالجندي الذي ينفذ الانظمة ويقوم بواجباته بأوامر الاجنبي او تحت اشرافه هو يتعلم استعمال السلاح حتما ، ويتعود على الحياة المشتركة وعلى تحمل المتاعب والمشاق بالضرورة ، وهذا كسب للقضية الوطنية . لان الامة التي تطمح الى الحرية والانفلات من نير العبودية يجب عليها قبل كل شيء ان تعرف كيف تستعمل السلاح وكيف تتحمل المتاعب والمشاق ولذلك سبق لي ان قلت ان ليس كل المشاريع الحكومية شراً محضاً ، فان كانت فيها وجوه ينتفع منها الاجنبي ففيها كذلك وجوه يستطيع الاحرار ان يستفيدوا منها اذا احسنوا التصرف واحكموا التدبير . وصفوة القول ان التشجيع على الانخراط في سلك الجندية ، واجب قومي سواء كانت الجندية قائمة على اساس الرضا والاختيار والتطوع أم على اساس التكليف والاجبار . انها تكون نافعة وضرورية للقضية الوطنية على الحالتين ولا يجب ان نكتفي بذلك وانما علينا ان نسعى الى ان ندخل الى المدارس نظام التدريب العسكري وان نشوق النشء كافة على الرياضة وعلى التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها بشتى العصور والاساليب .

— ه — ان للاذاعة اللاسلكية ، ودور السينما ، والتأليف والترجمة والنشر في الامة الحرة منافع لا تثنى بشئ ، ولها اثر في التوجيه الوطني لا يعادله أثر . لقد أصبحت الاذاعة أخطر دار للتهديب النفس ، والتثقيف العقلي ، وكذلك لما يعرض في دور السينما من رقوق ومناظر ذات موضوعات تهذيبية وثقافية أمسى لها شأن يذكر .

أما ما تنتجه الطباعة في ظلال الحرية الفكرية التي تتمتع بها هذه
الأمم من المؤلفات القيمة ، والنشرات النافعة ، والرسائل
المفيدة ومن صحف يومية وموقوتة قد جعل لها من
المكانة والتأثير في حياة الأمم ما لم تصل إليه الأنسانية
في عصر من عصورها التاريخية السابقة . فإن هذه الوسائط
الثلاث التي منها تستمد العقول نورها ، والنفوس أريجيتها في الأمم
الحرّة ، لا تشيع في أوساط الأمم المقهورة إلا الكآبة والظلام .
لأن الأجنبي المسيطر لا يروقه أن تبصر هذه الأمم النور ، ولا
أن تفتش نفوس بنيها بأريج المدنية وعطرها . فوسائل الخير هذه
في الأمم الحرّة لا تستعمل في الأمم المقهورة إلا للشر والأيذاء
الروحي . ولكن رغم كل ذلك فقد يستطيع الأحرار أن يستغلوا
للخير وإن يكافحوا سلطان الأجنبي ونفوذه في تدبير شؤون هذه
الوسائط والوسائل . إن اختيار الرقوق السينائية ذات الأهداف
الشريفة والموضوعات الوطنية ، والوقائع البطولية له تأثير كبير في
الروح الوطنية . إن محل هذه الوقائع وإن كان دياراً أجنبية ،
والقائمين بالروائع البطولية وإن كانوا أجنبان فإنها تعكس صورها
في نفوس النظارة وتحدث تأثيرها العميق في اتجاهاتهم الفكرية .
وكذلك ما يذاع من محطة الاذاعة ، وإن كان تحت مراقبة السلطة
غير المحببة فقد يجوز أن تدس الموضوعات المثيرة للشعور الوطني ،
من حين لآخر بواسطة الموظفين الوطنيين في هيئة الإدارة . وأما
من ناحية التأليف والترجمة والنشر ، فإذا عجز المفكرون عن نشر
آراءهم الوطنية بصورة مباشرة فإنهم يستطيعون أن يترجموا المؤلفات
الأجنبية المنطوية على الآراء الحرّة والموضوعات المنمية للروح

الوطنية وان كان مؤلفوها من رجال السلطة الأجنبية المسيطرة
لان المهم ليس المؤلفين وانما الموضوعات التي تشتمل عليها المؤلفات .
ان حركة مثل هذه في الترجمة والتأليف والفسر تأتي اكلها وتثمر
ثمرها الايجابي في اوساطنا ، فلا يجب ان تأخذنا العزة بوطنيتنا
ونهمل أمرها لكونها أجنبية عنا ، او لكون مؤلفيها من الامة
المعحكمة فينا ، والمذلة لنا . لاننا نريد ان نتمسك بكل سبب يؤثر
في روحيتنا وبوجهها الى الاتجاه الصحيح مهما كان مفشأوه
ومصدره .

— و — علينا ان نسعى بشتى الاساليب الى ان نكثر من الجمعيات التعاونية
والنقابات الحرفية ، والنوادي الثقافية . فلا يجب علينا أن نسكن
ونهدأ ونركن الى الراحة ونقول مادامت السلطة تحرم علينا
المؤسسات السياسية فانه من العبث أن نقشبث بمثل هذه المؤسسات
الاقتصادية والاجتماعية . بالعكس فان الاكثار من هذه المؤسسات
الاقتصادية والاجتماعية يؤدي الى عين الاغراض التي تؤديها
المؤسسات السياسية اذا كنا عارفين بواجباتنا ، مدركين مسئولياتنا
نحو وطننا . ان كل مؤسسة من هذه المؤسسات غير السياسية يمكن
ان تكون داراً للتهديب الوطني ، ومنهلاً عذبا يعترف منه النفس
وسائر طبقات الشعب . فهذه المؤسسات التي تكون بطبيعتها بعيدة
عن مراقبة السلطة ، لكونها غير سياسية ، ليس فقط تنظم صفوفنا ،
وتوحد ارادتنا ، وتهدينا الى مثلنا العليا ، فانها تكون سبباً لتوحيد
المساعي في مجالات الاقتصاد والصناعة ، والفن . وتفتح السبل الى
النفس . ليكسب رزقه من الحرف الحرة والصناعات . فلا يكون كلا
على خزينة الدولة ، فيركن الى حياة الوظيفة التي هي اشبه شيء

بالسجون المغلقة على من فيها . وكلما كان النشء بعيداً عن دور
الحكومة ومصلحتها ، قادراً على الارتزاق من مساغيب الشخصية ، ومن
جهوده التي يبذلها في المجالات الحرة تكون نزعة الوطنية اقوى
واشد ، واستعداده لمكافحة الظلم والعدوان اعظم واخطر . ان
الاجنبي يرى من مصلحته دائماً ، ان تكون المجالات الحرة في
الامم المقهورة ضيقة ، وان يجد النشء وسائر طبقات الامة
يلتمسون الرزق من خزانة الدولة ليحتفظ بسطانة في البلاد ،
وليدل على الناس بغيضه عليهم واحسانه اليهم ، وان كانت الخزانة
تملء من مال الوطنيين ، ومن عرق جباههم في الحقيقة .

— ز — علينا ان نعرف أنفسنا للخارج وأن نبرع في فن الدعاية وان
نرخص في سبيل ذلك المال والصحة والراحة

— ح — قلنا غير مرة ، ان الامم المقهورة وان كان واجبها الأول هو ان
تعتمد على المنشآت والمؤسسات الشعبية ولكنها في عين الوقت
يجب ان تستفيد الى اقصى حدود الاستفادة ، من اجراءات السلطات
العامة واعمالها ومشروعاتها وان تهتبل الفرص المواتية بلباقة
وكياسة . ومن جملة المشاريع الحكومية التي يساعد فيها الاجنبي
في هذه الأيام هو ما تهتمس به الأوساط عن اقدام الحكومات العربية على
مفاوضات يزعم انها ترمي الى تكوين الوحدة العربية (١) التي هي غاية
المخلصين من العرب اني واثق من ان هذه الحركة بقصد بها التلمية واشغال
الحواطر في زمن الحرب ، لا اكثر ولا أقل . والا فكيف تكون
وحدة وقضية الصهيونية لم تحسم . وكيف يتصور ان تنجح فكرة
الوحدة وفلسطين لا تكون جزءاً متمماً لها ؟ . وهل يعقل ان نقيم

«١» تمخضت هذه المجهودات أخيراً عن تأليف الجامعة العربية .

وحدة عربية تكون الصهيونية من جملة اجزاءها هذا اذا سمحنا
لفلسطين أن تدخل فيها على حالتها الحاضرة ؟ فالحق يقتضينا أن
نقول ان هذه الحركة ما هي الا تلمية في زمن الحرب والعبوة
تفشل فيها الأفكار والحواطر . ودع اعتقادنا هذا ، فلا ينبغي
أن نبخس هذه الحركة حقها ، ونعدمها قيمتها الاثنية . ان هذه
الحركة اذا لم تتممخض عن اتحاد عربي رصين ، فانها على الأقل
تبقى فكرة الوحدة العربية حية في النفوس ، ماثلة في الازهار
والحواطر ، وهذا كسب معنوي للقضية العربية . فعلينا أن نرحب
بها وان كانت تؤدي الى منافع ضئيلة ونتائج تافهة . فاذا حصل
انسجام فكري بين الاقطار العربية فهو كسب واذا أثمرت الحركة
اتفاقا على سياسة معينة للتهذيب والتدريس فهو كسب او اذا أنتجت
اتحادا كركيا وتعاونا اقتصاديا فهو كسب . ان حصص كل هذه
النتائج ، او بعضها او القليل منها فهو كسب أقل ما يقال فيه أنه يمشى
روابط ومناسبات واتصالات بين هذه الاقطار ، وانه يحى في
شخص هذه الروابط والمناسبات والاتصالات فكرة الاتحاد
ويحول دون اندثارها واندراس معالمها في النفوس

ان مجلس « الديت » الذي كان ينعقد في فرانكفورت للحكومات
الجرمانية لم يكن ذا أثر كبير في خياة هذه الحكومات ، بل كان هيكلا خاويا
لا خير فيه ولا نفع ولكن فائدته العظمى كانت في احيائه أمل الأمم الجرمانية
بالاتحاد في المستقبل . لقد كان نصيبا قائما يذكر المسؤولين في دنيا الجرمنين
بوحدهم واتحادهم في كل وقت وآن . واقد نالوا بغيتهم وامنيتهم حين قيض
الله لهم بسمارك فأقام الاتحاد الجرمني على الحديد والدم . . .

ان الاتحاد العربي الصحيح لا يمكن أن يقوم الا على الحديد والدم كما

قام الاتحاد الجرمنى من قبل بالنظر الى اختلاف المصالح او بتعبير أصح بالنظر الى التنافس الواضح أثره البين خطره ، بين زعماء الحكومات العربية وملوكها وامرائها . فالى ان يحين الوقت يجب علينا ان نركز نصبنا يذكرنا بالوحدة دائما ، وان كان أجوفا تنخور في جوفه الرياح
هذه جملة طرق مادية وأدبية يمكن اتباعها والسير في منعطفاتها نحو أهدافنا الوطنية ، واما نبينا القومية على وضوح النهار وشعاع الشمس . واما الأخرى التي تكثر فيها المزالق ، وتسودها عتمة السرية والخفاء فليس محلها ، السكيب والمؤلفات وانما الصدور ، والالسننة الهامسة ١١٠٠٠ .

٢٧ كانون اول ١٩٤٢

موضوعات الكتاب !

الصفحة	الموضوع
•	المقدمة
١٨	لمحات فكر وخطرات نفس
٣١	عوامل الخيبة
٥٥	الحق والعدل
٦١	ديمقراطيتهم
٨٤	الاستقرار الديمقراطية الفاضلة والديمقراطية الواعية
٨٧	التكوين السياسي
٩٥	التكوين الاقتصادي والمالي
١١٨	التكوين الاجتماعي
١٣٩	التكوين الدولي
١٣٩	أ — تمهيد
١٦٠	ب — تأليف الهيئة الدولية
١٦٦	ج — تعليقات
١٨٧	مناقشة خاطفة
١٩٢	عناصر الحياة في الأمة العربية
١٩٧	نحن والانكلز
٢٢٣	عمل متواصل
٢٢٥	أ — اتحاد المانية
٢٣٣	ب — اتحاد ايطالية

الموضوع	الصفحة
عقبتان	٢٤٥
العقبة الاولى	٢٤٦
العقبة الثانية	٢٦٣
تحليل و تمحيص	٢٧٩
أمل !	٣١٩
الأسباب الأصلية في اخفاق الحركات العربية	٣٣١
طرق الخلاص	٣٣٤

تصويب

الصفحة	السطر	المصواب
٣٥	١٨	رضمت حجارتها رضا
٣٧	٢٢	من درجة (ب)
		فالمستر اسكويث لم يكن وليام بيت
٤٨	١٨	ولويد جورج لم يكن غلادستون
٥٣	١١	لا ادري
٦٧	٦	مما كان عليه
٩١	١١	ينضمون الى
١٢٠	٢٤	اعجمي
١٢١	٢٠	لانها
١٦١	٢٣	التعريفات
١٦٤	٨	بقرارات
١٦٤	١٧	المتمردة
٢٠١	١٢	في الاجهاز
٢٠٥	١١	رضي
٢٠٨	٥	يتزعمها
٢١٥	٧	كان
٢١٦	١٢	قيادها

واقط سقطت بعض حروف الكلمات مما لا يخفى على القارىء.

الطيب .

العدد : ٢٥٠ فاسا يضاف اليه أجرة البريد

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 080195512